

ارض الأنبياء

مدائن صالح

تأليف
عبد الله فيلبي

ترجمة
عمر الديراوي

أرض الأنبياء

مدائن صالح

٢٧ / ٣ / ٦٧

أرض الأنبياء

- « وإلى ثمودَ أَخاهم صالحاً ... »

(سورة الأعراف ، الآية ٧٢)
(وسورة هود ، الآية ٦٠)

- « وإلى مدْيَن أخاهم شعَيباً ... »

(سورة الأعراف ، الآية ٨٤)
(قرآن كريم)

أرض الأنبياء

مدائن صالح

تأليف
سنت جون فيلبي

تعريب
عمر الديراوي

المكتبة الأهلية - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٦٢

١

ظللت طيلة الأيام القليلة التي امضيتهـا في المدينة المنوّرة منهمكاً الى أبعد الحدود في الاستعدادات الكثيرة للرحلة التي كنت ازمع القيــام بها . وهي الاستعدادات التي يتحتم على كل زائر لمدينة الرسول ان يجريها . ولم يكن ذلك السيد، الذي منحه الامير امتياز مرافقتي الى المدينة المقدسة ، ليسمح لي بأن اتجاهل هذه الحقيقة ، فقد تم تعيينه لمرافقتي والعمل كحارس لي . وكنت قد عرفته اثناء زياراتي السابقة الى المدينة المنورة .

كان الأمير يشيعني عند باب قصره عندما جــاء ذلك الرجل ليشتكي .. وكانت فحوى شكواه انني لا أهتم كثيراً بتأدية واجباتي الدينية،فلم يسع الأمير إلا ان يقرّ بأنني قد خرقت بالفعل قوانين البلاد . غير ان الأمر سوّي بسهولة ، فقد اكتشفت ان كل ما يريده الرجل ليس إلا النقود . ولم يلبث ان باركني بعد ان نقدته شيئاً منها وتمنى لو تتاح له الفرصة لأن يكون دليلي في المرة القادمة ، حتى يرشدني الى مختلف الاماكن التاريخية في البــلاد ، قائلاً ان ذلك يسعده ويثلج فؤاده !!

وبعد ان غادرنا المدينة من جهة « بوابة دمشق » وعبرنا خرائب مدينــة

يثرب ، العاصمة الأصلية لليهود ، مررنا بمنطقة غنية بأشجار النخيل ، تعرف باسم « العيون » Uyun . وتقع هذه البقعة في أقصى شمال منطقة المدينة . وكان جبل « أحُد » التاريخي ، ذلك الجبل الذي يقوم على احدى قممه الشاهقة أحد الأضرحة الكثيرة لهارون Haron ، يمتد الى يميننا . وكانت دوننا قلعة تركية مهجورة كانت ، فيما مضى ، تستخدم في المراقبة ، ويستطيع الناظر من فوقها ان يرى منظراً بديعاً للمنطقة يحيط به من الأمام ومن الخلف .

كان دليلي يدعى عياض Aiyadh ، وهو من بني رشيد (من قبيلة حطيمة) . وقد اصطحبته وأنا في طريقي لزيارة تلك القلعة التي وصلنا اليها عبر طريق شقها الأتراك للعربات . وكانت هذه الطريق تحاذي جبل أحد وتسير مع سفحه الى وادي (نجومي) Nujumi ، الذي يشكل في الواقع أول الوادي المعظم المعروف باسم « الحمض » al-Hemdh . ويمتد « الحمض » حتى يدخل في «عيون حمزة » التي تعتبر استمراراً لوادي «المقيق » ، ذلك الوادي الذي يبدأ أوله من جبال الطائف في الجنوب .

وفي الوقت الذي اضطجع فيه بقية مرافقيّ في مقاعدهم بالسيارات، توجهت مع عياض الى ناحية القلعة ، حيث قمت اثناء ذلك بدراسة المنطقة . وقد أثبت عياض بالفعل الماماً كبيراً بأحوال هذه المنطقة .

كان ضريح الرسول يقع الى الجهة الجنوبية الشرقية من المكان الذي نقف فيه ، ويبعد عنا مسافة خمسة اميال . وقد لاح مغموراً بذلك الطابع المألوف الذي يميز منطقة المدينة المنورة . وهو طابع لم اكن بحاجة الى التردد في معرفته واستبانة أمره .

والى أسفل ، وفي نقطة تقع تحتنا مباشرة الى الشمال ، رأيت النقطة التي يتصل فيها الواديان الكبيران ، وادي العقيق ، ووادي الحمض . ويمتد هذان الواديان شمالاً — بعد ان يحملا اسم وادي الحمض — حتى يبلغا البحر الاحمر في مكان يقع الى الجنوب من الوجه Wajh . والى جانب هذا الوادي من الناحية

الشمالية الغربية ، ترتفع ذرى جبل بيّاضة al-Baidha وهي ذرى من الفرانيت الرائع . وفي أعلى هذه الذرى يقوم خرطوم و ُقبّة كانت تدور حولها شائعات كثيرة ، تقول بأن تحتها شجيرة ُبنّ نبتت في غابر الازمان ، وما زالت خضراء يانعة ُتثمر كل سنة !

وفي أقصى الشمال كنت أستطيع ان أرى جبل «أبوخشب» Abu-Khashb وهو جبل أسود مرتفع كانت طريقنا ستمر منه . ولست أرى من الضروري ان اذكر بالتفصيل جميع النقاط التي كنت أراها من مكاني فوق القلعة ، وإن كنت قد سجلتهـا على الخريطة التي كنت احملها معي . وقد أثبت عياض كفاءته في معرفة دقائق المنطقة ، عندمـا دلني على وادي « نمرانية » ، وهو واد مليء بالمخطوطات الحجرية الأثرية ، وكنت قد اوضحت له اهتمامي بمشاهدة مثل هذه المخطوطات من قبل .

وعندما استأنفنا سيرنا ، سلكنا الطريق التي تقودنا رأساً الى وادي نجومي (الحمض) وذلك حتى مسافة عشرة اميـال ، حيث وصلنا الى نقطة غادرنا فيها ذلك الوادي في طريق تتجه شمالاً ، ومن ثم تنعطف شمالاً مع ميل باتجـاه الشرق . وكنا نسير في رحلتنـا هذه بمحاذاة جدول يمر بوادي « ممنـة » Mamna باتجاه الشمال الغربي ، في طريق غير ممهدة كانت تسير فوقها سياراتنـا بصعوبة شديدة ، نظراً لطبيعتها الصخرية ، مع ان عرضهـا يزيد على خمسمائة ياردة . وكانت هذه الطريق محفوفة من الجانبين بسلسلة من الجبـال تعرف باسم جبال « المُرَيخ » Muraiyikh وجبال « أم جُرفين » Um-Jurfain بينما كنا نستطيع ان نرى فوقها سلسلة جبال « أبو خشب » وهي ترتفع شاهقة فوق ما يحيط بها من أنجاد .

هذا وقد واجهت سياراتنا اثناء سيرها في هذه الطريق، التي لم يكن بد من مرورنا فيها ، مصاعب جمة ومنعطفات ضيقة،وأراض صخرية ، وحفراً رملية ، وغير ذلك من المشاق التي جعلت رحلتنا هذه في غاية الصعوبة . وقد ناضلنـا

نضال الأبطـال مسافة ثلاثة أميال في هذه الطريق الصعبة قبل ان نخلص الى طريق اكثر سهولة ويسراً . وهنا توقفنا لكي نلقي نظرة على المنطقة من أعالي وادي « ممنة » . أما قمة جبل « بياضة » فقد كانت تطل علينا من الجهة الغربية التي تميل قليـلا نحو الجنوب . وكانت أمامنـا سلسلة من التلال ليست بذات أهمية تذكر .

كان الوقت قد اصبح متأخراً في ذلك الحين ، فانصرف تفكيرنا الى ايجـاد بقعة تصلح لانشاء مخيم نبيت فيه تلك الليلة . وكنت اقوم بجولة في البقعـة المجاورة ، عندما بدّد صوت طلقة نارية ذلك السكون الشامل الذي كان يلف الجبال . ولم تمض إلا لحظات قليلة حتى برز امامي رجل من المرتفعات القريبة، فطلب الينـا ان نعينه في احضار وعل كان قد اطلق عليه النـار فأصابه . ولم يسعنا إلا ان نترك سياراتنا تقدم المساعدة المطلوبة ، ثم صعدنا الى أعالي وادي « ممنة » حيث ضربنا خيامنا هناك . وكانت خيامنا تطل على منحدر يؤدي الى شعب الرديدي Rudaidi أو (الفـُريش) al-Furaish . وهنـاك وجدنا الماء ووجدنا خربة .. أكواماً من الحجارة ، جمعهـا شخص ما لسبب غير معروف . غير انني كنت على يقين من ان هـذه الاكوام لم تكن قبوراً ، ولا خرائب لمنطقة كانت مأهولة .

ولم نكد نضرب خيامنا حتى عادت سيـارة « اللوري » ، وكنت قد أرسلتها مع الرجل الذي برز امامنا فجأة ، وهي تقلّ الرجل والوعل ..

كنا في حاجة الى اللحم ، ولذا فقد قررت ان اشتري الوعل منهذا الرجل، وعرضت عليه مبلغ عشرين ريالاً . وقد قبل الرجل هذا العرض على مضض، لأنه كان يعتقد ان بامكانهان يبيعه بضعف هذا المبلغ ، وربما اكثر من ذلك ، فيما لو استطاع ان ينقله الى « خيبر » .

ولشد ما كانت دهشتنا عندما رأينا ذلك الرجل يتجاهل عدم دعوتنـا له ويقرر قضاء الليل في ضيافتنا، ثم مشاركتنا في الوليمة التي كنا سنعدّها. ومـا

ان انزلنا الوعل من السيارة لنسلخه كي نعده للعشاء ، حتى اكتشفنا انه على الرغم من ان الوعل قد اصيب في أسفل عنقه ومـات على الفور ، فهو لم يُذبح استكمالاً لاجراءات جعله صيداً حلالاً . وعلى الأثر عقدنا مؤتمراً ضم جميع رجالي الجياع لندرس المشكلة . وانه لما يؤسف له حقاً ان قرار المؤتمر كان في غير صالحنـا .. لقد كان ينص على ان لحم ذلك الوعل حرام بالنسبة للمسلمين . وقد أثارني والله هذا القرار اثارة شديدة ، وخاصة عندمـا رأيت بأم عيني ان لحم الوعل قد القي بعيداً لتستمتع به الضباع ووحوش الفلاة ، بينما كان نصيبي منه رأسه وجلده لا غير !!

وقد أخبرنا الرجل الذي صاد الوعل انه أكبر وعل كان ضمن مجموعة تضم خمسة آخرين . وكان قرنه الأيسر من الطول بحيث يزيد على ثلاثة وثلاثين انشاً . والغزلان في هذه المنطقة ، أسعد حظاً من غيرها من الحيوانات ، اذ لا يمكن إلا للصياد الماهر ان يصيد أياً منها ، فهي سريعة العدو كما انها خبيرة بوسائل تفادي رصاص الصيادين . وانه لصيـاد سعيد الحظ من يقتل واحداً منها حيث يبيعه بسعر مرتفع . وقد اضطررنا الى تذوق لحم الوعول أكثر من مرة اثنـاء مرورنا عبر النجود المقفرة الجرداء التي تمتد من المدينة الى ما وراء خيـبر . ولاحظت ان سكة حديد الحجـاز تمر عبر هذه المرتفعات على مقربة من الخيـام التي ضربناهـا ، ومع ذلك فلم أسمع من قبل، ان أي اوروبي قد زار المنطقة الواقعة ما بين المدينة المنورة وخيبر ، وإن كان المرء لا يستطيع ان يجزم بأن بعض الجيولوجيين الأميركيين لم يزوروا هذه المنطقة البكر من المملكة السعودية .

هذا ، وقد تساقطت بعض الامطـار في هذه المنطقة في المدة الاخيرة . عرفت ذلك من ابتلال الأرض المحيطة بخيمنا ، كما عثرنا على تراب بلله المطر على عمق بضعـة انشات من سطح الأرض . وكذلك فقد أخذت السحب تتجمع فوقنا بعيد غياب الشمس ، رغم أن الهواء ظل ساكناً وإن هبّت نسمات قليلة منه شعرت بها ساخنة تبعث الصدر على الانقباض .

وقد أزعجني كثيراً نور المصباح الذي كنت أضعه فوق جهاز الراديو قرب فراشي ، لأنه ، بقــدرة قادر ، استحضر جميع الهوام والحشرات الموجودة في المناطق المجاورة لمنطقتنا . وقد رأيت بين هذه المجموعـــة الجرارة من الهوام والحشرات ، انواعاً غريبة لبعضها أفواه كبيرة ، واستطعت ان احصي اكثر من ثلاثين حشرة منها دفعة واحدة ، وكانت تتدافع حول المصباح وكأنمـا هي تتزاحم لتنتحر .

وقبل ان نستأنف سيرنا في الصباح ، قمت أنا وعيّاض بقضاء فترة من الوقت في التطلع الى مخيمنا من فوق قمـــة مرتفع قريب يعرف باسم «ضولو» Dhulu ، كما قمنا بدراسة طبيعة المنطقة المحيطـــة بنا . وكان جبل « بياضة » وجبل « ابو خشب » يحتلان المنطقة الواقعـة الى الخلف منا . ولم نكن ونحن في مكاننا الذي نقف فيه قادرين على رؤية سكة الحديد ، على الرغم من ان معـالم الارض التي يمر بها الخط الحديدي ، وتدعى « المليلة » Mulailih ، كانت واضحـة الى الغرب منا . وكنت قد زرت تلك المنطقـــة في سنة ١٩٣١ ، لكي أنقب في خرائب احدى المدن اليهودية الأثرية ، غير انني لم اكن لأذكر الكثير عن تلك المدينة التي كان يطلق عليها اسم « وادي القرى » .

وقد وجدت عندما تابعنا السير ان الآبار القليلة التي كانت في «وادي القرى» ما زالت صالحة ، وإن لم تكن آنئـذٍ تحتوي على أية كمية من الماء . ولو عمرت هذه الآبار ، لأمكنها ان توفر ريّاً كافياً لمنطقـــة لا بأس بها من الارض المحيطة بالمدينة (وادي القرى) . ولكن ، وأسفاه ، ان الحكومة السعودية تقتّر في الإنفاق على المشاريع لتطوير المناطق النائية فيها . لقد ظللنا نسمع التأكيد يتلو التأكيد ، خلال الثلاثين سنة الماضية ، بأن سكة حديد الحجـــاز سيتم اصلاحها وتعدّ لسير القطارات من جديد ، غير ان هذه التأكيدات لم تتحقق حتى الآن !! وليس من شك في انـه اذا تم تحقيق هذه التأكيدات ، استعادت ناحية « مليلة » مكانتها الملحوظة في بناء اقتصاديات المنطقة . ولربما تم الكشف

عن بعض الآثار المهمة المتعلقة باليهود في تلك الديار .

وفوق المكان الذي كنا نعسكر فيه ، كانت تنتصب سلسلة من الاهداب الصخرية تمر عبرها قناة القَرْشَه المتكونة من التقاء شعب الرديدي مع شعب «سيفير» ، والتي تسير شمالاً ثم الى الشمال الغربي، حيث تمتد مسافة قبل ان تنعطف نحو الغرب لتلتقي مع وادي « الحمض » عند « مليلة » . وقد واجهت سياراتنا صعوبات فائقة قبل ان نتمكن من قطع مسافة أربعة أميال لنصل الى مسيل « المدرج » Midraj الذي يمتد عبر اراض جرانيتية تنتشر فيها التلال . ومن بين هذه التلال تلة هي أعلاها، ويطلق عليها اسم «النحاسه» el - Nehasa . وقبل ان نصل الى هذه التلة ، انحرفنا عن شعب المدرج ، حيث مررنا بأرض صخرية يطلق عليها اسم « شعب الدارة » Dara لنصل الى « تلال الزريق » Zuraig الحمراء اللون ، حيث تتحول الطريق هناك الى ممر ضيق . وقد عرجنا إذ وصلنا الى هذه النقطة على مجموعة من الآبار تسمى « الاطباق » al-Atbag حفرت في أخدود صخري هناك . وكانت ضيقة جداً في بعض اجزائها ، كما كانت اجزاؤها الاخرى غير منحوتة بشكل هندسي . وكانت البئر الرئيسية بين الآبار الست الموجودة في المنطقة تحتوي على كميات من الماء على عمق خمس قامات . وقد علمت ان اصحاب الارض، وهم أبناء قبيلة بني رشيد، أعادوا حفر هذه البئر في العام الماضي ، حيث قاموا بتدعيم جدرانها ، عن طريق بناء حواجز من صخور البازلت ترتفع من قاع البئر حتى مستوى الماء فيها، كما حسّنوا الفوهة فجعلوها مستديرة يبلغ قطرها ياردة واحدة .

هذا وقد أفزع وصولنا الى ذلك المكان سرباً من غزلان الريم يتألف من ستة أو سبعة .. فتراكضت الى الشعاب المحيطة بالمنطقة ، مثيرة حولها عاصفة من التراب والغبار . ويبدو ان حضورنا الى المكان قد أفزع الغزلان قبل ان تتمكن من ورود الماء لتشرب كما اعتادت ان تفعل كل يوم . وقد لاحظت بعض النقور العتيقة في الصخور المجاورة ، وكانت هذه ممتلئة بالمياه ، غير انني

لم أستطع ان اجد اشارة واحدة تدلني على ان المكان كان منتجعاً معروفاً للقنص في يوم من الأيام .

ومن ثم عدنا الى سياراتنـــا ، فراحت تسير بنا ببطء شديد بمحاذاة نجد «زريق» Zuraig حتى نهايته الغربية ، حيث مالت بنا الطريق الى ممر صخري استمر حتى وصلنـــا الى شبكة من المسايل والأودية تؤدي الى وادي « لحن » Lohn . وفي هذا الوادي قررنا ان نبقى لقضـــاء ما تبقى من يومنا ذاك .

ويقع هذا الوادي في « حرّة خيبر » ، ويلتقي اذ يمتد ، بوادي شدّاد وبعض الاقنية الصغيرة التي تلتقي كلها في وادي « الفرشة » ثم تسير الى «مليلة» ووادي « الحمض » . ويمتد وادي لحن مسافة اثني عشر ميلاً بشكل غير منتظم لم أر له مثيلاً في جميع أنحاء المملكة السعودية . فعلى بعد ألف ياردة من المكان الذي دخلنـــاه ضاق الوادي الى نصف اتساعه الاصلي ، ثم لم يلبث ان اتسع فجأة حتى بلغ عرضه حوالي الميل أو أكثر . وعلى جانبي الوادي كانت تقوم طبقة مـــن الصخور البازلتية ، تتخللها قمم بارزة من اللافا يتراوح سمكها بين عشرة الى عشرين انش . وليست المنطقة قفراء لا عشب فيها ، فقد ظهرت بعض الشجيرات الجـــافة . وكانت كل الدلائل تشير الى ان المنطقة لم تشهد امطـــاراً ولا سيولاً منذ وقت بعيد . والسير في هذه المنطقـــة شاق بالنظر لما ينتشر فيهـــا من حشائش جافة وصخور مدببة الأطراف . أمـــا الأسوأ من تلك الطريق فهو ذلك المسيل الذي تجمعت فيه على مر السنين رمول الفيضانات التي كانت تحدث في المنطقة .

وكانت القمم الحمراء لجبل الشِميض Shimidh التي لاحظتهـــا من بعد وأنا ما زلت في وادي « الفرشة » ، ما تزال تبدو بعيدة جداً الى الامام ، رغم تقدمنا في تلك الطريق . وكنا نستطيع ان نرى جبل بيّاضة العالي ينتصب وراءنا . وهنا توقفنا قليلاً كي يصلي افراد الفريق الذين كانوا يرافقونني ، ولكي نقطع السير الطويل المملّ بعد ظهر ذلك اليوم الذي حفل بالكثير من المشاق والصعوبات .

ولما استأنفنا سيرنا لاحظت ان الوادي ينعطف شمالاً بمحاذاة سلسلة صخور « الراعيات » Raiyat القليلة الارتفاع . ولم يكن هنالك من أثر يمكن ان يستدل منه ان هذه السلسلة الصخرية موشكة على الانتهاء .

وقد أحس عياض بالنعاس ، وهو الذي أثبت كفاءة تامة كدليل يعرف المنطقة معرفة جيدة ، عندما وصلت سياراتنا فجأة الى لسان رملي عريض لم يكن من الممكن ان تجتازه . أما أنا فكنت مرهقاً بشكل فظيع . وقد لاحظت وجود مجموعات من القبور في تلك المنطقة تخص بعض الاعراب . وسألت عياض بشكل عرضي عن كيفية وجود هذه القبور في تلك المنطقة الموحشة ، فأنقذتني اجابته من كثير من الحيرة التي كنت أشعر بها .. لقد قال ، انها قبور أفراد من قبيلة « النمرانية » . ولم أنس حتى الآن الصورة التي قدمها لي عياض عن هذه القبور ، ولا الوصف الذي حكاه لي عن افراد هذه القبيلة ونحن نغذ السير باتجاه المدينة . ولما سألته لماذا لم يحذرني ونحن نقترب من المكان الذي توجد فيه هذه القبور ، لم يسعه إلا ان ينظر الي بدهشة ثم يسألني : أي مكان تقصد ؟ ثم لم يلبث ان أضاف بأنه لا يعلم بوجود أية منقوشات حجرية في هذه المنطقة . وقال ، انه لم يمر بهذه المنطقة طوال حياته ، وانني لا بد كنت أحلم وأنا أتصور المحادثة التي جرت بيننا حول قبور افراد قبيلة النمرانية سالفة الذكر !

وفي تلك الاثناء كانت سيارتنا الكبيرة قد تمكنت من تسلق التلال الرملية . وقد اقترحت ان نخيّم في هذه المنطقة حتى يتسنى لي متابعة البحث عن النقوش الحجرية التي قيل لي انها موجودة هنا بكثرة . وهكذا ضربنا خيامنا على حافة أحد المسايل ، رغم ان الوقت لم يكن متأخراً . وهناك وجدتُني انتحيت جانباً برئيس الحرس المكلف بمرافقتي ، وهو من افراد حرس أمير المدينة المنورة ، ورويت له قصة عياض معي ، وطلبت اليه ان يقوم بالتحقيق في صحتها أو عدمه . بينما واصلت أنا البحث في المنطقة المحيطة بالمكان الذي

كنا نخيّم فيه الى ان هبط الظلام .

أما لماذا كانت تلك القبور التي تبدو عليها الجِدة منتصبة على قارعة الطريق فأمر لم أستطع اكتشافه ، ولم يكن بذي اهمية تذكر . والغريب في الامر ان المنطقة التي ضربنا فيها خيامنـا كانت تشير بوضوح الى انها كانت في ذات يوم منطقة مفتلحة .. لقد كان جانبا الوادي مسوّرين بجدارين وسلاسل تمتد حتى مسيل « شعب نمران» الذي يطول حتى دلتا (أو بالحري ما يشبه الدلتا) هناك. وكانت الأرض حسنة التسوية ، قد خلت من الحجـارة ، وقسّمت الى قسائم . ولا شك في ان الأرض المفلوحـــة في تلك البقعة كانت على الضفة الشمالية لذلك الوادي . وكنت أستطيـع ان أرى هنا وهنـاك على المنحدرات الظاهرة في المنطقة ، بقية من الآثار (التي تدل على ان الموقع كان مأهولاً بالسكان) وبقايا بيوت يحيط بها سور ، ربما كان يستعمل في الماضي كخزان للمياه . ومن المؤكد انه لم يكن في هذه المنطقة مـا يوحي بوجود آثار ذات بال ، ولم أجد أية أوان فخارية ظاهرة يمكن الاستدلال منهـا على وجود الآثار ، وان كان من المحتمل ان تكون مثل هذه الاواني قد جرفتها ميـاه الفيضانات . وكذلك لم أجد أية نقوش من أي نوع كان، باستثناء بعض الشارات الخاصة بالقبائل التي قطنت تلك المنطقة . ولم تكن هذه لتشكل أية أهمية تاريخية أو أثرية . أما المقبرة الصغيرة الموجودة على جانب الطريق هنـــاك ، فمن الجائز ان تكون قد ضمت رفات عائلة أو عائلتين أرادتا الابتعـــاد عن بقية العالم . هذا وقد لاحظت ان القصر الطيني الذي كان قائماً في تلك المنطقة ذات يوم ، ما زالت بقايا بعض جدرانه ترتفع بضع أقدام . ويتألف ذلك القصر ، كما يبدو من بقاياه ، مـــن ثلاث غرف وساحة . ومما لا شك فيه ان هذا الطراز من البناء كان يمثل طراز السكن الذي استعملته العائلتان في تلك القفار الجدباء .

وعلى مقربة من المكان ذاته عند المنحدر ، لاحظت وجود بقايا بناية صغيرة يحيط بها سور تآكلَ حتى لم يبق منه الا النذر اليسير . وبالقرب من هذه البقايا

كان خزان للماء له فتحة يبلغ قطرها ١٢ قدماً . وقد وجدت ان جدران هـذا الخزان ما زالت قائمة ، وإن كانت قد تهدمت في بعض نواحيها ولم يبق منها الا اليسير . ويتراوح ارتفـــاع هذه الأماكن المتهدمة بين قدم واحد وثلاثة أقـدام .

هذا وقد استغرقت هذه الدراسات التي قمت بهـا للمنطقة كل ما تبقى من النهار في ذلك اليوم ، وبضع ساعات في صباح اليوم التالي قضيتهـــا في تفقـد المنطقة قبل ان نستأنف السير .

وقد حاولت ان استثير حماس دليلي علّني اخرجه عن الصمت الذي التزمه خلال اليومين الماضيين حول النار التي اوقدناها في المخيّم . وكانت امامي ثلاثة افتراضات لتفسير موقفه الغامض ، فهو إما ان يكون قد أراد ان يقدّم لي معروفاً في بداية رحلتنا ، فحكى لي بعض الذكريات الغامضة التي لا معنى لها عن الوشوم القبلية التي وجدناها في هذه المنطقة . وإما ان يكون قد حدّث رفاقه بمـــا يعرفه عن المنطقة ، فحذروه من ان يطلعني على ما يعرف خشية الاطالة في الطريق . وإما ان يكون قد خاف من الأشبـاح التي يؤمن السكان بوجودها في الخرائب الأثرية ، فآثر ان لا يخاطر بذكر أسرارها حرصاً على حياته ممـا قد يلحق بها من أضرار . ولم تكن هذه الخبرة بالشيء الغريب عليّ ،وخاصة عندما يسافر المرء مع اعراب جهلة يجعلهم جهلهم كثيري المخاوف والشكوك .

واني لأذكر حادثة وقعت لي بالقرب من الطـائف ، عندمـا أصر بعض وجهاء قرية صغيرة هناك على اصطحابي ذات ليلة الى جبل « قرنيط » . وهو ثاني ذروة من حيث العلو بين ذرى جبال الحجـاز . وفي صباح اليوم التـالي ، عندمــا اقتربنا من تلك القمة المزدوجة الرأس ، لاحظت ان ادلائي راحوا يتهامسون . ولسببٍ لم أتبينه، قادوني الى الذروه الأقل ارتفاعاً ، ولم يشأ أحد منهم ان يصغي الى احتجاجاتي على ذلك . وكان هنـــاك فارق طفيف في علو

الذروتين ، ربمـا لا يتجـاوز الخمسين قـدماً ، غـير ان فـرّق ادلائي من الصعود الى الذروة الأعلى، جعلني استنتج انهم ربما كانوا يخشون كشف أسرارها الى غريب ، أو انهم امتنعوا عن ذلك بسبب بعض المعتقدات الدينية .. وربما كانت الذروة الأعلى مكاناً لاحدى القبائل (غير الاسلامية) الوثنية كان أفرادها يذبحون فيه الضحايا لآلهتهم ! كما انه من الممكن أن يكون المكان ذا أهمية أثرية كبرى ، لست ادري . ومهما يكن من امر فان هذا اللغز لم يحلّ بعد، رغم مضي عشرين سنة على زيارتي لذلك المكان .

ووجدنا أنفسنا في منطقة من المؤكد أنها لم تكن مأهولة، شعرت فيها بشيء من التوتر في أعصابي . وكان من المؤكد ان عيّاض قد ارتكب خطأً فادحاً لا يؤهله للقيام بعمل شريف في المستقبل ، غير انه لم يبدِ أي أثر للندم لما أقـــدم عليه . ولم نكد نسير مسافة ميل واحد حتى رأيت نسراً يحلق فوق مرتفـــع صخري صغير يقع على حافة وادي « لحن » عند فم أحد الروافد الصغيرة، وهو شعب « أبو عِباه » . وقد طار النسر بعيـــداً عندما انحرفت بسيارتي باتجاه المرتفع الصخري ، على أمل ان أجد وكره . غير اني وجدت شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف عما كنت آمل أن أقع عليه . وقد بدت الحيرة على عيّاض، لانه لم يكن يتوقع أن يرى ذلك المنظر الذي طالعناه عند حافة المرتفع الصخري ! لقد وجدنا هياكل عظمية لجمال .. وكان بينهـا هيكل عظمي لرجل .. وآخر لوعل . وقد أخبرني عيّاض انه لم يسبق له ان رأى هـذه الهياكل العظمية من قبل ، مع اني كنت في حالة تشبه اليقين من أن هذه الهياكل العظمية هي السبب في تغير طباعه ..

وبعد مسيرة ثلاثة أميال في طريق وعرة، وصلنا الى أعلى وادي «لحن» الذي يبلغ امتداده مع « وادي شدّاد » عشرين ميلاً . وهنا كنا قد وصلنا الى طرف المنطقة البركانية الفسيحة والمشهورة تمامـــاً في « حرّة خيبر » . ومن تلك النقطة كنت أستطيـع ان أرى على بعد شاسع ، ذروة جبل بيّاضة ، وقد اطلق

الاسم على الجبل مجازاً اذ انه لم يكن أبيض ، بل أسود تماماً . ولربما كان الأمر من قبيل التسمية بالنقيض ..

ومن المحتمل ان يكون هذا الجبل قد استقبل في غابر الازمان زخات من الثلوج ، كست قمته بعمامة بيضاء ، وأكسبته اسم « الجبل الأبيض » . ولكن هذا غير أكيد .. وقد اقتربت منه وحينئذ أيقنت من سر تسميته بالجبل الابيض .. لقد سمي كذلك بالنظر لأن أشعة الشمس تنعكس على صخوره السوداء الناعمة فتشعّ بريقاً أبيض اللون يخطف الابصار .

وكانت الحرّة تبدو أمامنا بين الجبل الأبيض وبين المكان الذي كنا نقف فيه وتمتد الى الشمال والى الشرق والغرب ، بينما كانت تقوم خلفنا أرض منبسطة من الصخور البازلتية السوداء الممزوجة بالصخور الجرانيتية الحمراء ، وهي تلك الصخور التي كنا نسافر عبرها خلال اليومين الماضيين . وعلى طول جانبها الاقصى من الشرق الى الغرب كانت القناة الكبيرة التي تصب في وادي «الغراسْ» . وتتجمع مياه هذه القناة من مياه الامطار ومياه وادي «شقرا» ، وهو أحد روافد وادي « اَلحنَكيّة » ، وكذلك مياه وادي «سُويْدَرة » و « نُخيْل » . ويجري وادي الغراس جنوباً حتى الاقسام الجنوبية من الحرة ، حيث يلتقي بالعديد من الينابيع الصغيرة في طريقه ، ثم يتجه الجدول جنوباً حتى يصل الى خيبر ذاتها ويقطع السكة الحديدية الى وادي « الحمض » .

وعلى مقربة من ذلك المكان ، والى الجهة الغربية على وجه التحديد ، كنت أستطيع ان أرى كتلة جبال « شميض » بألوانها الحمراء ، هذه الجبال التي وقفت في يوم من الأيام تحرس واحداً من أشهر معاقل اليهود الحصينة . أما جبل « الابيض » فقد كان يبدو شامخاً خلفنا، وقبالتنا الحرة ترصعها فوهات البراكين الهامدة و كؤوسها .

هذا وقد استمرت الطريق مسافة خمسة عشر ميلاً تسير بمحاذاة حقول

مزروعة ، وان كانت سياراتنـا قد لقيت صعوبة في قطع تلك الطريق عبر الصخور والمسايل العديدة التي يتدفق ماؤها من التلال المجاورة باتجـاه الجنوب حتى تصل الى وادي الغراس. ولقد كانت الرحلة شاقة، ولكن ليست على قدر نعجز عن تحمله ، وان كان تسلقنا لتلك الطريق من شعب «قُطَيفَة» الى أعالي الحرة لم يكن من الامور السهلة . وهنـالك بدأنا السير عبر حقول اللافا التي كانت تمتد مسافات بعيدة على جانبي الطريق ، تلك الطريق التي لاحظت انهـا عامرة بالحركة الى حد ما . وقد بدأت الحركة في هذه الطريق عندما وصلنا الى قمة جبل « عطوة » الذي يبعـد مسافة خمسة وعشرين ميلاً الى الجهة الشماليـة من الطريق، ويقع على العدوة اليمنى لوادي الغراس . وعلى طول هذه الطريق حيث بدأت بملاحظة نشاط الحركة عليها ، لم أر شيئاً يستحق الذكر غير صخور « الحرة » السوداء وأخاديدهـا التي استطعت تدوين أسمائها بالاستعانة بمعرفة عياض الوافية عن المنطقة .

وقد لاحظت اثناء مرورنا هناك عدة هُوات طويلة عميقة الغور تنحدر باتجاه وادي الغراس . وقد سببت لنـا هذه الكثير من المصاعب ، بالنظر لعمقهـا من جهة ، ولتدبب اطراف نتوءاتها من جهة اخرى ، الأمر الذي كان يضطرنا الى السير بمنتهى الحذر . وقد أخبرني عيـاض ان مجموعة هـذه المزالق تسمى « شعب خـابو » . ومع ذلك فقد استمر سيرنا دون أية مشاكل ، بفضل أولئك الأشخاص الذين شقوا هذه الطريق في الأصل .

وقد توقفنـا بعد اجتيازنا منطقة رائعة المنـاظر الطبيعية يسمونهـا شق « الخرانيق »، وقمت بفحص حطام بنايات صغيرة ، ربما كانت أضرحة لبعض الأثرياء الذين عفّى على ذكرهم الزمن . وكان يبدو ان الذين بنوا هذه الأضرحة قد عانوا مشقة كبيرة في بنائها، وان كان الزمن والاهمال قد أضاعا الكثير من مجهوداتهم هذه .

ومر بنا رجلان من أهل خيبر يمتطي كل منهما أتاناً، وكنت ما أزال أفحص

بقايا تلك الأضرحة . وقد توقف هذان ليبادلانا ما عندهم بما تناهى الينا من اخبار حديثة . وعلمت انهما يقصدان المدينة المنورة ، كما علمت انهما قد سمعا بأنباء قدومنا ، وان اهلهم قد تمنوا ان يكون هدف رحلتنا هذه هو العمل على القضاء على الملاريا في منطقة الواحات القريبة منهم ، وانشاء شبكة ري يستفيد منها السكان هناك . وكان غيرنا من الاجانب ، بما فيهم بعض الخبراء الأميركيين ، قد سبقونا الى المنطقة في السنوات الاخيرة ، غير انه لم يتم التوصل الى نتائج فعلية لزياراتهم . وواأسفاه ، ان زيارتنا لن تكون بذات اثر اكبر من آثار الزيارات السابقة التي قام بها بعض الاجانب ، وان كنت على استعداد لتقديم بعض المقترحات النافعة الى وزير المالية السعودي . هذا اذا ما أراد تحقيقها ، وبعد التخلي عن فكرة انفاق كل ما يتأتى له في الخزينة على مشاريع تهتم بمصلحة سكان المدن الكبيرة .

وقد تمكنا ونحن على تلة « المريقِب » ذات الصخور البازلتية الضخمة ، من التمتع برؤية منظر رائع يطل على « الحرة » ذاتها ، وبشرف كذلك على الجبال العالية التي تقع بعيداً وراء «خيبر». ويبدو ان هذا الجزء من «الحرة» ، الواقع على امتداد الجهة الشمالية من « وادي الغراس » ، يعرف باسم « حرة الكوره » ، بينما تقع حرة خيبر فيما وراء المسيل .

وسرعان ما وصلنا الى منطقة شديدة الانحدار توصل من هضبة « الحرة » الى منخفض وادي « سُلَيْم » ، وهو أحد الروافد الرئيسية التي تشكل وادي الغراس . وهنا أخذت صخور « الحرة » تقل ارتفاعاً وتمتد كالأصابع على شكل مجموعة عجيبة من الرؤوس المدببة ، ويحصر كل اصبعان منها مسيلاً يصب المياه في اتجاه الوادي . وقد شاهدت على احدى هذه الصخور بقايا قلعة قديمة ، كان يبدو من طابع بنائها انها تركية العهد . ولم تكن لتبعد كثيراً عن الطريق التي نسلكها ، ومع ذلك فقد كان يبدو انها لا تستحق ان ينعم فيها المرء النظر عن قرب ، وخاصة ان الشمس كانت على وشك المغيب .

كانت هيئة المنطقة المحيطة بنا توحي بأننا لن نجد الكثير من الراحـــة اذا ما ضربنا خيامنا هناك . ولذلك عمدنا الى أقصى سرعة تمكّننا الارض الصخرية من السير بها كي نصل الى ارض مكشوفة تصلح لأقامة مخيمنا في تلك الليلة .

وغابت الشمس .. ففوجئنا بالظلام يلفّنا بأستاره ، غير ان ذلك لم يكن ليعوقنا عن المضي قدماً ، حتى وصلنـــا في النهاية الى مضارب كبيرة لقبيلة « حَرْب » . وهناك رأينا كثيراً من قطعان الماشية وخاصة الخراف ، ترقــد بين شجيرات من الاكاسيا صغـيرة . وعلى مقربة من هذه المضارب ، وجـدنا مصطبة طينية محاطة بشجيرات صغيرة تنحاز قليلاً عن الطريق . وتوقفنا هناك لنأخذ قسطنا من الراحة في تلك الليلة . وبعيد منتصف الليل ، وحتى مطلع الفجر ، كان الطقس بارداً تهب فيه رياح ساقعة جداً وخاصة في ساعات الصباح الباكر .

وانه لما يؤسف له ان المشاق التي لاقيناها اثناء اجتيازنا لمنطقة « الحرّة » قد تمخضت عن مأساة . فعندما أعددت جهاز الراديو لأستمع الى أنباء المساء ، رفض الجهاز أن يعمل . وكان « السيد » – وهو الاسم الذي كنا نطلقه على كل سائق سيارة ، إما لأنه « سيد » بالفعل ، وإما لأنه الوحيد بين المرافقين الذي كانت تبدو عليه سيماء الوجاهة – هو الشخص الوحيـد الذي يعرف شيئاً في الميكانيك. ولذا فقد استدعيته ليختبر مواهبه في علم الميكانيك وليحاول اصلاح جهاز الراديو . وسرعان ما أثبت هذا « السيد » انه يعرف في هذا الميدان اكثر مني بقليل . ولم تكن هذه المعرفة بذات فائدة . وكان لا بد لي من أن أعوّد نفسي على البقاء دون الاستماع الى الأنباء خلال الشوط الباقي من هذه الرحلة ، أو الى ان يسعدنا الحظ ، فنجد خبيراً في شؤون الراديو في خيبر أو « تيماء » . ومع ذلك فقد ظل « السيد » مصراً على اختبـــار مواهبه . وفي الساعة العــاشرة مساء سمعت فجأة صوتاً دلني على ان « السيد » قد اكتشف العطب في جهاز الراديو فأصلحه بشكل معقول .

وكانت ثمة مشكلة اخرى تزعجني في تلك الليلة ، وهي انه في الوقت الذي كانت فيه «خيبر» قد اصبحت قريبة ، وربما كانت على مسافة ساعتين لا اكثر ، وجدتني مضطراً لتأجيل دعوة الضيافة الاجبارية التي فرضها علي حاكم المنطقة. لقد كان علي ان اقوم بمشاهدة عدد من قنوات الري الموجودة في القسم الشرقي من « الحرّة » وهي قنوات ذات اهمية اثرية كبيرة .

ودرست الخطة مع عياض قبل ان افعل ذلك فوافق عليها . ثم ركب الى جانبي في سيارة « لاندروفر » مع انه اعترف بصراحة بأنه يجهل ذلك القسم من « الحرة » جهلاً تاماً ، لأن السيارات لا ترتاده على الاطلاق . وقد بدا لي ان عياض كان شديد اللهفة على وصولنا الى خيبر حتى يتسلم اجره هناك ثم يعود بأمان . ومع ذلك فانني لست اشك في اخلاصه وشرفه ، بل وأعتقد انه قام بخدمتي خير قيام رغم ما بدا عليه من تكتم في النمرانية .

لم أكن راغباً في الالحاح على عياض ، كي يدلي الي بما يعلمه عن هذه المنطقة ، وذلك لعلمي ان من الخير عدم الالحاح على أدلاء الصحراء خشية ان تثور شكوكهم . وكذلك لأنني كنت متأكداً ان معلومات هؤلاء الأدلاء مهما كانت كبيرة ، فانها لا يمكن ان تشمل منطقة واسعة جداً كالمملكة السعودية بكل اجزائها. هذا من ناحية واحدة ، أما من الناحية الاخرى فان الأدلاء المعاصرين هم من أبناء القبائل المسالمين الذين ينحصر همهم في الحصول على الماء والعيش بسلام ، بخلاف الأدلاء القدامى الذين كانت معرفتهم بدروب الصحراء وقفارها تكاد تكون خيالية لا يصدقها العقل ، والذين كانوا يحتاجون هذه المعرفة في تحركات قبائلهم في السلم والحرب على السواء .

وكانت المشكلة التي تواجهني الآن هي الحصول على بديل لعياض . وكنت آمل ان تتمكن قبيلة « حرب » التي مررنا بها من قبل ، من تزويدي بشخص يعرف شيئاً عن المنطقة التي اعتزم زيارتها ، والتي تضرب تلك القبيلة خيامها في اغوارها .

وكان بعض رجال هذه القبيلة قد حضروا لمشاركتنا طعام العشاء ، فكلفت « العريفي » ان يبحث معهم امكانيـــة توظيف أحدهم عله يقوم بمهمة الدليل . وكان من الغريب انهم جميعاً كانوا يفضلون مرافقتي حتى خيبر ولكنهم عازفون عن الذهاب معي الى حيث اريد . وقد اخبرتهم بأنني سأبقى مع رجالي حيث نحن حتى نجد الدليل الذي يقبل بمرافقتنا الى حيث اريد ، وتركت هذا الخبر يفعل فعله بينهم . وكان حظي حسناً في صبيحة اليوم التالي ، فبينما كنت أتنـــاول الشاي رأيت سيـارتي نقل قادمتين من المدينة ومتجهتين نحو مخيَّمنا ، بقصد الاستراحة وتنـــاول الاحاديث مع « السيد » الذي كان شخصية معروفة في المنطقة لدى السائقين .

وكان من بين ركاب احدى السيارتين واحد من مشايخ القبائل كان راجعــاً من المدينة المنورة الى خيبر . وقد أبدى هذا الشيخ اهتماماً كبيراً بالمشاريـع التي كنت أنوي تحقيقها ، ولو ان اهتمامه هذا كان لأسباب مالية . ومن حسن الحظ ن هذا الشيخ كان يعرف كل شبر في « الحرة » ، وجميـع الطرق التي تقود الى الأماكن التي كنت اعتزم زيارتها . ومن حسن الحظ أيضاً انه كان من أبنــاء المنطقة ، وان قبيلته ظلت تقطن هذه الربوع منذ خمسة قرون . أمـا اسمه فقد كان « ويبان بن محمد بن لاقي بن عتيق بن دخيل الله بن سعد ». وكان هذا الشيخ ، مثله مثل عياض ، من بني رشيـد الذين يعتبرهم ويبان ليسوا من بني حطيم ، بل مجموعة متآلفة من عامة العرب وخاصة « الشرارات والعوازم » .

وكنا في تلك البقعة على مسافة مائة ميل (١٦٣ كيلو متر) عن المدينـــة المنورة ، فمـا نزال على بعد ليس بالكثير عن خيبر . وقد اثبت « ويبان » هذا انه رفيق ممتع ودليل معترف به بين أهـالي المنطقة ، كما اثبت حكمته ومعرفته الفائقة بأسرار الصحراء .

وقد اصطحبته معي بدلاً من عياض ، وسرعان ما وصلنا الى طرف وادي الفراس ، حيث أوقفنا السيارة في منتصفه لنتدارس الموقف وطبيعة المكان

الذي وصلنا اليه . وقد تبينت وأنا هناك ان الوادي يسير من الجهة الجنوبية الشرقية صوب الشمال الغربي ، حيث تقوم غابة من اشجار الدوم والأكاسيا ، ثم ينعطف الى الشمال باتجاه السكة الحديدية ووادي الحمض .

كانت تبرز قدامنا على امتداد العدوة اليمنى من الوادي هضاب صخرية تشكل جبل عطوه ، وهي سلسلة من الهضاب تخترقها الطريق التي تؤدي الى « خيبر » عابرة بمنطقة صخرية تقود الى الواحات . وبعد مسيرة ميل واحد من تلك الطريق ، كنا قد قطعنا مسافة ١٧١ كيلو متراً بعيداً عن المدينة . وهنا تحولنا الى الشرق ، ومن ثم أخذنا نصعد الى قمة الجبل « الأبيض » عبر منبسط طيني من الارض يعرف باسم « قاع القمقران » . وتحيط الحرة بهذا القاع من جميع جهاته . وقد سرنا فيه ميلين ثم بلغنا كومة من حجار اللافا في طرفه الآخر . وقد اخبرني ويبان ان سيارة واحدة قبل سيارتنا قد وصلت البقعة التي نقصدها في وادي « ثَمَدْ » وسدوده الشهيرة .

وأظن تلك السيارة هي سيارة المستر ك . س . توتيشل . وكان هذا قد قدم الى المنطقة (في سيارة من طراز فورد قبل بضع سنوات) ليدرس امكانياتها الزراعية . ومن المؤكد ان المنطقة لم تكن تبدو خصبة التربة ، أو مشجعة على العموم ، غير اننا كنا قد التزمنا بتنفيذ مهمتنا . وكان من حسن حظنا اننا وجدنا في الميلين الأولين لساناً طينياً يخترق السهل . وبعد هذا اللسان الطيني كان علينا ان نسير فوق أرض صخرية استمرت فترة من الزمن حتى وصلنا الى منطقة تتبعثر فيها كدرات الطين الكبيرة التي كانت خطرة بالفعل . ورأيت ونحن في تلك النقطة ، واديين يقعان قبالتنا مباشرة ويشكلان رافدين من روافد وادي الغراس ، ذلك الوادي الذي كانت النظرة الأولى اليه كافية لتدلنا على الصعوبات الكثيرة التي تنتظرنا عندما نباشر في تحقيق مهمتنا . وقد رأيت ان نتوقف هناك لأسير على قدمي بغية التعرف على تلك الصعوبات .

وكان من الواضح قبل كل شيء أن سيارتنا « اللوري » لا يمكن ان تخاطر

بالمرور في تلك المنطقة . فقررت على الفور أن اتركها حيث هي في مراح طيني من الارض ، وأن اتابع السير في سيارة الـ « لاند روفر » مع بعض المرافقين. وكنا في تلك اللحظة نقف على بعد خمسة أميال من النقطة التي غادرنا عندها الطريق الرئيسي للتعرف على خفايا المنطقة .

وسرعان ما أدخلنا التعديلات اللازمة على خطتنا . ولما كنت متفائلا بامكانية العودة قبل حلول الظلام ، فقد شرعت بالمغامرة الجديدة . وكان يرافقني في هذه المغامرة كل من وبيان وعياض وشخص آخر . وقد جاهدنا جهاد الابطال ونحن نسير فوق أرض صخرية ، حتى وصلنا الى طرف شعب « هدنه » . ومن ثم هبطنا الى الوادي الذي كان عرضه يبلغ خمسمائة ياردة ، وفيه خرائب قصر صغير تقع في منحدر الوادي فوق صخرة مستديرة . وقد قيل بأنه تمّ بناء هذا القصر قبل سبع او ثماني سنوات على يدي بعض الفلاحين الجريثين .

هذا وقد تمكنا ، مع شيء من الصعوبة ، من عبور الوادي من نقطة منخفضة تفصله الى شطرين ، وكانت هذه النقطة كثيرة الصخور ، وتدعى شعب « سمَينان » ، ولا يزيد عرض هذا الشعب على مائتي ياردة ، وفيه خرائب قصر آخر ، في منخفض بعيد الى حد ما عن الشعب . وكان منظر هذه الخرائب يدل على أن القصر قد بني من حجارة صلدة بعد ان شذبت بشكل هندسي ، إلا ان الزمن والاهمال قد تركاها تحت رحمة مياه السيول .

والى يسارنا كانت تبرز قمة ملساء ناعمة من الغرانيت الاحمر ، يطلق عليها اسم « سرّير » . وهي تفصل شعب « سمينان » عن شعب « ثمَدْ » ، وتشرف على مساحة بها عدد لا بأس به من اشجار النخيل المتوّجة بالأثمار الحمراء اللون . وكانت هذه الارض مستعمرة سكنها « الاخوان » أول أمرهم ثم نزحوا عنها . ولم نكد نقطع اكثر من ثلاثة أميال سيراً على الأقدام بعد ان تركنا السيارة ، حتى وصلنا الى احد الروافد الرئيسية التي تشكل وادي

« ثمَد » الذي يشكل بدوره أحد الروافـــد الرئيسية لوادي « الغراس » . والحق اننا لم نجـــد اثناء سيرنا مسافة الأميال الثلاثة السالفة الذكر أية صعوبة تذكر . وقد لاحظت أن رافد وادي « ثمَد » هذا اكثر اتساعاً من رافـــدين آخرين يصبان في الوادي كنا قد مررنا بهما ، كما ان هذا الرافـــد يتشكل من مسايل متعددة تسير في خطوط متوازية حتى تصل الى وادي «الغراس» ذاته . وهي مسايل غنية بالمياه . وفي بعض النقاط ، كانت هـــذه الروافد تتجمع على شكل بحيرة صغيرة ، او قل ، خليج واسع ، وكأنما هي تشكل خزاناً يحوي الماء الاحتياطي للوادي .

ووصلنا الى نقطة تتجمع فيها المياه ، وتحيط بها غابات كثيفة من اشجـار الدوم . ولاحظت ان سبب تجمع المياه في هذه المنطقة انما يعود الى وجود نبع ماء هناك . وقـد اخبرني مرافقيّ ان هذا النبـع يعرف باسم نبـع « المُعرّش » ، ولكن ماء هذا النبع كان مالحاً غير صالح للشرب .

وبعد ان سرنا مسافـة ميل آخر ، وصلنا الى الطرف الثاني من الوادي ، وربما كانت تلك النقطة هي التي يطلق عليها اسم « شعب ثمَد » . وقـد سرنا صعداً مع هذا الشعب حتى وصلنا الى واحة كبيرة رائعة تغص بمختلف انواع الأشجار ، منها الدوم والزيتون والتين الخ . . أما ماؤها فقد كان عذباً وبارداً ، أطفأنا به ظمأنا وغسلنا وجوهنا .

وعلى مسيرة ميل واحـد من هذه النقطة وجدنا خرائب ذات حجارة سوداء . وقد لاحظت ان هذه الخرائب – وتقع على الجهـة اليمنى للوادي – كبيرة الحجم. واخبرني المرافقون انها تدعى « حُجرةالثمد » ، وتعرف كذلك باسم « حُجرة إبن لافي » . وابن لافي هـذا هو مؤسس قبيلة مرافقي ويْبان . وكان قد عمر هذا الموقع كمقر لجماعة من الوهابيين .

وتجاوزنا هذه الخرائب ، بعد ان قررت الرجوع اليها فيما بعد ، لنصعّد في

الوادي . غير اننا ما ان قطعنا مسافة ميل واحد حتى أصبح من الضروري ان نقطع ما تبقى من المسافة سيراً على الاقدام . وكنا قد وصلنا قطعة رائعة من هذه المنطقــة ، ابرز ما يميزها عن غيرهــا من المناطق التي مررنا بها « سد حاسد أو الحصيد » . أما شعب الحصيد الذي ينحدر من أعــالي « الحرة » وتجري مياهه بين شعــاب صخرية عالية ليلتقي بشعب « الثمد » ، فقد كان ممتلئاً بالآثار القديمة . وربما كانت هذه تخص يهود خيــبر الذين أنشأوا شبكة للري من أجل استغلال مياه ذلك الوادي .

وقد رأيت سداً يمتد مسافة عدة أميال على مساقط المياه ويبلغ معدل عرضه المائة ياردة ، أما ارتفاعه فكان بمعدل أربعين قدم . والشيء الذي أثار دهشتي ، هو ان السد قد ظل قائماً كما شيد في الأصل ، وان كانت زواياه قـــد براها تطاول الزمن وتدفق المياه والاهمــال . وكان من نتيجة ذلك ان حدثت فيه فجوة من كل جانب تبلغ الواحدة منها ١٢ قدماً . ومن هذه الفجوات كانت المياه تتدفق الى الوادي لتنصب فيما بعد في البحر . أمــا ما تبقى من السد فقد صمد أمام جميع العوامل الطبيعية رغم مضي ما لا يقل عن خمسة عشر قرناً من الزمن . وكان طول جدار السد حوالي مائتين وخمسين ياردة ، أما ارتفاعه فقد كان ٤٠ قدماً . وقد بنيت جدران السد من قطع غير مشذبة من الحجــارة ، ولكنها وضعت باتقان ومهارة في وجه تدفق المياه بعد ان جعلها البناؤون تتماسك بالطين والكلس . وعلى الرغم من ان بعض هذه الكتل مــن الجص قد تآكلت في بعض الانحاء ، إلا ان الجدران كانت في حالة لا بأس بها على العموم . وقد لاحظت ان القسم الذي يواجه المــاء من جدران هذا السد قد حصّن من الأمام بجدران اضافية بنيت من حجارة صغيرة تتوسطهــا أقواس بحجم الرجل تضفي على الجدران منظراً هندسياً في الوقت الذي تخفف فيه ضغط المـــاء عن الرئيسية منها .

ولاحظت كذلك ان الثلثين السفليين من جدار السد ، كانا أكثر سماكة من

الثلث العلوي ، وقد تبلغ سماكتها ضعف سماكة الثلث الأول . ولم أجد أي أثر يدل على وجود حواجز لتنظيم جريان المـاء ، هذا اذا كان هنالك مثل هذه الحواجز في الأصل ، إلا اذا اعتبرنا الفتحات التي وجدناهـا في زوايا السد من هذا القبيل .

وليس من المؤكد على كل حال ان يكون قد تم بنـاء هذه السدود القديمة التي نجدها على أتم صورة في الوديان المحيطة بالطائف ، بغية الاستفادة من الماء الذي تحتجزه في شؤون ري الأرض والزراعة . وان كان يبدو ان بعض تلك السدود قد انشيء بقصد احتجاز الماء ومنع الفيضانات من ان تغمر الاراضي ، على ان تستخدم مياهه المحتجزة في الزراعة فيما بعد . وفي مثل هذه الحالة توفر تلك السدود الري لأراضي تبعد مسافة عدة اميال فتجعل منها أراض أكثر خصباً من غيرها .

ورأيت أمـام السد حوضاً دائري الشكل كان لا بد هو الأرض المزروعة أمـام السد . وأظنه كان يسقى إما بالماء الذي يُطلق من أنفاق السد أو مـن الينابيع التي تنزّ من الارض تحته بفعل تجمع الميـاه . وقد رأيت بالفعل أحد هذه الينابيع ، وكانت تمتد منه قنوات فرعية للري حتى تصل الى مساحة من الارض تزينها أشجار النخيل الباسقة . ولكن هذا الينبوع كان جافاً في الوقت الذي قمنـا فيه بزيارة مكانه ، وان كانت ثمة مياه قليلة تنبثق من ينبوع صغـير تغطيه الاعشاب البرية . وممـا يجب ذكره في هذه المناسبة ان مسيل « شعب ثمـد » الذي لم تقم عليه السدود ، كان يصل الى الجهة المقابلة للسد . ومما لا شك فيه ان مياه هذه القناة كانت تسبب حدوث الفيضانات من وقت الى آخر .

ورأيت على مرتفع من الأرض ، قرب السد ، قلعة قديـمة مبنيـــة من الحجارة غير المشذبة من الداخل، مع ان بعض اقسامها الظاهرة مشذبة الحجارة من الخارج . ويبدو انهـا ظلت تعايش السد حتى بطل استعماله فخربت بحيث لا يتيسر الحكم على حالها السابقة في الوقت الحاضر .

وبعد ان أنهينا دراسة السد والمنطقة المجاورة له ، عدنا الى السيارة حيث جلسنا نستريح من عناء السير . واقتسمنا ما كان يحويه « الترموس » من شاي، ومن ثم قمنا بجمع الحطب لنشعل نار المساء ، الذي كانت تباشيره توحي بأنه سيكون بارداً . وبعد ذلك عدنا الى « حجرة ثمد » . هذا ولم يسبق لنا ان قضينا جزء من الليل في السفر ، ولذلك فقد نسينا أمر توفير الطعام . ولما كان الطعام الذي نحتفظ به لا يكفينا جميعاً ، فقد برزت لنا مشكلة جديدة . غير ان ويبان لم يشأ ان يهزمه مثل هذا الأمر ، اذ سرعان ما خرج بحثاً عن طعام وماء في منحدر الشعب عند الجداول . ولم يطل غيابه عنا كثيراً .. ولم يعد ويبان وحده .. وانما عاد ومعه أحد اصدقائه يجر جدياً، بينما يحمل ويبان قربة ماء . وعلى الأثر قمنا الى الخرائب الموجودة هناك لنتذارى بجدرانها من برودة المساء . وأشعلنا ناراً كانت ألسنتها تبعث فينا الدفء بينما راح الرجال يعالجون الجدي على النار فتنبعث رائحة الشواء اللذيذ تمنينا بعشاء دسم . وكان رفيقنا الجديد يدعى دُليم بن سَمران بن محمد (؟) بن سِمرا من فخذٍ آخر من بني رشيد ، غير انه لم يكن هو ولا ويبان ، على علم بأي شيء عن تاريخ السد الذي زرناه او أي شيء يتعلق بماضي السدود الاخرى في المنطقه . وكذلك فان الاسم الغريب لقصر « البنت » لم يثر فيهما أي نوع من حب الاستطلاع ، اذ كانا يعرفان ان هذا القصر ليس سداً .

وقد احتمينا من الرياح وراء جدران الخرائب التي تبينت فيما بعد انها كانت لمسجد . وكانت الرياح قد اخذت تشتد تدريجياً طوال النهار والليل، كما ان لحم الجدي عندما تم طهيه ، أشاع في أجسامنا دفئاً لذيذاً . وبعد ان التهمنا عشاءنا ، قدم لنا الشاي ، وشعرت بأن العالم على خير ما يرام ، لولا انني اكتشفت انني قد نسيت احضار شيء من الطباق !! وقد فطنت الى ذلك بعد ان استهلكت كل ما معي في الكيس . وبطبيعة الحال لم يكن معنا فراش لننام عليه ، ولذلك فقد كوّرنا اجسامنا على التراب ، حول النار

التي كان دليم يغذيها بالوقود بين الفترة والاخرى. وقد نمنا نوماً عميقاً كنوم أهل المدل ، رغم أسراب البعوض التي كانت تهاجمنا بجدّة ، غير آبهة بدخان النار الذي قيل انه يمنع البعوض من امتصاص دماء الناس . ولكن يبدو أن بعوض المنطقة كان من النوع الذي لا يفزعه الدخان .

هذا وقد استيقظنا في الوقت المناسب لأداء فريضة الصلاة ، ومن ثم لتناول الشاي . وقد تحلّقنا حول النار فترة من الزمن لنتيح لأشعة الشمس الفرصة كي تدفىء الجو . وما أن أزفت الساعة الثامنة حتى نهضت لأحضار السيارة ، إلا ان محركها رفض أن يدور . . لقد كان بارداً جداً . وهكذا عمدنا الى دفعها ، ولعلنا دفعناها مسافة ميل ! وعلى الرغم من اننا كنا نلمح بارقة أمل بين الفينة والاخرى خلال هذه المسافة الا ان المحرك رفض الدوران ! وراحت جهودنا عبثاً . حينئذٍ تطوع ويبان لأن يعود مشياً على الأقدام الى المكان الذي تركنا فيه بقية السيارات ، ليسأل القوم هناك ان يساعدونا . وقد أمضيت الوقت حتى عودته بدراسة المنطقة المحيطة بالخرائب .

وقد لاحظت ان « جبل بيّاضه » قد اختفى عن العيان نهائياً ، الا ان « جبل الأبيض » كان ما يزال يرى الى الشرق والشمال الشرقي من المكان الذي كنا فيه . كما كانت سلسلة جبال «الحرّه» ، الذي يشكل الجبل الأبيض وسطها ، بادية للعيان ايضاً . وقد استطعت ان أعدّ ثلاث عشره قمة من قمم تلك السلسلة ، وجميعهـا في الجهة اليسرى ، كما استطعت ان أعدّ سبع عشرة قمة الى الجهة اليمنى .

والجدير بالذكر ان جميع هـذه القمم قد تشكلت اثر ثورة بركان حدثت في غابر الازمان . وتمتد في اقصى الشمال الغربي على كتف جبل عطوة سلسلة عظيمة من الجبال المعروفة باسم جبال « الحجَر » ذات القمم الثاني المرتفعة . ولو نظرنا شمالاً الى ابعد من جبـال الحجر لوجدنا قمم « جَمْره » الذي يبين الطريق المؤدية من خيبر الى حايل ، وهي الطريق التي كان يتحتم علينا ان نسير عليها بعد قليل

قبل ان نتحول الى خيبر . ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان الطريق المباشر الذي يصل بين خيبر و« العلى» الواقعة على الخط الحديدي ويجتـــاز سهل « صحن » ، يستغرق ثلاثة أيام اذا ما أراد المرء ان يقطعها على الجمال .

كانت الساعة قد بلغت الثالثة من عشية يوم عيد الميلاد عندما عاد ويبان ومعه « فريق الانقاذ » ، وكان هذا الفريق مؤلفاً من محمد العريفي و « السيد » – السائق – الذي راح يعالج سيارة الـ« لاندروفر » . وسرعان ما استجابت له ودار محركها بانتظام . ولم آسف لأنني سأغادر هذه المناظر التي كانت تحيط بي. فالمسجد الذي لم يعد مسجداً منذ قديم الزمـــان ولم تؤد فيه الصلوات التي كان بناته يريدونها ان تؤدى فيه ، كان يستعمل عندما زرناه ، كزريبة للماشية .. كما كان يلجأ اليه من كان مثلنا لطهو طعامه .

أما المسيل الرئيسي لوادي الفراس ، والذي كان علينـــا ان نسير بمحاذاته حتى نصل الى آبار « عفاريّة » ، فقد كان على بعد ميل من مكاننا .

وعندما وصلنا الى تلك النقطة ، أصبح من المستحيل علينا ان نتقدم ياردة واحدة بالسيـــارات . وكان السد فوقنا على مسافة ميل لا اكثر ، وقد سرنا باتجاهه فوق أرض صخرية وعرة كنا نجد خلالها عدداً كبيراً من البرك المائية ، قيل انها تكونت عقب الأمطـار التي هطلت أخيراً وسببت فيضاناً وقع قبل خمسة اسابيع. وكانت الآبار الستة في « العفارية » تحتوي على ماء عذب غزير ، وكان هذا المـــاء موجوداً في تلك الآبار على عمق يتراوح بين قامتين وأربع قامات . وتقع هذه الآبار وسط مجموعة من أشجـار النخيل . وفي هذه النقطة كان الاتجاه العام للوادي يمتد من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي .

وكان السد المشهور باسم سد « قصر البنت » أكثر أهمية من سد « الحصيد » غير ان ربع جداره الأيمن كانت قد جرفتـــه السيول ، ولم يبق منه إلا بعض الحجارة التي تدحرجت الى ضفـة الوادي . أما بقية السد فقد كانت ما تزال

قائمة بارتفاع يبلغ حوالي خمسين قدمـاً وسماكة تبلغ ١٣١/٢ قدماً . وتبلغ هذه السماكة ضعف ذلك الرقم عند قاعدة السد .

وكان يبدو ان طول السد الأصلي يزيد على خمسمائة ياردة ، وان جدرانه قد بنيت من حجارة صلدة غير مشذبة ، وان كانت قد رتبت فوق بعضها بعنـايـة ومهارة ، ثم لاصقها البناؤون بالجص . وقد لاحظت ان القسم العلوي من السد قد دعم بطبقة من « الاسمنت » الى مسافة عشرة اقدام . ولعل مـا تبقى من جدران السد كانت مدعمة بطبقة مماثلة من الاسمنت ، إلا انها جرفتها الميـاه . وهنا أيضاً لم أجد أي أثر للأنفاق المنظّمة لتدفق الماء. وربما ان ما قلته عن سد الحصيد ، ينطبق تماماً على سد قصر البنت .

أما المنطقة الزراعية ، فيبدو انها كانت في أعلى الوادي حيث وجدنا أعداداً من الأشجار المختلفة الأنواع ، كما وجدنا أنواعـاً من الخضراوات التي نبتت في المناطق شبه الصحراوية . ولم يكن ويبان يذكر انه قد وقع فيضان كبير في هذا الوادي ، غير ان السكان الذين قابلناهم في المنطقـة ذكروا ان فيضانين هائلين قد حدثا على ما يذكرون ، نتيجة انحباس المـاء عند سد الحصيد . وقد بلغ من قوة هذين الفيضانين ان طغت مياههافوق السد . ومن هؤلاءالسكان علمت ان الفيضان الثـاني حدث قبل عشرين سنة ، أما الأول فقد حدث قبل خمس سنوات من هذا التاريخ .

وحين عـدنا الى المخيم ، وجدت أننا لم نكن نملك شيئاً للاحتفال بعشية عيد الميلاد ، باستثناء نوع من الخبز المحلي الأسود الذي يشبه ، الى حد كبير ، الخبز «المحمص» عند الغربيين . حتى اننا كنا نضطر الى غمسه في الشاي ليصبح قابلاً للأكل وبالاضافة الى ذلك فلم نكن نملك طباقاً لـ « غلايينا » ، وكل ما كان لديّ في تلك اللحظة « علبة » سجاير ، رحنا ندخنها بنهم ونحن نحتسي الشاي . ولم يكن من الممكن ان نجد لحماً في تلك الليلة ، بالنظر لعدم وجود رعاة في تلك المنطقة حتى نشتري منهم بعض الماشية . واني لأشكر الله على أننا

استطعنا ان نشعل ناراً في تلك الليلة .

وقد أتحفنا « السيد » بروايته قصصاً عن البطولات العربية ، التي حفظها اثناء دراسته ، كما ساهم ويبان في ذكر بعض المعلومات عن المنطقة .

وعند البئر الرئيسية من آبار « عفارية » وجدت بعض المنقوشات غير ذات الاهمية . وكان احد الحجارة المنقوشة يحمل تاريخ ٣١٢ ، وربما كان المقصود بذلك سنة ١٣١٢ للهجرة ، أي ١٨٩٤ – ١٨٩٥ بعد الميلاد . وكانت هنالك حجارة اخرى مماثلة ، لعلها نصباً تذكارية لعائلة حاوات ان تقطن بالقرب من هذه الآبار . ومرة اخرى وجدت الكثير من البعوض في هذه المنطقة .

هذا وقد بدأنا رحيلنا في صباح يوم عيد الميلاد ، بينما كانت أشعة الشمس ما تزال باهتة تحاول اختراق السحب التي تتجمع في السماء . ولم يمض طويل وقت حتى وصلنا الى « المُعرّش » ، وهي النقطة التي بدأنا منها سيرنا في هذا الاتجاه . وهناك التقينا ببقية الرفاق . وفي تلك المنطقة اشترينا كمية من تمور وشاي المدينة ، ووجـــدت كمية من التبغ استطعت أن أسد بها حاجتي الماسة الى الطباق والتدخين . وهكذا فقد انهمك طاهينا في اعداد طعام افطار لذيذ مؤلف من التمر المهروس والبصل والبيض . وفي الوقت ذاته جلست استمع الى أخبار الاذاعة البريطانية .

وكان الوقت يقارب الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما استأنفنا سيرنا من جديد . وإذ كانت الريح تهب باردة فقد جعلتنا على عجل من امرنا . وسرعان ما وصلنا الى الطريق الرئيسية من جـــديد ، ومن ثم أدرنا وجوهنا باتجاه « خيبر » ، وأخذنا نجتاز سهلاً واسعاً تشع فوقه بين الفينة والاخرى أشعـــة الشمس الباهتة . وكانت صخور جبل « عطوَه » تقع الى يسارنا وتمتد بمحاذاة الطريق التي نسير عليها ، إلا انها لم تلبث ان تحولت الى الجهة اليمنى من الطريق بعد مسيرة لا تزيد على نصف ميل . وبعد مسيرة بضعة أميال اخرى عادت الطريق لتصبح صعبـــة وعرة كثيرة النكد . ولكنه لم يمض طويل وقت

حتى استطعنا العثور على الواحات الشهيرة ، تقبع بين أشجار النخيل لتحدث الناس بكل امجادها . كما عثرنا على القلعة القديمة التي شيدهـا اليهود على المرتفع الصخري القريب من تلك الواحات ، والذي يطل على أشجار النخيل وغيرها من الأشجار التي عاصرت التاريخ . وهنا توقفنا لبعض الوقت حتى نقوم بدراسة المنطقة ، قبل ان نصل الى الميدان الذي يقع فيه سوق « الشُـمَرَيف » .

وبذا نكون قد قطعنا في رحلتنا هذه ٢٢٥ ميلاً منذ ان غادرنا المدينـــة المنورة ، بينما كانت المسافة من المدينة الى خيبر على الطريق العادية لا تزيد على ١٨٩ كلم . وكان « قصر البنت » يقع عـلى بعد حوالي ٣٠ كلم من خيبر ، بينما كانت المسافة من خيبر الى « سد الحصيد » تعادل الثلاثين كيلو متراً أيضاً .

٢

خيبر وجاراتها

شعرت وأنا في خيبر ، بأنني في مكان مقدس ، مكان أمه « شارلز دوتي » منـــذ نيف وسبعين سنة. وقد قام بوصفه بروعة واتقان بشكل لم يترك إلا القليل القليل لكي يقال عن مثل هذا المكان الاثري ، الذي ما أقلّ مـا تغير فيه شيء منذ اليوم الذي زاره فيه شارلز . وقد كان هذا المكان مبنياً بشكل طبيعي يجعله حصيناً ضد السيارات والآليات الاخرى . فاذا ما استثنينا بعض البنايات التي شاهدها شارلز اثنـــاء زيارته ، والتي هدمهـــا الزمن والاهمال ، فان التغير الوحيد الذي طرأ على المنطقة لم يكن غير تغير طفيف ، بجعله نمو ضـاحية جديدة في الجهة الجنوبـية على مقربة من الواحات . وفي هــذه النقطة بالذات يتحتم على السيارات ومختلف انواع الآليات ان تتوقف .

وفي وسط هذه الضاحية اقيم مركز تجاري فيه متاجر ومخازن تحيط بالسوق وبيوت السكن . وهي بيوت أحدث طرازاً من تلك الموجودة بـين الخرائب ، وكانت تمتـــد عـلى جـانبي السوق وتقع فوق مرتفع مـــن الأرض يحيط بجانبي السوق. وفي هـــذه المنطقة قام تجار «المدينة» وغيرها من المدن السعودية بانشاء فروع لمحلاتهم ، وبيوت سكن لاقامتهم كلما حضروا الى خيبر من أجل تنشيط تجارتهم وتوسيعها . والمعتقد بشكل عام ان المرتفع من

الأرض الذي شيدت عليه منازل السكن صحي أكثر من المناطق المنخفضة ، كما انه خال من البعوض . غير ان هذا التحرر من البعوض كان أمراً نسبياً . اذ انني وجدت البيوت الجديدة التي كان من المقرر ان تصبح مقراً لنا اثناء اقامتنا، مليئة بمختلف أنواع الحشرات المخيفة، كما انها كانت خالية من المراحيض . والأصعب من ذلك انها كانت خالية من الحمامات ، أو حتى مجرد « مسيلة » للماء من أي نوع كان .

وفور وصولنا تركنا السيارات في رعاية السائقين والخدم ، وتوجهنا على التو لنقدم احتراماتنا الى حاكم المنطقة. وكانت طريقنا الى الحاكم تمر عبر غابات من اشجار النخيل، تمتد على طول الطريق الذي يمر بثلاثة ينابيع تزود الأراضي المحيطة بها بالماء . وقد انتهت بنا الطريق الى أسفل صخرة القلعة . وتسلقنا هذه الصخور بصعوبة فائقة لنجد أنفسنا أمام «السراية» أي مسكن الأمير الذي وقف في الباب الأمامي ليرحب بنا حسب الطريقة القديمة المعروفة هناك في الجاملة .

كان هذا الأمير يدعى « حمود بن سيف » ، وهو في الأصل من سكان حايل . وهو شخصية مهيبة في السبعين من عمره . وكان قد تولى منصب حاكم خيبر مدة عشر سنوات أو أكثر . ويبدو انه كان قادراً على السيطرة على « ناحيته » ، كما انه كان كثير التجوال في أرجاء المنطقة بشكل يفوق غيره من حكام المناطق الاخرى . ويساعد هذا الحاكم في تصريف امور « الناحية » ولداه ، وهما شابان أحدهما يدعى عبد الكريم والثاني يسمى ابراهيم . وهما يعتبران من جملة موظفي الحاكم ويتقاضيان رواتب من الدولة . وكان الأول ، عبد الكريم ، مسؤولاً عن امارة « جيزان » عندما زرتها لأقوم بمسحها في سنة ١٩٣٧ . وقد رافقني اثناء قيامي بالمهمة، وأثبت انه موظف رسمي يستطيع القيام بواجباته في منطقة حساسة تقطنها قبائل معروفة بشراسة الطبع . ودار الحديث بيننا ، بطبيعة الحال ، عن تلك الأيام الخالية ، وعن المناطق التي نود

ان نجري في هذه المرة ابحاثنا فيها . دار هذا الحديث بيننا ، بينما كنـــا نحتسي القهوة ، ثم تركت مضيفي وأنا أشعر بشيء من الاقتناع بأنه سيلبي جميع رغباتي التي شرحتها له .

وفور عودتي الى « الشُريْف » عبر الطريق التي قدمنا منها ، قمت بمعاينة البنايات التي خُصصت لنا ، فوجدتهـــا حديثة البنــاء تقع وسط صف طويل من الدور التي يجري تشييدهـا لحساب تاجر من المدينة المنورة يدعى « حسن غَوْث » . وقد اخترت لنفسي غرفة واسعة وضعت فيها متاعي وحاجياتي ، بينما اجتمع بقية المرافقين في غرفة اصغر ، طلبـــاً للمزيد من الدفء . وكانوا يتحلقون حول وجاق كبـير اعدوا ناره لصنع القهوة . وفي هذه الغرفة كانوا يحتسون القهوة ويستقبلون زوارهم من المدينة ليـل نهار دون انقطاع .

وكنا بعد غياب الشمس نعود من عملنا فنعرّج على قلعة « مَرْحَب » حيث يقوم الأمير بالترحيب بنا ويقيم لنا مأدبة تليق بعيد الميلاد ، فهي فاخرة عامرة بالأرز ولحم الغزلان ، وغير ذلك من الأطباق الشهيـــة الاخرى . ويبدو ان قلعة « مرحب » كانت في عهد الاتراك ، وربما عندما زارها دوتي ، خرابـــاً مركوماً . أمـــا مركز الحكومة فقد كان في قلعة يطلق عليهـــا اسم قصر « الصفصافة » - الذي أصبح مجموعة من الخرائب الآن - وهو يقع في الاراضي المنخفضة بين أشجار النخيل والقسم العلوي من الوادي على مقربة من الينابيع التي تدعى بالاسم ذاته .

ومهما يكن من أمر فان قلعة « مرحب » قد أعيد ترميمهـــا زمن الحكم السعودي (وعلى وجه الدقة في سنة ١٩٣٠) بناء على طلب أحـــد الحكام ، وكأن هذا الحاكم قد أراد أن يعيش بسلام ، بعيداً عن جيوش البعوض التي تنطلق من المستنقعات التي تخلّفها مياه الواحات .

وكانت أحاديثنا ، أثناء تناول طعام العشاء وبعده ، تدور حول موضوعات رزينة ذات بال ، بما فيها التاريخ التقليدي لمدينة خيبر التي كانت تقطنهـا بعض

جاليات اليهود ، والذين هاجمهم النبي محمد (ﷺ) . وقد نشبت المعركة الفاصلة بين الفريقين في موقع قرية « أم كداء » Kida ، حوالي ميلين الى الجنوب الغربي من القرية الرئيسية في المنطقة المعروفة باسم « قريات البِشر » ، وهي على مرتفع من الأرض يطل على جدول يخترق « الحرة » ليعود فيتصل بغيره من الجداول التي ترفد وادي الغراس . وهناك رأيت مسجداً أقيم تخليداً لذكرى معركة الرسول مع يهود خيبر . أما شهداء المسلمين الذين سقطوا في تلك المعركة فقد دفنوا في مقبرة اطلق عليها اسم « مقبرة الشهداء » ، وتقع في مكان قريب من قرية البشر ، هو في الواقع ارض رخوة لقربها من المستنقعات التي تزودها بالماء عدة ينابيع قريبة هناك .

وكانت الارض المرتفعة التي تحيط بخيبر مسيّجة بجدار من الحجارة الصلدة، بنيت كيفما اتفق ، لتشكل شبه غرف غير مسقّفة كان يؤمها البدو كل سنة عندما يحين موسم جني محاصيل التمور، ليتزودوا بحاجتهم منه طوال العام . وكان هؤلاء البدو يشاطرون في ملكية هذه الاشجار كلاً من « العبيد » الذين يقومون بجميع الاعمال التي تتطلبها فلاحة الارض والعناية بالاشجار . وكل ذلك على نفقتهم الخاصة ، مقابل الحصول على نصف المحصول . أما البدو فلم يكن لديهم اي اهتمام بامور الفلاحة ، وكل همهم ان يحصلوا على حصتهم من الثمر بوصفهم ملاكي الشجر، ودون القيام باي عمل .

ويبدو للوهلة الاولى ان تلك «المرابط»، كما يدعوها البدو، لها شأن وظيفة. وهي خط الدفاع عن خيبر ضد غارات البدو . ولكن الحقيقة كما رأيتها ، هي ان هذه المرابط ليست اكثر من مستقرات تنفع حشود البدو المهاجين. وبذلك يكون عملها معاكساً لما يمكن ان يتوقعه المرء او يطرق خلده . ومن الطبيعي ان الحكومة كانت تنال حصتها من ناتج التمر قبل اقتسام المحصول بين البدو والعبيد . وفي مقابل ذلك نراها لا تأتي باي عمل للوقوف في وجه اغتصاب البدو ثمارَ النخيل ، ولا تبدي اي اعتراض على الطريقة التي يقتسمون

بها الاثمار مع اولئك الذين يقضون كل اوقاتهم في العنايـة بالاشجار ، رغم ان هؤلاء يعيشون حياة مزرية للغاية . بل انها لم تتدخـــل لتحسّن انصبتهم من تلك الاثمار .

هذا وقد حدث في الفترة الاخيرة ان زار خيبر عـــدد من الاميركيين والخبراء الاجانب بما فيهم عدد من الاطباء المصريين . وذلك من اجـل تقديم تقرير عن خير السبل الكفيلة بالقضاء على البعوض في المنطقة ، وأحسن الوسائل لمد شبكة للري فيها . غير ان دولة البعوض ما زالت تهيمن على المنطقة دون منازع ، كما ان المياه ما زالت تتدفق فوق الارض فتركد فيهامشكّلة عدداً من المستنقعات ، تماماً كما ارادتها الطبيعة ان تفعل منذ بدء الخليقة .

وباستثناء رواتب موظفي الحكومة وعلاواتهم فان رجال البوليس وغيرهم من الموظفين الذين كانوا لا يتلقون رواتبهم بانتظـــام، لم يروا شيئاً من الاموال الكثيرة التي تفيض من انتـاج البترول . تلك الأموال التي نال منها كل قسم من اقسام البلاد حظه بشكل أو آخر . وبقيت خيبر كما هي منذ قديم الزمان. حتى ان الحكام المحليين لمثل هذه الاقاليم المنسيّة يعترفون صراحة بعدم اطلاعهم على نشاط الحكومة المركزية ، اذ لا تصلهم بخصوص ذلك أية معلومـــات إلا نادراً .

وبعد ان تناولنا طعام الغداء في دارنا في اليوم الاول لوصولنا ، امضيت بعد ظهر ذلك اليوم في بحث شاق عن الحجارة المنقوشة بين الاحجـــار والصخور الواقعة على مقربة من « دونانــــه » في أعالي نبع «عين ابراهيم» . وكذلك قمت باجراء ابحاث قرب «الصفصافة»، وتقع فوق العين نفسها والقلعة التي تحمل ذات الاسم . وقد رافقني كل من عياض وويبان في هذه العملية الشاقة . ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا القسم الأكبر من سكان خيبر والواحات القريبة يدورون حولنا ، يرقبون وقوع احدى المعجزات .

هذا وقد عرضت بحماقة على أهالي خيبر مبلغ « ريال » ، ويساوي شلنين ، لكل من يدلني على أحد الحجارة المنقوشة ، أو يدلي بأية معلومات تؤدي الى العثور على أحد هذه الحجارة ، شريطة ان لا تكون هذه مجرد نقوش عربية لا قيمة أثرية لها . وكانت تلك المنطقة الصخرية مليئة بالنوعين من تلك الحجارة . أما التي كنت اسعى للحصول عليها ، فهي الحجارة المنقوشة التي تعود الى عهد ثمود ، وتحمل نصوصاً عبرية . ومما اغاظني بالفعل انني تلقيت كيساً مليئاً بالنقوش ، إلا انني لم أجد بينها أي نقش عبري يحمل اسم أي يهودي ، أو يتحدث عن نشاط اليهود في خيبر .

والتفسير الوحيد لذلك أن اليهود كانوا متقدمين اكثر من العرب في ذلك الوقت ، ولذلك فانه من المحتمل ان يكونوا قد استعملوا سعف النخل أو رق الغزال أو غير ذلك من المواد السريعة التلف في تدوين ما شاؤا من تاريخهم ومراسلاتهم . ومن الطبيعي ان مثل هذه الاشياء لا تعمر طويلاً ، وخاصة اذا كانت مدفونة في أراضي الواحات التي تشبه المستنقعات . اما المنقوشات التي تحمل الاسماء العربية وتواريخ الأعراب الذين عاشوا في المنطقة ، فقد كانت كثيرة للغاية ، ولكنها لا قيمة لها .

كانت صورة الوعل تحتل مكان الصدارة بين الصور المنقوشة على الحجارة ، ومن حين لآخر كنت أقع على صورة لجمل أو غيره من الحيوانات التي تكثر في هذه المنطقة. إلا انني قلما وجدت صورة أحد المخلوقات الاخرى ، ولو على سبيل تغيير المنظر .

ولم يكن بعد ظهر ذلك اليوم الأخير مشجعاً،ومع هذا فقد كان لدي الكثير من العمل . وقد تمكنت عن طريق الصخور الموجودة في المنطقة ، من ان ادرس طبيعة المنطقة دراسة وافية . فالى ما وراء دوثانه والصفصافة كانت الصخور تمتد . وقد بدا لي ان لهذه الطبقة الصخرية خواص مغناطيسية ظاهرة،استدللت عليها من تحرك ابرة البوصلة التي كنت احملها . ومن هذه النقطة استطعت ان

احظى بأروع منظر للواحــات ، ولقصر « مرحب » . وكان يقع الى الشمال الشرقي من المكان الذي اقف فيه . كما انني شاهدت ضاحية «الشريف» ، ولمحت قبالتي تماماً الى الشرق جبل الأبيض .

اما دوني مباشرة، فكانت تقوم قرية «البشر» ، وتقبع هذه القرية عند أسفل الصخرة المؤدية الى القلعة . ولو التفت الى اليمين قليلاً ، لوجدت الينابيع التي سبق ان اشرت اليهـا ، بما فيها « عين علي » . وفي هذا المكان بالذات قام علي منفرداً، بذبح كبير اليهود الذي كان يقطن في قصر « مرحب» . ومن هنا نشأت فكرة تكريم النبع فأطلق عليه اسم « عين علي » .

أما عين ابراهيم فهي « المروى »،أي المصدر الرئيسي الذي يزود القرية بمـاء الشرب . وذلك بالنظر لأن معظم الينابيع الاخرى لها طعم المياه المعدنية . وهنالك عين « الراية » وهي تحدد البقعة التي نصب فيها الرسول رايته . أمـا قطاعا قرية « ام كِدّا » فكانا يقعان في الجهة الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية على التوالي .

وتقوم قرية « روّان » (وتلفظ احياناً « روّال ») على مرتفع صخري يقع الى الشمال الغربي من الواحات ، يميزهـا عما حولها تلك القمة الرملية التي تتوج جبل « القُرَيْن » ، والتي كانت تبدو من مكاني وكأنمـا هي ترتفع من وسط الحوض بين حقول النخيل .

وقد خصّصت اليوم التـالي لزيارة موقعين أثريين في « الحرّه » قيل لي انهما مليئان بالنقوش . واسم المكان الأول « المقَطّب » ، أما اسم المكان الثـاني فكان « أبو قُتَيْبَة » . ومن هذين الاسمين يمكن للمرء ان يتصور وجـود النقوش فيها .

وهكذا وجدتني في اليوم التالي اصطحب ويبان وأحد رجال الأمير (ويدعى عبد الله) لنمضي الى هدفنـا ونحن نمتطي ظهور الحمير . وقد مررنا أثنـاء

رحلتنا هذه بمكان يدعى شعب الـ «زَبدية» ، رأينا فيه مزرعة يطلق عليها اسم « العُميني » ، لاحظنا فيها بئراً وعدداً من أشجار النخيل ، وبعض محاصيل الحبوب .

ومن هنا انطلقنا نصعد الى « الحرّة » ذاتها ، بينما كان مسيل « زيدية » على يميننا ، وشعب « هَلهَل » الاهم منه على يسارنا . وفي هذا الشعب وجدنا بساتين صغيرة من أشجار النخيل .

وبعد مسيرة قليلة وصلنا الى المنطقة الزراعية التي تعرف باسم عين « قصبَه » . وكانت هذه المنطقة ذات منظر رائع لما تحويه من نبات « السعد » الملتف ، وشجيرات المريمية التي يسمونها « القرط » . هذا بالاضافة الى حقول الحبوب . ولم نلبث طويلاً حتى وصلنا الى آخر هذه المنطقة الزراعية ، ومن ثم أخذنا نسير في أرض بور غير مستصلحة ، بينما كان مسيل شعب « هلهل » الآن قد غدا الى يميننا مصعّداً نحو أعالي « الحرّة » وفي الوقت المعين وصلنا الى خرائب « المقطب » ، بعد ان جُزنا أرضاً صخرية يصعب السير فيها

هذا وتعترض المسيل في قاع الوادي صخور ضخمة تحجز المياه خلفها على شكل بركة صغيرة مياهها آسنة . وعلى هذا المستنقع ، كان البدو يوردون قطعان مواشيهم وابلهم منذ قديم الزمان . حيث تركوا عند صخوره نقوشهم الكثيرة التي ترجع الى عهد ثمود . وقد قمت بنسخ هذه النقوش وتصويرها بصعوبة كبيرة في الفترة التي جلسنا فيها للاستراحة وتناول طعام الغداء .

وبعد ان تناولنا غداءنا توجهنا جنوباً ، ومن ثم باتجاه جنوبي غربي قاصدين الى هدفنا الثاني . فعبرنا اليه عن طريق ممر لا يتسع لأكثر من حمار واحد ، ويخترق صخوراً عالية مبعثرة في ذلك القفر اللانهائي من سواد الحرة . وقد استغرقت طريقنا عبر هذا الممر الى « ابي قتيبة » حوالي الساعة ، ووجدناه

عبارة عن غدير يتوسط مسيل شعب « سُدَير » . وفي هذا المكان وجدنا مياهاً غزيرة ، على نقيض غدير « المقطب » الذي كان جافاً عندما زرناه في الصباح . وقد قيل لي ان المقطب يحتجز كميات من مياه السيول في أعوام الخير ، الا ان هذه المياه لا تلبث ان تغيض في الأراضي المحيطة به ، او تتبخر بفعل حرارة الشمس . أما « ابو قتيبة » فقد كان مليئاً بالماء الذي شكّل لغزارته بحيرة يبلغ طولها مائة متر ، ومعدل عرضها الخمسين متراً وتقع هذه البحيرة بين صخور عالية ، وعلى جانبيها سد صخري طبيعي مرتفع يشبه الى حد ما ، تلك السدود التي تُنشأ لمنع الفيضانات .

وفي هذا المكان ايضاً وجدت العديد من النقوش بين الصخور ، الا انها كانت كلها باللغة العربية ، وليست بذات قيمة تاريخية ذات شأن . ولعلها نقشت بايدي الحجاج الذين تحولوا عن الطريق الرئيسية انتجاعاً للماء

وقد لاحظت ان شعب « سُدَير » يلتقي بشعب « زيدية » في وادي خيبر . وقد تتبعنا في سيرنا مسيل الوادي المغطى بالشجيرات والأشواك ، زمناً من الوقت كنا خلاله ننحدر مع القناة ، حتى وصلنا الى مخاضة قطعناها الى أرض أقل وعورة ، توجهنا منها نحو الطريق الرئيسية التي تؤدي الى المدينة المنورة. وهناك وجدنا سيارتنا « اللاندروفر » بانتظارنا بين انقاض خربة « العمائر » المكومة على حافة الطريق .

كانت المنطقة التي زرناها حتى الآن تقع الى الشرق من خيبر . وقد جفل منا سرب من غزلان « الإدمي » عندما اقتربنا من « ابي قتيبة » . فجرّب ويبان مهارته في الرماية واطلق عياراً نارياً اخطأ مهاة عن قرب .

وتناولنا طعام العشاء المعهود ، ثم لم نلبث ان توجهنا الى بيت كبير تجار المنطقة حيث دعانا لشرب القهوة هناك .

كان هذا التاجر المعتبر يدعى عبد الله الهندي . وكما يدل اسمه ، فقد كان

هندي الأصل ، ولكنه قطن المدينة المنورة منذ زمن بعيد ، حيث كون لنفسه ثروة لا بأس بها . وقد أصبح هذا الهندي الآن من أصحاب الأراضي المعتبرين ، بعد ان اشترى رقاعاً من الأراضي ومزارع النخيل من أصحابهـا البدو . وقد فلح أراضيه بذكاء ومهارة فدرت عليه أموالاً طائلة .

ومن بين ضيوفه الذين قابلناهم في بيتـه الشيخ « علي أبا الخيل » ، قاضي خيبر . وهو من عشيرة « بُريدَه » الرفيعة ، التي كانت في وقت ما من العائلات ذات السلطان والنفوذ . وقد شاء هذا الشيخ ان يحتكر الحديث طوال الفترة التي مكثناها هناك . ولكنني لم أمكنه من ذلك . فقد تجاذبت مع الحاضرين أطراف الحديث وبحثنا في تاريخ المنطقة ، وموضوع النقوش ، ومكان وجودها ، وغير ذلك من الموضوعات العامة التي أثارها كون التاجر الهندي يملك جهازاً للراديو ، ويواظب على سماع نشرات الأخبار من مختلف الاذاعات العربية .

وقد قال لي مضيفي انه في المواسم التي تهطل فيها أمطار غزيرة تتدفق بها السيول ، ترسل ينابيع خيبر كميات من المياه على شكل نهر تقريباً . وفي هذا النهر توجـد أسماك يبلغ طول الواحدة منهـا قدمين ، تعيش في الفجوات المغمورة التي تتشكل بين الصخور . وبالاضافة الى ذلك فان التمور والقمح والشعير تنمو بكميات وافرة في المنطقة ، غير ان هذه المحصولات تخضع لنظام الضرائب العينية ، التي يحصّلها أعوان أمير حايل . ولم يكن من السهل ان أحصل على معلومـات تدلني على نسبة هـذه الضرائب من مجموع المحصول ، غير انني توصلت الى فكرة عامة عن ذلك ، بعـد محادثات عديدة حول هذا الموضوع . ومجملها ان حصة الحكومة من محاصيل التمور في المواسم العادية تبلغ ثلاثمائة حمل جمل ، وكل حمل منها يتألف من « فردتين » ، وكل « فردة » تزن سبعين « وزنة » ، وكل وزنة تبلغ حوالي كيلوغرام . وتذهب هذه الكميـة الى الأمير وموظفيه في حايل ، يضاف الى ذلك مائة حمـل أخرى كمصروفات لمحصّلي الأعشـار الذين يسافرون في العـادة على شكل مجموعـات يرئس كل

مجموعة منها رجل مسؤول . وهكذا فان الضريبة العينية التي يدفعها أصحاب التمور تبلغ ستة وخمسين الف كيلوغرام ، على أساس ان مجمل المحصول من التمر يقدر بخمسمائة وستين الف كيلوغرام ، او ما يعادل خمسمائة وستين طناً .

أما اعشار القمح فتعادل ضريبة التمور من حيث الكمية ، الا انها تختلف عنها في ان محصلي الضرائب يبيعون نصيبهم في المكان الذي يحصّلونه فيه . ومن ثم يعودون وهم يحملون نصيبهم نقداً . وبطبيعة الحال فان مقدار هذه الاعشار يختلف بين سنة وأخرى وفق المحاصيل وتبعاً لأسعار الحبوب في الأسواق . ولم يستطع عبد الله الهندي ان يعطيني ولو فكرة تقريبية عن حصة الحكومة من هذه الضريبة ، الا ان تقديراتي الخاصة بعد مشاهدتي الأراضي التي تزرع بالحبوب في تلك المنطقة ، اقنعتني بان منتوج الحبوب فيها وفير في سنوات الخصب .

واستناداً الى اقوال عبد الله الهندي ، فان عدد سكان الواحات لا يزيد على ثلاثة آلاف رجل ، موزعين على القرى السبع الموجودة في الوادي ، وهي قرية البشر (وهذه هي المركز الاداري للمنطقة) وقرية ام كدا ، ورُوّان ، و « نتاح » « لاتاح » و « أبو وشيع » ، و « الوجنده » ، وأخيراً « الوادي » . وتقوم القرية الاخيرة في أول وادي الغراس ، عند تجمع روافده على مقربة من قرية « زَبّران » التي تقوم على الضفة اليمنى للوادي .

هذا وقد قدر الهندي عدد البدو الذين يفدون الى المنطقة في مواسم جني التمر بما يتراوح بين ٥٠،٠٠٠ و ٦٠،٠٠٠ نسمة . ولم أر في هذا التقدير أية مبالغة ، لا سيما وأنا أعرف المساحات الشاسعة التي تغطيها أشجار النخيل .

وليس من شك في ان بين هؤلاء البدو عدداً كبيراً من الزائرين الذين يفدون الى المراكز التجارية لشراء مؤونة السنة ، مما يحتاجون اليه من مواد غذائية وغيرها . وقد سمعت من الأمير فيما بعد ، ان عدد الشباب الذكور البالغين الذين

يقطنون هذه المنطقة يبلغ ألف شخص . ويعني هذا التقدير ان عدد السكان بأسرهم ، اكثر مما قدره عبد الله الهندي ، بما يعادل ألف شخص تقريباً وربما اكثر .

وكان اليوم التالي مخصصاً لرحلة شاقة متعبة بغية البحث عن النقوش قرب الواحات . ومن حسن حظي ان الاتان التي اركبها (وكانوا يسمونها « العجلاء » نسبة الى سرعتها) كانت اتاناً ممتازة ذات خطوات ثابتة ، ولا يخشى المرء وهو على ظهرها ان تزل قدمها وهي تصعد بين الصخور .

وقد رافقني في هذه الرحلة كل من ويبان ورجل الامير المدعو عبدالله ، وهو من قرية « زلفي » ، وشخص آخر يدعى مُطيْر من قرية البشر . وكان الاخير يعرف المنطقة معرفة جيدة ، وتلك البقعة التي كنا ننوي زيارتها على الخصوص . ولم يكن أحد ممن رافقوني من المدينة متحمساً لمرافقتي في هذه الرحلة الشاقة ، والى اماكن لم يسبق لأي منهم ان رآها من قبل . ولذا فقد سروا كثيراً لبقائهم في الدار يستقبلون ضيوفهم بحماسة ، ويقدمون لهؤلاء الضيوف الذين كانوا يفدون من القرى المجاورة ، فناجين القهوة العربية المرة ، فيحتسونها واياهم حول وجاق النار .

وبعد ان مررنا بينبوعين هما «عين الراية» وعين « الرُفيْفة » ، صعدنا في شعب « مُقيطا » الذي هو نفسه شعب زبيدية ، رغم ان الاسم يطلق فقط على أعاليه التي تتصل بشعب سدَيْر . وكان القسم المنحدر من هذا الشعب غاصاً بأشجار النخيل التي تمتد مساحات واسعة حتى تصل الى ينبوع « الرفيفة » . ويشترك في ملكية قسم منه صديقي عبد الله الهندي ، كما يملك حصة في اشجار النخيل التي تسقى من ذلك الينبوع .

وقد حدثني عبدالله انه اشترى هذا النصيب من اشجار النخيل ، قبل بضع سنوات ، بثلاثمائة ريال فقط .

ووراء أشجار النخيل مررنا من جديد بحقول الحبوب التابعة لمزرعة « العُمَيني » . ومن هذه النقطة غيّرنا اتجاهنا ، في اليوم السابق ، لنعبر حقول القمح في « الغيّاب » ، حيث رأينا الفلاحين يعملون في حقولهم .

وقد سألت مرافقنا الجديد « مُطيراً » عن معنى الاصطلاح الذي استعمله « شارلز دوتي » ليعبر به عن العمال الزراعيين (وهو « فُطني ») ، ولكنه لم يعرف . وكانت قطعة الارض التي وصلنا اليها ، بما فيها البئر الموجودة هناك ، قد آلت الى عبدالله الهندي ذات يوم ، ولكنه تركها مؤخراً الى رجل من « أم كِدا » يدعى « محمد بن حيدر الحجّي » .

واثناء اقترابنا من نبع « الهلهل » والجداول المتفرعة عنه ، والتي تسمى بالاسم ذاته ، رأيت احد النسور يحلق فوق قمة صخرة عالية . وكان ويبار كعادته مستعداً لاستعمال بندقيته ، فأطلق عليه رصاصة . الا انها أخطأته .

وبعد مسيرة نصف ساعة من هذه النقطة ، بلغنا الى أحد الأهداف الرئيسية التي قمنا بهذه الرحلة من اجلها ، وهو سد « مَشْقُوق » ، الذي يقع عند شعب يحمل الاسم ذاته . وقد وجدت ان هذا السد مخيباً للآمال . خاصة بعد أن رأيت سد « الحصيد » ، وسد «قصر البنت» . اذ انه لم يكن الا عبارة عن بناء على ارتفاع ستة أقدام ، ويبلغ سمكه خمسة عشر قدماً . اما طوله فلا يزيد على مائة واربعين ياردة . وقد أقيم هذا السد وسط مجموعة من الصخور القليلة الارتفاع القائمة على جانبي المسيل . وقد رأيت هذا السد مبنياً من حجارة غير مشذبة ألقيت بعضها فوق بعض دون ضابط او نظام ، وحشرت بينها قطع من الخشب المأخوذ من أغصان الأشجار وكانت السيول قد أثرت على قسم يبلغ طوله ثلاثين ياردة في الجهة اليمنى منه . وفي تلك النقطة بني جدار قصير من الحجارة كي يمنع مياه الوادي المتجمعة خلفه من ان تتسرب الى الأراضي المجاورة . ولعل أكثر ما يسترعي الاهتمام في هذه البقعة ، قطعة من الأرض مفتلحة ، ترتوي من بئرين في الجهة السفلى من السد .

وقد شاهدت في المكان بضعة أكواخ تناثرت هنـا وهناك حول الحقـل ، بنيت كلهـا في الأرض المرتفعة التي تحيط به . ويملـك هذا الحقل ، رجـل من قرية « البشر » يدعى « علي بن احمـد » ، لا مجـال للشك في انه فعل خيراً حين استثمر كل شيء في المنطقة : السد والأرض على السواء . ولقد رأيت نبات القمح يرتفع قليلاً عن الأرض في منطقة طولها ٥٠٠ ياردة، وعرضها ٢٥٠ ياردة . والجدير بالذكر ان شعب « مشقوق » يشكل أحد روافد شعب « هلهل » الذي يخترق بساتين النخيل التي مررنا بها من قبل .

وبعد مسيرة عشرين دقيقة براحة تامة ، اثناء صعودنا الى المرتفع الذي كان يقع الى يميننا ، وصلنا الى ضفة الشعب . ومن هناك ارتقينا مرتفعاً ، ألقينا منه نظرة الى حوض « نُقرَة الحرضَة » ، وتحيط به احاطة تامة صخرةٌ يبلغ ارتفاعها حوالي خمسين قدمـاً . وفي هذا الوادي عدد غفير من الآبار التي تستخدم في سقي مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية الخصبة التربة لامتزاجها باللافا . وعند هذه الأرض وبالقرب منهـا رأيت عدداً من الصخور المعزولة التي كانت تبدو وكأنما تحمل نقوشاً . وقد وجدت هذه النقوش عندما فحصت أول صخرة مررنا بهـا . وكذلك رأيت نقوشاً على كثير من هذه الصخور . والحق انني استطعت ان اجمع كمية لا بأس بها من المعلومـات عن تاريخ « ثمود » من هذه النقوش . مع ان معظمها لم يكن سوى اسماء شخصية يرجع تاريخهـا الى عهد بعيد جداً ، عندمـا كانت نسبة الامية بين العرب أعلى بكثير مما هي عليه في الوقت الحاضر . ولما لم يكن لدى العرب ما يكتبون عليه في ذلك الوقت ، فقد لجأوا الى النقش على الصخور . وبهذه الطريقة استطـاعوا ان يُبقوا أصدقاءهم وأعداءهم ، على حد سواء ، على اطلاع بنشاطهم المـاضي . ولعل الذين نقشوا هذه الاسماء والتواريخ على الصخور كانوا هم أول من امتلك « وادي حرضة » وفلحوا ارضه ، وهي تشكل مساحة واسعة على الجهة اليسرى من الوادي ، وتمتد بمحـاذاة مرتفعي « صَفَر » و « أحفره » في الجنوب الغربي حتى تصل

الى المسيل الرئيسي لوادي « الفراس . »

وفي هذه المنطقة حوالي اثني عشر بئراً يوجد فيها الماء على قامتين ، غير ان واحداً منها فقط كان يستعمل في اغراض الري لذلك اللسان الارضي العامر بالزرع .

وكانت المنطقة توحي للمرء انه موجود في صحراء، اذ ان علائم وجود الحياة فيهـا ، باستثناء الآبار والأرض المزروعة ، كانت غير ممثلة إلا في رأسين من البقر ينضحان المــاء من البئر الرئيسية ، ورجل واحد كان يشرف على تلك العملية .

وبعد ان استأنفنا سيرنا بفترة قصيرة ، وصلنا الى نقطة يمر منهــا شعب « الحرضة » مبتعداً عن الوادي . وبعد مسافة قصيرة اخرى بلغنــا جداول تنساب فيها المياه ببطء . وقد علمنا ان هذه الجداول تشكلت من مياه السيول المنصبة في شعب « هلهل »، فتتسرب من الشعب على هــذه الصورة لتصب في وادي « الفراس » . وعندما تعود هذه الجداول لتخرج من الحرة ، عند نقطة صخرية في الجهة المقــابلة ، شاهدت بساتين النخيل الغنية في أراضي « تاتاح » و « أبو وشيع » . كما ابصرت حقول الحبوب الواسعة التابعة لهاتين القريتين ، تمتد امامنا حتى تصل الى هدب « دهام » الواقع في الغرب من المكان الذي نقف فيه . وفيما وراء هذه الاراضي في الطرف القصي وجدنا بحيرة تحيط بها شجيرات المريمية والسمد . وقد عبرنا تلك المنطقة خــلال طريق صخرية وعرة ، يبلغ عرضها حوالي عشرة اقدام . ثم صعّدنا في مرتفع عبر طريق ضيقة جداً أدت بنا الى ارض واسعة ، اغلبها أرض طينية تدعى « سهــله » ، تشكل جزءاً من وادي خيبر . ولم يمض طويل وقت حتى وصلنا الى قلعة « مرحب » عندمــا مررنا بقرية « البشر » . وبعد ان عبرنا مقبره القرية توجهنا رأساً الى بيتنــا في « شريف » .

وبعد ان تناولنا طعام العشاء في ذلك المساء ، وكان مؤلفاً من لحم الغزلان

وكفيره من وجبات طعام العشاء مقدماً كهدية من الامير ، قمت بزيارة القاضي . وفي بيته وجدت الأمير ورجـالاً آخرين كانوا يرشفون اقداح القهوة ويتكئون على آرائك وثيرة . وقد أثرت أثناء الحديث نقطة طالما تقت الى معرفة حقائقها طوال سنين عديدة .

ويذكر قراء « دوتي » ان مضيفيه عندمـــا زار خيبر كانا الشقيقين محمد وأحمد النجومي ، اللذين يملكان بيتـــاً في ذلك الزقاق القذر الضيق في قرية البشر . وكان « مطير » في ذلك المساء قد اراني هذا البيت وقال لي انه يستعمل الآن كقاعة للمحكمة أيام موسم جمع المحاصيل حيث تكثر المنازعات .

وكان القاضي ذاته هو الذي يباشر المحاكمات في تلك المحكمة . ولما كان القاضي غريباً عن المنطقة ، فلم يكن يهمه معرفة أي شيء عن العائلة التي كانت تمتلك البيت منذ زمن طويل قبل حضوره الى المنطقة وتسلمه منصب القضاء فيهـا . كان هو من أبناء « البريدة » وربما لم يسمع من قبل باسم « دوتي » .

ومهما يكن من أمر فقد استطعت خلال اقامتي في خيبر ، بطريقـة أو بأخرى ، ان اجمـع بعض المعلومات عن عائلة « النجومي » هذه . وقد زرت بيتهم مرة اخرى بعد ظهر اليوم التالي والتقطت له بعض الصور . ولشد ما كان استغرابي عندما علمت ان صديقي عبدالله الهندي ، هو الشخص الوحيد الذي يعرف عن آل « النجومي » اكثر من أي واحد من سكان خيبر . وليس هـذا فحسب ، بل انه كان على علاقات طيبة مع الشقيقين وعائلتهما .

وقد علمت ان بئر « الغيّاب » الذي كنت قد مررت به صباح ذلك اليوم ملكٌ لمحمد النجومي ، ومن المرجح ان يكون « دوتي » قد امضى في هـذه المنطقـة بالذات يوماً في نزهة مع مضيفه محمد . وقد سبق لي ان أشرت الى ان هـذه المنطقة كانت ذات يوم ملكاً لصديقي عبد الله الهندي ، ولكنه باعهـا فيما بعد الى شخص من قرية « ام كدا » . وعلمت كذلك ان اهتمام عبد الله بهذه المنطقة انما يعود الى حقيقة كونه قد تزوج احدى فتيات عائلة النجومي ، وربما كانت هذه الفتــاة حفيدة محمد النجومي أو شقيقة احمد . وقد يكون السبب

الذي من اجله تزوج عبد الله تلك الفتـاة عائد الى رغبته في تأمين اشرافه على اراضي « الغيّـاب » تلك الممتلكات التي كانت قد آلت الى زوجـة عبد الله من ابيها عبد المطلب النجومي . أما جدهـا فلم استطع ان أتوصل الى اسمه . ولا بد انه قد تزوج هذه الفتاة في المدينة المنورة أو « ينبع » . فلما انتقل الى خيبر في سنة ١٩٢٣ فرضت عليه المناسبة ان يشرف على ممتلكاتها. ثم ظل يتولى الاشراف عليها بعد وفاتها عام ١٩٣٧ نيابة عن ابنتها ووارثتها الوحيدة .

اما ابنته منها فقد تزوجت « احمد الخطيب » إمـام مسجد قرية البشر في الوقت الذي زرت فيه القرية . ومهما يكن من امر فقد توفت منـذ ثلاث أو أربع سنوات فيما بعد ، ولربما استولى بعد ذلك على « الغيّاب » .

هذا وقد اخبرني احمد الخطيب ان اصدقاه « دوتي » محمداً وأحمد ، قد قتلا على يدي أحد رجال قبيلة (جُهَينَة) ، وكان قد اخذهما على حين غرة وهمـا يلعبان لعبة وتدعى (بيعة) ، وربما كانت (دومينو) .

وربما كان قتلهما يتعلق بقضية ثأر قديم ، إذ ان أحد أفراد قبيلة « جهينة » ويدعى « ابن نجيم » كان على علاقـة بالميراث المتخلف عن الشقيقين محمد واحمد النجومي اللذين كانا من قبيلـة « حرب » . هـذا ولا يزال الواقع يشهد بان عائلة النجومي قد انقرضت من خيبر . وثمة شائعة تقول بان من تبقى من هـذه العائلة قد استقروا في « ينبع » حتى يومنا هذا ، الا انـه لم تتح لي الفرصة كي أتحقق من ذلك .

وعبد الله الهنـــدي من قرية في قضـــاء كراتشي (الباكستان) ، وكان قد غادر بلاده منذ سنة ١٩٠٨ ليؤدي فريضة الحج الى مكة ، ويقضي ما تبقى من حياته في شبه الجزيرة العربية . وبعد ان قضى خمس او ست سنوات في مكة هاجر الى المدينة . وانقضت حوالي عشرين سنة على ذلك ثم تزوج من إحدى وارثات خيـــبر ، ونزح معها الى حيث يسكن أهلها ليقيم هنـــاك ويصبح من الأثرياء . وكان عبد الله الهندي هذا رجلاً على جانب كبـــير من الوسامة ، وذا نظرة فلسفية في الحيـاة . ولم يكن ليستغني عن الراديو ولا عن

السيارة ، وذلك كي يتصل بالعالم الذي هجره منذ زمن بعيد .

وأمضيت يومي الأخير في الواحات باحثاً في أقسامها الجنوبية . وقد سرت على طول هدب مرتفعات « دونانا » وراء عين « الصفصافة » كما زرت القلعة القائمة هناك .

واجتزنا مرتفعات عين « الصنصافة » عبر ما يشبه المسرب في الأراضي الواطئة الطينية المعروفة باسم « السبيكي » . وكنت أرى في هذه المنطقة أحواضاً من الملح السائل او الجاف ، تنعكس عليها خيالات أشجار النخيل القائمة على الناحية المقابلة . والأرض التي تنبت فيها هذه الأشجار تدعى « الوطيح »، وترويها مياه عين « البُحير » . ومن هذه العين تتفجر مياه صافية رقراقة ، تسير في جدول راح يمتد الى جانب الطريق الصخرية التي نسير فيها . وكانت هذه منعطفاً يظل يتلوى بين جدارين بازلتيين يبلغ ارتفاعها ستة أقدام .

وما هي إلا دقائق حتى كنا نصعد فوق نجد « ام كدا » لنصل الى بوابة القرية الأثرية . وقد عبرنا هذه البوابة ثم طفنا حول القرية حتى تتاح لنا فرصة القاء نظرة شاملة على المناظر المحيطة بها . ومن ثم سلكنا طريقاً ضيقاً تصل بين الهضبة وبين منبسطات بساتين النخيل . وكانت هذه الطريق تزدحم بجامعي التمور من البدو الذين كان منظرهم ، وهم عائدون من عملهم في تشذيب أشجار النخيل ، منظراً مبهجاً للغاية ، كما ان منظر المنطقة من تلك البقعة كان رائعاً جداً . واليك موقعنا الآن :

كانت قلعة « مرحب » قائمة الى الجهة الشمالية الشرقية ، بينما تلوح قرية « روّان » الى الشمال تقريباً . أما الى الجهة الغربية والشمالية الغربية فقد كانت تقوم قرية « بجمعة » ، اي نقطة تجمع مياه الوديان حين تلتقي بمنطقة البساتين الكثيرة المزروعة بأشجار النخيل . وكان علينا ان نمر بهذه القرية ونحن في طريق عودتنا .

وإذ واصلنا الهبوط في ذلك المنحدر باتجاه نخيل «طنيران» ، وجدنا عدة

تصاوير منقوشة على الصخور المجاورة ، كما وجدنا بعض النقوش التي تحمل اسماء عربية كان بينها واحد يعود الى عصر « ثمود ». غير ان الذي كان يشغل اهتمامنا هنا هو عين « طيران » والكهف المجاور لهـــا ، وكان مدخله قـد اقفل من جراء تدحرج الصخور والحجارة المتساقطة . وكانت الأساطير قـد ذكرت ان الكهف مليء بالكنوز ، فاندفع بعض سكان المنطقة الى القيـام بالتحري الضروري حول صحة هذه الأساطير .

وبلغنا الكهف ، وقـــد تجمع حولنا عـدد من سكان المنطقة ، فانبرى أحد الصبيان ليؤكد بان والده واثنين آخرين قد هاجمهم حارس الكهف أثنـاء ما كانوا يقومون بالحفر في داخله . اما ذلك الحارس فهو تنين او عقرب بحجم الثور . وقد أضاف الغلام ان الرجال الثلاثة ماتوا فـيا بعد متأثرين بجراحهم . ولما لم تكن لدينا رغبة ولا وقت نضيعـــه هنا في البحث عن كنوز مزعومة ، فقد تابعنـــا سيرنا واجتزنا نخيل « طيران » و « بجـــير » . ومن ثم خرجنا الى فضاء فسيح تقوم فيه قرية « دكاك » . وكانت هذه القرية الصغيرة قد بنيت مؤخراً من قبـل شخص يدعى « محمـــد الفرحان » ، كي تكون مــنزلاً له ولعائلته وعماله ، عندما يفدون الى المنطقة في مواسم الحصاد او جني التمور ، او عندما يحضرون لزيارة « خيبر » . ومحمد الفرحان هــذا هو شيخ عشيرة « عيده » وهي أحد افخاذ قبيلة « عنزة » .

وتتألف « دكاك » من حوالي اثني عشر كوخاً صغيراً يتوسطها واحد أكبر منها حجماً وأعلى سطحاً وأجمل شكلاً ، اظنه مخصصاً لاستعمال شيخ القبيـلة. ومما يؤسف له ان هذه القرية كانت خالية تماماً حين مررنا بها .

ووراء هذه القرية الصغيرة مباشرة تقع قرية (سَلالِم). وقد عبرناها الىحزام طويل من النخيل وجدنا قربه خرائب ضريح مشكوك في أمره . وقد ذكرتني هذه الخرائب بمثيلات لها في «المدينة» يقال انها كانت إحدى بنايات اليهود. ومن ثم قررت ان أجعل استراحة الظهر في ذلك المكان ، علـّني أقوم بالتحقيق في هوية أصحاب هـــذا الضريح الذي يطلق كان عليه الاعراب المجاورون

اسم « قصر سلامه » . ولم يتمكن أحد من مرافقيّ ان يزوّدني بشيء من المعرفة حول تاريخ ذلك « القصر » او بعض الأساطير التي تدور حوله ، كما انني لم أجد شيئاً مهماً في الخرائب ولا في الضريح ذاته ، فظللت اجهل ما اذا كانت الأتربة حوله طبيعية ّاو أنها وضعت بفعل فاعل. وربما كان الاحتمال الأخير هو الأقرب الى الصحة في الوقت الحاضر . ومهما يكن من أمر فقد تكون هذه الخرائب لكنيس يهودي قديم تهدم واندثر .

ومن أعلى تلة الضريح ، حيث تناولت طعام غدائي المؤلف من الشاي و « البسكويت » وثمار الأناناس المعلبة ، كنت أتمتع بمنظر جميل للمنطقة التي كان يتحتم علينا ان نمر بها عندما نستأنف تجوالنا في صبيحة اليوم التالي . هذا وترتفع قمة جبل « مَخَطّط » العالية في الغرب البعيد قبالة الضريح . وعلى خط السكة الحديدية او قربه الى جانب هذا الجبل، يقع جبلا « الحسين » و«غرّا». بينما يمتد سهل اللافا حتى يبلغ حضيض هذه الجبال . أما جبل « سَوْرة » وهو أقل ارتفاعاً من الجبال السالفة الذكر فيقع الى جانبها ، ولكنه يمتاز عنها بوجود قلعة (سوره) فيه . وهي موضع كان الحجيج يهتدون به في طريقهم الى مكة والمدينة . وفي سفح هذا الجبل كانت محطة سكة حديد «سورية» .

وتمتد الى الشمال الغربي من ذلك المكان سلسلة من الجبال العالية تعرف باسماء (حِصار) و (أغار) و (طربان) و (ضُرَيْب) . وينتهي آخر هذه الجبال عند سهل (صحن) الذي يقود الى (العلى) . وإذا انحرفنا من (العَلى) قليلاً صوب الشمال الشرقي ، نرى قمم (الغمره) وهي احد معالم المكان الذي كنا نزمع زيارته في اليوم التالي،أي قرية (الحفيرة) وآبارها . وهذه ايضاً مساكن لشيخ قبيلة (عَيْدة) . وكان علينا ان نسافر بضعة أيام في هذه المنطقة قبل ان نصل الى هدفنا الذي يقع في أول وادي (لحن) ، ذلك الوادي الذي كان علينا ان نجتازه عبر سلسلة جبال (حرب) .

وما إن استأنفنا المسير حتى اكتشفنا اننا قد ضللنا الطريق وسط غابات كثيفة من اشجار النخيل ، ولم يكن لنا بد كي نتخلص من هذا المأزق ، من ان

نعود ادراجنا الى قصر (سلامة) . وقد حاولنا ان نسلك طريقاً آخر ولكننا اصبنا قليلاً من النجاح، فمررنا بينبوعين يطلق على اولهما اسم (عين سلالم) وعلى الثاني (عين ام البيضة) . ومن ثم وصلنا الى بئر قديمة تدعى (بئر الوُثيري) . وقد حدثني (مطير) بأن هـذه البئر كانت مركزاً يتجمع فيه أهل خيبر قبل حكم ابن سعود ، ليمارسوا ألعابهم (الوثنية) ويقدموا قرابينهم الاسطورية على المنحدرات التي تتدرج هابطة نحو المسيل الذي تتجمع فيه مياه خيبر - المتشعبة المصادر - قبل التقائه بوادي الفراس .

ومن المؤكد ان مرافقي كان صغيراً جداً حينذاك فلم تتح له فرصة الاشتراك في مثل هذا القصف والعربدات ، ولذا اراه على معرفة قليلة بطبيعة تلك المجون . ولست استبعد انه كان يخشى التحدث عن مثل تلك الفظائع بناء على اوامر من الحكومة الجديـــدة . ويبلغ اتساع الوادي عند البئر حوالي ألف ياردة ، كان تدفق الميـاه فيها ظاهراً . وتمتد دون هـذا الوادي على مرمى النظر بيوت (رُوّان) وبساتين النخيل الواسعة التابعة لتلك القرية . ومع اننـــا اقتربنا من تلة (رُوّان) الشديدة الانحدار إلا انني لم ازر القرية ، بل قررت العودة الى المخيم .

وبعد اجتياز عين (القوَيْر) ، وهو نبع اكتشف حديثاً غير انه لم يجرّب في الاراضي الموجودة حوله أي نوع من انواع الزراعـــة ، مررنا بصخرة ترابية رائعة التكوين تقع الى الشمال الغربي من جبل (قُرَين) ذي الصخور العالية التي ترتفع حتى ليظن المرء انها تلامس الافق . وهي تبرز للعيـان فوق جميع الجبال المجاورة في تلك المنطقة . وتقول الروايات التقليدية ان النبي محمداً قد استراح تحت ظلال تلك الصخور اثناء غزوة خيبر . ومن هنا كان اسم هذه الصخور (ثوير النبي) . وهو تعبير يصعب علي تفسيره مع ان الكلمة تتضمن معنى (بركان ثائر) أو ثورة بين النـــاس . وقد وجدت على صفحة الصخرة الامامية نقشاً باللغة العربية غير مألوف الشكل . وكان عبارة عن نقش طويل مؤلف من سبعة اسطر، ولكنه -بكل أسف - قد تهشم بفعل الأحوال الجوية

الى درجة انه تعذر علي استنساخه . ولو انني استطعت ذلك، لأمكنني الحصول على تفسير احدى تلك الاساطير القديمة هناك . وقد تسلقت أعلى «ثوير» غير انني لم اجد فوقها ما يثير الاهتمام سوي خدوش عربية صغيرة بالاضافة الى رسوم بعض الحيوانات . وحتى هذه لم استطع ان التقط لها صورة رغم جميع المحاولات التي بذلتها في سبيل ذلك .

ومن هنا توجهنا مباشره الى قلعة (مرحب) متبعين طريقاً يقع فوق بساتين النخيل . ومن ثم دخلنا قرية (البشر) من البوابة الوحيدة المتبقية فيها ، وتسمى (باب خوخه) . هذا اذا جاز لنا ان نسميها بوابة ، ولو مجازاً ، اذ انها ليست إلا نفقاً نُحت من اسفل صخرة مرحب الكبيرة ، وفي قاع بناء متجهم يبرز عن طرف تلك الصخرة الشديدة الانحدار، ويطل على بساتين النخيل الفسيحة امامه . وقد أصر صاحب الدار وكان يدعى (حسن غوث) على ان يستضيفنا لنشرب القهوة والشاي . وهناك انضم الينا احد اقرباء دليلنا مطير ، وكان شاباً يشغل منصب إمام المسجد ، ويدعونه « احمد الخطيب » بالنظر لأن اسمه احمد كما انه يقوم بالقاء خطبة الجمعة في المسجد .

والحق ان الحكم الوهابي في المملكة السعودية قد تمكن من ازالة الكثير من العنعنات القبلية في هذة المقاطعات النائية من شبة الجزيرة . غير ان احمد هذا وقريبه مطير كانا لا ينفكان يتبجحان بأمجاد اسرتهما التي ترجع الى عشرة اجيال ، أو منذ ان استقرت عائلتهما في « خيبر » .

وبعد ذلك توجهنا الى قصر « مرحب » لنستأذن الامير بالسفر . وهناك تناولنا القهوة والشاي بينما رحت اشكر الامير على كرم وفادته ، وعلى المساعدات الجمة التي قدمها لنا اثناء مقامنا في خيبر . كما ابلغته باختصار عن الأعمال التي حققتها في بلده وانطباعاتي الخاصة عن الطريقة التي يسوس فيها الناس . وشرحت له آرائي بصدد تحسين المنطقة في المستقبل ووعدته بأن انقل الى وزير المالية السعودي ما شاهدته من ضرورة اصلاح هذه المنطقة ، في أول اجتماع اعقده معه عند عودتي الى مكة .

ولما نهضت مستأذناً ومودعاً، ابدى الامير رغبته في مرافقتنا حتى المراعي القريبة ، حيث كانت ماشيته وابله هناك ، وحيث ارسل عائلته مؤخراً في رحلة الى الخلاء . وهم يعيشون هنالك في خيام يضربونها خصيصاً لهذا الغرض ، أي لقضاء عطلة راحة واستجمام . وقد رحبت بالاقتراح ورجوته ان يكون مسيرنا الهوينا كي اشاهد المنطقة بجلاء ، فأستطيع ان اسجل معالمها على الخريطة . ولم يعترض الأمير على رجائي هذا بالنظر لأنه كان يأمل ان تتمخض زيارتي هذه عن تحسين شؤون المنطقة التي كان يحكمها .

وفي طريق عودتنا الى بيتنا تسكعت في القرية وزرت مسجدها الكبير وسوقيها اللذين يعرفان باسم (السهين) و(الرحَبة) ، ذينك السوقين اللذين مشى فوق ارضها دوتي من قبل . وكذلك فقد التقطت صوراً لبيت النجومي الذي عاش فيه دوتي فترة من حياته . كما التقطت صوراً للمدرسة (الحديثة) التي تقع بمواجهة البيت في الشارع العام . هذا وقد أفلت الشمس قبل ان نصل الى بيتنا لاداء صلاة المغرب .

لقد امضيت أربعة ايام فقط في خيبر ، ولكنني لم اضع دقيقة واحدة منها في بلادة أو كسل .

٣

من خيبر الى تيماء

كتب « دوغلاس كارّو تهرز » في سنـــة ١٩١٧ حول موضوع رحلات « غوارماني » في شمال شبـه الجزيرة العربيـة سنة ١٨٦٤ ، فقال :« ان المنطقة التي تتوسط ما بين « تيماء » و « خيبر » لم يسبق ان جابهـــا انسان من قبل باستثناء « دوتي » . وفي الواقع ان هذه المنطقة هي التي كنت اعـــتزم اكتشافها في هذه الرحلة رغم علمي اليقين بان العديد من الأميركيين قـد قاموا بعـد الحرب الثانية بزيارة كثير من المناطق الرئيسيـة في هـذا الجزء البكر من المملكة السعودية بحثاً عن النفط والماء ، وغير ذلك من الثروات الطبيعية الأخرى . كنت أعلم ان هؤلاء الأميركيين قـد تمكنوا خلال عملهم في هذه المنطقة من زيارة معظم ارجائها،ولكنزياراتهم كانت سريعـــةعابرة . وكان كل همهم ان يؤدوا واجباتهم دون ان يهتم أحد منهم بتسجيل معالم المنطقة . ولو لم أكن أعرف هذه المعلومات مسبقاً ، لكان من المرجح ان أجد أثنــاء عبوري لهذه المنطقة الكثير من الأدلة التي تشير الى الطرق التي سلكوهـا . ولا يسع المرء إلا ان ينتقد هؤلاء الأميركيين ، كما لا يسعه الا ان ينتقـــد « غوارماني »

لقيامه بزيارة المنطقة دون ان تكون لديه ذرة من المسؤولية او التحسس بالمسؤولية . ذرة تحمله على تسجيل معالم هذه المنطقة المجهولة ، أو شبه المجهولة . لقد اكتفى غوارماني والأمير كيون بالتمتع بعالم المنطقة بشكل أناني دون ان يتيحوا الفرصة لغيرهم من المهتمين بها ، لاستقاء المعلومات عنها بفضل خبرتهم هم . وعلى الأقل فيما يتعلق بالطرق التي اتبعوها او اسماء الاماكن التي شاهدوها أو زاروها .

وكل ما أعلمه وأستطيع ان أقوله بهذا الخصوص هو انه : من المحتمل ان تكون هذه المعلومات قد دونت في بعض التقارير الجغرافية التي حجزتها بعض الحكومات او الشركات التجارية فلم تنشر . غير انني لا أتردد في اعلان هذه الحقيقة ، وهي ان رغبة الانسانية في معرفة شيء عن المناطق النائية من عالم (تيماء-خيبر) لم تتحقق على يد أي ممن سبقوني ، باستثناء دوتي طبعاً، وخاصة فيما يتعلق بهذه المنطقة بالذات . كنت اعتمد على ما سجله «دوتي» ، إذ ان المرء يستطيع ان يتتبع خط سيره بشكل مستمر وبصورة دائمة دون أية صعوبة في أية منطقة من مناطق العالم سبق له ان تجول فيها .

وفي صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٥٠ كان كل شيء في بيتنا بشارع « الشريف » قد تم حزمه واعداده . وكنا على استعداد لحمله الى السيارات كي نشرع في هذه المسيرة في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحاً . كان الامير وحاشيته معنا ، وكانوا يرشفون اقداح القهوة التي قدمناها لهم ، أثناء ما كان رجالي ينقلون امتعتنا الى السيارات . وقد قرر الجميع ان يسافروا في سيارات « اللوري » ، بينما اختار دليلي الجديد ان يركب معي في سيارة « اللاند روفر » . وكان هذا الدليل يدعى « مهماز » أو « محماس » .

وقد تقدمت وإياه الركبَ في طريق المدينة المنورة مسافة ميلين

تقريباً ، حتى وصلنا الى نقطة درنا منهــا شمالاً ، وسرنا مع امتداد وادي « سلامه » . وعلمت ان مسيل الماء الذي يصب في هـــذا الوادي ، ينبع من أعالي « الحرّة » في جوار جبل الابيض ، ويظل ينساب في هـذا الوادي حتى يندمج مع المسايل الاخرى النابعة من منحدرات جبل « عطوه » ، ثم يتابع سيره حتى يمر بقرية « أم كداء » .

وقدحافظنا علىمسيرنا الى شمالالوادي كي نتجنب أجمات شجيرات «السَلم» الكثيرة هناك . وكانت تلك الآجام الشوكية هي العلامة الفارقة للطريق الذي نسير فيه . وكان سيرنا سهلاً لم نجد فيه صعوبة تذكر ، اللهم إلا في الارض الوعرة في الحرة ، حيث يخترق الوادي تلك المنطقة ثم ينفذ الى بساتـــين النخيل التي تحمل اسمه ، في ضراحي قرية « ام كداء » .

وبعد ذلك مباشرة مررنا ببئر ماء ، وحقول حبوب تابعة لقريـــة « بير عبد اللطيف » . وبعد تلك القرية أخذنا نصعّد في مرتفع يؤدي بنا الى قلعـــة (دكاك) . ومن ثم عبرنا بساتين النخيل التابعة لقريتي «طيران » و « سلالم » ، ثم بساتين النخيل التابعة لقريتي « دوّاعي » و « وجده » ، حيث بلغنا المسيل الرئيسي للوادي في نقطة تبعد قليلاً عن مصبه في وادي الفراس . وكان عرض الوادي في تلك النقطة حوالي خمسين ياردة ، أما مياهه فكانت متدفقة بقوة ، كما انها عميقة .

غير ان دليلنا اثبت معرفة كبيرة بطبيعة المنطقة ، إذ سرعان مـا قادنا الى نقطة عبرنا منها الوادي دون صعوبة تذكر . ومن ثم اقبلنا على بساتين للنخيل تقع في أسفل وادٍ يدعى « معان » . وهو عبـارة عن امتداد لواد آخر يدعى « مجمع » ، يقع بين هدبي « دَهان » و « أحفَره » . وكانت طريقنا الآن تحـــتم علينا التصعيد في هذا الوادي فقطعناه . ثم أخـذنا نصعّد في النجد ، وعندمـا بلغنا منتصفه توقفنا لنلقي نظرة على ما حولنا . وكانت قلعـة « مرحب » في اتجاه جنوبي غربي مقابل جبل « عطوه » والنقطةِ التي انحرفنا فيها عن طريق

المدينة المنورة . وكنا قد قطعنا حتى تلك اللحظة مسافة تسعة أميال ، وان كنا لم نبتعد الا أربعة فقط عن النقطة التي تحركنا منها . ومن هذه النقطة التي وصلناها ، كان علينا ان نسافر شمالاً ، (او لعله أصح لو قلنا : ان نسافر باتجاه شمالي شرقي).

وبعد ان قطعنـــا منطقة الصخور المنخفضة التي تربط حاشيتي « دهام » و « صفَر » وصلنا الى نقطة وعرة جداً فيها لسان صخري يشير الى ان أي تقدم نحو الامام لن يكون أمراً يسيراً . وهنا توقفنا لنعطي الدليل الفرصة لاستعمال قيافته والعثور على الطريق التي يبدو اننا قد اضعناها من قبل . ثم تبين لنـــا انه يتوجب علينـــا العودة الى الوراء مسافة ميل . ولكننا ما ان فعلنا ذلك ، حتى وجدنا انفسنا لا زلنا تحاصرنا ارض الحرة من كل جانب . ومع هذا فاننا لم نيأس ، ولم يمض طويل وقت حتى وجدنا لنا طريقاً عبر شعب « أحفره » . وكانت تلك الطريق عبارة عن مسرب يخترق صخور « احفره » ويؤدي بالتالي الى بئري ماء وحقول حبوب تابعة لقرية « الخضرانة » . والماء في هذه المنطقة وفير لا يزيد على قامتين تحت سطح الارض . وكذلك فقد كانت اشجار النخيل الكثيرة التي تضفي على المنطقة جمالاً رائعاً وقيمة كبيرة .

وليس هـــذا الوادي اكثر من فرع لوادي « احفره » الذي يشكل بدوره احد روافد وادي « الغراس » . وكانت طريقنا الآن تسير في الوادي باتجـــاه شرقي حتى نصل الى نجدٍ من اللافا يبلغ ارتفاعه مائة قدم ، ويقوم على الضفة اليمنى لذلك الوادي . ومن على هذا النجد كان بوسعي رؤية ذرى « عطوه » ، ولكنني لم استطع ان المح أي شيء من آثار خيبر . وصعدنا مسافة ميلين بعيداً عن البئرين ، ومن ثم تركنا الوادي واتجهنا شمالاً ، فوصلنا اخيراً الى مضارب الامير في مكان يدعى « روضة أم العَمر » . وقد قطعنـــا في هذه الرحلة مسافة عشرين ميلاً ، وان كنا في الواقع لم نبعد عن خيبر اكثر من خمسة عشر ميلاً .

ولقد استغرقت سفرتنا اكثر من خمس ساعات ، غير ان معظم هذا الوقت

ضيّعناه في توقف اجباري او اختياري ، استطعت بفضله ان احقق ما ارجوه من مسح للمنطقة التي كنا نمر بها .

وكانت « روضة ام العمر » مكاناً بديعاً ، فيه عدد من الاكواخ الطينية ، يعزل الواحد عن الآخر لسان بازلتي من صخور الحرة فيه نقور كثيرة ، أو برك صغيرة حفرتها السيول الاخيرة . وتحيط بهذه الاكواخ اعداد لا تحصى من اشجار الأكاسيا .

وكانت رياح جنوبية قد بدأت ، منذ اليوم السابق لوصولنا ، تدفع معها سحباً داكنة . فما ان افلت شمس ذلك النهار حتى كانت السماء ملبدة بالغيوم . وظهرت في اقصى الغرب سحب سوداء تنذر بقصف الرعود . وشاهدت عدداً كبيراً من (الصقور) تتدافع نحو شجيرات العوسج ، التي نبتت وحدها وبلغ بعضها حداً جعلها تبدو كالأشجار الكبيرة . ولعل مرد ذلك الى طبيعة الارض الخصبة . ولاحظت ان جميع قنوات الموجودة في هذه البقعة ، تصب في وادي « الخضرانة » .

ومما تجدر الأشارة اليه ، ان القسم الاكبر من مياه الامطار الاخيرة قد انسابت في هذه القنوات لتصب في الوادي المذكور . أما ما تبقى منها ، فقد غار في الأرض أو تبخر بفعل حرارة الشمس .

أما القاع المنخفض في الحوض الذي ضربنا خيامنا فيه ، فقد لاحظت ان ماء بركته قد تناقص مؤخراً بحيث بدا ان مستواه قد انحسر عن طرفها العلوي بخمسين ياردة . وقد امضيت بعد ظهر ذلك اليوم عند كومة من الحجارة في حاشية الحرة القريبة وأنا ادرس طبيعة المنطقة ، يساعدني في ذلك دليلي « محماس » . ولم احتج الى طويل وقت بعد ان التحق هذا الرجل بخدمتي لأعرف ان معلوماته الجغرافية تختفي بالسرعة ذاتها التي اختفت فيها معالم خيبر حين خلّفناها وراءنا . أما الآن وهو يبدي جهله المطبق بكل ما في المنطقة الواقعة

أمامنا ، فان الامر يجب ان لا يهمل بتاتاً .

ولهـــذا صرفته بعد ان حمّلته رسالة الى الأمير ، واخرى الى جماعتي في المخيم . وقد قلت فيهما انني سأبقى حيث أنا طوال الليل ، ان لزم الأمر ، حتى اجد الدليـــل الكفؤ الذي يستطيـع ان يتولى ارشادي . وبذلك كنت اهددهم بالامتناع عن الطعام ، وهو شيء لا يتفهمه العربي ولا يراه معقولاً .

لم اكن قد تناولت غير قدح من الشاي في صبيحة ذلك اليوم ، ولم اذق بعده شيئاً ، وان كان مرافقيّ قد حرصوا على ان يتناولوا إفطاراً ضخماً قبل ان نتحرك . ولم يروا انه من المناسب ان يدعوني لمشاركتهم في ذلك الطعام . وقد اكتشفت ذلك فيما بعد ، فلم اكتم حنقي على مثل هذا التصرف الذي يجـــانب اصول اللياقة . وحينئذ حاول المرافقون ان يرشوني بشيء من « البسكويت » فرفضت ذلك منهم ، مدعياً انني لم اعد جائعاً بالمرة . وفي هذه الاثناء تبين لي ان محمد «العريفي» وبقية مرافقيّ الذين استعرتهم من الامير «عبدالله السديري» في المدينــة ، لم يعودوا موضع ثقـــة ، كما انني لم اعد متحمساً لرفقتهم . فعدا عن جهلهم بالمنطقة جهلاً تاماً ، فقد كانوا لا يبدون أي اهتمام بها ، ولا بما اريد تحقيقه من عمل . الأمر الذي أثارني وأدهشني معـاً . وقد استغربت في نفسي وسألتها : لماذا تراهم ابدوا شيئاً من الحماس عندما سألتهم مرافقتي ؟ وكان عليّ ان اجد الجواب على هذا السؤال فيما بعد .

كنت استطيـع ان الاحظ من تجاربي الخاصة ، ان صرفي للدليل « محماس » قد خلق استياء بين مرافقيّ . ولم يمض طويل وقت حتى سيق الي احد الفتيان الرعاة ، ليعمل كدليل . وقد اثبت ذلك الفتى معرفة جيـــدة بالمنطقة ، ولكنه سرعان ما تركني وانصرف دون وداع حين رأى نعجة من نعاجه تشذ عن القطيـع. وقد وجدته بعد ذلك جالساً بين بقية المرافقين يحتسي معهم القهوة، فوبخته على فعلته ثم ابلغته انني لم اعد في حاجة اليه ، فتركني وانصرف .

وفي الوقت ذاته استمر البحث عن الدليل الصـالح الذي كان سيرافقني في

الصباح . ولكنني لم استطع العثور على مثل هذا الدليل الا بعد غياب الشمس ، عندما جاءني شاب يدعى « خمسان » من « بني رشيد » . وهي القبيلة ذاتها التي ينتمي اليها « ويبان » . وقد أكد لي « خمسان » هذا بانه يعرف المنطقة الواقعة ما بين هذه النقطة و « الحفيره » معرفة تامة . وعلى الاثر فككت صيامي على وجبة فخمة من طعام العشاء الذي بعثه الينا الامير ، إذ انني شعرت بان كل شيء سيكون على ما يرام عندما نستأنف الرحلة . وكان الطقس في تلك الليلة معتدلاً يبعث في النفس كثيراً من البهجة والسرور ، وكانت درجة الحرارة الدنيا هي ٥٩ درجة فهرنهايت .

وبعد ان استأذنـّا الامير بالسفر ، شاكرين له ما لاقينا في رحابه من حسن وفادة وكرم ومساعدة ، أخذنا نتأهب للقيام بالمرحلة الثانية من رحلتنا . وقد سرنا مسافة ثلاثة أميال دخلنا بعدها مسيل « شعب العين » الذي سمي على هذه الصورة نسبةً الى عدد من الينابيع التي تنبثق من الصخور العليا .

والحق ، ان هذه المنطقة رائعة جداً ، وفيها أشجار « دوم » متفرقة هنا وهناك ولكنها تمتد مع الشعب ابتداء من تلة تعرف باسم « جرث » او « يرْث » وتستمر حتى تتصل باشجار شعب « سمحه » . وفي هذا الشعب عدد قليل من الينابيع وأشجار النخيل ، كما ان مسيل الماء فيه يسير باتجاه جنوبي غربي حتى ينضم الى وادي « الغراس » حيث يعبر بوادي « الطـُبْق » ، الذي يشكل رافداً رئيسياً لوادي « الحمض » ، فيما وراء السكة الحديدية . وبعد ان سرنا مع الشعب ، ثم ارتقينا صخور ضفته اليمنى ، وجدنا أنفسنا نصل بسرعة الى آخر نجد في حرة خيبر حيث يبدأ طرفها الشمالي من مسيل وادي الغمرة القريب من موقعنا الحاضر قليلاً الى الامام .

وقد دخلنا « الغمرة» فوجدناه يتجه من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، من نقطة تدور حول نجد « الضهيره » . وقد مرت فوقنا في تلك اللحظة طائرة كانت متجهة شمالاً ، ولعلها أقلعت من « جدة » الى دمشق عن طريق المدينة المنورة .

وفي أسفل الوادي وجدنا بئراً عليه شجرتان او ثلاث شجرات . أما هضبة «الغمرة» المزدوجة القمة ، فلم تكن بعيدة عن تلك النقطة ، وتقع الى الشمال الشرقي من المكان الذي وصلنا اليه . وكان علينا ان نعبر القناة فوق رمال مبتلة ، ومن حسن الحظ اننا وجدنا آثار جماعة من « عنَزة » هناك . وكان هؤلاء قد زاروا خيبر عن طريق دمشق قبل شهر واحد . وقد أرشدتنا معالم آثارهم الى الطريق التي يجب ان نسلكها . ومع ذلك ، فان الممر الذي كان علينا ان نعبره ، كان واحداً من الممرات التي تصعب على كل سيارة « لاندروفر » . وهكذا ، وجدت سيارتي تنغرز عجلاتها في الرمال المبتلة، بينما رأيت السيارات الأخرى قد شقت طريقها عبر أرض مواتٍ اجتازتها لتعبر الوادي دون صعوبة تذكر .

ومن الطبيعي في تلك الحال ان نتعرض لشيء من المصاعب حتى نتخلص من الورطة التي وقعنا فيها . ورغم هذا ، فقد تمكنا من عبور الوادي ، وأخذنا نصعّد فيه حتى بلغنا ارتفاعاً لا بأس به . ووصلنا الى نقطة كان فيها عرض الوادي يتراوح ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ياردة . ولما كانت الحرة تحتضن الضفة اليسرى من الوادي ، فقد انعطفنا مع الطريق لنجد رافداً يعرف باسم « شعب حالوبا » . ومن هناك ملنا شمالاً مخلفين وراءنا وادي « غمرة » ، لنتوجه شرقاً الى منابع مياه هذا الوادي قرب الجبال .

وكانت النقطة التي ينبع منها رافده الأول ، تقع بين سلسلتي جبال « وَجره » و « وَبَر » ، ولكننا سرعان ما تركنا هذه النقطة الى سهل واسع سارت فيه سياراتنا بسهولة تامة ، حتى وصلنا الى « شُهيل حالوبا » . والمكان عبارة عن صخرة يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم ، توقفنا عندها ورحت أتسلقها أنا و « خمسان » ، بينما جلس بقية المرافقين يشربون قهوتهم المحبوبة . ومن هذه النقطة كان باستطاعتنا ان نرى ذروة جبل « عطوة » قرب خيبر ، وكذلك تلة « سُرَيْر » ، التي تقع بالقرب من وادي « ثمد » وقرية « ام رقبة » .

والى الشمال الغربي من موقعنا، كان هنالك ممر يدعى «ريع شرف الامامة»، ويقع هذا الممر الى يسار سلسلة جبال «عنّاب» قدام تلة «طويّلات الغزوة». وفي تلك النقطة قاتل بنو رشيد جماعة «ابن رغاده» وقتلوه، وهو من قبيلة «بليّي». وقد جرت هذه المعركة اثر قيامه بثورة فاشلة ضد ابن سعود في اوائل سنة ١٩٣٠.

وقد كان باستطاعتنا الآن ان نرى الى الشرق من موقعنا اشجارَ النخيل التابعة لقرية «سمحه» والهضبة الواطئة التي يطلق عليها اسم «البِرْك»، ومن هذه الهضبة تنبع الروافد التي تشكل وادي «هلهل».

وفي الوقت ذاته كان طرف مرتفعات الحرة يبعد عنا مسافة ميلين الى الجهة الجنوبية الشرقية. كما كان بئر «حالوبا» يقع الى الشرق مع ميل بسيط الى الشمال. بينما كانت تلال «جرت» الممتدة قممها على شكل فقاعات «العتّاب» تقع الى الشمال الشرقي منا.

وكانت القمم الجرانيتية لجبل «مُسَيْلِخة» تقع الى الشمال. ومن الهضبات الواقعة خلف هذا الجبل تنحدر مسايل «خُضيرة الغَضْن» التي تسير على شكل مجارٍ متعددة في السهل الذي يحمل الاسم ذاته. وهو السهل الذي كان يقع امامنا مباشرة ونحن نسير مع حضيض تلال «غمره». اننا الآن نجوس في منطقة تجوّل فيها «دوتي» من قبل، وهي تلة وبئر «اليمَن»، وكذلك تلال «الخفيضة»، وتلال «اَلختَم».

ها هو السهل الذي يمتد أمامنا حافل بشجيرات الدفلة، وبين هذه الأشجار آثار بعران قادتنا الى مياه «غمره» التي يستسقي منها الاعراب، وتتجمع من عدة ينابيع تنبثق من سلسلتي جبال «وبَر» و«عناب» الى يسار ذلك السهل. أما بئر «العشّاش» فهي الى الشمال الشرقي من ملتقى وادي «العَزيز» بوادي «الخفيضة».

وهكذا، وجدنا أنفسنا وسط عقد متشابكة من سلاسل الجبال والتلال

لها ودبانها وينابيعها الخاصة ، بينما كان هدفنا ليس إلا ممراً ضيقاً عبر الحجارة الجرانيتية الحمراء لجبل « المسيليخة ». وكان علينا الآن ان نجتاز ثلاث مجموعات من المسايل هي : «غضَن » و « عزيز » و « ابو خشب » . وتلتقي هذه المسايل بعد انحدار بسيط ، ثم تسير معاً مسافة قصيرة قبل ان تتفرع ، وتعود فتصب في وادي « الخفيضة » فوق نقطة التقائه مع وادي « غمره » الذي يشكل المصدر الرئيسي للري في هذه المنطقة .

ومن خلال الفجوة بين الواديين كانت تلوح لنا قمة جبل « الابيض » ، وتظهر مساحة شاسعة من أرض الحرة . والمعروف بين أهل المنطقة ان جبلي « جرْث » ، (وربما كان اسمه جرس) ، و « عتّاب » ، هما أفضل الاماكن لصيد الغزلان .

وقد قطعنا مسيل وادي « غضن » في نقطة تقع على بعد ميل واحد تقريباً من منابعه . وسرعان ما وجدنا أنفسنا أمام ممر « مسيلخة » ، أي بين صفين من السيافير الجرانيتية العالية . ولا يبلغ طول الممر ميلاً ، أما عرضه فليس أكثر من ٢٠٠ ياردة . ولم نجد في عبوره أية صعوبة ، إلا أننا ما ان اجتزناه حتى وجدنا أنفسنا نسير فوق أرض صلبة هي قاع لشعب « العزيز » ، في نقطة تبعد مسافة ميلين عن منابع مياهه من سلسلة جبال « الشَمَرا » ، التي كانت تقع الى يسارنا . وقد أصبح السير في الطريق صعباً للغاية بعد ذلك ، بحكم ما يعترضها من الصخور العديدة التي تزيد في وعورتها . ودون هذه الطريق الوعرة تقع تلال « ام بَردية » و « ابو خشب ». ومن خلفها الى الشمال الشرقي تلوح صخور حاشية (حمراء بَضيمع) Hamra Badhi الشديدة الحمرة .

هذا ولم نجد صعوبة في عبور شعب « ابو خشب » الصغير ، وكذلك عبرنا سلسلة جبال « سميّته » عن طريق ممر يسّر لنا ذلك ، ولم نجد فيه أية عقبة تعترض سيرنا ، وان كنا مررنا فوق مساحة قصيرة من الارض الصخرية قبل ان نصل اليه . وهنا كنا في نقطة تواجه مجرى وادي « حفيرة » الذي يتراوح

عرضه بين ألف وألف وثلاثمـائة ياردة ، ويقع بين مجموعة جبلي « أبو خشب » و « أم رضّام » . وكلا هذين الجبلين صخري ذو سيافير سوداء قاتمة كانت تلمع اثناء غياب الشمس .

وقد اخترنا مكاناً فيه شجيرات قصيرة على الجهة اليمنى من الوادي، وكانت بقعة لطيفة . ثم سرعان ما ضربنا خيامنا هنـاك المبيت ، بعد ان امضينا يوماً ممتعاً حقاً ، لم نقطع خلاله اكثر من ثلاثين ميلاً . ووادي « حَفـــيرة» هو آخر الوديان التي تزوّد أعالي وادي « غمرة » بالماء وان لم يكن اقلها شأناً . وكان الطقس بارداً في تلك الليلة ، حيث تدنت درجة الحرارة الى ٥٠ درجة فهرنهايت. وكنـا في نقطة ترتفع ألف قدم عن خيبر التي لا تبعد اكثر من خمسين ميلاً عن مكاننا .

وقد اجبرتنا الرمال الكثيفة في أرض الوادي على التحول عنها وتسلق جانب الوادي الايمن . ولكننا لم نجد في العبور مشقّة تذكر ، اذ ان سيارات اخرى كانت قد سبقتنا فجعلت مرورنا سهلاً . وعلى بعد ثلاثة أميال من مخيمنا ، وجدنا جبلاً عالياً صخوره حمراء ، يدعى « الخنزيرة » . وهو يمتاز عن الجبـال الأخرى التي تحيط به ، لأنها معروفة بالوان صخورها السوداء . وبعد ان عبرنا شعبه ، وهو أحد روافد « حفيرة » ، توقفنا قليلاً لاجراء بعض الابحاث. وبينما كنت مستغرقـاً في البحث تمكن مرافقيّ من العثور على جحر «نيْص» ، ومن هذا الجحر تمكنت من التقاط عدد من (الفقار العظمية) . ومما لا شك فيه ان هذه الحيونات نادرة في مثل هذه المناطق الجبلية ، وقلما رؤيت على قيد الحياة . وانني لا أذكر مطلقاً اني رأيت واحداً منها حياً في يوم من الأيام .

وكانت قبيلة « حُطيم » وغيرها من القبائل غير الرفيعة الشرف بين العرب لا تأنف أكل لحوم هذه الحيوانات ، ولا لحم القنفذ . مع ان القبائل الأخرى ، لا تتقبل ذلك ولا تسمح به ، دون النظر الى عدم ورود نص بتحريمه من وجهة شرعية . وقد اخبرني « خمسان » ان المنطقة المجاورة ، الكثيرة التلال ، منتجع

يقصده صيادو النياص من بني حطيم .

ويدخل شعب « سَوْلَة » وادي « حفيرة » في نقطة مقابل « خنزيرة » . وكنا عندما استأنفنا المسير نبتعد عن مسيل « حفيرة » الذي تحول عن طريقنا ليصعّد بين « أركة » و « أم رضام » ، بينما دخلنا نحن « حُرَيمِل » عن طريق العقدة الجبلية في « ام سحليل » . وفي هذه النقطة ، أفزعت سياراتنا غزالاً وحيداً كان يلتمس الكلأ ، فبادر الى الهرب ، ولم يلبث ان تبعه من وراء صخرة مشرفة غزال آخر .

ثم مررنا بعدد من الأضرحة ، يُعتقد انها قبور أشخاص كانوا يقطنون في هذه البقعة . ولم تكن هذه القبور بذات أهمية تذكر ، كما ان « خمسان» لم يكن يعرف عنها شيئاً .. وهنا ابتعدنا عن مسيل « حريمل » الذي يجري نحو التلال، المعروفة باسم تلال « ام سحليل » ، ثم يمتد بعد ذلك الى الشمال . ومن هذه النقطة ، كنا ما نزال نستطيع ان نرى المكان الذي ضربنا فيه خيامنا والمنطقة المحيطة به . لكننا ما أن ابتعدنا قليلاً حتى اختفت كل تلك المناظر ، ولم نعد نستطيع ان نرى شيئاً من ذلك المكان . وها هو أمامنا قد انبسط سهل فسيح ، يبلغ عرضه ميلاً واحداً ، تحيط به سلسلة جبال «سحليل». وتحت هذا السهل مباشرة ، تتلوّى الطريق التي نعتزم المرور فيها . وقد توقفنا قليلاً قبل ان ننزل المنحدر الهابط الى تلك الطريق ، كي اجمع بعض الآثار الموجودة في المنطقة ، وكانت هذه ظاهرة للعيان . وقد فعلت . إلا انني لم أجد بين ما جمعته أي أثر ذي بال .

كنت آمل ان نمر بالقرب من صخور « حمراء بضيع » الحمراء اللون ، لأقارن بينها وبين صخور جبل « خنزيرة » ، التي كانت ، بالاضافة الى جمالها ، تسترعي الاهتمام . غير اننا تركنا هذه الصخور الى يميننا ، وسرنا على ضفة « حفيره » ، فلم أستطع ان أرى شيئاً من تلك الصخور .

ومهما يكن من أمر ، فقد شاهدت في الجهة التي هي أمامنا ، كتلة من الصخور الحمراء . وحين سألت « خمسان » عن اسم تلك الصخور ، كان جوابه مفاجأة لي ، فامتلأ دماغي بكثير من التخيلات . لقد قال لي : « ان هذه الحجارة تدعى « المذبح » . قالها ببساطة ، وكأنه ينطق باحد أسماء غيرها من الأشياء والمواقع التي اخبرني بها خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية ليرضي فضولي ، ويجيب على أسئلتي التي لا تنتهي . وانه ليجب ان أقرر هنا اعترافي بأن ما قاله « خمسان » عن معرفته بالمنطقة الواقعة بين « الروضة » و «الحفيرة» كان صحيحاً مائة بالمائة ، كما ثبت ذلك خلال هذه الرحلة . ومن المؤكد ، أن « خمسان » عندما نطق باسم تلك الصخور ، لم يخطر بباله انه يعني « مذبح التضحية » الذي قد يكون من الأماكن الأثرية النادرة . وقد سألته عما اذا كان قد سبق له ان رأى أية صور او نقوش في هذه النواحي ، فأجاب بالنفي . ولعله لم يكلف نفسه ان يحيد عن الطريق الرئيسية ، ليلقي نظرة على تلك الصخور التي لا تبعد سوى مسافة لا تزيد على مرمى حجر . ولو أنه فعل لـعَلم الكثير عن هذه الصخور النادرة !!

وقد أشار خمسان الى ما وراء تلك الصخور الحمراء ، الى مسيل « شعب يطروحه » ، وسلسلة المرتفعات التي تقوم الى يساره ، ويدعونها بالاسم ذاته . وقد قال لي « خمسان » ان هذه السلسلة تتصل بسلسلة جبال «اليمَن» في أقصى الجنوب ، وجبل « الختَم » العالي الذي يعتبر رأس وادي « غمره » . وكان « دوتي » قد سجل كل هذه الأسماء ، أثناء تجواله في هذه المنطقة ، غير انه لم يزر وادي « يطروحه » ، كما انه لم يسمع باسم « المذبح » . وتحت هذا الوادي رأيت صخوراً رملية تدعى « الأبرقيّة » .

وبعد مسيرة ميلين او أكثر قليلاً ، رأيت مصارف المياه التي كانت تمر بالسهل ، تنعطف الى اليمين ، لتدخل في وادي « حفيره » (وهو يبعد ميلاً واحداً عن المكان الذي كنا فيه) ثم تسير بشكل مستقيم حتى تصل الى صخرة

رأينا من فوقها شعباً آخر تابعاً لشعب « حريمل » . وكان هذا الأخير يقطع علينا طريقنا ويتجه نحو « حفيره » الى يميننا . ومن هذه النقطة استطعنا ان نرى الوادي يخترق الهضبة المنخفضة التي كنا نسير فيها ، والصخورَ الحمراء المساة « المذبح » ، ثم يميل في زاوية تبلغ ٤٥ ، تبدأ من الشمال الغربي وتنتهي في الشمال . ويقع وادي « البطروحة » في الجهة القصوى لذلك الوادي ، محاطاً بسلسلة من الصخور السوداء .

وبعد ان قطعنا شعب « حريمل » ، وصلنا على بعد ميل واحد منه الى حافة وادي « حفيره » ، الذي عبرته ثم قدت السيارة مباشرة الى اول مجموعة من الصخور ، رغم احتجاجات « خمسان » على انني قد ابتعدت عن طريق السيارات وغامرت باتباع هذه الطريق التي تغرز فيها الدواليب . ولكن كل شيء جرى على ما يرام . وما هي إلا هنيهة حتى كنت في اسفل تلك الصخور ، استجلي منظراً أثرياً ذا قيمة كبرى ... كان أمامي متحف يعرض لوحات رائعة تحمل تواقيع أثرية ترجع الى عهد « ثمود » . ولعلها كانت تواقيع الفنانين الذين اشتركوا في نقشها .

كنا الآن لم نقطع سوى ١٢ ميلاً من حيث ضربنا خيامنا في الليلة الماضية، ومع ذلك فقد رأيت انه قد يكون مناسباً ان نخيم ههنا لنمضي بقية اليوم . وكان ذلك اليوم هو آخر ايام السنة ، فضربنا خيامنا بكل نشاط قبل بداية السنة الجديدة بفترة لا تزيد على إحدى عشرة ساعة . وأخيراً غادرنا « المذبح » ولمّا يبزغ فجر أول يوم في السنة الجديدة .

ولعل « غورماني » قد مر بهذه الطريق دون ان يخطر بباله مدى اهميتها ، أما « دوتي » - كما سبق ان ذكرت - فلم يهتم بها كثيراً . ولعلي كنت أنا الأجنبي الوحيد الذي مر بهذه المنطقة التاريخية ، ودرس نشاطاتها منذ قديم الزمان . وليس يتسع المجال لذكر تلك الدراسات الآن ، فهو يحتاج الى مجلد خاص . اما النقوش التي حصلت عليها من « المذبح » ، ومن غيره من الاماكن ، فقدأجريت

عليها دراسة مستفيضة قام بها الدكتور « فاندنبراندن » الموجود في «حريصا» الواقعة الى الجهة الشمالية من جبال لبنـــان . وقد طبع الدكتور بهذه الدراسة كتاباً في سنة ١٩٥٦ ، غير انني لا استطيع إلا ان اذكر بهذا الصدد ان تحرياتي التي اجريتها فيما بعد ، قد بيَّنت توصلت الى انني لم اكن أول اجنبي يمر بهذه المنطقة ... لقد وجدت أحد النقوش مكتوباً باللغة العربية ! ولعله كتبه مترجم عربي كان يرافق جمـــاعة قد زارت « المذبح » قبل بضع سنوات . ويجوز ان تكون هذه الجماعة قد ضمت عدداً من الجيولوجيين الاميركيين .

كان أول اهتمام لي ، بعد ان نسخت النقوش ، والتقطت الصور الضرورية التي وجدتها في المناطق المجاورة، ان اتسلق الصخور العالية التي يزيد ارتفاعهـــا على مائتي قدم ، وعند هذه الصخور اقمنا مخيمنـــا . والى الجنوب الغربي خلف الضفة اليمنى لوادي « حفيره » توجد تلة « ام سحليل » بينما تقوم سلسلة جبال « صفْران » خلف هذه التلة على بعد حوالي ستة اميال منهـــا ، متميزة بقمتين عاليتين . والى الغرب والشمال الغربي من الافق، كنت ارى ان الطريق مسدودة بهدب جبلي مقفر يدعى « حَمْة » .

وكانت سلسلة جبـــال « الأرْدَم » الطويلة المتشعبة تقع على بعد شاسع في الاتجاه الشمالي الغربي ، وتبدو صخور « المذبح » وكأنمـــا تشكل سناماً لهذه الجبال . وتعتبر سلسلة جبـــال « أردم » هذه قسماً من الهضبة المعروفة بال « شِفا » بينما تعتبر « حفيره » قسماً من سلسلة جبال « حَجَر » ، التي تمتد باتجـــاه جنوبي شرقي حتى أول « الغمره » شاملة « ام سحليل » و « يطروحة » و «ابو خشب» و «ام رضَّام» ، وكذلك « الختْم» و «الُخيْط» والتلال المحيطة بآبار اليمَن. وربما امكن اعتبار «جرث» و«العَتّاب» من ضمن المجموعة . ورأينا «حمراء بضيع» من المكان الذي وصلناه بينما غابت بقية المجموعة ، ولم تكن لتبدو لنا من ذلك المكان . والجدير بالذكر ان مجموعة جبـــال « حجر » كانت تعتبر قسماً من الحجاز ، بخلاف مجموعة « شِفا » التي لم تكن لتعتبر كذلك ، وان لم

تكن حدود هذه المجموعة قد تم تعيينها حتى ذلك الوقت .

وأعتقد انه من المعقول اعتبار حدود الحجاز ممتدة شمالاً بحيث تضم جميع وادي الحمض وروافده حتى تصل الى البحر الاحمر في نقطة تبعد قليلاً الى الجنوب من الـ « وجْه» . وانه لمن الصعب اطلاق اسم واحد على جميع المنطقة الواقعة الى الشمال من هذا الخط ، حتى تصل الى « العقبة » وخليجها . اما لو اجرينا بعض التعديلات على هـذا الخط لمصلحة المنطقة الشمالية ، وذلك خلافاً للاعتبارات السياسية القديمـــة ، فانني اعتقد بأن القسم الاخير جدير به ان يعتبر « ارض مدين .. » تلك الارض التي تمتد حدودها الجنوبية من القسم الجنوبي من المذبح حتى بئر «مُغَيره » قرب سكة حديد الحجاز الى الجنوب من « العلى » . ومن هناك تمتد حتى رأس وادي « عنتر » الذي يجب ان تسير معه حتى البحر .

أما السبب الذي يدفعني الى تقديم هذا الاقتراح الذي احترز حين اقول عنه منطقياً، فيرجع الى ان الخط الذي رسمته على خريطتي يبدو وكأنه يحدد القسم الجنوبي من المنطقـة التي كانت موطن « النبطيـــين » في القرون الأولى قبل الميلاد وبعده ، وهم الذين شردوا الـ « ميناعيين » من « العلى » و « مداين صالح » (الحِجْر أو إغرا القديمة) . وهؤلاء بدورهم لحقوا بـ (اللحيانيّين) الذين نعرف انهم ربما كانوا سكان « مدَين » انفسهم، أو لعلهم غزاتهم والذين خلفوهم . أما الشيء الوحيد الذي كان اكيداً فهو انه اذا ما استثنينـا مناجم الذهب في « مدين » ، تلك المناجم التي يستبعدها الخط الذي اقترحُ رسمه في خريطتي عن الحجاز ، فانه لا تتوفر لدينا أية معلومات مطلقاً عن أية مستعمرات «مدْينية » في المنطقة ، ولا أية شواهد أثرية تدل على وجود اهل « مدين » خـارج المنطقة التي تنص عنها الاخبار في التوراة .

ومهما يكن من أمر ، فان القسم الأكبر من المنقوشات التي وجدتهـــا في الصخور القريبة من « المذبح » ، لا تترك لدي شكاً في ان الناس الذين سجلوا هذه المنقوشات كانوا يعرفون المنطقة ، وربما قدموا اليها نشداناً للقنص أوقضاء

فترة الربيع في خيام يضربونها هناك . ويجوز انهم قد أتوا من « مداين صالح » حيث يحكمون هناك كملوك ، أو تُراهم قصدوا ذلك المكان في زيارة للقيام ببعض الطقوس الدينية . . وهو استنتاج يتبادر الي من اسم « المذبح » .

وعندما هبطنا من النقطة التي كنا فيها ، بدأت جولةً في المنطقة ، فرحت اجوس خلال تلك الناحية واجمع النقوش من هنا وهناك . وكان معظمها يعود الى عهد « ثمود » . وقد تحولتُ من صخور « المذبح » الى وادي « يطروحة » كي افحص الناحية الشرقية من الصخور ، حتى وصلنا الى نقطة يلتقي فيهـــا واديان عند اقدام صخور المذبح . وخلف الطرف الغربي لتلك النقطة ، وبعد ان اتجهنا شرقاً عبر طريق صغير ينحاش قليلاً عن خط امتداد صخور المذبح ، وجدنا صخرة منعزلة يبدو ان الطبيعة قد نحتتهـا على شكل « أبي الهول » . ومما يثير الاعجاب في هذه الصخرة رأسُها المنبسط الذي يشبه رأس أبي الهول في مصر ، وكذلك الرقبة والجسم ، الامر الذي جعلني اتصور ان « المذبح » قد اقيم ههنا حيث توجد هذه الصخرة ، كي يقدّم الناس عليه قرابينهم لأحد الآلهة . وقد اكتشفت ان فخذ (ابي الهول) قد كشط حتى غدا املس ناعماً ، ومن ثم نُقشت عليه عبارة بلغ طولها سبعة انشات الى ثمانية. غير ان هذه النقوش كانت -بكل أسف- قد تآكلت بشكل بشع ، بحيث كان من المستحيل ان ينسخها احد أو يجزم بأنها نبطية أو ثمودية . وكانت هذه الحقيقة مؤلمة فعلاً ، غير انني كنت على شبه اليقين من اننا قد اكتشفنا المذبح الذي اخذتْ المنطقة اسمهـــا منه . ولما كان الوقت آنذاك متأخراً ، فقد عدنا الى المخيم مؤجلين فحص بقية المنطقة الى اليوم التالي .

وقـــد رأينا اثناء جولتنا عدداً من الطيور الغريبــة الشكل ، ولم يكن معنا ما نصيدها به . . كما انني عجزت عن التعرف على نوع هـذه الطيور ، او اين تعيش . وربما كانت من الطيور المعروفــة باسم « سِيسي » ، اذ انها لا تشبه الطيور المعروفة بالحباري في شبه الجزيرة العربية .

هذا وقد تناولنا في عشية السنة الجديدة عشاء خالياً من اللحم ، ومع ذلك استمتعنا بليلة هادئة جوّها لطيف ، وان كان الندى قد تكاثر عند انبلاج الفجر.

وفي هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية يختلف الطقس بين الحار والبارد . فالطقس الحار موجود في الحجاز ، أما الطقس البارد ففي « الشفا » التي تقع في الناحية الغربية من صحراء « شمّر » . وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في تلك الليلة هو ٤٦ درجة فهرنهايت . وكنا في ذلك الوقت على بعد ٦٢ ميلاً من خيبر ، اي انه ما زال أمامنا مسافة ٢٠٠ ميل كي نصل الى « المدينة المنورة » .

وفي صبيحة اليوم التالي ، وهو رأس السنة الجديدة ، استأنفنا تفحّص صخور « المذبح » ، وما يقع الى الخلف من صخرة « ابي الهول » على الخصوص. إلا أننا لم نستطع العثور على الكثير من النقوش . وكنا نتعرض هنا وهناك الى مشقة عظيمة من جراء الرمال الكثيفة ، وخاصة عند اول صخرة قريبة من « ابي الهول » ، حيث كان لسان رملي يمتد من حول الصخرة حتى قرب مسيل « حفيره » . ولذا فقد مضينا في عملنا متجهين الى الناحية الشمالية الغربية ، مصعّدين باتجاه وادي « حفيره » ودرنا حول صخرة كبيرة تدعى « عبدالحفيرة » تميّز المكان الذي توجد به الآبار . وقد وصلنا الى اول بئر من هذه الآبار بعد مسيرة مسافة ميلين تقريباً بعد ان ازعجنا ، للمرة الثانية أثناء سيرنا ، مجموعة من تلك الحجلان السود الرؤوس .

وتدعى البئر التي تقع في أسفل الوادي « حفيرة الدنيا » ، وكان بها ماء على عمق ست قامات . وقد حُفرت هذه البئر في صخر صلد ، وجُعلت لها « حمّرة » بيضاوية الشكل . وبالقرب من هذه البئر وجدنا كوخين حقيرين مهجورين ، كان أهلها فيما سبق ، لا ريب ، يتزودون بالمؤن من القرية المجاورة التي تبعد عنها مسافة ميل واحد . وعندما وصلنا الى تلك القرية وجدنا بيوتاً حديثة البناء تخص شيخ قبيلة « عيدة » . وقد رأينا « قصر » شيخ القبيلة وحوله عدد

من الأكواخ ، غير انها كانت جميعها خاوية إلا من امرأة عجوز وابنتها التي تبلغ العاشرة او الثانية عشرة من عمرها . وقد علمنا ان سكان هذه القرية خرجوا الى الفلاة لتمضية فصل الربيع كعادتهم كل عام . ولم نجد في هذه الأكواخ أي أثر للحياة ، باستثناء العجوز وابنتها ، غير كلبين اثنين . أما تلك العجوز فقد تركها أهل القرية لترعى شؤون بلدتهم أثناء غياب شيخ القبيلة الذي نسي على ما يبدو ان يترك لها ما قد تحتاج اليه من مواد غذائية . وقد تبرعت لها بوجبة الغداء التي كانت مخصصة لي . وكانت تلك العجوز وابنتها عبدتين تبدو حياتهما مزرية للغاية . ومع ذلك فقد بدتا وديّتين تجاهنا ، وقانعتين بحياتهما الضنكة على قسوتها ، على اعتبار ان نصيبهما في هذه الحياة لا يمكن ان يكون أفضل مما هو .

وقد وجدنا في أحد المنحدرات ، الذي يشكل رأساً من رؤوس وادي « حفيرة » الكثيرة ، عدة آبار ، وبستاناً صغيراً من أشجار النخيل ، وحقلاً ضيقاً مزروعاً بالحبوب . ومن المؤكد ان القوم الذين كانوا يقطنون في هذا المكان هم من « الاخوان » الذين عُرفوا في أوائل عهد المذهب الوهابي . ويبدو انهم قد اختاروا هذا المكان مفضّلين اياه على رمال الصحراء المحرقة . ولكن نظرة الى بقايا دورهم الخربة ، تؤكد للناظر انهم كانوا يفضلون حياة الصحراء الرحبة على المكوث في جحورهم هذه ، وان كان هذا القول لا ينطبق على القصر الذي يخص كبيرهم . وكان هذا « القصر » قد استخدم معظمه كمخزن لممتلكات « الشيخ » .

وكانت بئر « المروى » ، وهي البئر الرئيسية التي يستقي منها الناس ماء الشرب ، مبنية بشكل هندمي من الحجارة المنقوشة ، وعلى بابها حجارة سوداء رأيت على أحدها نقوشاً تحمل اسم « محمد بن فرحان » . وتقع هذه البئر عند الطرف البعيد لصخور « ام سحليل » ، والماء فيها على ثلاث قامات .

وكان شعب « جفَر » ، وهو أحد رؤوس وادي « حفيره » يجري الى اسفل البئر في ممر صخري ضيق . وكذلك فان شعباً آخر كان ينحدر من المرتفعات

المؤدية الى تلة « عبد الحفيره » . أما الشعب الأول فيبدأ من نقطة تقع على مقربة من جبل « حمّة » ، وفي اسفله بئر على مسافة ميلين من « القصر » .

هذا وقد اخبرتنا المرأة العجوز ، ان سكان القرية يضربون خيامهم الآن في مكان قريب من آبار « مندَسَّه » التي تبعد عن القرية قليلاً الى الشمال . وعند ذلك ولّينا وجوهنا شطر مضارب القوم . واذ قطعنا سهل « الجهْره » الذي يشكل أول وادي « حفيرة » و « يطروحة » توقفنا عند مجموعة من الصخور اثارت انتباهي لارتفاعها . وقد علمت انها تدعى « طويّلات» أو « ضليْعات » «الضاعا» . أما حاشية (اردم) ذات الصخور الرملية فقد كانت تبعد عن مكاننا ما لا يقل عن عشرة اميال الى جهة الغرب ، بحيث لا تكاد تظهر بجلاء . وتتصل هذه المرتفعات بصخور عالية اخرى تدعى « اسياخ » تمتد باتجاه جنوبي غربي . وكنا من مكاننا الذي وصلنا اليه ما نزال نستطيع ان نرى قمة جبل« عتّاب » ، كما وقعت عيناي ههنا لأول مرة على قمة جبل « إثنان » البركاني . وهو الجبل الذي ذكر « دوتي » انه وجد الى جانبه آثار النعام المنقرض حالياً من شبه الجزيرة العربية . وكان « اثنان » هذا ينتصب الى الجهة الشرقية من المكان الذي كنا قد وصلنا اليه . اما الى الجهة الشمالية الغربية ، فقد رأيت لأول مرة أيضاً جبل « بُرْد » الشامخ . وبمجرد رؤية هذا الجبل استدعيت في ذاكرتي كلاً من « دوتي » و « هوبر » وغيرهما من المستكشفين العظام . وقد لاحظت ان خمسان يلفظ اسم هذا الجبل « بِرّد » . هذا ويمتد امامنا مباشرة وفي اتجاه شمالي شرقي حوض آبار « المندّسة » الواسع الذي تمتد خلفه هضبة من الصخور الرملية ، والى الغرب من تلك الهضبة وجدنا خيمة سوداء كبيرة تخص شيخ قبيلة « عيدة» كما وجدنا خياماً أخرى لأتباعه ومواشيه .

وقد اختفت الآن الوديان والجبال التي مررنا بها خلال الأيام القليلة الماضية ،مفسحة المجال امام صحراء وسهول مفتوحة تمتد شرقاً حتى مشارف جبل « شمّر » موطن حاتم الطائي ، مضرب المثل في الجود والكرم . وكان جبل

« خيبر » الآن يقع الى الجنوب منا ، بينما يقع الـ« على » الى الغرب .

وعلى بعد ميل من طرف « مندسّة » امتدت امامنا الطريق سهلة لا صعوبة فيها مسافة ثلاثة اميال ، حتى وصلنا الى مراح طيني رائع اكثر مما يتصور المرء. وقد أعجبت بهذا المراح واجتزناه لنصل الى النقطة الوحيدة التي يمكن للسيارات ان تصعد منها الى ما فوق الصخور القليلة الارتفـــاع الواقعة على الجهة الثانية لسفح « مندسّة » . وبعد دقائق قليلة ، وصلنـــا الى مضارب قبيلة « عيدة » الرئيسية . وكان من سوء حظنا اننـــا وجدنا الشيخ محمد بن فرحان غائباً عن المضارب ، غير اننا سررنا اذ وجدنا هنـالك ابنه « ذعّار » . وكان هذا الابن قد قابلني في سنة ١٩٣٧ حيث احتفى بي بكرم ظاهر . وذلك عندما التقينـا سوية في « ليث » التي كان حا كماً عليها عندمـا زرت تلك النواحي ، وأنا عائد من رحلتي في تخوم اليمن الى مكة المكرمة. وبعد المجاملات التقليدية والترحيب الحار ، استأذنته في ان نضرب خيامنا على مقربة من مضاربه وفي نقطة تقع عند اسفل الصخور ، حيث كان من الواضح انني سأجد الكثير من الاشيـــاء التي تستحق الاستقصاء والبحث . وكانت المنطقة التي تضم السهل الواقع تحت تلك الصخور مباشرة وتمتد حتى تصل الى المنطقة الجبلية التي مررنا بهـا مؤخراً ، تشمل مرتفعات « يطروحة » و « المذبح » و « ام سحليل » و « صفران » و « سيناف » و « عجارم » و « أسياخ » و « اردم » كما تشمل مشارف «العلى» و « مداين صالح » وخط السكة الحديدية . وقد كنا بالاضافة الى ذلك قادرين على رؤية « خنزيرة » حيث تستسقي الابل والماشية من هناك . امـا « عتاب » فلم يعد ظاهراً للعيان .

وكانت تقع خلفنا الى الجهة الشرقية ، منطقة واسعة تنتشر فيها الصخور . وليس في هذه المنطقة أية علامـات تدلنـــا على الطريق ، اللهم إلا تلة «ام رُقيبة» التي تقع بعيداً الى الشمال الشرقي . اما آبار « حفيرة شملي » الموجودة في الطريق ما بين « تيماء » و « حايل » فتقع خلف تلك التلة عـلى مسافة ليست

بالقصيرة منها . وكان يخيل الينـا ونحن في تلك المنطقة ان السماء تهطل مدراراً في منطقة الآبار سالفة الذكر . هذا ، وقـد القيت من مكاني نظرة على آبار « مندّسه » فرأيت الأبل والماشية ترد الماء هناك . والجدير بالذكر ان ثمـة آباراً أخرى موجودة عند أسفل المرتفع المجاور الى جهة الشرق والمعروف باسم « الأبرقيّة » ، غير ان مياه هذه الآبار كانت ضحـلة بالنظر لانحباس المطر عن هذه المنطقة خلال فصل الشتاء الحالي .

وبعيد غياب الشمس مباشرة ، دعينا لتناول طعام العشاء في مضارب شيخ قبيلة « عيدة » لنجـدَ هناك عدداً من وجوه القبيلة قد اجتمعوا لاستقبالنـا . وكان مضيفنا « ذعّار » مضيفاً مبهجاً ، قريبـاً الى القلب ، زاخراً بمختلف الأحاديث التي يمكن ان تروى . غير ان الطعام الذي قدّم لنا لم يكن جيداً . فعلى الرغم من اقتصاره على اللحم والأرز واللبن ، وهي مألوفة لدى طاهيته ، إلا انه كان سيء الطهو ، من الصعب على المرء ان يأكله في الظلام . وقبيلة « عيده » هي الفخذ الرئيسي لقبيلة « ولاد علي » التي هي بدورها فرع من قبيلة « عنزة » . وكان الشيخ محمد بن فرحان نفسه قد وسّع حدود قبيلته حتى نقطة تقع على مقربة من « علا » ،وذلك استناداً الى ما كان يقوم به من غزوات ضد قبيلة « بليّي » . وكان الشيخ بن فرحان قد زار بصحبة « ابن رفادة » وهـو خصمه في القبيلة الثانية ، الملك عبد العزيز بن سعود في مدينة الرياض أثناء ذلك الصيف ، كي يحتكما اليه حول موضوع « ملكية الآبار » . ويبدو ان القرار النهائي كان في مصلحة ابن فرحان ، وان كان هذا القرار مقيداً بشروط معينة، تضمن حقوق الجميع في ورود الماء، بما في ذلك أفراد قبيلة « بيلي » الذين أعطي لهم الحق في ورود الماء لسقي ابلهم ومواشيهم ، والتزود بما يحتاجونـه من مياه الشرب .

هذا وقد حضر أثناء وجودنا هناك الأمير « خالد السُدَيري » أمير « تبوك» الذي كان يجتاز « مندسه » في طريقه الى « الرياض » عبر « حايل » . وقـد

رأيت ، قبل رحيلنـا ، سيارات الأمير خالد الخمس تمرُّ براح « القاع » الطيني عند « الأبرقية » . ثم استدارت من هناك يميناً في طريقها الى « بيضاء ناثيل » . وعندما دار الحديث حول المنقوشات ، اخبرني « ذعّار » ان تلال « خنزيرة » تضم عدداً من هذه المنقوشات . وهكذا ، كان من سوء حظنا اننا مررنا بهـذه التلال دون ان نلاحظ شيئاً منها . ولعله يتـاح لبعض المستكشفين الآخرين في المستقبل ان يجدوا تلك النقوش . وقـد كان الأمير « ذعّار » يعلم عن البعثـة الأميركية التي زارت « المذبح » برفقة « احمد فخري » ، وهو أحد تلامـيـذ « ك.س. تويتشل » . وكان احمد فخري هذا إذ ذاك يشغل منصب مدير دائرة المناجم والمشاريـع في وزارة المالية . وقد توفي في مطلع سنة ١٩٥٤ . وكان بحكم منصبه الرسمي هوالمسؤول عن متحف « جده » ، ذلك المتحف الذي انشىء استناداً الى مبادهة من رجل انكليزي من «ويلز » يدعى « جيبس » . ثم حُشِر هذا المتحف بالكثير من الآثار وبخاصـة تلك التي كنت قـد جمعتها في رحلاتي السابقة ، ثم أضيفت اليها النقوش والآثار التي وجدتهـا أثناء رحلتي الحاليـة ، والرحلات التي تلتها . ولقـد أثارني سفر (جيبس) بعد ان انتهى تعاقده مـع الحكومة السعودية ، وذلك لأن المتحف وما يحويه (وكان بعضهـا ذا قيمة كبيرة ونادرة) سيكون عرضة للدمار . وكنت أخشى ان أحداً من رجـال الحكومة لن يكلف نفسه مشقة زيارة المتحف ، او حتى القاء نظرة واحدة على محتوياته ، رغم انني كثيراً ما ذكرت أمام المسؤولين أهميـة الموجودات فيه . وكذلك فقد أُهمل اقتراحي الذي قدمته فيما بعد، بان يشرّف الملك هذا المتحف بزيارة سامية .

كان احمد فخري هو الذي سجـل نقوش (المذبح) ، تلك النقوش التي تم العثور عليها أثناء زيارة الأميركيين لتلك المنطقة . وقد اكتشفت كذلك ان (ذعّار) يعرف عن صخرة (ابي الهول) الآنفة الذكر . فقد قال لي ان هذه الصخرة تعرف لدى سكان تلك الناحية باسم (القُطَيْمة) ، ثم تطوع باعطائي

معلومات تفيد بان الأميركيين لم يروا النقوش الموجودة على تلك الصخرة .

هذا وقد وعدني « ذعّار » ان يزودني بدليلين يرشداننا في مـا تبقى من رحلتنا ، غير ان أياً من هذين المرشدين لم يحضر ، عندما اجتمعنا لتناول طعام الافطار مع مضيفنا في الصباح . ولما كنت آمل ان يكون احدهما قابعـاً في احدى الخيام ، فقد طلبت الى رجالي تحميل السيارات بالمتـاع الذي كنا قد انزلناه الليلة الماضية . وهكذا فقد اعددنا العدة لاستئناف السير ، ولكن أحداً لم يظهر حتى تناولنا طعام الغداء . وبعد ذلك جاء رجلان ، ولكنهما كانا يريدان أن ننقلهما معنا الى « تيماء » حيث كانا يودّان قضاء بعض الأعمال الخاصة بهما . ولم تكن معرفتهما بشؤون المنطقة ، كما بدا لي ، من الامور المشجعة ، اذ انني لما حاولت ان اقرر أيهما اكثر خبرة بشؤون المنطقة من غيره ، أوضحا لي بما لا يقبل الشك بأنه علي ان اصطحب كليهما أو اتركهما كليهما . ولما كان لدينـا متسع كبير في السيارات فقد قررت ان اقبل انذارهمـا ، ومن ثم اخترت أحد الرجلين ليشاركني سيارتي « اللاندروفر » بينما أشرت الى الآخر بأن يستقل واحدة من سياراتنا الاخرى .

وقد قمت بوضع مبلغ خمسين ريالاً في جيبي لأوزعها على خدم الشيخ (ذعّار) عرفاناً مني بما قدموه لنا من خدمـات . ولكنني انهمكت في تفكير عميق في الطريقة التي يمكنني بها ان انقل هذه النقود من جيبي الى أيديهم ! وكنت منشغلاً بالتفكير في الأمر عندما اقترب مني مضيفي ليهمس في اذني قائلاً : اذا كان معك ما يفيض عن حاجتك من نقود فانني بحاجة اليه ! ولم يكن من عادتي ان (ابرطل) مضيفي اثناء تجوالي في انحاء المملكة السعودية ، ولكنني كنت اعرف تقاليد الصحراء في منح خدم المضيف ما يعادل ما قُدم لي من قبل سيدهم. وهنا شعرت بأن الخمسين ريال التي كانت ترنّ في جيـبي تكاد تطل برؤوسها، ولكنني كنت اواجه حالة غير اعتيادية ، اذ ان مضيفي يطالب (بالبرطيل) لنفسه،غير هياب ولا خجل ! ولم يسعني إلا ان اضع المبلغ في يديه رغم ارادتي.

ثم ودعته وركبت سيـــارتي وابتعدت عن مضاربه . ولم انس قبل أن استقل السيارة ، ان اطلب اليه توزيع المبالغ على خدمه ، ولم ينس هو ان يشكرني ، ثم ابتعدت بأسرع ما يمكن . وكان (ذعّار) هذا رجلاً ضئيل الجسم في الخامسة والثلاثين من عمره . وهو محدّث لبق ولكنه على ما يبدو شجاع الى حد مـا ، ولعل ذلك ما يؤهله لوراثة قيادة قبيلة عربية مشهورة كهذه القبيلة .

وابتعدنا قليلاً عن المضارب ، فرأيت قوافل الابل وقطعان الماشية متوجهة نحو مراعيها . وقد لاحظت ان الماشيـــة تسير شمالاً في الطريق التي تقع فوق الصخور اما الابل فكانت تسير في الطريق السفلية .

هذا وقد قدت السيارة مسافة ثلاثة أميال قبل ان نتوقف لكي نتزود بنظرة من المنطقة التي تحيط بمضارب تلك القبيـلة . ثم تابعنـا سيرنا فوق مرتفع من الأرض هناك يقع بمحاذاة مرتفعات (مندسه) .

وقـد أخبرني الدليل الجديد ، ان هذه الأرض تدعى « أم شيطات » ، وهي عبـــارة عن نقطة تتجمع فيهـــا مياه الأمطار والسيول من المناطق المجاورة ، وليس فيها أية قناة لتصريف المياه ، ولذلك فقد كانت أرضهـــا سبخة طرية .

وعندما وصلنا الى هذه الأرض كنا قد بلغنا في مسيرنا نهـــاية مرتفعات « مندسه » وبدأنا نتجه الى سهل « القَوْع » الواسع ، ويخترقـــه الوادي الذي يحمل الاسم ذاته . وهو واد يمتد من الطرف الأبعـد لمرتفعات « اردم » حتى الأرض السبخة الواسعة المعروفـــة باسم « سَلـَمِيـَّه » ، وهي تقع على طريق « تيماء » . ومن هذه النقطة كانت طريقنا ممهدة الى حد ما ، وكانت سياراتنـــا تسير فوقها بسهولة وان كانت تجد أمامهـــا في بعض الأحيان عدداً من الصخور أو الحجارة الكبيرة . وكنــا في سيرنا نتبع آثار الشيخ « عبد الله الشنيفي » ، تلك الآثار التي تركتها عجلات سيارته قبل بضعة أشهر عندما توجه الى « تيماء » ليتولى منصبه فيها كحاكمها الجديد . ومن المؤكد ان « خالد السديري » ، قد

تبع هذه الآثار (ولكن في الاتجاه المعاكس لاتجاهنا) في الفترة الأخيرة . هذا وقد وصلنا بعد مسيرة سبعة او ثمانية كيلومترات بعيداً عن مضارب قبيلة « عيده » ، الى قناة « القوع » . وقد تبعنا خط سير هذه القناة وكنا تارة نسير على ضفتها اليمنى وتارة أخرى على الضفة اليسرى . كما اننا كنا نسير باتجاه شمالي غربي عبر ارض كثيرة الحصباء تنتشر فيها (بحيث تكاد تكسوها) نباتات الرمث الجافة . وبعد مسيرة بضعة أميال قطعنا المجرى الوعر الى ضفة الوادي اليسرى، وذلك حتى نختصر امتداده العريض الذي كان يقع الى يميننا. ورغم الصعوبة التي واجهتنا في قطع هذه الطريق الرملية ، فقد تمكنا من ذلك، وبعدها عدنا الى الطريق الرئيسية ، بعد ان كسبنا مسافة أربعة أميال فقط من كل عمليتنا هذه . وقد لاحظت ان السهل الواسع أخذ يتكشف عن تليلات مختلفة الأحجام كنا نلحظها هنا وهناك . وعند تلك النقطة وصلنا الى بئر (القوع) او (مِشاش) وتعرف هذه البئر من التلة المسماة (كحيل القوع) .

ثم سرنا عشرة أميال ، فدارت بنا الطريق قليلاً نحو الشمال ، ورأينا الوادي قد أقفل من الجهة اليمنى ، ومع ذلك فقد كانت طريقنا سهلة ولم نجد فيها أية صعوبة تذكر . هذا وكانت معالم جبل (بُرد) تزداد اتضاحاً لنا كلما اقتربنا من صخوره العالية ، وقد لاحظت ان قمة الجبل مسطحة ومستديرة ، والى يمينها تفردت صخرة شاردة يخيل للمرء انها ألحقت بالقمة الحاقاً ، ورأيت كذلك صخرة أخرى الى الشمال بارزة بشكل واضح .

وهنا أخذ السهل الواسع يتعرج ذات اليمين وذات اليسار ، غير ان سيرنا فيه كان سهلاً فوق طريق حصوية . ثم بدأ عدد من التلال يتراءى للعيان وكانت هذه التلال الى يسارنا . وبعد ان قطعنا مسافة خمسة وثلاثين ميلاً بعيداً عن مضارب قبيلة (عيده) عبرنا أول روافد وادي (القوع) ، وأتينا الى ما أعتقد انه شعب (فاره) . وما أن قطعناه حتى وصلنا الى شعب آخر أكبر منه ويدعى شعب (حَبير) Habir ، وهو كالأول ينبع من تلال (فاره) التي كانت

تقع الى الجنوب الغربي من قافلتنا . وقد وجدنا هنالك عدداً من الجمال ترعى شجيرات الرمث والرمرام والعذير النامية هناك . أما في مسيل الوادي فقد نما عدد من اشجار طلح الاكاسيا .

وبعد ذلك أصبحت الطريق أمامنا سهلة جداً لمسافة تزيد على سبعة أميال . ثم مررنا بشجرتين اثنتين فقط من الطلح على جانبي الطريق ، همـــا الأثر الوحيد للحياة في تلك الصحراء .

الآن اصبح جبل (بُرد) يقع الى الجهة الشمالية الشرقية منا فلاحت لنـــا كومة من القرى المنتشرة على سفحه . اما جبال (الوَسْك) فقد ظهرت خلفه ممتدة على شكل قوس زاويته ٣٥ درجة . وقبالة هذه السلسلة الجبلية في الشرق رأينا تلة اخرى كبيرة يطلق عليها اسم « الروّاف » . اما في الغرب فهنـــاك هدب هضيبات « العريضة » على شكل متوازيين يفصلهما ممر يدعى «البُويب» . وعن طريق هذا الممر تصل الجمال الى « العلى » . وكنا في تلك الاثناءنقترب من الطريق الوعرة في وادي « تيماء » ، غير انه ما زال امامنا مسافة ١٢ ميلاً قبل ان نصـــل الى الطريق النكِدة التي تعرف باسم « حُجَيرين » . وكانت قناة « القوع » ما تزال تجري الى يميننـــا الى حيث تصب في وادي « سَلمِية » . هذا وكانت وجهتنا ما زالت نحو الشمال الغربي باتجاه كثير من التلال والصخور الناتئة . وبعض هذه الصخور مفيدة حقاً ، اذ انها كانت بمثابة علامات تدلنا على الطريق في تلك المنطقة . وقد مررنا بعد ظهر ذلك اليوم بمساحة كبيرة مـــن الأرض مغطاة بالجراد ، وكان هذا أول سرب من الجراد نراه منذ ان غادرنا (المدينة) ، وقد لاحظنا انه يتمتع بهدوء بال وحرية تامة في قرض المزروعات القصيرة والأعشاب النامية بالقرب من القنـــاة التي كانت في بعض الاحيان تعترض طريقنـــا الى حيث تصب في وادي (القوع) . وكذلك شاهـــدت كثيراً من أشجـــار الطلح في هذه النقطة . ولم ينس الجراد ان يجعل منها هدفاً فتسلقها حتى غطى اغصانها وأوراقها ، ونعِم بوجبة لا يتذوقها إلا هو .

وفي تلك الاثنـــاء ، كنا ما نزال على بعد ثلاثة اميال من طرف الوادي ، عندمـا دارت بنا الطريق فجأة الى الغرب . وقد قيل لي ان هذه هي الطريق التي اتبعها (خالد السديري) اثناء عودته من (تبوك) مؤخراً ، وانهـــا تمر بمدينة (تيماء) والأراضي الوعرة المحيطة بها . ولما كانت مدينة (تيماء) ذاتهـــا تقع في اتجـــاه شمالي غربي، فقد قررت بعد استشارة دليلي ، ان امضي في خط مستقيم على أمل ان اجد طريقاً حول ذلك الوادي الذي يظل يعترض سيرنا . ومن محاسن الصدف ، ان أمير (تيماء) الجديد اتبع وهو في طريقه من (حايل) الى امارته طريقاً قريبة من الجبال التي كانت تقع على يميننا . وقد استطاع ان ينفذ منها بيسر الى طرف وادي تيماء عند نقطة قريبة من جبل (غُنيمة) ، وهو الجبل الذي كنا نراه آنئذ قدامنا مباشرة .

كانت أسراب الجراد ما تزال نشطة في القضاء على اعشاب المنطقة واوراق اشجارها ، عندمـــا انحدرنا نحو غابة صغيرة في اراضي جبل (غنيمة) حيث لاحظنا ان جبل (بُرد) اصبح يقع في عين الشرق . وسرعان ما مررنا بأحد الأحواض المعروفة باسم (حُفرة الجهره) . وفي هـــذا المكان وقعنا في ورطة فعلية . فقد كانت الارض ههنـــا وعرة تبرز منهـا صخور رمليـــة ملساء أو منخربة ، وتحتها طبقة كثيفة من الرمال تغطيها شجيرات (الحمض) ، التي وقفت عقبة كأداء أمام سياراتنا تمنعها من التقدم . وقد ناضلنا للتغلب على هذه الصعاب ، فقطعنا ميلين حتى وصلنا الى ارض اخف وعورة من سابقتهـــا . ولكننا اكتشفنا هناك ان سيارة (اللوري) قد اصيبت بعطب شديد في الناحية الأخرى من الوادي فتوقفت عن السير .

وكان مما زاد الامور تعقيداً ان دليلي الجديد ، ويدعى (هزّاع بن زطام) من قبيلة (اولاد علي) ، كان يبدو قليل الاهتمام بالتقدم الى الامـــام في ذلك اليوم . وكان هذا الدليل قد قام بواجبه خير قيام ، إلا انه قبـــل مدة من الزمن ، أخذ ينطوي على نفسه ، ويميل الى الصمت اكثر فأكثر كلما تقدمنـــا في

الطريق ، حتى انه لم يعد يستسيغ الاجابة على اسئلتي .

وكنت في تلك الاثناء قد كونت فكرة جيدة عن المنطقة وما يحيط بها ، وعن اسماء معالمها التي مررنا بها . وكذلك فقد كنت قادراً ، كلما وصلنا الى ارض سهلة ، على قيادة السيارة مسافة كبيرة دون الحاجة الى التأكد من خط السير الذي نتبعه . أما الآن فان الامور قد اختلفت .. لقد اصبحت في حاجة ماسة الى ارشاد (هزّاع) ! وإذ استعرض خبراتي السابقة في رحلات كهذه ، أجد انه كان يجدر بهزاع ان يبلغنا – منذ البداية - بأنه من المستحيل على السيارات المحملة ان تمر بمنطقة كهذه . ولكن (هزاع) الآن لم يكن هو نفس الدليل الذي بدا متحمساً لارشادي الى الطريق في أول الأمر .

وقد توقفنا في تلك النقطة بانتظار ان تتمكن السيارة (اللوري) من التخلص من ورطتها وتلحق بنا . وهنا صفق (هزاع) فرحاً ، ثم أخذ يفرك يديه وكأنه يريد ان يقول انه لا حيلة له بالأمر . وقد رأيت ان افضل ما يمكننا عمله ، هو ان نبحث عن أنسب مكان نضرب فيه خيامنا لنبيت تلك الليلة . وقد اسرع (هزاع) يغادر السيارة ليلحق بنا ، وليساعدنا في التفتيش عن ذلك المكان . وحينئذ لم يسعني إلا ان اقود السيارة الى النقطة التي اخترناها وأنا أكاد اتميز غيظاً .

وقد قدت (اللاندروفر) مسافة تزيد على الميل ، غير ان العربة الملحقة بها لم تلبث ان اجبرتنا على التوقف التام. ولما اكتشفت ان عجلات العربة انغرزت كلياً في الرمال ، عملنا على تخليصها منها . ومن ثم قررت العودة الى حيث تقف سيارة (اللوري) وبقية مرافقيّ ، خاصة وان الوقت قد اصبح متأخراً . وقد رأيت سيارة (اللوري) قادمة باتجاهنا ثم توقفت عندما وصلت الى المكان الذي كنا نقف فيه .

وقد حاولت ان نقضي تلك الليلة على خير ما يرام ، فاخترت قطعة من

الأرض الحصبائية تحيط بها رقعة رملية ناعمة تنتثر فيها صخور رملية كبيرة نانئة. وحول ذلك المكان كنت أرى شجيرات حمض بدا واضحاً انها قد ارتوت من مياه الأمطار في الأسابيع الأخيرة . وفي هذه الأثناء اكتشفت سبب انطواء (هزاع) على نفسه ، فقد كان المسكين مريضاً . وسرعان ما أعددنا له فراشاً وألقيناه عليه ، بعد ان أعطيناه جرعة قوية من الاسبرين . وما ان انقضى هزيع من الليل ، حتى كان (هزاع) هو الذي يتولى زمام الحديث مع جميع أفراد المخيم . وانا أشكر الله على شفائه . هذا ، وكانت تلك الأمسية باردة الى حد ما والسماء ملبدة بالغيوم .

وبعد مسيرة حوالي ثلاثة أميال في اليوم التالي ، تمكنا من قطع الوادي من مسرب يقع بين شبكة الصخور الرملية الواقعة في تلك المنطقة . وكنا نعمل ما في وسعنا لكي تظل سياراتنا فوق الأرض الصلبة ، بعيداً عن الرمال والشجيرات البرية . ووصلنا عندئذ الى أرض مرتفعة قريبة من الوادي ، ومنها نفذنا الى طريق صالحة لدواليب السيارات ، فتابعنا السفر مسافة عشرة أميال على أرض سهلة نوعاً ما . وهنا كان علينا ان نسير فوق ارض تمتد مسافة ليست بالقصيرة بين حاشيتين من الصخور تفصلان حوض (الجهره) عن حوض (السَمْك) او (السموك بالجمع) . وقد ظللنا في هذه الطريق خمسة أميال . وكان وادي (السمك) مشابهاً من جميع نواحيه لوادي (الجهره) ولكن الطريق بالقرب من وادي (السمك) كانت تمتاز عن الطريق الأخرى بوضوح معالمها .

وبعد مسيرة خمسة أميال اخرى بلغنا طرف الحوض الأقصى ، ثم منحدراً حصبائياً عادت الطريق فيه فاصبحت جيدة ، وجعلت تتسع هنا وهناك ، وتدور حول الوادي ، او تخترقه عبر ممرات سهلة وان كانت غير خالية من طبقات الرمال الكثيفة . وخاصة عند المنعطفات فيها .

والى أقصى الغرب رأيت سلسلة هضاب (حَبَله) المنخفضة تمتد باتجاه

(مداين صالح). وكان أبرز ما في تلك المنطقة تلةٌ مرتفعة تعرف باسم (النزْلة) بينا كان جبل (بُرد) يقع على مسافة بعيدة خلفنا باتجاه جنوبي شرقي.

وهنا دارت طريقنا قليلاً نحو الشمال لنسير ثمانية أميال فوق طريق متعرجة فنجد نفسنا فجأة أمام هضبة (العقيله) . أما الوادي فقد أصبح الى الجهة الشرقية منا . وكان سهل (جُريدة) يمتد أمامنا باتجاه غربي الى شمالي شرقي ، وتنتشر في أماكن متفرقة من هذا السهل بعض الصخور القليلة الارتفاع ، ذات الاشكال الغريبة بالفعل . وتعرف هذه الصخور باسم (غراميل الرُوَلى) . وعلى مسافة بعيدة الى يمينها ، كنت استطيع ان أرى سلسلة جبال (غُنَيم) تمتد شمالاً ، مشكّلة حاجزاً طبيعياً لوادي (تيماء)، ذلك الوادي الذي كنا حتى ذلك الوقت لا نرى منه شيئاً .

وقد ذكّرتني هذه المنطقة ، بعض الشيء ، بوادي (سرحان) ووادي (جوف) و (سكاكا) . ومن خلال الفجوة ما بين مرتفعات (عُقيلة) البعيدة ، عبرنا الطريق الى قفار فسيحة تمتد حتى الأفق البعيد .

وبعد ان سرنا ما ينوف عن ثلاثين ميلاً وسط ذلك السهل ، بدا ان الصحراء الخالية من كل معلّم ، تنحدر تدريجياً الى وادٍ واسع على جانبيه حاشيتان من الصخور الواطئة المتميزة . وكان القسم الغربي من وادي (السمْك) يقع الى يسارنا وتتلوه (أباريق الحمض) ، بينما كانت (غراميل روَلى) وصخورها الى يميننا . اما الوادي الواسع الذي حططنا فيه فيدعى وادي (جُريدة) وهو مصرف مياه المرتفعات المجاورة، يهبط بها قليلاً ثم يصب في وادي (السمك) . وكانت السيارات في تلك الأثناء قد دخلت ذلك الوادي وبدأت تصعد في طريق مقبولة ، كانت ما تزال مبتلة بفضل الأمطار الأخيرة التي غمرتها .غير اني لاحظت ان هذه الأمطار لم تكن غزيرة بل متوسطة على أكثر تقدير .

وبعد ان توقفنا برهة لالقاء نظرة على خرائب (غراميل رُوَلى) علّنا نجد منقوشات هناك ، تابعنا المسير بين مجموعتي الهضاب عبر مجرى اخذ يضيق اول

الأمر ، ثم ما لبث ان اتسعت فجوته حتى بلغ عرضها ميلين . وفي تلك النقطة فوجئنا برؤية خيمة منفردة حولها عدد من السيارات . ولم اشأ ان اضيع الوقت عبثاً بالاقتراب من هذه الخيمة لأتحقق من هوية ساكنها ، ولذلك فقد تابعت المسير ، بينما طلبت الى مرافقيّ في سيارة (اللوري) ان يذهب بعضهم الى الخيمة يستطلعون خبرها .

وبانتظار عودتهم قمت انا بمسح المنطقة . وسرعان ما رأيت سيارة (اللوري) تعود باتجاهنا ، ترافقها سيارة اخرى تقلّ (عبد العزيز السديري) ، وهو شقيق خالد أمير تبوك . وكان عبد العزيز نفسه يشغل منصب أمير ما يدعى بالمنطقة الشمالية ، اما مقره ففي (نبك) بوادي سرحان . وقد حضر الى هذه المنطقة لمقابلة بعض الأمراء السعوديين الذين ينتظر وصولهم الى (تيماء) ، ولذا فقد ضرب خيمته في منطقة يعتقد بأنهم لا بدّ ان يمروا بها . وكان يُمضي الوقت بالبحث عن بعض الحيوانات التي يقنصها ، بواسطة مطاردتها بالسيارات .

ولما كنت راغباً في الوصول الى (تيماء) قبيل غياب الشمس ، رفضت دعوته الملحة لقضاء الليلة في ضيافته . وكنت اعرف عبد العزيز منذ ان قابلته لأول مرة في سنة ١٩٣٥ ، عندما كان حاكماً لمنطقة (الجوف) ، وكان آنذاك ما زال شاباً . أما (الجوف) هذه فقد مررت بها اثناء الرحلة التي قمت بها أنا وزوجتي بالسيارة ، من انكلترا الى دمشق ، عن طريق الساحل الشمالي لافريقيا . وعبد العزيز صهر الملك عن طريق اخته (حصّة) كما انه الابن الثاني من مجموعة الابناء الثانية للأمير المعروف احمد السديري . وكان جميع هؤلاء الابناء باستثناء اصغرهم ، يحتلون مراكز في حكومة المملكة السعودية كحكام للمناطق . وحتى احمد نفسه ظل مسؤولاً عن منطقة الحدود المهمة لفترة من الزمن . وهو لا يني يتحدث باعتزاز عن (غلوب باشا) ، الذي كان على اتصال مستمر به لتسوية قضايا الحدود . وفي سنة ١٩٥٥ استدعي عبد العزيز من على رأس امارته

ليعهد اليه بمنصب وزير الزراعة ، ولكنه توفي بعد شهر واحـــد من وصوله الى جدة .

وقد قادنا الوادي بعد ذلك باتجاه شمالي غربي ، الى حيث رأينـا سلسلة من البيوت الطينية ، على بعد خمسة اميال من خيمة (السديري) . ومن ثمة أخذنا نصعّد في طريق ادى بنـا الى سهل حصباوي واسع تجنبنـا بفضله الكثير من المصاعب التي كانت ستواجهنا لو اننـا مررنا بسلسلة الجبال التي تشكل قوساً كبيراً يمتد حتى اقصى غربي (تيماء) . وانه لمن سوء الحظ ان (هزاع) كان لا يعرف غير اسم واحد من سلسلة الجبال المذكورة ، وهو جبل (الضبْعـة) اقرب الجبال الى (تيماء) . وقد انقضت عدة أيام قبل ان اعرف شيئاً عن اسماء هذه الجبال .

ومما يذكر ان عبد العزيز قد اخبرني عَرَضاً اثناء حديثي معه، بأن الخرائب التي مررنا بها تدعى (سرابة الكشْل) وليس (غراميل رولى) ، ولعله كان على حق في ذلك ، اذ ان اسم (سرابة الكشل) كان اكثر ايقاعاً في الاذن . وقد اثار دخولنا أول السهل غزالين راحا يتسابقان طالبين النجاة . واذا استثنينـا هذين الغزالين ، فان الوحشة كانت تسيطر على ذلك القفر الذي بدا وكأنه خال من الحياة .

وكنا منذ ان غادرنا السديري نسير باتجاه شمالي، وعلى بعد من موقعنا كان الطقس يبدو وكأنه يمطر بغزارة ، امـا السحب التي تنذر بالعاصفة ، فكانت تتجمع في السماء فوقنا وفوق جبل (الضبعة) وغيره من الجبال الموجودة في تلك المنطقة . ولذا فقد مضينا قدماً قبل ان تداهمنا العاصفة .

وبعد مسيرة ميلين ، وصلنا الى طريق قادنا فوراً الى الطريق التي تربط بين (تبوك) و (تيماء) . وهي طريق تنفذ عبر فجوة بين سلسلة الجبال المقوّسة ، ثم تتجه نحو الشمال الشرقي . وقد تجمعت السحب الكثيفة ، وبدأت تهب الرياح

الشديدة من الجنوب الغربي ، دافعة أمامها رمالاً غزيرة باتجاه الشمال .

وبعد مسيرة ميلين آخرين وصلنا الى ما يمكن ان يسمى أحدث طريق يربط بين (تيماء) و (تبوك) . وقد تابعنا هذه الطريق باتجاه جنوبي شرقي ، ثم أتينا الى واد واسع فيـه منبسطة من الأرض الطينية ، يبلغ طولها ميلين اثنـين . وينحدر هذا المراح باتجاه حوض وادي (تيماء) . وهنـا أمرت بالاسراع في المسير خشية ان تداهمنـا العاصفة . إلا ان السحب كانت قـد بدأت تتجمع حولنا . وأخذت السماء تجود بالمطر بعد غياب الشمس بقليـل . وقد اضطررنا الى الالتجاء فترة من الوقت ، الى خرائب قريبة اتقاء من غضب الطبيعة الذي كان غضباً شديداً .

وهذه الخرائب تدعى (مِنطـــار بني عطية) ، وفي ذلك المكان قررنا ان نضرب خيامنا لنمضي تلك الليلة . فقد كان أفضل محلٍ نبيت فيه لنتجنب شرّ مثل هذا الطقس العاصف .

هذا وقد قررت ان انام في سيارة (اللاند روفر) ، فهي المكان الوحيـــد الذي استطيع ان ابقى فيه بمنجاة من البلل .

والحق ، انني لست أدري ما دفع مرافقيّ ان يضعوا لنا طعام عشاء دسم مكون من اللحم والأرز . وكان اللحم تقدمة من عبد العزيز .

وبينما كنا نتناول طعام العشاء مرت بنا جماعة عرفنا ان أفرادها كانوا في طريقهم الى (تيماء) ، لمقابلة الأمير عبد الله بن فيصل . وقـــد قطعوا رحلتهم مدة ساعة من الزمن قضوها في ضيافتنا ، فشاركونا طعـــام العشاء . وكان هؤلاء قد سمعوا بان عبد الله بن فيصل قد وصل الى شعب (حبير) اثناء النهار ، حيث ضرب خيامه لقضاء الليلة هناك قبل ان يواصل سيره الى (تيماء) . وكان اول مكان توقف فيه يدعى (حفيرة شمّلي) على مرحـــلة يوم من (حايل) .

ولم نكد نرفع طعام العشاء حتى بدأ المطر يتساقط خفيفاً ولكن باستمرار .

وما ان انتصف الليل حتى أخذ ينسكب من أفواه القرب . وقد استمر على هذه الحال مصحوباً برياح صاقعة حتى مطلع الفجر . ومن المؤكد ان كمية الأمطار التي سقطت في تلك الليلة تزيد على انشين ، إذ ان كل شيء معنا كان يسبح في بركة من الماء عندما استيقظنا في الصباح . ومن الطبيعي اننا كنا نحمل معنا خياماً ، غير انني رأيت ان لا تضرب لمجرد ليلة قصيرة . وهكذا وجدت جميع مرافقيّ يسبحون في خضمّ من البلل .

وفي صبيحة اليوم التالي تسلقت الى القلعة المتهدمة التي كانت تستعمل نقطة ثابتة لحراسة الحدود عند الواحات ، مع انها ليست مشرفة تصلح لذلك . وان نظرة واحدة الى الصخور المحيطة بها لكفيلة بأن تجعل المرء يدرك انمعركة قد دارت في هذه النواحي من اجل الحفاظ على القلعة . وقد لاحظت ان هذه القلعة لم تستعمل منذ سنوات ، كما ان جدرانها كانت متهدمة ، مع ان ارضها ما زالت محتفظة بشكلها القديم الذي كانت عليه .

وتتألف ارض القلعة من مربعين متلاصقين طول ضلع الواحد منهما ٤٠ قدماً ويواجهان الجهة الشرقية من الوادي . وفي اقصى الناحية الشرقية لكل مربع جُعلت شبه كوة للحراسة والمراقبة ، تطل من غرفة صغيرة طولها (١٠) اقدام وعرضها ٧،٥ قدماً . وتطل هاتان الكوتان على الطريق الذي كنا نسير فيه كما تشرفان على امتدادها حتى الصخور التي تبعد عن القلعة .

وبعد ذلك تنعطف الطريق شرقاً عبر واد ضيق ، ثم تتجه نحو الواحات بينما تميل الصخور الى جهة الشمال ثم تتقوس لتشكل دائرة صخرية تحصر ارضاً مراحاً يطلق عليها اسم (سبخة) . والى هذه الأرض تصل جميع الروافد التي تصب في الوادي . والى الشمال الشرقي من تلك الصخور وعلى بعد قليل منها الى الخلف تطل الصخرة المعروفة باسم (طويّل سعيد) ، وعليها قلعة الحراسة المشهورة . اما عند اقصى طرف الهضبة فقفف تاتان تعرفان باسم (جلّ الملح) . وتميز اشجار

النخيل الباسقة منطقة الواحات والينابيع المتاخمة المعروفـــة باسم ينابيع (حدّاج)، وتقع هذه الينابيع الى الشمال الشرقي من الواحات. وعلى بعد ليس بالقليل خلفها تقع سلسلة جبال (كُتَيْنِب) ، التي تمتد وراءها رمال شاسعة كثيرة تدعى (رمال نَفود).

وعلى العموم ، فان هذه المنطقة خالية من المناظر المؤثرة ، او التي يمكن ان تكون علامة تدل على تاريخ شبه الجزيرة القديم .

وعلى الرغم من هطول الامطار وهبوب الرياح اثناء الليـــل ، كان الطقس مقبولاً ، وإن تدنت درجة الحرارة الى ٥٥ درجة فهرنهايت . وصدف ان مرت طائرة بينما كنا نستعد للسير في الصباح . وسرنا ولم نستغرق طويل وقت لنقطع الاميال الستة التي كانت تفصلنا عن مشارف (تيماء) وواحاتها ، وهي مشارف صخرية مرتفعة تحميها الواحات من مياه الامطار والسيول . وأخـيراً وصلنا الى بوابة قلعة الامير ، وهي بمثابة الطرف الخارجي للقرية .

وقد قطعنا مسافة ٢٢٩ كيلو متراً من خيبر الى اطراف وادي (جهره) . ولما وصلنـا الى تلك النقطة كنا ما نزال على بعد ثلاثين كيلومتراً من (تيماء) اذا ما سرنا في خط مستقيـم يمتد من الشمال الى الشمال الغربي . ولكننـا في الطريق التي اتبعناها قطعنا مسافة ٢٦٠ كيلومتراً . وعلى كل حال،فان طريقنا قد قادتنا مسافة ١٧ كيلو متراً عبر طريق اضطررنا ان نرجع منه حتى وصلنا الى الطريق العادية ، التي كانت تخترق الوادي . الأمر الذي ربمـا قد ضاعف المسافة . ومن تلك النقطة سرنا ١١١ كيلو متراً حتى نصل الى (تيماء) . وبذا نكون قد قطعنا مسافة ٣٥٧ كيلو متراً ، لنقطع طريقاً لا يزيد طولها على ٢٦٠ كيلو متراً ، لو ان الطريق عادية وفي خط مستقيم .

وبالاضافة الى هذا ، فقد وصلنا الى (تيماء) من الناحية الجنوبية الشرقية ،

بينما كان من المتوقع ان نصل اليها من الجهة الشمالية الغربية . وهكذا نجد اننا قطعنا ، منذ ان غادرنا المدينة حتى وصلنا الى (تيماء) ، مسافة ٦٢٧ كيلومتراً بينما لا تزيد المسافة ، حسب تقديري ، على ٤٣٦ كيلو متراً ، أو مـا يعادل ٢٧٤ ميلاً .

ولما دخلنا الى (تيماء) كان ذلك اليوم هو الرابع من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٥١ . اما اليوم الذي تركنا فيه القرية لنقوم بالمرحلة التالية من تجوالنا ، فقد كان هو الثالث عشر من الشهر ذاته .

٤

تـــيماء وجوارها

كان « عبد الله الشنيفي » صديقاً قديماً لي ، ولطالما كنت أسر بزيارته خلال امارته الطويلة الأمد في « دوادامي » ، وهي المحطة الرئيسيـــة في الطريق بين مكة والرياض . وكان هذا الشخص هو ذاته الذي أعد لي في أوائل صيف سنة ١٩٥٠ جميع الترتيبـات التي مكنتني من زيارة واستنساخ النقوش السبائية في وادي « مسيل » . تلك النقوش المشهورة التي استكتبهـا ملوك سبأ في القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد .

وكان شقيق الملك ، الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود ، هو أول من حدثني بوجود تلك النقوش ، وقد جاء حديثه عنها غامضاً غير محدد المعالم ، ثم زار السيد فؤاد حمزة الوادي في شتاء ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ، وهو من موظفي وزارة الخارجية السعودية ، وقد أرسل إلي بعض مـا استنسخه من تلك النقوش . غير انه تبين لي ان هذه المستنسخات لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية . ولعل مرد ذلك الى ان السيد حمزة كان على عجل من أمره ، يود العودة الى « دوادامي » حيث يجد الراحة والدعة . وقد ارسلت مستنسخات السيد حمزه الى البروفسور ج. ريكمانز من جامعة « لوفين » وهو اشهر خبير في العالم بشؤون تاريخ سبأ ، فقام

البروفسور بدراستها ثم القى عنهـا محاضرتين : أحداهما في لندن ، والثانية في اوكسفورد ، وذلك في أوائل شهر مايس (أيار) سنـة ١٩٥٠ . وبعد هاتين المحاضرتين قمت بزيارة المنطقة كي انسخ تلك المنقوشات نسخاً دقيقاً حسبما تؤهلني كفاءتي . هذا وقد نشر البروفسور « ريكمانز » مستنسخاتي الجديدة في أواخر ذلك العام .

وفي شهر فبراير (شبـاط) الذي تلا ، كان من دواعي سروري ان ارافق البروفسور « ريكمانز » وجماعته من الخبراء الى وادي « مسيل » بعد ان قمنا بجولة طويلة في « نجران » وأقاصي المناطق الجنوبية من الحدود السعودية .

وان لدي من الاسبـاب ما يجعلني ممتنّاً لعبد الله الشُنيفي لتعاونه الودي معي ومساعدته لي في اكتشاف واستنساخ ونشر أول منقوشات سبأية عثر عليها حتى ذلك التاريخ في اواسط شبه الجزيرة العربيـة . وكان عبد الله وشقيقاه عبد الرحمن وعبد العزير ، من ذوي الوسامة واللطف ، فهم يرعون شؤون تقاليد الشهـامة حسب الاعراف القديمة . أما كرمهم فقد طبقت شهرته الآفاق .

وقد نشأت عائلة « الشنيفي » في الأصل بمدينة « حايل » حيث ظل والدهم « ابراهيم الشنيفي » ما يزال مقيماً خلال تلك السنوات ، وإن كان من المتوقع ان يصل قريباً الى «تيماء» مع عائلة الأمير ، التي خلفها ابنه وراءه في«دوادامي» ليسرع بتسلم مهام منصبه الجديد في المنطقة التي نقل اليها في ظروف سأسردها في هذا الكتاب متى يحين وقتهـا . وفي الوقت ذاته فان شقيقه عبد العزيز كان قد عين في سنة ١٩٤٩ أميراً لاقليم « الخرج » وكان مقره في « السيح » ، كما ان عبد الرحمن قد خلف والده في منصب حاكم « دوادامي » .

وغني عن القول بأن مقـامي الذي استمر تسعة ايام في « تيماء » ، لم يكن مقاماً ممتعاً فحسب ، بل ومفيداً غاية الفائدة أيضاً . وذلك بفضل التعـاون الصادق والضيافة الرائعة التي عوملت بها من قبل « عبد الرحمن » . وان كان

هذا ، اذا توخينا الحقيقة ، غائباً نصف المدة التي قضيتها هناك . غير انه عـاد في الوقت المناسب ليعمل على الاسراع في تحركنا شمالاً . وكان تغيبه عن المدينة مصادفة ، اذ انه كان قد اخذ علماً باقتراب والده الشيخ ونساء بيته وأطفاله ، ولذا فقـد اسرع لملاقاتهم حتى يجنّبهم وعورة الطريق الـــتي بلغه انهم قادمون عليها .

وكان عبد الرحمن قد استهل فترة ولايته على المنطقـة باصدار اوامره بشق طريق جديدة تكون عاملاً من عوامل ازدهار « تيماء » والمنطقة بأسرها . أما الطريق الطويلة المتعبة والضيقة التي سرناها ، فقد اصبح من الجائز تسميتهـــا بطريق اثرية، ولم تعد بمجال من الأحوال، تشجع الانتقال أو التجارة بين « تيماء » و « حايل » أو « خيبر » .

ولولا المبادهة الشخصية من حكام المناطق التقدميين ، امثال مضيفنا وغيره وهم كثيرون منتشرون في مختلف مناطق المملكة العربية السعودية ، لولا هذه المبادهة الشخصية لظلت مناطق اواسط شبه الجزيرة العربية على الحـــال الذي كانت عليه قبل عدة قرون من الزمن،عندما كانت الامبراطورية العربية منشغلة بغزواتها الخارجية ، ولا تولي بلادها ادنى اهتمام .

هــذا وقد دعانا « عبد الله الشنيفي » ، الذي كان قد وصل الى « تيماء » في شهر اكتوبر (تشرين الأول » الماضي كأول حاكم للمدينة ، دعانا الى غداء فخم في بيته الصيفي الجميل ذي الحديقة الغناء التي تطل على قلعة المدينة . وكان هذا البيت قد شيد بعناية ، وذلك من أجل توفير ابسط اسباب الراحة ، كما تقتضيها الحياة في العربية السعودية ، للعائلة الحاكمة . وكذلك من أجل حماية تلك العائلة من العداء الحقيقي أو الوهمي الذي يكنُّه العالم اجمع للعائلات الحاكمة .

ولقد كان البناء بحد ذاته ليس فخماً ذا روعة خاصة،غير ان حديقته اضفت عليه الكثير من الرونق بما حوته من اشجار الحمضيات وغيرها من الأشجـــار

المثمرة المختلفة الانواع . وخاصة اشجار الكرمة بأنواعها ، وأشجار النخيل الباسقة التي كانت تتمايل كلما هبّت الريح فتتحرك سعفها المشرفة من علٍ على أرجاء تلك الحديقة .

والجدير بالذكر ان موعد جني المحصول هنا يتأخر عنه في الجنوب ، اذ اننا وصلنا الى المدينة وكان المزارعون قد فرغوا لتوهم من جني المحاصيل ، وبدأ الناس يأكلون تمراً طازجاً .

وكان للحديقة جدار خلفي هو في الواقع قسم من الجبل الملاصق لها بحيث يشكل جداراً يقيها شرور الغزو ، وخاصة في الليالي الحالكة الظلام ، لا سيما وهي في وضعها المنعزل البعيد عن بيوت المدينة .

ورأيت في غرفة القهوة عند مدخل البيت ، نقشاً عربياً طويلاً . وقد حاولت فيما بعد ان استبينه لتظهر نقوشه، ولكنني لم اوفق في ذلك . فلم اعرف ما اذا كان نقشاً حديثاً يعود تاريخه الى اوائل هذا القرن قد وضعوه في مدخل البيت لمجرد الزينة ، ام انه كان نقشاً قديماً يمكن ان تكون له قيمة اثرية ، وضعوه في هذا البيت ليشهد على مسؤولية قاطنيه . ولم تتح لي الفرصة ان افحص غرف هذه الدار التي لم تكن، من غير شك، مفروشة بأثاث يختلف كل الاختلاف عن الأثاث المعروف في « نجد » .

وبعد ان تناولنا طعام الغداء وقضينا وقتاً ممتعاً في الحديقة ، قادنا أحد رجال الأمير الى البيوت التي خصصها لنا الامير طيلة مكوثنا في « تيماء » . وكانت هذه البيوت عبارة عن اكواخ صغيرة يتألف الواحد منها من غرفتين أو ثلاث غرف . والغرف في مجموعها صغيرة ومشيدة من الطين وكل بيت منها مؤلف من طابقين . اما الطابق الأول فكان عبارة عن غرفة واحدة امامها ساحة في منتهى القذارة تتكوم فيها الأوساخ ، كما يكسو أرضها الطين .

وقد اخترت الغرفة العليا في أحد البيوت لنفسي ، تاركاً بقية الغرف

لمرافقيّ ، وما زاد عن حاجتهم ليستعمل كمخازن . ورأيت سقف الغرفة مبتلاً وكأنما هو يرشح كلما امطرت السماء . اما الشيء الذي يُفترض ان يكون نافذة ، فليس اكثر من فتحة في الجدار لا أستطيع ان اعطيها شكلاً معيناً . وفي اقصى الغرفة كان يوجد « بابٌ » ما . ولعله يسمى باباً من قبيل المجاز لا اكثر . وفي مقابل الباب الأول ثغرة اخرى يسمونها كذلك « باباً » . ويفضي الباب الأول الى سطح البيت . ويبدو ان مصممي هذه البيوت قد افترضوا ان يُستعمل السطح عند الحاجة الماسة كمرحاض . وقد يكون العيش في الخيام خارج المدينة اكثر ملاءمة من العيش في هذه البيوت ، ولكن تهديد السماء لنا بالمطر المدرار جعلني اقبل العيش في هذه البيوت التي قُدمت لنا .

هذا وقد امضينا بعد ظهر ذلك اليوم في زيارة لبئر « حدّاج » الكبيرة ، وفي جولة سريعة لمنطقة الواحات وما جاورها . وكان يرافقني في هذه الجولة اثنان من ابناء مدينة « تيماء » . أما الأول فيدعى محمد ، وأما الثاني فيسمى « ضَيغام » ، وهما حفيدان للشيخ « سلامه » الذي يعتبر أحد ثلاثة شيوخ كان جميع سكان « تيماء » ينتسبون اليهم ومن نسلهم عندما زارها « دوتي » في سنة ١٨٧٧ .

وقد ترك سلامة وراءه ولدين هما « حسين » و « عيد » . وللأول ولدان « عُبَيد » و « حُميدي » . أما « عبيد » فقد كان له ولد واحد في الثامنة من عمره ويدعى كذلك « محمد » . وكان لعيد ولد واحد هو « صَنعان » الذي لم يعقّب غير صاحبنا « ضَيغام » الشاب في أول رجولته .

أما الشيخ « خلف العُمَر » وهو يمثل شيخاً ثانياً من شيوخ المدينة الثلاثة زمن زيارة « دوتي » ، فقد كان اثناء زيارتي ممثلاً بحفيده « دفّاق بن حميدي » ، وهو شاب في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره .

ولقد انطبع في ذهني ان جو « تيماء » وأوضاعها هما السببان الأساسيان فيما يعانيه اهل المدينة من حياة مزرية .

ولقد قابلت كثيراً من المسنّين ، غير ان هؤلاء المسنين ما كانوا لينفوا الحقيقة التي لا مجال للخطأ فيهـا ، وهي ان رياح الفقر والجوع هي التي تسيطر على المنطقة .

ولقد سألت أحد الأولاد الذين قابلتهم ورافقوني في جولتي بعد ظهر ذلك اليوم ، عما اذا كانت المنطقة قد تعرضت مؤخراً لاحدى غزوات الجراد ، فأجابني الصبي بأنه يأمل في ان تفد اسراب جديدة منه خلال الموسم القادم . وشرح وجهة نظره ، فأبان ان النـاس ينتظرون مثل هذه الغزوة بفارغ الصبر ليخزنوا من الجراد ما يكفيهم لمؤونة السنة !

وكنت اعرف انه في السنوات التي تكون فيهـا غزوة الجراد كبيرة ، لا يكتفي السكان بأكل فقسه بعد تحميصه، بل انهم يخزنون منه كميات يتناولونها على مدار السنة ، كما انهم يبيعون منها للبدو عندما يفد هؤلاء لشراء حاجياتهم من السوق . ومن المؤكد انه بعد ان تم جني التمر لهذا الموسم ، لم يبق ما يُخشى ان يدمره الجراد سوى سعف النخل .

وتتألف واحات « تيماء » من ثلاث نواح متمايزة ، أهمها الناحية الوسطى ، حيث تنبت بساتين النخيـل وتتجمع في مساحة واسعة حول بئر « حدّاج » . أما « تيماء » ذاتها فتتألف من مجموعة من البيوت التي لا يصح إلا ان يطلق عليها وصف « حقيرة » . وهي بيوت طينية تظهر وكأنهـا تتدافع بالمناكب حول بساتين النخيل وفي نهايات أزقة قذرة ضيقـة . وليس في « تيماء » مكان يعرف على انه سوق ، ولا مكان خاص تتجمع فيه المتاجر . والمتاجر هناك تشكل على الغالب قسماً من اماكن سكن اصحابها .

أما « الدرب » الجديدة التي تمتد من قصر الأمير حتى بئر « حدّاج » ، فمن الواضح انها انشئت حديثاً . وكان للطبيعة الأثر الأكبر في انشائهـا بما يتفق مع آراء آخر حاكم محلي لمنطقة الواحات . وما ذلك إلا لتتاح له الفرصة كي يشرف

على قوافل الجمال التي ترد الواحات طلباً للري . وكذلك لكي يشرف من قلعته على أوسع منطقة ممكنـــة ، حتى يأمن غزوات ابن رشيد ، الذي كان يهاجم السلطة في أوائل هذا القرن ، أو غزوات ابن سعود عندما احتل « حايل » في سنة ١٩٢١ .

وفي الجنوب من هذه المنطقة ، تقع أرض واسعة تنتشر فيها خرائب عديمة الفائدة . وكلها تخص مدينة « تيماء » الأثرية التي كانت (في يوم من الأيام) العاصمة الصيفية للملك « نبونيدوس » ملك « بابل » .

أما الضاحية الغربية ، ويطلقون عليهـــا اسم « الغرب » ، فهي مفصولة عن مركز الواحات بواسطة القناة العريضة لوادي « السيفية » التي تستمر حتى تصل الى « السَبْخة » . وكانت الفيضانات التي تقع في الوادي تروي مساحات شاسعة من الأراضي المفتلحة على ضفتي الوادي . أما الأرض المرتفعة التي تقع فوق ضفة الوادي الشمالية ، فانهـا تضم قرية صغيرة ، وعدداً كبيراً من الآبار تستعمل في اغراض الري لبساتين النخيل وحقول الحبوب. غير ان تلك القرية بأ كملها كانت خراباً ... وفي الوقت الذي زرت فيه المنطقة كانت قد طمرت منذ سنة ١٩١٦ على يد حا كم مجنون رأى في وجودها هناك تهديداً لسلامته .

ثم لحق بالضاحيـة الشرقية ما أصاب اختها الغربية بعد خمس سنوات فقط من تدمير الضاحية الأولى .. وقد لاحظت ان آبار الضاحية الشرقية وبساتين النخيل فيها ، وغير ذلك من الأشجار ، باستثناء بستان نخيل واحد يقع قرب القسم الأوسط ، كل هذا ، قد دُمر عمداً حتى لا يشكـّل مكاناً يجوز ان يختبىء فيه غازٍ طامع ، أو يخفي أية جموع يقوم بهـــا ابن سعود لغزو المنطقة بقصد احتلال الواحات .

وهكذا فان الفوضى القديمة التي كانت قائمة هنـــا قد اختفت الى الابد ، وساد السلام والأمن في المنطقة بعد ان تم احتلالهـــا من قبل ابن سعود . ولا يمكن للمرء ان يشك لحظة في ان الرخاء والسعادة سيعودان من جديد الى تيماء .

غير ان تحقيق هذا الرخاء وتلك السعادة سيتم بشكل بطيء ، اللهم اذا ساعدت حكومة المملكة السعودية سكان المنطقـــة على اصلاح آبار منطقتهم ، وإعادة زراعة بساتينهم .

لقد دمر هذه الآبار طاغية لم يقدر المسؤولية عندما اقدم على تلك الفعلة .. كان قد اعماه الخوف من عدوٍ وهمي فلم يدرك حقيقة ما يفعل . ويبدو انه كان يخشى حدوث غزوات متوقعة، وبدافع حرصه على حماية نفسه ، اقدم على فعلته دون وازع من ضمير .

هذا وقد وضع اغتيـــال ذلك الطاغية في عقر داره حداً لشروره . وقد تم اغتياله على يد ابن عمٍ له في شهر سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٥٠ ، وبعدهـــا تم لابن سعود ان يسيطر على الواحات .

وقد زار الملك سعود تيماء في سنة ١٩٥٤ كجزء من زياراته التي كانــ يقوم بها الى شمالي مملكته بعد انتصاره . ولا بد انه قد اطلع على حاجة المنطقة الماسة للمساعدة . غير انني لم اسمع بأي اجراء اتخذ منذ ذلك التاريخ لتخفيف المأساة التي يعيشها أهل واحات تيماء .

ويبدو ان القليل من تاريخ تيماء خلال الاثني عشر قرناً أو مـــا يقارب هذه الفترة التي تلت خضوعها للنبيّ معروف معرفة كافية . ويبدو ان النبي قد نصب خيام معسكره في الأرض الصخرية التي تعرف باسم « المحجّة » ، وان كان الاسم كما عرفت ، اقدم من المناسبة التي يظهر انه اطلق من اجلها . وقد عرفت ذلك من أحد النقوش « الثمودية » التي عثرت عليها في المنطقة .

ومهما يكن من أمر ، فان « تيماء » ظلت خلال الاربعمائة سنة الاخيرة تحتل مركزاً لا يذكر في سياسة شبه الجزيرة العربية . ذلك لأنهـــا كانت تتمتع بوضع أشبه بالمستقل، وان تخللته فترات اصبحت فيها « تيماء » أشبه بالمستعمرة . وكان ذلك اثنـــاء ازدياد قوة « حايل » ، وخاصة بعد ان أصبحت إمارة خاضعة لعبدالله بن رشيد في منتصف عام ١٨٣٠ .

ولما زار « غورماني » منطقة « تيماء » في سنة ١٨٦٤ ، موفداً من قبل الحاكم التركي في دمشق ليشتري له عدداً من الخيل ، كانت « الواحة » في ذلك الوقت مستقلة ، يحكمها شخص من ابنائها ، هو « رمّان بن حُطيم » . وقد ظل حكم المنطقة بيد نسله الى ما قبل زيارتي لها بقليل .

وكانت الأسرة الحاكمة تدعى أسرة « ابن رمّان » . وتؤكد هذه التسمية أن « رمان بن حطيم » هو مؤسس هذه الأسرة ، وانه كان رجلاً في حوالي الستين من عمره . أما تاريخ تأسيس أسرته فيعود الى سنة ١٨٤٠ .

وقد وجد « غورماني » ان « رمان » هذا كان ينظر الى الأتراك نظرة ودية ، كما انه كان على وفاق مع « طلال بن رشيد » ، الذي كان في ذلك الوقت حاكماً لمنطقة « حايل » . وقد اعطاه طلال رسالة الى ابن رمّان قدّمه فيها ، وطلب اليه مساعدته في قضاء مهمته .

وعندما وصل « شارلز هوبر » الى « تيماء » في اوائل عام ١٨٨٠ – وكان « دوتي » قد سبقه اليها ببضع سنوات – كان حاكم المنطقة يدعى «عبد العزيز» ، وهو اكبر اولاد « رمّان » . وقد ذكر « هوبر » بشكل غير شريح ولكن بوضوح تام ، بأن حاكم « تيماء » هو في الحقيقة من اعوان حاكم « حايل » ، وكان في ذلك الوقت « محمد بن رشيد » . وعلى كل حال فان « ابن رشيد » لم يعين له ممثلاً في « تيماء » ، بل كانت ادارة المنطقة بامرها في يدي الحاكم المحلي .

وكذلك فقد ذكر « هوبر » انه اجتمع باثنين من أشقاء حاكم « تيماء » هما « ثويني » و « زيد » ، ولكنه لم يقابل « علياً » الذي كان ابنه « عبدالكريم » خير من حكم الواحات خلال النصف الاول من هذا القرن . وخلافاً لما كتبه « هوبر » عن « تيماء » لم تتوفر لدينا أية معلومات عن المنطقة طيلة حوالي ربع قرن من الزمن .

وعندما زار « دوغلاس غرّوثرز » المنطقة في سنة ١٩١٠ كانت ادارتها

في يدي ممثل « ابن رشيد » ، ويدعى « سعيد » – وان لم يذكر «غروثرز» اسمه صراحة – . ولكنه سرعان ما استُبدل سعيد هذا بشخص آخر يدعى « ناصر بن عتيق » ، وذلك في سنة ١٩١٦ . غير ان هذا الأخير قُتل مع جميع أفراد حرسه على أيدي رجال « عبدالكريم » الذي أعاد ادارة المنطقة الى اسرة ابن رمان .

ولكي يحمي المنطقة من عودة «ابن رشيد» اليها ، تراه اسرع ببناء القسم الرئيسي من القلعة الحالية ، وهو القسم الذي يقع عند طرف بساتين النخيل . ولم يبن البناية الثانية الملحقة بالقلعة إلا بعد عشرين عاماً ، حيث خصصها لعائلته. ولكي يطمئن أكثر الى سلامته اثناء الليل ، وفي ساعات استراحته ، بنى حائطاً عالياً على شكل سور مزوّد بجميع وسائل الدفاع المعروفة آنذاك . واني لأذكر الباب الحديدي الذي يفصل القلعة عن بيت الحريم ، وباباً آخر مماثلاً ، ولعله المخرج الوحيد الى جناح القلعة الذي كان مخصصاً للحكم واستقبال أبناء المنطقة الذين يفدون للتقاضي .

ومن هناك تمتد ساحة بنيت فيها بيوت لسكان المنطقة ، وفيها كذلك مسجد وقاعة واسعة للقهوة . وكانت تستعمل ايضاً للحفلات عندما يود الحاكم ان يرفه عن رعيته في مناسبات خاصه .

اما البرج العالي الواسع الذي كان يحيط بقاعة القهوة والحفلات ، فقد كان يُستعمل كمكاتب للادارة ، وكانت هذه موجودة في الطابق الارضي من البرج . اما الطابق الثاني فقد جُعل للحرس . وكان هذا الطابق يشرف على مسافة شاسعة من المنطقة المحيطة بالقلعة . وقد مُنحت امتياز الصعود الى برج المراقبة لأقوم ببعض عمليات المسح ، والتقط بعض الصور للجوار .

ومما لا شك فيه ان شيوخ « ابن رشيد » الذين يبدو انهم من « شمّر » كانوا يوظفون عدداً كبيراً من رجال الحرس الموثوق بهم . وجلّ هؤلاء الحرس من العبيد . وكانت مهمتهم ذرع السور جيئة وذهاباً بقصد الحراسة والحماية .

ولم يكن ليسمح لأحد اثنـاء الليل بأن يوجد داخل السور إلا للحاكم وعائلته وأفراد حرسه وعبيده وخدمه .

ومما يذكر ان هؤلاء الحكام كانوا قبل سنة ١٩١٦ يعيشون في قلعة طينية ، اصغر كثيراً من القلعة الحالية وأقل أماناً . وقد بنوهـا عن طريق السُّخرة مستخدمين في ذلك اتباعهم وخدمهم . وكانت هذه القلعة تقع في منتصف بساتين النخيل وفي المنطقة الواسعة التي تضم بئر حدّاج .

وفي الوقت ذاته ، وكما ذكرت سابقـاً ، فان عبد الكريم قد دمر الضاحية الغربية كما دمر القسم الأكبر من الضاحية الشرقية بشراسة . وبذا يكون قد دمر الأهمية الاقتصادية للمنطقة التي يحكمها . كل ذلك في سبيل ان يؤمن منطقة مفتوحة أمامه يستطيع منهـا ان يرى غزاته وهم بعدُ على مسافة معقولة من مقره هو . أما هدفه من وراء ذلك فهو المحافظة على استقلال منطقته في حـالة تعرضها لغزو من الخارج . ويبدو ان الضرر الفادح الذي لحق بأتباعه لم يكن ليهمه في كثير أو قليل . ولعله كان قوياً بما فيه الكفاية بحيث استطاع ان يفرض ارادته على اتباعه السيئي الحظ .

وفي الحقيقـة ، فان « سعود بن رشيد » كان لا يبدو مشغولاً كثيراً بالدفاع عن اراضيه ، ضـد القوة التي كانت تتزايد في « الرياض » . ولم يقم بأي مجهود أو محاولة للانتقـام لمقتل ممثله في تيماء ، كما انه لم يحاول اعادة سلطته على المدينة .

ولما سقطت « حايل » ذاتهـا بيد ابن سعود في سنة ١٩٢١ ، كان الملك الوهابي قد قرر ان يترك حاكم تيماء يعيش في الفراغ الذي اوقع نفسه فيه بما اسماه « شبه استقلال » . اللهم إلا اذا حاول الاعتداء على اراض غير اراضيه . وعلى كل حال ، فقد استمر « عبد الكريم بن رمان » يحكم منطقة الواحات دون أي تدخل من الادارة المركزية التابعة للملك الوهابي ، فترة تبلغ ثلاثين عاماً .

وكذلك كان الحـال في الجنوب ، اذ ترك ابن سعود منطقة واحات « نجران » بأيدي حكامها المحليين حتى مطلع عـام ١٩٣٠ ، عندما اصبحت هذه المنطقة موضع خلاف بين ابن سعود والامـام يحيي ملك اليمن . وحينئذ أصبحت هذه المنطقة جزءاً من المملكة السعودية بعد قتـال بسيط بين الجانبين : السعودي واليمني .

ويبـدو ان عبد الكريم كان كثير الشك في جيرته ، فلم يأمن لهم ، ولم يغرب عن باله اهتمام ابن سعود بمنطقته ، ولا انه من الممكن ، بل من المحتمل ، ان تصبح منطقة تيماء في يوم من الايام جزءاً من المملكة السعودية .

وكان الملك ابن سعود عاقلاً فلم يشأ ان يضم هذه المنطقـة بالقوة ، في حين يدرك انها ستنضم الى مملكته إن آجلاً أو عاجلاً . ولعله كان يظن ان وضع تيماء لا بد وان ينتهي بوفاة عبد الكريم الذي كان بالرغم من طغيانه وظلمه ، مـا يزال يعتبر من ابطـال الصحراء ، مثله مثل « فيصل الدوَيْش » و « فيصل بن حَشْر » و « خـالد بن لؤي » وغيرهم كثيرون . ومن بينهم «ابن رشيد» و « ابن سعود » نفسه . غير ان أيام أبطـال الصحراء قد أخذت تزول مفسحةً المجال لعهد جديد .

ومما لا شك فيه ان « عبد الكريم بن رمّان » كان شخصية من شخصيات أبطال الصحراء . وانه لما يؤسف له اننا لا نملك تاريخاً مفصلاً عنه . والحقيقة انه لا « دوغلاس غروثرز » ولا « بيير جاسن » ولا « سافيغنـاك » قد تعرفوا على عبد الكريم اثناء زيارتهم لمنطقة تيماء عام ١٩١٠ .

ومنذ ذلك التاريخ كانت منطقة الواحـات مقفلة في وجوه الأوروبيين ، حتى قمت أنا بزيارتها بعد اربعين سنة. وعندها كان كل ما رأيته من آثار عبد الكريم ضريحه الذي كان قد اعيد بناؤه . ويقع هذا الضريح في مقبرة خارج القلعة ، وقرب المسجد الكبير الذي كان قائمـاً في الأيام الخوالي . ذلك المسجد الذي

أوحت اليّ اعمدته ، كما أوحت الى « هوبر » من قبل في سنة ١٨٨٤ ، بأن المكان الذي بني فيه المسجد كان مكاناً أُعد للعبادة .

وكذلك فقد استقبل عبد الكريم بكل حفاوة البعثةَ الأميركية المشبوهة ، التي كانت تدعي انها تفتش عن البترول . حتى ان جماعة من افراد هذه البعثة التي وجدتُ آثارها عند « المذبح » قد وصلت الى مشارف « طويّل سعيد » . ومن هناك تمكنوا من القاء نظرة على المنطقة المحرمة ولكن عن بعد . وقد رأيت على قمة برج المراقبة عشرات من الأسماء الثمودية حفرها اصحابها هنـاك في قديم الزمان ليدللوا على انهم مروا بالمنطقة .

وفي سنة ١٩٥٠ كان عبد الكريم قد حكم تيماء فترة خمسين سنة تقريباً، فكان لا بد وان يصبح شيخاً مسناً . وانه لمن غير المعقول ان اتباعه كانوا خلال هذه الفترة ؛ غير عالمين بالتطورات التي جرت في المناطق المجاورة لهم ، حيث بدأت الثروات تتدفق على المملكة السعودية . فأخذوا يشعرون بالقنوط لحياتهم المزرية التي يعيشونها نتيجة تعسف عبد الكريم نفسه ، وتمسكه بأن يكون الحـاكم الفرد المستبد . ولقـد كان عدد من افراد عائلته يشعرون بالنقمة وعدم الرضا الذي يجتاح اتباعه الآخرين .

وهكذا فقد بلغ الخطر القمة في السادس من شهر اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٥٠ . اذ بينما كان عبد الكريم خارجـاً من المسجد الملحق بالقاعة بعد صلاة الجمعة فاجأه ابن عم له يدعى « فارس بن عبيْد الله بن ثويني بن رمـان » فأطلق عليه النار وأرداه قتيلاً . غير ان فارس هذا قتل في الوقت ذاته على أيدي عبيد القصر الذين مزقوا جثته شر ممزق .

ومن الغريب ، ان الملك منحني اذناً بزيارة « مدَين » قبل ثلاثة أيام من وقوع هذا الحادث ، ومن الطبيعي وأنا ازور « مدَين » ان تكون خطتي قضاء بعض الوقت في تيماء . لقد كنت في حضرة الملك مساء اليوم السادس ، عندمـا تبلغ

الملك عن طريق جهاز اللاسلكي ، انباء اغتيال عبد الكريم . وعلى الأثر هب ابن سعود فأصدر أوامره باعدام القاتل على الفور ، ولكن القاتل . كان بطبيعة الحال قد مات على أيدي عبيد القصر ، كما سبق ان ذكرنا .

وكان من الطبيعي ان يخلف عبد الكريم ابنهُ الأكبر «عبد العزيز» ، إلا انه بالنظر للاضطرابات التي اجتاحت المنطقة ، فقد أصدر الملك ابن سعود الى « خالد السديري » – وكان أمير « تبوك » آنذاك – أوامر سرية تقضي بأن يتوجه مستصحباً قوة كافية الى تيماء في الحال . وذلك ليتأكد من ان النظام قد استتب هناك .

وكان طبيعياً انيتولى زمام السلطة في تيماء ابن عم القتيل ويدعى «برجيس» ابن محمد بن ثويني » ، وذلك بعد وقوع الكارثة، أو قلْ المأساة الفظيعة . ولكنه هو الذي سلم منطقة تيماء الى حكومة ابن سعود فور وصول خالد السديري ، وكان ذلك في التاسع من شهر اكتوبر (تشرين الأول) .

هذا وقد دعي « برجيس » مع ابنائه الثلاثة وشقيقه وحفيده وابن أخ عبد الكريم للاقامة في « الرياض » كضيوف على الملك . ومن المؤكد انهم ما زالوا يقيمون هناك ان لم يكن أحد منهم قد توفي الى رحمة الله . اما الابنان الصغيران للمرحوم عبد الكريم فقد اقاما في « مداين صالح » حيث سمح لهما بالبقاء هناك . أما الشخص الوحيد من العائلة الحاكمة والذي سُمح له بالبقاء في تيماء فهو « سعود بن عبيد الله » ، أي شقيق القتيل . وقد كان مقيماً هناك في الوقت الذي زرت فيه « تيماء » .

وهكذا غدت « تيماء » من المملكة السعودية . وفي نهاية شهر اكتوبر (تشرين الأول) ، سلم «خالد السديري» منصب حاكم المنطقة الى « عبد الله الشنيفي » . وبذلك توارت إحدى العائلات الحاكمة واختفت في ضريحين يضمان جدتي « عبد الله » وقاتله . أما شجرة تلك العائلة الحاكمة فكما يلي :

رمّان بن حطيم :

عبد العزيز :

فارس ، برجس ، نهار ، سعود ، فيصل .

ثويني : محمد ، برجس ، عبيدالله ، سعود ، فارس — (توفي سنة ١٩٥٠) .

علي : عبدالكريم (توفي ١٩٥٠) ، عبدالعزيز ، هزاع ، زيد ، فيصل ، نهار ، شبيب .

عبدالرحمن : زيد ، حطيم ، فايز ، شبيب .

ووادي « تيماء » مغلق من الناحيتين : الغربيــة والشمالية ، بسلسلتين من الصخور الواطئة تبدآن من (منطار بني عطية) ثم تدوران حتى تصلا الى تلال « جلّ الملح » . ويمتد من هذا الأخير جدول اصطناعي يسير مسافة ميلين تقريباً قبل ان ينحرف الى الجهة الغربية بمحاذاة الحدود الجنوبية للوادي حتى يلتقي بسلسلة صخور « المنطار » .

وتقع بساتين النخيل على طول الطرف الجنوبي من تلك الصخور . كما تقع في الاتجــاه ذاته حقول الحبوب وبيوت السكن الحديثة التي انشئت حول الواحات ، في حين تقع خرائب تيماء القديمــة بين الجدول والصخور . والواقع ان قسماً من السور الدائري الذي بني حول تيماء القديمة ، ما زال قائماً . أما ما عدا ذلك فكل شيء آخر في حالة من الفوضى لا توصف . حتى انه ليمكن القول ، بأنه لا يمكن لغير علماء الآثار المختصين ان يكشفوا أسرار هذه المدينة الأثرية لكثرة ما تراكم فوقها من حجارة وأتربة .

وتقع في أعلى نقطة على سلسلة الصخور القليلة الارتفاع التي تمتد عبر المدينة القديمة ، خرائب ما يمكن ان يكون بناية . وتقول الأساطير المحلية انها تخص

« بدر بن جوهر » ، وهو من أبطال العصور القديمة . غير انه مـا من شيء معروف عن هذا البطل ، وان كانت الكثير من الدلائل تشير الى انـه « يهودي » .

هذا وتوجد قلعة أقدمُ من الخرائب الأخرى في الناحية الغربية من النقطة التي تقوم فيها المدينة الرئيسية ، وعلى مقربـة من طريق السيارات المؤدية الى المدينة . وتعرف هذه القلعة باسم « قصر الأبلق » او « قصر السموأل » . ويقال ان اليهودي « السموأل » قد لاقى قصاصه العادل في هذا المكان بالنظر لموالاته للأعداء الذين كان العرب يقاتلونهم ، مقابل ضمان هؤلاء الأعداء مـا يملكه من أسلحة وأشياء أخرى اذا ما حاول ان يهرب بنفسه من ذلـك القصر . ومن الطبيعي ان لا نجد أي أثر من آثار هذه الاخبار التي يرجع تاريخهـا الى عصر الجاهلية التي سبقت ظهور الأسلام . ولكن « هوبر » تمكن – أثناء زيارتـه للمنطقة في سنة ١٨٨٤ – من شراء قطعة أثرية كبـيرة القيمة مقابـل بضعة شلنات . وقد وجد الرحالة هذه القطعةَ الأثرية التي يرجع تاريخهـا الى القرن السادس قبل الميلاد عند الضاحيـة الغربية . وهي الآن موجودة في متحف « اللوفر » بباريس حيث تشكل جزءاً من مجموعـة الحجارة التي استخدمت في بناء ما يطلق عليـه اسم « بيت الطليحان » . ذلـك البيت الذي دمره « عبد الكريم » منذ مدة طويلة .

وقد زرت المكان المشهور والتقطت له بعض الصور ، غـير انني لم أستطع ان أجد أي أثر يهديني الى صاحبه السابق . وقد قيـل لي ان أصحاب القصر السابقين هربوا الى مكان أكثر مناعة بقصد الاحتماء فيـه . وبدا لي ان هـذه الخرائب هي غير تلك التي رآها « دوتي » في سنة ١٨٧٧ بين ما رآه من مشيلاتها قرب بئر حداج . ولكي أتأكد من هذا ، كان لا بد لي من ان أقوم بحفريات حول معبد الاله « سلم » .

ولم يكن من الصعب أن يجد المرء بين خرائب « تيماء » القديمـة الكثيرَ من

الأشياء الأثرية ، بما في ذلك قطع الحجارة المنقوشة وبقايا اواني من الخزف ، وقطع النقود وما أشبه ذلك . وقد جمعت منها مجموعة لا بأس بها ثم عرضتها في متحف « جده » لمن شاء ان يجري عليها دراسة ما .

وقد احتفظت بملء علبة كبريت من قطع النقود التي وجدتها لأقدمها هدية الى المتحف البريطاني في لندن . وكان بين هذه القطع ان وجد المسؤول عن دائرة النقود الأثرية ، المستر « جون ووكر » ، قطعتين نادرتين ، لست أستطيع ان أقول عنهما شيئاً أكثر مما يعرفه المستر « ووكر » . وهو لم ينشر بعد – مع الأسف – ما يعرفه عن هاتين القطعتين . ويبدو انهما تعودان الى زمن « مِينان» في القرن الأخير الذي سبق عهد المسيحية .

وتمر الطريق من تيماء الى حايل عبر جزء من السور الدائري الاثري ما يزال قائماً . وما ان يمر المرء من هذا السور حتى يجد الكثير من الخرائب المنتشرة حول فجوة كبيرة من الأرض ، هي كل ما تبقى من بئر اثري كبيرة . أو لعلها كانت نبعاً اطلقوا عليه اسم « الوجَّاج » . أما متى ولماذا نضب ماؤه ، فلم أجد أحداً يستطيع ان يشفي غليلي . غير انني قدرت من حجم البئر أو النبع ، ان هذه الفجوة لا بد وان تكون إما فجوة مجاورة لبئر « الوجّاج » أو انهـا فجوة سبقت ظهور النبع ، الذي لا بد وان يكون على عمق خمسين قدمـاً تحتهـا .

ومن المؤكد ان اجراء عمليات الحفر وتنظيف هذه الفجوة مما تراكم فيها من أتربة وأوساخ قد يكشف الحقيقة المتوارية تحت تلك الانقاض . ويجوز ان يجعل البئر صالحة للاستعمال ، ومن يدري ! فقد يعود ماء النبع للتدفق من جديد . فما لا شك فيه ان الماء موجود في مكان ما تحت هذه الانقاض ، وذلك لأن تاريخ تيماء القديمة وواقعها الحديث يؤكدان ان منطقة تيماء كانت – كما انها لا تزال – تعتمد على جداول المياه التي تصل اليها من مختلف الاتجاهات . حيث تروي تلك الجداول مساحة من الارض تمتد مسافة عشرة اميال . كما ثبت بالفعل ، ان في

هذه المساحة اعداداً كبيرة من الجداول والروافد .

ويمتد « وُديّ الحمل » من تلال « الرباع » الواقعة الى الشرق من تيماء حتى يزود بالماء (عند نقطة تقع في منتصفه) الجداول المنبثقة عن «الأطرش» . وينبع الاخير من هضاب «برقة ام سَبْع» . والى جانب هذا الوادي والى الجهة اليمنى منه يقع وادي « حسينيه » الذي ينبع مـــن نقطة تقع بين « برقة ام سبع » وهضاب « سمرا » ثم يدخل الى وادي تيماء في نقطة تقع الى الشمال الشرقي من الضاحية الشرقية .

اما الوادي الثالث فيدعى « وادي خُوَبلد » وهو ينبع من هضاب «سمرا» ليمر بين الضاحية الشرقية والقطـــاع الرئيسي من « حدّاج » ، وليصل الى « السبخة » . ويأتي وادي « صيفية » من سلسلة هضاب جبل « غنيم » العالية ، ويجري هذا الوادي بين الواحات الرئيسية والضاحية الغربية بعد ان يمر بالخرائب الأثرية بأن يدور حولها. والى القرب من هذا الوادي نجد المنحدرات الصحراوية التي تصب مياهها في « السبخة » عن طريق مسيل يعرف باسم «فاو الطليْحة». وهي تمر بعيداً عن حدود الواحات وعبر منطقة تنتشر فيهـــا الصخور القليلة الارتفاع .

وفي هذه المنطقة وجدت عشرات النقوش ، وكان معظمهـــا من النقوش العربية . وهي تدل على ان هذه المنطقة كانت تستعمل منتجعاً للنزهة أو محطـاً تضرب فيه الخيام للحجاج الذاهبين الى « المدينة » . ولم أجد أي أثر لوجود بناء في هذه المنطقة ، رغم ان هناك بعض القبور العادية الطراز .

وأخيراً هناك شعب « الرضّامة » – وليس الغضّامة ، كما كتب على الخريطة المرفقة – ويمتد هذا الشعب باتجـاه غربي . وتصب فيه اثناء سيره الكثير من الجداول . ومن المنتظر ان يكون النهر السابع لمدينة تيماء هو « الأطرش » الذي ورد ذكره فيما سبق ، رغم انه يلتقي بوادي « الحمل » قبل ان يصل بالفعل الى

« السبخة » . ولعله يكون شعب « غيران البنات » الذي يبدو وكأنه أحـــد روافد قناة « الحسينية » . وقد لاحظت ان شبكة المسايل والانهار التي تحيط بمدينة تيماء قد قطعت في عدة اماكن، ربما لاتاحة المجـال أمام الجداول الأخرى لتصب مياههـا في الوادي المنخفض ، وربما تم قطع هذه الدائرة عمداً من أجل حماية تيماء من الفيضانات ، اكثر من كونها قطعت لحمايتها من الأعداء .

ومـا لا شك فيه ان الطابع المميز لمدينـة تيماء هو بئر « حدّاج » التي هي عبارة عن حفرة مستديرة الشكل دون انتظام . ومع ان جدرانهـا قد بنيت بحجارة مصقولة ، فهي تحتاج الى اصلاح في هذا المكان وذاك . وتتسع هذه البئر الى كميات كبيرة من الماء . أما عمقها فهو ست قامات تبدأ من أسفل عنق البئر . وقد كانت هذه البئر مورداً لكثير من قوافل الجمال وقطعان الماشية التي تقصدها من أماكن بعيدة للورود . هذا علاوة على ان الواحات المجـاورة كانت تروى من مياه هذه البئر .

ويقول السكان المحليون ان هذه البئر تستطيع ان تسقي تسعة وتسعين جملاً دفعة واحدة ، اثناء فصل الصيف الجاف القائظ . ولكنني علمت ان عدد الجمال التي تردهـا في الدفعة الواحدة هذه الأيام ، لا يزيد على سبعة وسبعين جملا ، كما ان مثل هذا العدد من الجمال ضروري لنزح الماء من البئر ، غير انني عندما بلغت المكان اثر يوم ممطر ، لم أجد غير ثلاثة جمال تعمل في نزح المـاء ! وبعد اسبوع واحد من هذا اليوم ، وجدت سبعة وثلاثين جملاً تعمل في نزح الماء . ومع ذلك فان سكان المنطقة بذلوا جهوداً جبـارة ، على ما اعتقد ، لتوفير سبعين جملاً ، جعلوها تنزح الماء عندما زار الملك سعود تيماء في سنة ١٩٥٤ .

ومن الغريب انني كنت أقول لنفسي ان مضخة آلية واحدة يمكنها ان تريح هذه الحيوانات من كل ذلك العبء . كما تساعـد على مضاعفة انتاج الواحات من المزروعات التي ما من شك في أن السكان في أمس الحاجة اليها للتغذية .

هذا وقد قام خبراء منظمة الزراعة والتغذية الدولية بزيارات الى هـــذه

المنطقة ، ووضعوا التقارير الضرورية عن وسائل تحسينها . إلا ان الحكومة السعودية لم تقم بالدعاوة لمثل هذه التقارير . واذا ما أرادت سلطات السعودية القيام بدعاية من أي نوع كان لمثل مشاريع منظمة الزراعة والتغذية الدولية ، فانها تكرس تلك الدعاية والمشاريع الى المراكز القريبة من العاصمة . فلو أمكن اعادة بئر « الوجّاج» صالحاً لخزن الماء بعد ان يعاد تصليح نبع « الوجاج » فانه مما لا شك فيه ، انه سيكون هنالك أمل في ان تعود تيماء بلداً غنياً كما كانت قبل ٢٥٠٠ سنة .

هذا وتنقل المياه من البئر بواسطة قنوات ضيقة مصنوعة من الحجارة غير المصقولة . وقد استطعت ان أعد سبعاً وعشرين قناة منها صالحة للعمل . وكان هناك أربع قنوات غير صالحة لأنها قد تهدمت في أكثر من مكان . ويمكن للمرء ان يلاحظ ان المياه هناك مقسمة الى ثلاثين سهماً ، إذ ليس من الضروري ان يكون الماء موزعاً بنسبة عدد العائلات في تلك المنطقة . كما يلاحظ ان كل سهم يدل على شخص يملك ثلاثاً من هذه القنوات ، غير انه قيل لي ان بعض مالكي القنوات من الفقر بحيث لا يستطيعون شراء الجمال لنزح الماء من أجل سقي أراضيهم .

وقد علمنا مما كتبه « هوفر » ان عدد أشجار النخيل في الواحات التي كان يملكها « رمان » في الأصل يبلغ ٨٠٠ ، غير ان خليفته عندما تسلم حصته من ورثة « رمان » ، لم تزد حصته على ٢٠٠ نخلة . ولكن المعتقد انه استطاع ان يزيد هذه الحصة عن طريق شراء او استملاك او استخلاص حصص غيره من الاتباع . وكثيراً ما تجوّل « دوتي » في هذه الأنحاء، وفي بساتين النخيل القريبة بصورة خاصة . وكان تقديره لارتفاع مجموعة من أشجار النخيل بتسعين قدماً، وقوله ان هذه المجموعة من الأشجار تشاهد عن بعد وتشكل علامة فارقة لمنطقة الواحات ، كان ذلك التقدير وهذا الوصف كثيراً ما أثار شكوكي . ولم أكن لأصدق ذلك لو لم أر هذه المجموعة من الأشجار بنفسي . ومع ذلك فان لدي

شكاً في ان الأشجار التي رأيتها هي ذاتها الأشجار التي رآها « دوتي » .

ومهما يكن من أمر فقد قررت ان أضع الموضوع تحت التجربة فاستدعيت بعض المتطوعين لتسلق أطول الأشجار . ولكن طاهي الأمير « تياء » اقترح علي ان أدفع مبلغ ريالين لكل من يتسلق شجرة ، وقد حضر معي الى البستان ليشاهد العملية . وكنت قد رأيت كثيراً من الأشخاص الذين يعملون في جني محصول التمر وكيف يتسلقون أشجار النخيل . فهم يستعملون حزاماً يلتف حول جذع النخلة ويدور حول ظهر المتسلق الذي يرفع هذا الحزام كلما صعد الى أعلى ، ويمسك الجذع بيده ، بينما يضع رجله على أماكن السعف المقصوصة ، التي تُزال كل سنة . وهي أماكن ناتئة تسهّل عملية التسلق . غير ان ذلك الطاهي لم يشأ ان يعتمد على الحزام ، بل اعتمد كلياً على يديه وقدميه . وهكذا صعد الى قمة الشجرة ووقف فوقها . وكان الطاهي قد أخذ معه حبلاً مربوطاً في آخره بحجر ، وادلى بالحجر الى الأرض . ولما وصل الحجر الى الأرض أشرنا اليه بالتوقف عن انزال الحبل ، فقام هو بقطع الحبل بيديه . وقد وجدت ان الحبل الذي يمثل طول الشجرة يبلغ ٧٥٠ انشاً ، وقدرت ان القمة ترتفع خمسة أقدام عن المكان الذي كان يضع فيه يده الممسكة بالحبل . وبذا يكون ارتفاع الشجرة ٨١٠ انشات او ٦٧ قدماً ونصف قدم .

هذا ، ونزل الرجل عن الشجرة ، بالطريقة ذاتها التي صعد بها الى أعلاها . وقد نظر اليّ شاكراً عندما ضاعفت منحته تقديراً مني لما أبداه من مهارة في تسلق الشجرة دون الحاجة الى حزام .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن هذه المنح الصغيرة لها اثرها الكبير في شبه الجزيرة العربية ، وخاصة تلك التي تقدّم مقابل اعمال صغيرة كهذه . ولعل القوم هناك ما زالوا يذكرونني على انني الرجل الذي يدفع ضعف ما يتفق عليه . وقد وجدت ان القوم هناك ما زالوا يذكرون (هوبر) الذي كان يدفع مثلي ضعف ما كان يتفق عليه مع السكان مقابل القيام بأي عمل من الاعمال . غير انني

لم اعثر على أي صدى لزيارة (دوتي) للمنطقة . كما ان القوم هناك لم كانوا يذكرون شيئاً عن زيارة (غروترز) ، ولا زيارة البعثات التبشيرية التي قدمت الى المنطقة من القدس .

ويقدّر (عبدالله الشنيفي) عدد الاشخاص الذين يقطنون تيماء بألف نسمة ، وهو عدد يقل كثيراً عن سكان المدينة في الأزمنة القديمة ، كما يستدل على ذلك من بقايا بناياتها حول الواحات ، في المكان الذي كان يُعرف باسم (القُرَيَّة) . وقد وجدتُ في تلك المنطقة حجراً نصف مدفون في التراب ، وكان النصف الظاهر منه يحمل بعض النقوش . وكان قد استخرج هذا الحجر بعضُ المغامرين الباحثين عن الكنوز . كما انني وجدت حجارة اخرى في المقبرة القديمة ، تحمل نقوشاً ثمودية تدل على اسماء اشخاص . وكانت هذه الحجارة مكسوة بطبقة من الرمال ومدفونة في الطرف الغربي للمدينة الأثرية .

اما في المقبرة الحديثة ، فان القبور الموجودة هناك لا تحمل غير اسماء اصحابها . ومعظم تلك القبور كانت لأناس معروفين مثل (عبدالكريم) وقاتله ، وكانا قد دفنا جنباً الى جنب بعد ان صُلّي عليهما معاً في احتفال جنائزي مشترك . وقد كان هذان القبران متصلان ببعضها - وان كان صاحباهما قلما اتفقا وهما على قيد الحياة - !

اما مقر حاكم المنطقة في الأصل فيقع عند طرف بئر (حدّاج) ، وهو يدعى (قصر المَفيض) . ولهذا القصر شرفات جميلة لعلها بنيت في زمن عبدالعزيز ، لأنها كانت موجودة عندما زار (هوبر) المنطقة . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الشرفات والقصر ذاته ، كانت ملكاً لممثلي ابن الرشيد . وقد ظلت مقراً لقيادتهم حتى تمت ابادتهم على يدي عبدالكريم في سنة ١٩١٦ .

هذا ، وقد قضيت آخر يوم لي في (تيماء) ، وهو اليوم الثاني عشر من شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٥١ في بحث شديد مرهق ، ومسح متعب للمنطقة

المعروفة باسم المدينة القديمة . وقد زرت خلال ذلك اليوم « قصر بدر » ، وهو ابرز ما في تلك المدينة من آثار . وكانت الساحة الخارجية للقصر واسعة يبلغ عرضها ٢٥٠ ياردة .

وتمر طريق حايل بالقرب من منطقة الخرائب ومن النقطة التي يلتقي فيها طرفا السور عند بئر « وجاج » . أما قلعة الحاكم فتقع على بعد ميل من القصر الى الناحية الشرقية الشمالية ، كما ان قلعة « الغرّافة » تقوم بالقرب من المدينة الحديثة ، والى شمالها على وجه التحديد .

وعلى بعد ليس بالقليل من هذه القلعة وبذات الاتجاه كانت تقوم قلعة « طويّل سعيد » ، بينما يقع بئر الوجاج الى الجنوب الشرقي ، وهو أقرب الى القلعة من قصر «زلوم» . وبعد البئر وعلى مسافة منه تطل أرض مرتفعة تعرف باسم « خشم ُغنيم » . ومنها تمتد سلسلة من الهضاب باتجاه الشمال مارة بكل من « سمرا ، وأم باشا ، وقمم قليب ، وأم سبع ، والضليعات ، وغار الحمام ، والربعْ » شاملة بذلك الشرق ومنتهية عند ذروة جبل « َقرْن البَدَن » المشهورة . والى الشمال الغربي يظهر الجبل المعروف باسم « القُصير » . ومن عند هذا الجبل كنا قد دخلنا وادي تيماء .

وتعتبر المنطقة المحيطة بمدينة تيماء اغنى مما تستحقه المدينة ، اذا ما قارنا ذلك بالمناطق الاخرى التي زرتها اثناء تجوالي للبحث عن النقوش . ولكن هذه المنطقة لم تكن بذات اهمية تذكر بالنسبة الي لأنني لم آت لأمتع نفسي بجمال الطبيعة، بل للبحث عن النقوش والآثار . ولذلك وجدت انني قضيت فيها فترة اكثر مما يجب .

وكان الهدف الأول الذي اسعى للوصول اليه هو قمة جبل « ُغنيم » ، وهي قمة عذراء لم يرتدْها أحد بعد ، ويبلغ ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وهكذا باشرنا في تطبيق الجزء التالي من برنامجنا . فبعد ان مررنا

بخندق قرب الخرائب في الضاحية الشرقية ، وكنت قد اضطررت للعودة الى تيماء مرة اخرى لأجد دليلاً غير الدليل الأمي الجاهل الذي كان يرافقني ، بعد ذلك ، توجهنا جنوباً ثم ملنا الى الجنوب الشرقي ، وأخذنا نصعد في شعب « الخويلد » .

وهنا تركنا طريقنا الذي كان يمر بمحاذاة القناة لنزور بعض الصخور التي رأيناها في الطريق . وتعرف هذه الصخور باسم « رضمات الحنّوف » . وهناك وجدنا بعض المنقوشات العربية التي لم يكن لها قيمة تذكر ، كما وجدنا اعداداً كبيرة من الرسوم المنقوشة على الصخور تمثل رجالاً يمتطون صهوات الجياد ، ويحملون الحراب في أيديهم ، أو يمتطون الابل ، وغير ذلك من الحيوانات . وتوجهنا من هذه النقطة الى قمة « غار الحمام » ، وقد سمي كذلك بالنظر لوجود قلعة في قمته كان الحمام يتجمع فوقها بأعداد كبيرة .

وقد وجدت ان الحائط الشرقي للقلعة يبلغ طوله ١٢ قدماً . وكان قائماً ومبنياً بسبع عشرة قطعة من الحجارة المصقولة ، عليها نقوش باللغة العربية . ووجدنا ثلاث عشرة قطعة من الحجارة المنقوشة باللغة العربية بين الصخور القريبة من القلعة ، لعلها قد نقشها الحجاج الذين مروا بالمنطقة . ورأيت ان الجدار الشمالي في حالة احسن من حالة الجدار الشرقي . وهو يتألف من ثلاثين قطعة من الحجارة المصقولة ، أما طوله فيعادل طول الجدار الشرقي . واكتشفت ان على هذا الجدار نقوشاً تمثل سبعة احرف ثمودية !

أما الجداران الباقيان من بناية هذه القلعة فقد دمرا تدميراً شديداً ، فغدا كل ما تبقى منهما لا يزيد على سبع او ثماني قطع من الحجارة . وفي داخل هذا البناء المربع الشكل كانت أرضه ما زالت صامدة رغم تساقط السقف والجدارين عليها ورغم ان القلعة الأساسية ، يجب ان تكون قد بنيت على شكل برج للمراقبة من طابقين .

وقد تمتعنا برؤية منظر بديع لواحات تيماء ونحن نقف على الجدار ، حيث

كانت هذه الواحات تقع الآن الى الشمال الغربي من موقفنا . وعلى مسافة بعيدة باتجاه جنوبي شرقي كنت أستطيع ان أرى سلسلة جبال « الحلوان » والتلال الرملية المعرفة باسم « كتيب » و « الدفافة » . أما رأس شعب « خويلد » فيقع عند أسفل هذا المرتفع .

وبدأنا سيرنا الآن بمحاذاة سفح سلسلة هضاب « غنيم » عبر الطريق السهل الذي تمر باعالي القنوات ، والتي تستمر في امتدادها هذا مسافة ثمانية أميال ، وبعد ذلك وصلنا الى سفح جبل « غنيم » ذاته . ويبلغ ارتفاع هذا الجبل الف قدم ، وصخوره سوداء بفعل العوامل الجوية ، وتختلط بها هنا وهناك صخور صفراء عالية . غير اننا لم نجد في تسلقها صعوبة كما لقينا في تسلق صخور جبل « ثمود » . لقد وجدنا ههنا مسرباً . ومع انه لم يكن واسعاً ، إلا انه كان كافياً ليقودنا الى القمة التي كان يقطنها الآلهة القدامى . وربما كان من بينهم الاله « سَلْم » نفسه ، فقد وجدت على صخرة ناعمة يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً عدة صور منحوتة تمثل رأس ذلك الاله . وكان رأسه بيضاوي الشكل ، لا ذقن له. أما جبهته فواسعة مستقيمة ، يبرز من طرفيها قرنان فوق الأذنين الواسعتين . والاله ينظر الى العالم بعينين أشبه ما تكونان بعيني هندي أحمر . كما كانت الكتب التي قرأتها في حداثتي تصورهما وكأنهما تقدحان شرراً .

وأمام هذه الصخرة وجدت أرضاً ممهدة عريضة قدّرت انها ربما كانت المذبح الذي تُقدم فيه القرابين . ولم يكن من الصعب ان أميز هذه الارض من بين كتل الصخور التي تغطي وجهها . وان المرء ليستطيع ان يتصور المنظر كما كان في قديم الزمان ، عندما يأتي الوثنيون ويتجمعون في كل مكان حول الاله يراقبون خزعبلات قسسهم . ثم يتخيلهم وهم يعدون العدة لتضحية بعض الحيوانات . وربما قدموا في بعض الاحيان فتاة عذراء عارية قرباناً للالهة ، وخاصة الاله « العظيم » – سلم – .

كان هؤلاء الوثنيون ينفقون الوقت الذي قد يمتد ساعات وساعات بانتظار

انتهاء الطقوس الدينيـة ، بحفر أسمائهم على الحجارة ، كما كانوا ينقشون عبارات تدل على امتيازاتهم ، وكذلك تحياتهم للاله العظيم . وكان بعض هؤلاء نقاشين ماهرين يستطيعون النحت في الصخر بدقـة فائقة . كما كانوا من أصحاب الذوق في تزيين مـا ينحتون باطارات جميـلة . بينما كان بعضهم الآخر بسيطاً في نحته ونقشه وربما لم يكن يعرف أكثر من كتابة اسمه او رسم صورة بدائيـة لبعض الحيوانات .

هذا وقد أمضيت أربع ساعات او أكثر من بعد ظهر ذلك اليوم وانا انسخ نقوشهم ورسومهم محاولاً جهدي الحصول على كافة التفاصيل عن المنطقة التي كنا فيها . وقد لاحظت ونحن نصعد باتجاه القمة عدداً قليلاً من « الوصمات » البدوية ، غير انها لم تكن تحمل أية نقوش بالعربية على الاطلاق . كما انني لم أجد أية آثار تدل على سكان المنطقة في أوائل عهد الاسلام ، ولا في عهد الوهابيين الأخير ، حيث قيل لي ان أحداً من الوهابيين لم يسبق له ان وطىء قدمه هـذا المكان الأثري . ولو انهم فعلوا ، لما تركوا من حجارة أماكنه الأثرية حجراً واحداً فوق أخيه .

ولعله من الانصاف ان أذكر هنـا ان دليليّ ، وهمـا رجلان من ابناء تيماء أحدهما يدعى « صويلح » والآخر « ليلي » كانا مثلي في حـالة استغراب شديد عندما اكتشفنا معبداً أثرياً عند قمة الجبل . ومن المؤكد ان « هوبر » كان سيزور المكان لو أُخبر بمـا فيه من منقوشات عديدة ، ولو انه علم بمـا جمعه « بيرز جاسن » و « سافيغنـاك » من نقوش بديعة من مكان يبعد عنا مسافة ثلاثة اميال الى الجهة الجنوبية الغربية . وكذلك فان هؤلاء الثلاثة لم يسمعوا أو لعلهم لم يكتشفوا الطريق المؤدية الى « المحجّة » ، حيث اكتشفتُ ، كما سيرد ذكره فيما بعد ، ان صخرة واحدة هناك عليها مئات من النقوش والصور .

وأعتقد ان اكتشاف قمة جبل غنيم من بين النتـائج الرئيسية التي استطعت ان احققهـا خلال تجوالي الطويل في ارض « مدين » . اما اكثر النقوش اهمية

فتسجل قصة استسلام ملك « بابل » (وربما كان نابونيدس) الى رجل أَمره في احدى المعارك وقدم رئته الى الآله كقربان . وثمـــة نقش آخر حفره رجل اشترك ، كما يبدو ، في الحرب ضد « ديدان » (العلا الحديث) .

وهنا يجب ان اذكر شيئاً مهماً لا يجوز المرور به مر الكرام، فقد اكتشفت فيما بعد ان المسؤولين في حكومة المملكة السعودية ، وخاصة الامير « فيصل » قد تبرعوا بالقول بأن الخرائط التي رسمتها وأسماء الامكنة التي سجلتها عليهـا خاطئة بمعدل خمسة وسبعين في المائة . وكنت على استعداد لأن اصحح اخطائي التي مـا كنت اشك لحظة في ان ادلائي قد خدعوني فأوقعوني فيهـا . ولكن حادثة وقعت بعد ذلك بقليل اظهرت لي بكل وضوح ان اتهامـات المسؤولين فيحكومة المملكة السعودية لمتكن قائمة على أساس،وان ادلائي كانوا يصدُقونني القول في جميع المعلومات التي سألتهم عنها .

فقد حدث انني كنت ، في احدى المناسبات ، الشخص الوحيد من بين عدد من الاشخاص اجتمعوا في بلاط الملك ابن سعود ذات يوم ، الذي استطـاع ان يهدىء قلق الملك على زوجته التي كانت مسافرة على متن احدى الطائرات الى الرياض ، حين وردت برقية لاسلكية من ملاح الطائرة يقول فيهـا ان أحد المحركات في الطـائرة قد اصيب بعطب شديد في النقطة الواقعة فوق جبـل « غُورر » . وقد اجتمع مستشارو الملك ولكنهم اختلفوا في تحديد مكان وجود الطائرة ، اذ ان كلا منهم أدلى بمعلومات تناقض الآخر . غير انني كنت قادراً على ابلاغ الملك ان الطـائرة اصيبت بعطب في نقطة تقع الى اقصى شمـال جبل « الدمخ » ، أي على بعد ساعة تمامـاً من الرياض ، حسب سرعة طائرة الملك «الداكوتا» . وقد ظل مجلس الملك منعقداً ليتسنى للملك ان يتلقى آخر التقارير عن وصول الملكة الى العاصمة . وقد وصلتْ بعد ساعة واحـدة تمامـاً كما قدّرت أنا .

وبعد ان انتهيت منٍدراسة المنطقة التي تقع فيأسفل الجبل الذي كنا فوقه،

ثم منطقة جبل « أكباد » أو « أشباد » كما يلفظون الكلمة هناك ، وكما سجله كل من « غورماني » و « هوبر » ، نزلنا من قمة الجبل ، لنستعد للقيام برحلة العودة الى تيماء حيث وجدنا الامير يضيف واحداً من اشقاء « السديري » . وكان « سليمان السديري » قد جاء الى المنطقة برفقة طبيب سوري من مخيم « جُريدة » الذي ضربه « عبد العزيز » في المكان الذي وصل اليه « عبد الله بن فيصل » لقضاء بضعة أيام في الصيد والقنص في تلك المنطقة . وقد تحدثنا عن تيماء وتاريخها وآثارها ، كما تحدث الأمير عن امكانيات القيام بعمليات الحفر في الأماكن الأثرية الواقعة في المنطقة التي اصبحت تحت امرته . هذا وقد انتهى يومي ذاك بعشاء دسم وفراش وثير ، الأمر الذي أثار استحساني حقاً .

وكنت قد قمت بجولة تبلغ عشرين ميلاً رأيت خلالها كل ما يمكن ان يرى في تلك المنطقة وخاصة في القسم الرئيسي من سلسلة جبال « غنيم » ، وكان دليلاي قد قدما لي مساعدة لا تنسى وخاصة « ليلي » فأثبتُّها وعيَّنت ليلي لمرافقتي حتى نهاية الرحلة .

وقد خصصت اليوم التالي لرحلة اكثر مجازفة من سابقتها . اما السبب في انني فكرت بالقيام بتلك الرحلة ، فيعود الى كون « هوبر » لم يزر منطقة آبار « الكتيب » مع ان مرافقيه قد احضروا له من تلك المنطقة نقشاً ثمودياً فريداً . ولعل مرافقي «هوبر » قد توجهوا الى هناك بحثاً عن خروف او وقود للاحتفال بعيد جلوس الأمير حاكماً على المنطقة . وقد ذهب اولئك المرافقون الى آبار « كتيب » مشياً على الأقدام . اما اليوم فان الذهاب الى هناك متيسر بالسيارات .

وقد اتبعنا في سيرنا الى المنطقة ، آثار عجلات السيارات التي سبقتنا الى هناك ، وآثار العجلات الراجعة من تلك المنطقة . وكانت المسافة بيننا وبين المنطقة ، جيئة وذهاباً ، لا تزيد على خمسين ميلاً . ولم يكن أملي الوحيد ان أجد النقش الذي استنسخه هوبر ، بل ان اجد كثيراً غيره في ذلك المكان الذي

ما شككت لحظة في ان رجال هوبر لم يفتشوه تفتيشاً دقيقاً . ومع انني قمت بمسح دقيق للمنطقة ، إلا ان النتائج لم تكن مشجعة في الأراضي الممتدة حتى أقصى « الكتيب » . غير ان هذه الرحلة ، تمخضت عن نتائج مهمة أخرى .

فبعد ان عبرنا القنوات التابعة لكل من « خويلد » و « حسينية » و « حنوف » (والأخير على ما يبدو كان النهر السابع لمدينة تيماء وربما كان أحد روافد وادي « الحمل » او « غوران البنات ») . بعد ذلك ، مررنا بارض سبخة قريبة من شعب « الأطرش » وشعب « طليمه » ، ومنها عبرنا الطريق الى قناة شعب « ضاعة » ، حيث تكثر الاعشاب على ضفتيها ، وحيث يلتقي الشعبان الآخران بشعب « الحمل » . ويسير الشعب الأخير منحدراً فوق سكة « الرباع » في أقصى شمال جبل « غنيم » .

وفي هذه النقطة كان سهل « منطار الفُريحة » يقع ما بين النقطة التي كنا فيها وبين الصخور المنتشرة هنا وهناك حول سكة « الرباع » . وهو سهل تنتشر فيه الصخور ، وبقايا ثلاث او أربع قلاع قديمة ربما كانت خط الدفاع الخارجي عن تيماء ، قبل ان تبنى المدينة القديمة ، أي حين كان اهلها ما زالوا يسكنون الخيام والمضارب .

وبعد مسيرة مسافة ثمانية اميال تقريباً من النقطة التي بدأنا منها ، وصلنا الى طريق « الرباع » . تلك الطريق التي عبرناها الى ممر واسع ، وقعنا بعده على عدد من الجداول التي تنبع من المنطقة المجاورة وتمر بشعب « دُوَير » وشعب « دُغَيْمه » . وعلى الرغم من هطول الامطار في المدة الأخيرة ، والتي كانت غزيرة في بعض الاحيان ، فان وجه الأرض كان صلباً والسير فوقه سهلاً . وسرعان ما وجدنا أنفسنا في الطرف الثاني بعد ان قمنا بدورة زرنا خلالها عدداً من الصخور التي بدت لي ذات اهمية . وتصنع صخرة « المشطبة » وصخرة « غار النودا » شكلاً مخروطياً اعترض طريقنا عند اقصى المنحدر . وقد وجدنا عند « المشطبة » صوراً ونقوشاً باللغة الثمودية القديمة ، أما على « غور النودا »

فقد وجدنا برجاً عالياً عليه بعض النقوش العربية .

وكانت الارض المنبسطة المعروفة باسم « حفيرة الرباع » تبلغ حوالي ميلين طولاً وثلاثة اميال عرضاً . أما الصخرة المخروطية الشكل ، فقد كانت خالية من النقوش . ودون هذه الصخرة كان هنالك طريق سهلة تمتد مسافة أربعة أو خمسة اميال بمحاذاة الصخور التي يبلغ ارتفاعها ٤٠ قدماً .

وبعد ذلك خرجنا الى أرض مكشوفة تدعى « خَبْرا الفطير » ، أنفذتنا الى منطقة صخرية وعرة تنحدر الى شعب « مُختبي » . وقد سرنا فيه حتى وصلنا الى ارض « نِقْدة » التي مررنا منها الى قناة شعب « كتيب » ، حتى وصلنا الى مياه ضحلة في نقطة من نقاط الوادي . ولا يبدو ان لأي من الجداول في هذه المنطقة التي تنبع من « الشواربات » أي مخرج ، اذ تتجمع كلها في الوادي في نقطة تقع مقابل طريق « نَفود» حيث تشكل التلال الرملية العالية المعروفة باسم « دفّافية » معالم مميزة . وكما توحي اسماء هذه التلال « دفافية » فان السكان المحليين يقولون بانها رمال تغني !! غير انه لم يكن معي من الوقت ما يمكنني من الاقتراب من تلك التلال لاجراء تحقيق عن كثب . كما ان المطر المنهمر والرياح الباردة التي رافقتنا طوال رحلتنا في ذلك اليوم ، قضت على كل فرصة لنا بالاستماع الى موسيقاها . وذلك لأن مثل هذه الرمال ، كما يقول السكان المحليون ، لا تغني الا وهي جافة .

وتقع آبار ماء « الكُتيب » على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً من تيماء ، الى الشرق من جبل « غنيم » . وعلى مقربة من طرف التلال الرملية المعروفة باسم « بتراء نفود ». وهي التلال التي تشكل تلال « الدفافية » جزءاً منها . وخلف هذه التلال مباشرة تقع سلسلة جبال « حَلوان » و « اكباد » وغيرها على طول امتداد الطريق الى « حايل » . وليست آبار ماء « الكتيب » الا حفراً في الأرض يبلغ عمقها ثمانية أقدام ، وعشرة في بعض الأماكن . وهي تمتلىء بمياه الامطار ، إلا ان معظم هذه الحفر كانت قد طمرتها الرمال التي ذرتها الرياح ،

فلم أجد سوى حفرتين صالحتين للاستعمال العادي في ذلك الوقت . وقد وجدت ان فتحات هذه الحفر ، قد بنيت بحجارة صلبة بينما كانت جدرانها منحوتة في الصخر . ولم أستطع ان أجد أثراً للحياة حولهـــا وكذلك فشلنـــا في العثور على أية نقوش بين الصخور القريبة منها .

ولـكي أغير خط سيرنا فلا نصاب بالملل ، قررت ان نتبع الطريق الرملي مسافة أربعة أميال . وبعد ذلك انعطفت بنا الطريق باتجـاه الشمال الشرقي . وكان سيرنا في هذه الطريق ، صعباً الى حد ما ، إذ انه كان يتحتم علينا ان نمر فوق القنوات التي اقفلها « النفود » . ومن هنا خرجنا الى سهل تكثر فيه الصخور ، ومع ذلك فقد كان سيرنا فيه أسهل ، وخاصة عنـد طرف الصخور المعروفة باسم « سرايا » . وهناك ايضاً لم نجد اي أثر لاية نقوش ، غـير انني لم أرجع بخفي حنـين ، إذ انني التقطت بعض الصور لعـدد من الفتيات وهن يرقصن . والواقع ان هذه الصور كانت جميلة ورائعة .

ومن تلك النقطة ، انطلقنا رأساً الى طريق « الرباع » حيث لم يكن حظنا باحسن منه في النقاط الاخرى التي زرناها ، وذلك لاننا لم نجد أثراً لاية نقوش، وان كنا قد وجدنا بعض الصور والرسوم التي لا قيمة لها ، وفي مقابل ذلك تحملنا لسعات الهواء البارد .

ومن ثم تحولنا للعودة عن طريق قناة « النفاخية » التي تشكل أحد روافد « الاطرش » . وكانت آخر خمسة أميـال من رحلتنا صعبة صعوبة فشلنـا في وجود أية نقوش . وقد كان الطقس بما جادت به السماء من أمطار ورياح ، غير صالح أبداً للقيام باي بحث . ومع ذلك فان حظنا كان كبيراً إذ عدنا قبل ان تهب العاصفة التي رأينا بوادرها تتجمع في الافق . وقد وجدت ، حين عدت الى غرفتي ، ان الحد الأعلى لدرجة الحرارة هو ٧٠ درجة فهرنهايت ، وان كنا قد شعرنا بطقس ابرد من ذلك ونحن في الصحراء .

ولقد شعرت انني ربما لم اقم بمسح معقول للمنطقة بالنظر للأحوال الجوية ، كما اجتاحتني الخيبــة لأنني لم اعثر على النقوش التي نسخهــا « هوبر » قرب تلال « براق الرباع » . ولذا فقد قررت ان اقوم في اليوم التـالي بحملة استكشافية مركزة في منطقة تلك التلال .

وقد عدنا بالطريق ذاتهــا التي مررنا بهــا في المساء ، فوصلنا ، ثم تسلقنــا تلال « قرن البدن » في طريق « الرباع » التي تبعد مسافة ١٢ ميلاً الى الشرق من بساتين نخيل تيماء . ومن تلك البقعة ، استمتعنا بمنظر رائع للمنطقة المجاورة. غير انني لم أجد هناك أي أثر لكتابة أو فن أثري . وعلى كل حال فقد لاحظت على بعد ميل تقريباً صخرةً ذات منظر مثير تدعى «الحصيّن» - تصغير حصن - وبدا لي انها تستحق الزيارة .

وما ان قمنــا بزيارة المنطقة حتى نلت مكافأة على اتعــابي وفشلي في اليوم السابق ، اذ وجدت حصيلة جيدة من النصوص الثمودية والصور ، كانت كلها في حالة جيدة .

وتقع هذه الصخرة الى الشرق من بحيرة جافة (خبرا) من المفروض ان تصب فيها مياه جميع المنطقة المجاورة فيردها الناس في فصل الصيف . أما في فصل الشتــاء حيث تمطر السماء ، فان المنطقة تتحول الى بحيرة كان الأقدمون يضربون حولها الخيام . وعلى مقربة من هذا المكان رأيت صخرة اخرى ما ان زرناها حتى اعطتنا حصيلة أوفر من الأولى ، اذ وجدنا عندها عدداً كبيراً من النقوش .

ومن هناك تحولنا الى جهة تلال « براق الرباع » حيث وجد « هوبر » بعض النصوص المنقوشة. وقد وصلنا الى مكان لا يبدو انه أعلى نقطة في تلك التلال بعد مسيرة اربعة اميال تقريباً ، فوجدت ان الصخرة عبارة عن هضبة ذات قمة عريضة صخورها وحجارتها مغطاة بالنقوش الثمودية .

وحين وصلنا الى تلك النقطة ، كان النهار جميلاً دافئاً ، غير اننا مـا لبثنا ان فوجئنا برياح باردة تهب من الجهة الشمالية الشرقيـــة . فكان لزاماً علي وأنا امسح الحجارة المنقوشة ان استخدم يدي المتجمدتين ، بينما أنا أرتجف من البرد . وما ان انتهيت من عملي حتى وليت وجهي عائداً الى بيتنا -الذي لم يكن يبعد عن مكاننا غير مسافة عشرة أميال - راضياً عن عمل هـذا اليوم ، وان كنت قد دهشت لاكتشافي ان النقوش الثمانية التي استنسخها « هوبر » لم تكن بين المجموعة التي وجدتها . ومما لا شك فيه انه ما زال هنالك عمل كثير لمن سيزورون هذه التلال في المستقبل ، بالنظر لأنها لا بد وان تكون مليئة بالنقوش الأثرية . واذا مـا أمكن رفع الانقاض عن المدينة القديمة ، فان ثروة يمكن ان نجدها هناك من شأنها ان تغني معلوماتنا عن منطقة الشرق الأوسط في التاريخ القديم .

وفي اليوم الثامن من شهر يناير (كانون الثاني) سنـــة ١٩٥١ ، وهو يوم الاحتفال باليوبيل الفضي لعيـد جلوس الملك عبد العزيز بن سعود ملكاً على الحجاز ، قمت بزيارة خاطفة الى منطقة أخرى كان « هوبر » قـــد زارها خطأ وهو يعتقد انها « غار الحمام » . وقد سبق ان تحدثت عن زيارتي لهـا . وكانت تلك البقعة ذات مستنقعات كغيرها من الأراضي السبخة في المنطقة على الرغم من ان مجاري الماء تنحدر هناك الى أسفل وادي تيماء . وقد وجدت ان ضفتها الشمالية حافلة بالصخور المثيرة التي طمرتها الرمال الى عمق لا بأس به من جراء الفيضانات التي تعاقبت على مر العصور ، بحيث لم تترك إلا أعالي تلك الصخور ليلجأ اليها الناس اتقاءً للشمس او للمطر . وقد اكتشفت ان الأقدمين قـــد استفادوا كثيراً من بقـايا الصخور التي ظلت ظاهرة للعيان فملأوها بالنقوش . وكان واضحاً ان هذه النقطة هي التي ظن « هوبر » انها « غار الحمام » ، وذلك لأنني وجدت جميع النقوش (ما عدا واحدة) ، التي نسخهـــا هوبر وعزا وجودها الى هذه المنطقة . كما وجدت هناك كثيراً من النقوش التي لم يعـــثر

عليها « هوبر » ، إذ يظهر انه لم يرَ مما يستحق العناء ان يتسلق حتى أعـــالي تلك الصخور .

هذا وقد قال دليلي « ليلي » ان هـذا المكان يدعى « غيران البنات » ، ثم تطوع باعطائي معلومات عن الملاجىء الموجودة في تلك الصخور ، فقال انهـــا كانت تستعمل في الماضي ، ولا زالت ، كمحطة للحجر الصحي للمصابـــين بالجدري . ومن هنا كان القوم يطلقون عليها اسم « غيران الجدّر » . وقـــد استُخدمت هذه الملاجىء للحجر الصحي لآخر مرة قبل ثماني سنوات من زيارتي لها ، أي في سنة ١٩٤٣ .

وينحدر دليلي « ليلي بن علي » من سلالة استوطنت تـــيماء منذ قرون ، ولكنه يدعي بان أصله من قبيلة « الفقُرا » ، وهي فرع من قبيلة « عنيزه » من أصل جماعة « الحجاج » الذي قال انها تنتمي الى قبيلة « الحمايرة » .

أما الدليل الآخر في هذه المرحلة فرجل يدعى « خليف بن مرشد » ، وهو في حوالي السبعين من عمره ، تقطن عائلته في الضاحية الشرقية من تيماء منـــذ عدة قرون . وكانت هذه العائلة قد هاجرت الى تيماء من قرية « موقاق » قرب « حايل » . وقد أبلغني انه كان صغيراً عندما جاء « محمد بن رشيد » الى تـــيماء لانشاء ادارة مباشرة في المنطقة ، قبل بضع سنوات من وفاته في سنة ١٨٩٧ . أما الرجل الآخر الذي قابلته من سكان الضاحية الشرقية لمدينة تيماء بعـــد ظهر ذلك اليوم ، فقد كان يدعى « صبر العياضة » ، وهو رجل يتراوح عمره بـــين السبعين والخامسة والسبعين .

وفي اليوم التالي قمت بزيارة الأمير ، حيث تحدثت معه ونحن نرشف أقداح القهوة والشاي . ثم ودعته لأقوم بما يمكن ان يدعى آخر زيارة استكشافية لي في منطقة تيماء وجوارها . وقد مررنا في طريقنا بالخرائب القديمـــة لطريق « حايل » ، ومنها صعدنا الى وادي « صيفية » او (سيفيّة) ، مارين بآبار

« ثمايل ابن حميّان » . وقد أطلق عليها هذا الاسم بعد ان تولى أحد أعوان « ابن رشيد » حكم المنطقة .

وتبعنا ، بعـــد هذه النقطة ، قنـــاة « صيفية » مصعّدين الى أعلى بمحاذاة ضفتها الشمالية ، حتى وصلنا الى نقطة تقع بالقرب من قمة جبل غنيم ولا تبعـد عنها أكثر من ميل واحد الى الجهة الشمالية الشرقية . ومن هــذه النقطة كانت طريق حايل تمتد باتجاه جنوبي شرقي نحو الفضاء الواقع ما بين «برد » و« اكباد» الذي يفضي من الناحية الشرقيـة الى « حفيرة شملي » و (بيضاء ناتيل) ، ثم يمتد نحو (شمّر) .

ولما كان هدفي ان أزور خرائب (خُوبو) Khubu ، وهي الخرائب التي سبق أن زارها كل من (جاسن) و(سافيغناك) حيث وجدا عدداً كبيراً من النقوش ، فقـد بدأنا سيرنا صوب الجنوب الغربي فوق أرض صلدة جعلت مسيرنا عليها صعباً حتى وصلنا الى ناحية تكثر فيهـا الهضاب . وقـد قال لي دليلي ان هذه الناحية والطريق الصخرية المحيطة بها تدعى طريق (المحجّة) . ولم يكن (ليلي) ولا (خليف) يعرفـان (خوبو) هذه ، غـير ان الأرض ما بين النقطة التي كنا فيها و (سَمْك شمراخة) كانت مليئـة بالصخور من كل حجم وشكل فقررت ان أزورها . وانني لاعتقد ان هذه المنطقة هي التي رآها كل من (جاسن) و (سافيغناك) واطلقا عليهـا اسمي (خوبو الشرقيـة) و (خوبو الغربية) .

كانت هذه المنطقة هي وجهتنا ، ولكن السير فيها كان صعباً ، فلم نقطع إلا مسافة قليلة حتى توقفت سيارة (اللاند روفر) اثر اصابتها بعطب شديد . لقد انغرزت عجلاتها في رمال عميقة . وقد ذهبت جميع محاولاتنا لاخراج السيارة من بين الرمال ادراج الرياح . وأخيراً توقفنا عن بذل الجهود التي لا فائدة منها، وتطوع (ليلي) بالعودة الى تـيماء مشياً على الاقدام ، مسافة خمسة عشر ميـلاً ليأتينا بالمساعدة . وفي هذه الاثناء قمت انا و (خليف) بتفتيش المنطقة بحثـاً

عن النقوش بين الصخور العاليـة التي تقع الى الغرب من ذلك الموضع . وقـد استطعت ان أتبين ان هذه المنطقة هي جزء من (الخوبو) .

وكان من حسن حظنا ان ذلك اليوم كان ممتماً يغري بالمشي رغم تلبد السماء بالسحب التي كانت تسمح لاشعة الشمس ان تتسلل من بينهـا فتبعث الدفء في النفوس رغم برودة الهواء . وتقع (المحجة) بـين المكان الذي خربت فيـه سيارتنا وبين سلسلة الهضاب قدّامـه . وهي (المحجّة) أرض منخفضة كثيرة الاخاديد المملوءة بالرمال والحجارة ، وتنتشر فيها النباتات الصحراوية ، الامر الذي جعل من الصعب علينا ان نجد أصل مجموعة من الوديان هناك . والمحجـة تشترك في أصلها مع وادي (السيفية) وسفح جبل (غنيم) ، بينما يصبح رأسها على مسافة منا الى الجهة الجنوبية الغربية ، على شكل مصرف لمياه السيول هناك يمتد حتى يصل الى سكة حديد الحجاز تقريباً ، حيث يصب في خزانات قلعـة (المعضّم) ، وهي محطة رئيسية للحجيج القادمين من دمشق .

وكان كل من (جاسن) و (سافيغناك) قد عـبرا وادي (المحجـة) في طريقهما من (مداين صالح) الى تيماء وأوضحا خط سيرهمـا على الخرائط التي رسماها . وقد أتيحت لي الفرصة ان اطلع على هذه الخرائط بعـد سنتين من رسمها ، كما أتيحت لي الفرصة أن أرى (المحجة) في وقت كانت فيه الفيضانات على أشدها في منطقة (المعضم) ، وفي بقعة قال دليلي الجاهل بتلك المنطقة انها تدعى (غيران البنات) ، وان السيول تأتيها من تيماء .

ولقد كان من المؤكد ان هذه الارض الوعرة ، تصبح من الاراضي الخصبة في مواسم الامطار الغزيرة والفيضانات القوية بحيث تؤمها القبائل القاطنة في المناطق المجاورة بالاضافة الى أهالي تيماء ذاتهم . وهم يفدون الى هناك فيضربون خيامهم طيلة أيام الربيـع .

هذا ، وهنالك كثير من الدلائل في تلك المنطقة تشير الى ان ظروفـاً مماثلة كانت تقع هناك في الازمنة القديمة . فقد وجدت العديد من النقوش والصور بين

الصخور المنتشرة في تلك المنطقة . وكانت نقوشاً وصوراً « ثمودية » . وقـــد امضيت يوماً كاملاً في نسخ نصوص تلك النقوش ، واستنتجت ان تلك المنطقة عذراء فعلاً ، اذ ان أحداً قبلي لم تطأ قدماه ارضهـــا في مثل مهمتي . وقد بذلت كل ما في وسعي حتى لا اترك لمن سيأتي بعدي أي شيء يمكن ان يدّعي اكتشافه ، وان كنت لا ادعي لنفسي انني استنفدت كل الامكانيـــات في التنقيب .

وعبرنا من نقطـــة تقع عند اقصى صخور ذلك الموقع الى منطقـة وجدنا فيهـــا مجموعة غير عادية من الصخور ، فأطلقت على تلك المنطقة اسم : خوبو الشرقي » . وقد قمت باجراء مسح دقيق لذلك الخوبو الذي تبلغ مساحته الميـل المربع تقريبـاً . وعلى الرغم من ان هذا الخوبو محاط بالصخور ، إلا ان داخله خالٍ منها تماماً ، فبدا وكأنه قطعة من سهل ليس فيه إلا الرمـــال والحشائش البرية . وقد مضت ساعات بعد الظهر بسرعة ، ممـا يجعلني اعترف بأنني لم اقم بفحص كل صخرة من صخور تلك المنطقة ، ومـــا ذلك إلا لضيق الوقت من ناحية ، وكثرة عددهـا البالغ حوالي المائة من ناحية اخرى . ولكنني زرت عشر صخرات منها وخرجت بنتيجة غير مشجعة اذا ما قورنت بالحصيلة الزاخرة التي جمعتها من زياراتي الرائعة الى « الحجّة » . وصحيح انني وجدت هنا بعض الاسماء الثمودية منقوشة هنا وهناك ، غير انني لم أجد أي اثر يدل على ان هذه المنطقة كانت منتجعاً محببـــاً للسادة المثقفين أيام ثمود . ولذا فقد ابعدت من فكري الرأي القـائل بأن رياح الصحراء الحارة هي التي مسحت تلك النقوش على مر الأجيال .

ولما توارت الشمس خلف الافق ، عدت مع دليلي الى المكان الذي تركنا فيه السيارة ، كي نقضي الليلة هناك . وأعتقد باننا قطعنا اربعة اميال تقريبـاً مشياً على الاقدام الى ان وصلنا الى مكان السيارة في الساعة السابعة والنصف مساء ، بعد ان ضللنا الدرب ورحنا نتخبط كثيراً قبل ذلك . وما ان وصلنا حتى بدأ

« خُليف » يشعر بأنه يكاد يغمى عليه ، لأنه – كما قال – لم يتناول القهوة طوال اليوم منذ ان غادرنا تيماء . وقد عزا السبب في عدم تمكنه ان يدلني الى مكان السيارة الى هذا النقص في معدته بالذات .

واسترحنا قليلاً ثم بدأنا نهيء المكان الذي سنقضي فيه تلك الليلة . ولم يكن هناك بطبيعة الحال ما يدعو الى انتظار ليلة مريحة . أما طعام العشاء فلم يزد على بقايا طعام الغداء ، وكان عبارة عن شاي و « حلاوة طحينية » وبعض قطع البسكويت .

وفيما كنا نتناول طعامنا سمعنا صوت سيارة يقترب . وقد تبينا فيما بعد انها احدى سيارات الامير ، وقد استقبلها عدد من رجاله وبعض اصدقائي من « المدينة » و « ليلي » الذي كان يتولى ارشادهم الى الطريق . وهكذا وجدت نفسي و « خليف » نستقبل زواراً ليشاركونا طعام العشاء « الفاخر » ! ورغم هذا الحشد ، لم يكن لنا بد في قضاء الليلة المتعبة حيث نحن . وكم كان امتعاضي شديداً حين اكتشفت انهم لم يكلفوا انفسهم مؤونة احضار طعام معهم أو جلب فراش وأغطية لنا . لقد كان كل همهم ان ينفذوا المهمة التي اوكلت اليهم ، وهي جر السيارة واخراجها من بين الرمال ومن ثم يعودون معنا منتصرين !!

ولكن الأمور كانت أسوأ مما ظنوا ، فقد تبين لنا ان الجهود التي بذلناها لاخراج السيارة بادىء الأمر قد تمخضت عن اصابتها بعطب ، فأصبحت بحاجة الى ميكانيكي خبير . ولكن « السيد » فضل ان يبقى غارقاً بين قدور اللحم في تيماء على ان يأتي لانقاذنا .

ولم اعد استطيع التحكم في ألفاظي وأنا اصف كفاءتهم في العمل . وكل ما اذكره انني رجوتهم ان يعودوا الى تيماء ويتركونا محلنا بأمان . وقد اقترحوا علي ان ارافقهم في سيارة « اللوري » الى تيماء لأنهم لم يكونوا على استعداد لقضاء الليل في هذا المكان الموحش دون ان يكون معهم فراشهم . وحينئذ اجبتهم بأنني لن اترك مكاني بأي شكل من الاشكال ، ومهما كانت الظروف ،

حتى ارى ان السيارة قد اصبحت صالحة للقيادة وأعود بها الى تيماء .

وقد ساد الجو شيء من التوتر ونحن جلوس حول النـار نتبادل الكلمات القاسية، حتى تأكدوا من انني لا اعتزم التحرك من مكاني بأي ثمن . وخصوصاً حين اكدت لهم انهم يستطيعون الذهاب الى جهنم ان شاؤا ! إلا انني لن ارافقهم حتى ولا الى الجنة .

أما بالنسبـة للرجال الذين كانوا يرافقونني في هذه الرحلة ، فقد لمست انهم يغلون غضبـاً كالمرجل ، ولكنني لم ابالِ بهم ، وقدّرت ان الوقت قد حان لأتخلص منهم فور عودتي الى تيماء ، وساعة تمكنهم من ايجـاد وسيلة نقل تحملهم الى المدينة .

والحق ان « محمد العريفي » وصحبه كانوا عديمي الفائدة . أما رجال الأمير فقد بان عليهم القلق من جراء ذلك الوضع . وأخيراً اتفقوا على ان يمكث اثنان منهم هما (سُويد) و (ناصر) معنا أنا و (خليف) ، بينما يعود الباقون الى تيماء ليرسلوا لنا السائق مع سيارة (لوري) كي تساعدنا على سحب سيارتنـا في الصباح الباكر .

وعلى هذا الأساس ساد السلام ذلك الظلام الذي كان يلف المنطقة، وجلسنا نحن الاربعة جنبـاً الى جنب في شيء من التناسق والوئام ، نحملق في النـار ونرشف اكواب الشاي . وقد مكثنا على هذه الحـالة مدة ساعة أو ساعتين ، قبل ان نكوّر اجسامنـا حول ما تبقى من جمر في موقدنا ، ونحاول النوم على الرمـال دون غطاء غير الملابس الصيفية التي كنا نرتديهـا حين غادرنا تيماء في الصباح .

ولم تكن تلك الليلة دافئة بأي شكل من الأشكال .. وقد استيقظت حوالي منتصف الليـل على لسع البرد ، ولكنني لم البث ان نعست ونمت حتى الساعة الثالثة صباحاً ، عندما عدنا لنوقد النار علها تساعدنا في قضاء الساعات الثلاث المتبقية لطلوع الفجر ، بالاشتراك مع كؤوس الشاي و (الشابورا) .

وعلى العموم ، كانت ليلة ليلاء فظيعة . ولم يطلع الفجر بسرعة كما بدا لنا ، وكنت كلما نظرت الى السماء أرى النجوم تتلألأ وكأنها تريد ان تقول لنا : (ان الفجر ما زال بعيداً) .

وبالاضافة الى هذه المشاق أخذ الطلّ يتساقط بكثرة ، كما ان جميع حفر طريق (المحجة) كانت ممتلئة بالمياه نتيجة للأمطار الأخيرة .

وما ان أرسل الفجر أول خيوطه ، وأصبحنا قادرين على تمييز الأشياء حتى نهضت أنا وخليف تاركين الرجلين الآخرين في حراسة السيارة ، وتوجهنا الى منطقة صخور (خوبو) . وبينما نحن في طريقنا ، التفتّ من على هضبة ورائي ، فسررت اذ وجدت سيارة اللوري قادمة على الطريق . وكنا في تلك الأثناء ما نزال الى الغرب من قمة (غنيم) ، والى الجنوب من (طويّل سعيد) وتيماء ، بينما كانت منطقة (خوبو) التي زرناها في اليوم السابق ، تلوح الى الغرب والشمال الغربي .

وواصلنا السير باتجاه هضبة تشرف على منطقة (خوبو) ، وهناك وجدنا كمية لا بأس بها من النقوش والصور ، فباشرت بنسخها وتصويرها . وكان عملاً طويلاً ذلك الذي بدأت ، لا سيما وأنا اجلس بين مجموعة مذهلة من النقوش!

وكنت ما ازال منهمكاً في استنساخ النقوش حوالي الظهر ، عندما وصلت محلّنا سيارتا اللوري واللاندروفر . وقد احضر (السيد) معه كمية لا بأس بها من الطعام تكفي لاعداد وجبة شهية . وكانت المسافة بين المكان الذي تخربت فيه السيارة اللاندروفر ، والمكان الذي كنت فيه انسخ النقوش ، لا تزيد على ستة اميال .

وبعد مسيرة ميل أو اكثر بقليل ، وصلنا الى الأرض الصخرية الهائلة التي اطلقتُ عليها اسم (خوبو الشرقي) . وكانت هذه الأرض محاطة بدائرة من الحجارة الضخمة ، أما وسطها فكان ممتلئاً بالماء الذي انحدر اليها من المرتفعات حاسراً عن الصخور بضعة اقدام من الرمال . وقد وجدت على جوانب الأرض

المبتلة اعداداً هائلة من النقوش الثمودية ، فأسرعت انسخهـا دون تأخير . إلا انني لم أتمكن من نسخ اكثر من خمسين نقشاً حتى بدأ نور النهار يضمحل منذراً بقرب غياب الشمس . وكان لزاماً علي ان افكر الآن في العودة الى تيماء . وقد كان حرياً بي ان لا اضيع الوقت في نسخ هذه النقوش ، لأنني ، عندما عدت الى تيماء في المساء ، تبينت ان (جاسن) و (سافيغناك) قد نسخا جميع هذه النقوش من قبل ، ونشراها في مجلد طبعته دار (فان دن براندون) للنشر. وعلى الرغم من خيبة املي في هذا الاكتشاف ، إلا انه وفر علي عناء العودة الى تلك المنطقة في اليوم التالي، كما كنت اعتزم ان افعل .

ومهما كان الأمر، فقد كانت حصيلة اليومين الماضيين لا بأس بها. خصوصاً فيما يتعلق باكتشاف (خوبو الشرقي) والحصول على حقيبة مملوءة بالنقوش الثمودية ، كانت كلها جديدة باستثناء الخمسين الأخيرة . والحق انه من المحتمل ان تكون هذه المنطقة هي (خوبو الغربي) التي اكتشفها (سافيغناك) غير انني لم استطع حل هذه المشكلة بشكل ارضى عنه .

كان الوقت قـد امسى متأخراً ، كما ان الطقس انقلب بارداً .. ولذلك اسرعنـا الى سياراتنا وبدأنا رحلة العودة على طريق (حايل) مصعّدين نحو هضبة (ام سبع) . ولقد كانت الطريق وعرة للغاية ، ومع ذلك فلم تصادفنـا أية عقبات كبرى . وأخيراً وصلنا الى الطريق بعد مسيرة عشرة اميال تقريباً .

وفي هذه الاثناء كانت سيارة اللاندروفر في حالة يرثى لها، إلا انني استطعت ان اصل بهـا الى تيماء وهي تلفظ آخر انفاسها . وهناك تركتها للتصليح الذي سيستغرق بضعـة أسابيع . هذا وقد قطعنا في اليومين الماضيين مسافة لا تقل عن اربعين ميلاً معظمها وعرة صخرية .

وهناك في (تيماء) ، اكتشفت انه نتيجـة للخلاف الذي نشب في الليلة الماضية ، فان محمد العريفي ومساعديه قد اختفوا .. بعد ان أخذوا معهم كل ما نملك من قدور وأواني ، بالاضافة الى ما كان موجوداً في مخزننـا من مؤونة يسيرة . وقد احتج هؤلاء بأنهم قد لاقوا مني ما فيه الكفاية، وانهم غير مستعدين

للتعاون معي أكثر من ذلك .

وليس ثمة شيء سرني في ذلك الوقت أكثر من تخلصي من رفقة (محمد العريفي) وصاحبيه . ولقد كان باستطاعتي ان أعيدهم واستعيد ما أخذوه من مؤن وأدوات صُرفت لي أنا في (المدينة) وليس لهم ، ولكنني لم أشأ ذلك رغبةً في التخلص منهم باي ثمن .

وقد اثبتت الفحوصات التي أجريت على سيارة (اللاند روفر) خبرتي بحالتها ، إذ جاءني (السيد) في اليوم التالي ليقول بانها لا يمكن ان تتحرك من موضعها إلا بعد اجراء (اوفراول) كامل ، كما انها بحاجة الى قطع غيار غير موجودة هنا ، وسيطلبونها من (جدة) ، ومن المؤكد ان استحضار هذه القطع سيستغرق وقتاً طويلاً. ولذلك قررت - وانا آسف - ان نواصل رحلتنا بسيارة (اللوري) ، دون حاجة الى انتظار اصلاح (اللاند روفر) . وتركتها تحت اشراف الميكانيكي (الغشيم) الذي كان يرافقني، والى ان تصل قطع الغيار ويتم (الترميم) .

وفي صباح اليوم التالي ، وبعد ان زرت الأمير لابحث معه خطط سفرنا ، عثرت على اكتشاف مهم قرب واحات تيماء وخرائب المدينة القديمة . وقد سبق الحديث عن بعضها: وخاصة النقش العربي الموضوع في قاعة القهوة بقصر الأمير، والجدارين اللذين ما زالا قائمين، وقد اكتشفت شارع المدينة القديمة أيضاً. وكان شارعاً لم أر له مثيلاً في أي مكان آخر . وكان هذا الشارع والطريق المؤدية اليه يستعملان في الوقت الحاضر كمراحيض .

وكذلك فقد زرت السوق بمتاجره العشرين التي يملكها ، كلها تقريباً ، أناس ليسوا من أهل تيماء . وكانت هذه المتاجر مغلقة وأصحابها غائبين. ورأيت أحد المتاجر مفتوحاً فدلفت اليه وأخذت أتحدث مع صاحبه « عبد الصمد » من أهل (المدينة) فجعل (الافندي)يشكو من حال تجارته .

ومررت ، متخطياً الواحة الرئيسية والخرائب ، الى الضاحية القريبة لألقي نظرة أخرى على قلعة (قصر الابلق) ، ولأزور بيت (طليحه) الذي التقطت

له وللبئر المجاورة له عدة صور . ثم مررت وراء خرائب المدينة الى شعب (خويلد) الذي يبعد أقل من ميل عن (الوجاج) . وهنا وجدت بئراً على الضفة الشمالية للقناة ، ووقعت على كثير من النقوش الثمودية ، وخاصة في الأرض المنبسطة أمام تلك الضفة . وكانت هذه النقوش تملأ الأرض . وعلى أثر تبادلي الحديث مع (ليلي) أثناء تجوالنا ، قدم لي الدليل نوعاً من الخبز المصنوع محلياً من حبوب تنبت في الصحراء وتدعى (السمح) . والحق اقول ان طعمها كان لذيذاً للغاية ، أما لونها فكان بنياً غامقاً .

وينبت نبات (السمح) دون زراعة في هذه المناطق الشمالية من الصحراء في شبه الجزيرة العربية ، وأكثر من يفتش عنه هم البدو والجماعات الفقيرة من (شرقي الاردن) . وقد رأيت بعضهم عندما كنت هناك . واستناداً الى معلومات (ليلي) ، فان هذه الحبوب تنضج وتصبح قابلة للحصاد في منطقة تيماء عندما ترتفع الثريّا ، او حوالي منتصف فصل الصيف تقريباً .

والغريب ان المرء يستطيع ان يمضي أشهراً في تيماء دون ان يستنفد جميع ما فيها من أماكن أثرية او بقاع للترويح عن النفس، ولكنه كان علي ان أحافظ على الوقت . وكذلك فقد شعرت بان الشيء الوحيد الذي ينقصني حتى ا كمل زيارتي للمنطقة هو زيارة القلعة الواقعة عند مرتفعات « طويّلة سعيد » .

وهكذا قمت بعد ظهر ذلك اليوم بقيادة سيارة« اللوري » التي تقرّر ان تكون وسيلة النقل الوحيدة فيما تبقى من رحلتي . وأسوأ ما في هذه السيارة ان (عدّادها) كان عاطلاً لا يعمل ، مثله مثل أي (عداد) في أية سيارة عامة أخرى في المملكة السعودية ، إذ يعطلون العداد حتى يتجنب السائقون مشكلة فحص استهلاك البنزين من قِبل أصحاب السيارات .

وبعد ان عبرنا « السبخة » وقطعنا تلال « جلّ الملح » ، درنا حول مجموعة من المسايل حتى وصلنا الى سفح تلة ، ربما كانت على بعد ثلاثة اميال من السبخة . وقد بنيت على قمة هذه التلة ، التي بسطت اصطناعياً ، وربما جرى ذلك خصيصاً – قلعة أثرية ، شيدت من حجارة مصقولة كبيرة الحجم . ورأيت

عشرة مداميك من هذه الحجارة ما زالت قائمة بحالة جيدة ، وهي تدور حول القلعة بكاملها .

ومن الواضح ان هـذه القلعة لم تكن اكثر من برج للمراقبة القصد منه تحذير (تيماء) في حـالة اقتراب الأعداء . ويستدل على ذلك من ان مساحتها لا تزيد على عشرة اقدام مربعة . غير ان هناك من الدلائل ما يشير الى انها كانت تستعمل منذ زمان قديم ، اذ انني وجدت على جدرانها كثيراً من النقوش الثمودية وبعض الكتابات العربية، وتوقيع الأميركيين اللذين لم يسمح لهما بدخول تيماء ، وقد نحتا على حجارة القلعة بعناية فائقة .

أما الصخرة التي تقوم هذه القلعة عليها ، فيبلغ ارتفاعها خمسة عشر قدماً من جميع الاتجاهات . وقد رأيت على جانبها الجنوبي ان بعض الزائرين العرب قد نحتوا علامة ظاهرة اشارة الى « القِبلة » . وكانت هذه على زاوية مقدارها ١٩٢ درجة باتجاه (ينبع) و (بور سودان) بينما ان مكان القبـلة الحقيقي هو مكة ، وتقع على درجة ١٦٨ .

ولطالما ساءلت نفسي عما اذا كان من المفيد ان أتم وضع خريطة للعـالم الاسلامي على أساس القبلة ومسجدها ، غير ان خبرتي في مثل هذه الأمور كانت تشير الى ان النتيجة لا بد ان تكون تناقضاً عجيباً مع المعلومات الجغرافيـة العـادية .

وعلى سبيل المثال ، اذكر هنا انه من المعتقد – كما اكد ذلك الملوك القدامى مراراً – ان القبلة في جوامع الوهابيين في الرياض ليست باتجـاه مكة ولا الحرم الشريف فحسب ، بل وباتجاه باب الكعبة بالذات . أما الحقيقة ، فهي ان قبـلة الوهابيين في جوامع الرياض تشير الى اتجاه المدينة المنورة على بعد ٢٥٠ ميلاً الى الشمال من الكعبة .

وقلعة (طويِّلة سعيد) هذه يجوز انهـا قد أخذت اسمها الحديث من (سعيد) عامل (ابن رشيد) في الفترة التي زار فيها (غرّوثرز) هذه المنطقة. فقد أمر (سعيد) هذا بحكم منطقةٍ شاسعة تشمل جميع المناطق المجاورة لتيماء ،

ومن المؤكد انه نفذ الأمر .

اما أشجار النخيل الباسقة التابعة الى (حدّاج) فكانت تقع الى الغرب مع ميل نحو الجنوب . كما كانت سلسلة جبال (غنيم) تمتـد من (قرن البدن) الى المرتفع العالي الذي يمتد من الشرق الى الجنوب . وكانت الجبال الرملية المعروفة باسم (بترة) Batra و (والدفافيـة) تلوح قبالتي في الجهـة الشرقية . وقد رأيت مجموعـة أخرى من الجبـال الرملية تدعى (مُريره) وتقوم في الجهة الشمالية الشرقية . أما (منطار بني عطية) فيقع في الجهة الجنوبية الغربية بينما تلوح سلسلة جبال (الضبعة) و (الغمرية) في الجهة الغربية .

وتوجد في أسفل التلة خرائب قلعة قديمة كبيرة ، لم أزرها لأنهـا بدت لي حديثة البناء نسبياً . ويوجد في أسفل هذه القلعـة مجموعة من الخرائب غـير واضحة المعالم ، ولربما كانت بقايا خط دفاعي قديم .

وقد عدنا على ذات الطريق التي قدمنا عليها ، فتوقفنا عنـد بيت (صبر العياضة) ، والشمس مائلة للمغيب ، لكي أتبادل معـه الحديث الأخير قبـل مغادرتي تيماء . وهناك قدم لنا الرجل القهوة والشاي ، ثم عدنا الى مقرنا لنمضي فيه آخر ليلة لنا في تيماء .

وفي صبيحة ذلك اليوم وجدت ان جميع مرافقي قد جاؤوا – ولست أشك في أن ذلك تم بأمر من الأمير – واصطفوا أمام سيارة (اللوري). وكم أحزنني ان سيارة (اللاند روفر) لن ترافقنا في العودة ، فقد تقرر تركها مع الميكانيكي الذي كان قد رافقني من (الرياض) ليشرف على اصلاحها . وحتى تلك اللحظة كانت السيارة قد قطعت مسافة ٣٫٧٣٧ كيلو متراً او ما يعادل ٣٫٣٣٥ ونصف ميـلاً على طرق في مختلف درجات السوء ، بل وأحياناً على ما لا يشبه طريقاً بالمرة .. ولكن ما العمل ؟

٥

من تيماء الى تبوك

في الثالث عشر من شهر يناير (كانون الثاني) ، ودعنا (تيماء) وسيارتنا (اللاندروفر) ، وكدّسنا متاعنا في سيارة (اللوري) استعداداً للمضي في طريقنا الى (تبوك) .

كان العدّاد لا يشتغل ، وهذا نقص شديد في أية سيارة تعمل مع أية بعثة استكشافية ، ولكن جماعتي الذين كانوا يرافقونني لم يهمهم من الأمر شيء ، وبدوا وكأن شيئاً في هذا العالم ما كان ليهز ضمائرهم وهم في أماكنهم على ظهر « اللوري » ، مكوّمين بين جالس ومضطجع ، وسط أكداس المتاع التي كنا نحملها ، يتبادلون الأحاديث غير مبالين بوعورة الطريق التي نجتازها ، ولا بالجلسة غير المريحة على ظهر ذلك « اللوري » الذي ما انفك يتمايل الى الشمال حيناً والى اليمين أحياناً . ومع هذا فقد لاحظت ان السائق يبدو وكأنه يستعذب القيادة في مثل تلك الطريق .

وكان دليلنا الجديد يجلس بيني وبين السائق ، وكان اسمه « سلامه بن علي » من قبيلة « بني عطية » ، تلك القبيلة التي أعتبر نفسي مديناً لها بدين كبير في نجاح

هذا الجزء من الرحلة . وكان ثمة جو من الخوف لا أدري سببه يخيم فوقنا ، وربما كان مرده الى التشاؤم . أما المسافة التي كان علينا ان نقطعها فهي لا تزيد على ١٥٠ ميلاً ، وربما أكثر من ذلك بقليل، أي حسب الطريق التي سنتبعها . وكان من المفروض ان نقطع هـذه المسافة في ما لا يزيد عن ثلاثة ايام . وقد اعتزمت ان أصرف جميع حاشيتي باستثناء « السيد » وسيارته « اللوري » فور وصولنا الى « تبوك » ، حيث ستكون عودتهم الى « المدينة » من هناك أسهل بكثير منها من تياء . ومهما يكن من أمر فانني كنت بحاجة الى فريق جديد من الرجال لمساعدتي في استكشاف « المناطق الشمالية » إذ انه يمكن اعتبار المنطقة مقفلة بصفة رسمية .

هذا وقد قطعنا المسافة في مدة تزيد عشر ساعات عن معدلها، وهو ثلاثة أيام، لأننا كنا نسير بمعدل خمسة عشر ميلاً في الساعة ، هذا اذا ظلت سيارة « اللوري » تتحرك ، رغم ان تحركها لم يكن يجري بانتظام .

وفي طريق العودة مررنا عبر خرائب « فاو الطليحة » واجتزنا عدة جداول تابعة لشعب « الرضام » ، ثم سرنا بمحاذاة الضفة اليسرى لذلك الشعب وأخذنا نصعد نحو « منطار بني عطية » حيث توقفنا عند منطقة قريبة من شعب « الجريدة » . ويعود اسم هذا الشعب الى المنطقة ذاتها أكثر مما يعود الى أي من الجداول التي تمر فيها . وكان هنالك ثلاثة منها تسير في اتجاهات مختلفة . وقد تمكنا في النهاية من الوصول الى النقطة العليا التي تصب فيها هذه الجداول في وادي تياء على بعد خمسة عشر ميلاً من الواحات . ومن ثم سرنا في أرض منبسطة بعد ان عبرنا أرضاً سبخة ضيقة . ولم يكن دليلي متأكداً من ان هذه الأرض هي التي تدعى « خبرا محجة » (على الرغم من انه لا علاقة لها بوادي المحجة الذي سبق ان ورد ذكره) . ومن هناك وصلنا الى ما يبدو انه مسيلان لجدولين ، كانا يسيران باتجاه معاكس لبعضهما . فالأول الذي كان يقع الى يسارنا ظل يرافقنا حتى تياء ، أما الثاني فكان يجري باتجاه شمالي – شرقي

حتى يصل الى مكان يدعى « الجريش » . وهو عبـارة عن ارض منبسطة تمتد من سفح سلسلة من الجبال تحمل الاسم ذاته . ويلتقي هـــذا المسيل في كثير من النواحي بعدد من المسايل النابعة من سلاسل الجبـال المختلفة التي تقوم في تلك المنطقة ، وهي من اليسار الى اليمين : « الرحْل » ويقع خلف « المعيزله » (وهو أعلى سلسلة الجبـــال هذه) ، و « البيّاضية » و « الضبع » و « الغمرية » و «الجريش» . وكان جبل الضبع متوجاً بقمتين رائعتين بينما كان لجبل «الغمرية» قمة واحدة .

ومن هذه النقطة دخلنـا الى منطقة جديدة تمتد باتجاه غربي مسافة قصيرة حتى تصل الى فراغ يقع بين « البيّاضية » والضبع . ومن هناك تدور الطريق باتجاه شمالي غربي . وقبل ان نصل الى هذا الفراغ،عبرنا قناة «جريدة» الرئيسية من طريق بدأت تنقلب الى وعرة جداً وتزداد وعورة كلما اقتربنا من الجبـال . وكانت هذه الطريق مغطاة بالأدغـال ، ومع ذلك فقد كان الشيء الحي الوحيد الذي ازعجناه ونحن نقطع تلك الطريق هو ارنب بري وحيد . ولعل كثرة ارتياد « عبد الله بن فيصل » و « السديري » لتلك المنطقة قد افزع الغزلان التي كانت تعيش فيها . وكنا نعرف ان الصيادين المذكورين ، قد مرا في هذه المنطقة مستقلين سيارة قطعا بها المسيل ثم اتجها نحو الشمال الشرقي قاصدين ارضاً منبسطة تدعى « عسّافية » أو « الصفية » ، في طريقهما الى رمال « نفود » التي تقع وراء تلك الارض مباشرة .

وقد واصلنا سيرنا نحو الصخور العليا التي تشكل الاطار الذي يشمل مجموعة الجبال المختلفة في تلك المنطقة . وهناك توقفنا لتناول طعام الغداء قرب صخرة متوسطة الارتفاع ، معزولة عما عداها من صخور جبل « الضبع » . وتقع هذه الصخرة في نقطة تسبق مدخل الممر المؤدي الى الوادي القائم بين تلك التلال ، حيث كنا نعرف اننا سنفقد هناك جميع المعـــالم التي يمكن ان تدلنا على الطريق .

وكانت قمة جبل «غنيم» تقوم الى الجنوب الشرقي ، أي في الاتجاه ذاته الذي تقع فيه (تيماء) ، غير ان الجبل حجبها عن العيان . وكنا نستطيع ان نرى على بعد كبير في اتجاه الجنوب الغربي قمة «المطلع» وغيرها من القمم العالية البركانية في منطقة «حرات العُوَيْرض» و «حرات الرَّها» ، وتقع الأخيرة هذه خلف خط السكة الحديدية بين قلعة «المعظّم» و «تبوك» .

ورأينا وراء منطقة الفراغ سالف الذكر بعضَ معالم المنطقة التي كان من المقرر ان نمر بها في طريقنا . فقد كان جبل «سَلاو» العالي يرتفع خلف الجهة الواقعة الى اقصى يمين البياضية ، وهضاب «الضاحكية» . وبين البياضية والضاحكية كانت سيارتنا تسير . وأخيراً وجدنا في طريقنا ، بجانب الممر الواقع بين سلسلتي الجبال ، مجموعةً من الصخور على شكل دائرة تدعى «ربيك الضبع» . وكانت لهذه الصخور اشكال غريبة تشكل حاجزاً صخرياً طبيعياً . وقد توقفنا عندها لنلقي عليها نظرة اعجاب أقوم بعدها بالفحص المطلوب . وتمخض هذا الفحص عن فشل ذريع في العثور على أية نقوش ، او صور .

وهنا بدأنا السير بمحاذاة قناة «سلاو» ورافدها الذي يدعى شعب «قليب القانص» ، وتجري مياه سيول هذا الشعب بمحاذاة الطرف الأيسر لجبلي «الضبع» و «غنيمة» . وفي تلك المنطقة رأينا دغلاً صغيراً من أشجار «الطلح» في أرض منبسطة من عادتها ان تحتفظ بمياه الأمطار لعدة أشهر في مواسم الأمطار الجيدة .

هذا وقد أخذ الممر الذي كنا فيه ، والواقع بين قنوات الماء وسلسلة الصخور القليلة الارتفاع ، يضيق تدريجياً ، فبعد ان كان عرضه يبلغ الميلين ، أصبح لا يزيد على ميل واحد في النقطة التي وصلت اليها سيارتنا بين هضاب «بَرْقا» التابعة لجبل «نُهيّه» وبين مرتفعات «الضاحكية» .

وفي تلك النقطة ، أخذت الطريق تنحدر بنا الى أسفل ، ثم ترتفع الى أعلى

بشكل غير منتظم . وقد اعترضتنا في فترة مـــا بعد الظهر من ذلك اليوم ، اسراب كبـيرة من الجراد الطيار . وكنت استطيع ان أرى بعضها تنتشر في الوادي المليء بالعشب ، كما كنت أرى اسرابـــاً أخرى تنتشر فوق الصخور المبعثرة على جانبي ذلك الوادي ، وكأنمـــا هي تتجمع لتعيـــد الكرة على المزروعات في تلك المنطقة وقد سررنا بمنظر بضعة غزلان في المرحلة الأخيرة من رحلتنا ، ومررنا بقناة مـــاء تصب في شعب « الخوينات » المتاخم لهضاب « الضاحكية » ، ثم لا تلبث ان تنضم الى القناة الكبيرة لشعب « عَقلا » وهو أحد الروافد التي تنضم الى بعضها لتشكل المورد الرئيسي لمياه آبار « القُليبه » في أعالي وادي « الفجر » ، الذي يشكل بدوره احد الروافد الكبرى لوادي « الهاوي » الواقع في الطرف الجنوبي لوادي « سرحان » .

ولما كان الوقت قد امسى متأخراً ، فقد قررت ان نضرب خيامنا بالقرب من رافد صغير من روافد شعب « عَقلا » ، يقع تحت المكان الذي يلتقي فيه هذا الشعب مع شعب « الخوينات » . أما الوادي الصغير الذي ضربنا فيـــه خيامنا فكان يدعى « وُديّات النعام » ، ويبدو ان مساقط المياه لجميع المسايل الموجودة في المنطقة ، والتي تؤدي الى وادي « الفجر » ، تشكل في مجموعهـــا هضاب « الفروَل » و « لَبَدَه » او « العَبْده » .

والحقيقة ان منظرها كان ممتعاً . فهي هضاب تطـــل على ارض منبسطة ، تحدر عند طرفها ، وتنتشر الصخور في معظم اجزائها . وهنا كانت مرتفعات وصخور « الضاحكية » تقع على الضفـة اليمنى لشعب « عَقلا » ، وتستمر في الامتداد شمالاً بمحاذاة الارض المرتفعة التي تعرف باسم « الزّبليّات » . بيـــنما وجدنا على الضفة الشمالية للشعب ذاته ، سلسلة مرتفعات « عَبده » التي تمتـــد مسافة بعيدة حتى فجوة كبيرة تشكل وادي « الكَلبه » ، وهو فوق نقطـــة اتصال شعب « عقلا) بتلك الفجوة . وتحت هذه النقطة يقع وادي « قليبه » .

اما الطريق الوعرة الى الشمال من وادي « الكلبه » ، وهي طريق ترتفع عن مستوى الوادي ، فقد كانت تدعى (البَيْضا) .

ولقد رأينا المزيد من اسراب الجراد عندما استأنفنا سيرنا منحدرين نحو نقطة اتصال شعب (عقلا) بوادي الكلبه عبر تلة معزولة، تفصل مجرى الشعب والوادي . وفي هذه النقطة خلّفنا التلال وراءنا الى سهل يبلغ عرضه ميلاً او أكثر . ويشق هذا السهل وادي الكلبه ليزود بمائه الآبار والمركز العسكري في القليبه . وهناك يضيق السهل حتى يمر بين سلسلتين من الهضاب العالية .

والجدير بالذكر ان النقطة التي يضيق فيها السهل بين الهضاب ، كانت بمثابة سد طبيعي يحجز مياه الفيضانات . وكنتيجة لذلك فقد كانت المنطقة خصبة ، تنبت فيها اشجار الطلح الباسقة ، باعداد كبيرة . وكنا نجد هنا وهناك مساحات من الأرض مزروعة بالحبوب المختلفة . ويبلغ عرض السهل ، قبل ان يضيق عند الهضاب ، حوالي ميلين . وهناك دلائل تشير الى ان هذا السهل كان يملكه رجل واحد في قديم الزمان ، وان كان الآن يبدو خالياً الا من مركز عسكري انشىء حديثاً لحماية الحدود .

اما البئران الصالحان للاستعمال في هذه المنطقة ، فقد كانت الأولى منها مشيدة بحجارة مصقولة، من فوهتها التي تبلغ اربعة اقدام حتى ارتفاع الماء فيها. وكذلك كانت الثانية ، وان كانت فوهتها تبلغ خمسة اقدام. اما كمية الماء في كل منهما فتبلغ خمس قامات .

والجدير بالذكر ان هناك عدداً آخر من الآبار في المنطقة ، ولكنها مهجورة وغير مستعملة ، ولعلها لم تنظف بعد لتصبح صالحة للاستعمال .

وقد وجدت بالقرب من البئر الرئيسية صخرةً كبيرة تبدو على شكل الرأس ، كما لحظت اسماً ثمودياً منقوشاً في وسط صخرة اصغر منها حجماً . ومن

المؤكد ان هذه الصخرة تشير الى ضريح اثري ، وجدت على مقربة منه ضريحاً آخر محاطاً بالحجارة من ثلاث جهات . كما وجدت كتابة مختلطة قديمة على احد الحجارة ، ولكنني لم استطع فهمها .

وعلى مقربة من تلك الآبار ، ولكن في منحدر عندالهضاب المواجهة ، رأيت حامية المنطقة ، وكانت مؤلفة من ثلاثة عشر رجلاً وقائدهم . ولمحت عدداً من الأكواخ الصغيرة مبعثرة في المنطقة هناك . وقد قيل لي انها اماكن سكنى عائلات الجنود الذين شاؤوا ان يكون نفيهم اقل مشقة على نفوسهم عن طريق الزواج بفتيات من قبيلة (بني عطيه) الضاربة في الصحراء المجاورة .

وكان قائد هذه الحامية ، ويدعى (عبد العزيز التويجيري) غائباً في الوقت الذي وصلنا فيه المنطقـــة .. كان يقوم بزيارة بعض خيام البدو . وقد ارسل اليه رجال الحامية موفداً خاصاً ليبلغه بقدومنا . وهكذا .. عاد ليقدم لنا القهوة والشاي قبل ان يسمح لنا بمواصلة السير .

وفي اثناء ذلك تسلقت الصخور المشرفة على المكان الذي يضيق عنده السهل ، لألقي نظرة اكثر شمولاً على المنطقة ، ولكي اتتبع مجرى القنوات التي تزود هذه المنطقة باسرها بالماء . بما في ذلك المنحدرات الشرقية التي تحاذي المرتفعات المتاخمة لوادي (تبوك) في اقصى الشمال .

ومن هذه المنطقة ، اتجهنا نحو الشمال الغربي ، حتى غدونا على مسافة خمسة وسبعين ميلا من تيماء ، اي في منتصف الطريق تقريباً الى تبوك . غير انه كان علينا ان ننعطف الى الجنوب الغربي لكي نمر بهضاب « الضُفيّر » التي كنا نراها من مكاننا .

وتقع سلسلة هضاب « خُنصَر » الى يمين الطرف القصي لهضاب «الضُفيّر» ، وهي تسير بمحـــاذاة الحدود الاردنية مسافة ليست بالقصيرة . وفي الوقت الذي

كنا فيه لا نستطيع رؤية غير قمة سلسلة جبال « بركانه» في اقصى الشمال، حيث يقع بئر وادي « فجر » في نقطة الحدود السعودية الفعليـة ، فان نقطة الحدود المروفة باسم « مُغيرة » تقع خلف البئر الى اليمين . وتقع هضاب « الزبيليّات » الى الجهة الشمالية الشرقية من « مغيرة » ، وهي عبارة عن سلسلة من الصخور ترتفع في ست أو سبع نقاط. اما التلال الواطئة التي تسير بامتداد الضفة الشمالية للوادي وتشكل رأس وادي « فجر » فتعرف باسم « قُوار القليبه»، ويمر بينهما جدول آخر يصب في وادي فجر، ويعرف باسم شعب « عرّاده » .

واستأنفنـا سيرنا على طول امتداد تلك التلال ، بعد ان ودعنا مضيفنـا وجنوده الذين بدوا , كأنهم في غاية السرور وهم في منفاهم النائي المذكور . وقد زاد سرورهم اذ رأوا وجهاً غريباً جاء اليهم من العالم الكبير الذي يقع خلفهم .

هذا وقد وصلنـا الى مجموعة من الخرائب ، بُعيد مرورنا بـ (قليبه) . وكانت هذه الخرائب تقع في الارض الواطئة على الضفة الشمالية للوادي . وهنا قررت ان اقوم بفحص هذه الخرائب ، وان نتوقف عندها بعض الوقت لتناول طعام الغداء .

وكانت هنـاك عشرات من الخرائب منتشرة على القمة المسطحة لسلسلة الهضاب الموجودة في تلك المنطقة . ولربما كانت هذه الخرائب قلاعاً أثرية . غير ان دليلي (سلامه) أفاد بأنه لم ير هذه الخرائب من قبل ، وانه تبعـاً لذلك لا يعرف شيئاً عن تاريخها ، وان كان يظن بانها من بناء قبيلة (بني هلال) . تلك القبيلة التي كانت تعزى اليهـا جميع الانشاءات في تلك المنطقة ، حين هاجر افرادها من جنوب شبه الجزيرة العربية في طريقهم الى مراكش .

وكانت احدى الخرائب بيضاوية الشكل تبلغ مساحتهـا ٢٧ × ٢٠ قدماً ، وثمة أخرى مستطيلة الشكل مساحتها ٥٠ × ١٥ قدماً ، وثالثة لم تكن اكثر من كومة من الحجارة الصماء ومساحتها ١٥ × ١٠ قدماً . والمعتقد بأن هذه

الثالثة ، هي المعبد الرئيسي ، بالنظر لوجود دائرة من الحجارة تشكل نوعاً من الساحة المستديرة الشكل يبلغ قطرها ١٥ قدماً .

وقد وجدت في مجموعة اخرى من هذه الخرائب ما جعلني اعتقد بأنها قبور سبأية ، ربما كانت تضم اجداث قوم من جنوب شبه الجزيرة العربية ، (مَهياش) مثلا ... وكانت هذه المجموعة من القبور تنتظم في شبه دائرة يبلغ قطرها ١٥ قدماً ، أما ارتفاعها عن سطح الأرض فيبلغ ٤ اقدام .

هذا وكان داخل الأضرحة مليئاً بالرمال . ومع ذلك فقد كان من الواضح انها كانت تتسع لأكثر من جدث واحد . وكان من الصعب ان يدرك المرء اهمية هذه الخرائب ، اذ انه من المحتمل ان تكون قد شيدت لاحيـاء ذكرى معركة وقعت في الازمنة القديمة . وعلى كل ٍ فانني لم استطع ان اجد أية نقوش يمكن ان استدل منها على حقيقتها . وتقع هذه الخرائب على بعد ٍ يقل عن ميلين الى الشمال الغربي من قليبه .

ثم تابعنا السير ، بمحاذاة الوادي في الاتجاه ذاته ، وقطعنا حوالي ميلين قبل ان نصل الى نقطة يلتقي عندها شعب (عرّاده) بالقنوات التي تشكل وادي (فجر) في عدة نقاط . وهنا تحولنا الى طريق علوي باتجاه (عرّاده) ومنها باتجاه جنوبي غربي ، يقع الى يمين اتجاهنا السابق . وفي هذه النقطة كنا قد قطعنا حوالي ثمانين ميلاً منذ ان غادرنا تيماء .

ومن غريب الصدف ان طريقنا هذه كانت هي الطريق ذاتها التي مر بها (غورماني) نفسه . وهناك اكثر من دليل على صحة هذا الاعتقاد . لقد ذكر (غورماني) انه مر بطريق تخترق وادي فجر ثم تمر بوادي قليبه . وحسب هذا الوصف –يصف غورماني– تكون طريقه هذه هي الطريق التي سلكناها من تيماء . ولا بد ان يكون غورماني في طريقه من المناطق المجاورة لمدينة (معان) – وليس من وادي سرحان قد مر بوادي فجر على بعد قليل من النقطة التي

كنا قد وصلنا اليها الآن .

هذا وكانت الطريق الواقعة مـا بين التلال ، والتي تسير على امتداد الضفة اليمنى لوادي (عرّاده) ، ما زالت هي ذاتها التي تعرف باسم (قوار القليبه) . ومن تلك النقطة تحولنا عن الوادي ، وصعدنا في مرتفع الى ان وصلنا الى مجرى ماء ليس له اسم ، وربما كان (شعب الضفيّر) الذي ينبع من المرتفعات المحيطة والتي تعرف باسم هضاب (الضفيّر) . ووجدنا في تلك النقطة أيضاً مجموعة من الخرائب المنتشرة بين الصخور ، وتشبـه تلك التي سبق ان وصفتها . ولكنها كانت في حالة أسوأ من سابقتها .

وكنا ما نزال نصعّد منذ دخلنا وادي عراده ، ولم يمض طويل وقت حتى وصلنا الى خليج منخفض يقع بين سلسلة من الصخور والهضاب . وكان هذا الخليج يضيق تدريجياً كلما اقتربنا من نهاية المعر . وبعد ان مررنا بهذا الخليج ، خرجنا الى طريق سهل ، لا بد وانه قد لقي عناية من قبل أحد من المسؤولين . وقد قادنا هـذا الطريق الى دغل قررت ان نضرب خيامنا فيه لقضـاء الليلة ، وحتى تتاح لي الفرصة كي اتسلق قمة الجبل الواقع الى يمين السهل وأقوم بعملية مسح عامة للمنطقة من هناك . وقد ضربنا الخيـام على ارتفاع ٥٠٠ قدم عن سطح السهل بينما كان ارتفاع الجبل يزيد على ألف قدم .

ومن مكان مخيمنا كنا نتمتع بمنظر رائع للصخور الممتدة الى يمين شعب عراده والى يساره ، حيث يمتد جبل ضفيّر العـالي الى ما بعد مخيمنا بمسافة تتراوح بين خمسة وستة اميال . ومن هناك ايضاً كنت أستطيع ان ارى ان طريقنا ستسير مسافة أربعة اميال في ارض سهلة ، ثم تدور فجأة الى الشمال نحو الجبال الرملية الهائلة الموجودة في منطقة (تعوس الارقانا) ، والتي تسد الطرف الجنوبي من وادي تبوك .

هذا ولم أر أية معالم بارزة في هذه المنطقة . غير انني لاحظت ان الوديان الموجودة فيها مليئة بالمزروعـات ، وخاصة واديي (رَغـْل) و (بُعَيثران)

وان كنت لم أجد شيئاً من الاحياء في السهول والقمم . وقد لاحظت بحق ان قليلا من المطر يكفي لتحويل المنطقة الى ارض خصبة تمور بالجنائن اليانعة .

وهنالك الكثير من الأدلة التي تشير الى ان قوافل الجمال كانت ترد الى هذه المنطقة في فصل الصيف طلباً للكلأ والمرعى ، الأمر الذي يشهد بأن هذه المنطقة يمكن ان تصبح خصبة . ووادي عراده هو المجرى الوحيد في هذه البقاع الذي فاضت مياهه خلال الموسم الحالي . وقد رأينا آثار هذا الفيضان ممثلة بعدد من برك الماء المنتشرة على طريقنا. بخلاف شعب ضفير الذي كان جافاً على طول امتداد الطريق .

وقد استغربت عندما لاحظت ان (سلامه) يتسلق القمة الى جانبي بصعوبة . وسألته فأخذ يحدثني عن جرح أصابه في فخذه ابان الثورة العربية، عندما اشتبك العرب مع الاتراك قرب محطة سكة حديد (قلعة الأخضر) ، التي كانت تلالها تلوح من المكان الذي جلسنا نستريح فيه .

وقد اخبرني سلامه انه يتألم حين يتسلق جبلا ، ولكنه لا يشعر بأي ألم مهما سار على أرض منبسطة . وكذلك فانه يشعر بألم بالغ كلما اضطرته الظروف الى تلال او السير في ارض صخرية وعرة .

وأكثر اجزاء قصة سلامه تشويقاً كان قوله : انه عندما كان يقضي دور النقاهة من جراحه ، جاء الى هذا المرتفع الذي كنا نتسلقه بالذات فرأى انه من أحسن المراعي الكثيرة الكلأ في هذه المنطقة اثر تساقط الأمطار في سنة ١٩١٦ . وبينما كان هناك ، شاهد زوجاً من المها (الظبي الافريقي الآسيوي) في الشعب الصغير الذي كنا نخيم فيه . وكان ذلك قبل خمس وثلاثين سنة من زيارتنا هذه .

والغريب ان هذا المها قد انقرض من شبه الجزيرة العربية قبل عقد من الزمن على أقل تقدير .

ولقد كان « سلامه » رفيق سفر انيس ، غير انه كدليل كان مزعجاً للغاية،

بالنظر لقلة معلوماته عن جغرافية منطقة قضى حياته فيها . لقد كان ينقصه حب الاستطلاع الذي يمكن ان يجعل منه دليلاً جيداً ، او مستكشفاً لا بأس به .

هذا ، وقد مالت الشمس للمغيب مرسلة أشعة حمراء رائعة ، لم تلبث ان اختفت وراء سحابة سوداء داكنة ، فتكسرت أشعة الشمس في الأفق . وعلى الرغم من الارتفاع الذي كنا قد وصلنا اليه ، فان تلك الأمسية كانت دافئة ولم يتساقط خلالها الندى . غير ان « محمد العريفي » فاجأنا بنوبة راح جسمه يرتجف منها . الأمر الذى حملني على اعطائه جرعة من « الاسبرين » ، لم يلبث بعدها ان هدأ وذهب ارتجافه وجزعه .

وكانت الطريق الممتدة تحت الممر الذي جئنا منه ، تجري عبر وادٍ يتراوح عرضه بين ٢٠٠ – ٤٠٠ ياردة . غير ان مجرى هذا الوادي كان مسدوداً بتلال (عرقانه) الرملية ، التي تجعله يشكل بحيرة واسعة . إلا انها عندما وصلنا اليها كانت جافة تماماً . وكانت هذه التلال الرملية تعترض طريقنا هنا وهناك .

وفي أسفل الوادي تسلقت مع سلامه احد تلك التلال لنلقي نظرة على المنطقة التي كنا نعبرها . كانت المناظر التي تحيط بنا غير ذات بال ، باستثناء منطقة البراكين الخامدة في (حرّة) خلف السهل الذي يمتد من سفح (ضفيّر) حتى خط السكة الحديدية . وقد اعترضتنا بعض الصعاب في المرور فوق الرمال الكثيفة ، والرمال السافية التي كانت الرياح تحملها الى طريقنا ، فظللنا نصارع هذه الصعوبات حتى وصلنا الى ممر يقع بين (نَفود) وسلسلة جبال (غَوانم) التي تلاصق ضفيّر باتجاه الشمال . ومن هذا الممر ، خرجنا الى سهل سرنا فوقه مسافة سبعة أميال حتى وصلنا الى قناة شعب (الأخضر) المليئة بادغال « الغَضا » وغيرها من النباتات . وتمتد هذه الأدغال من أعالي « الحرّه » قرب محطة سكة حديد « قلعة الأخضر » حتى تصل الى وادي « تبوك » .

وما ان خرجنا الى ذلك السهل، حتى بدأت عاصفة تهب من الجنوب؛ ولكن

رياحها لم تكن قوية عاتية ، كما ان الرمال التي كانت تذروهـا تلك الرياح كانت خفيفة ناعمة ، وكافية لأن تغطي سطح الأرض بطبقة مزعجة من الرمال . ومن هناك وصلنا الى وادي « غَضيّ » ، وهو أحـــد روافد وادي « الأخضر » ، وينبع من مرتفعات جبل « البِرْك » البركاني الذي يقع خلف سكة الحديد .

ومن هذه النقطة توجهنا فوق أرض تغطيها الرمال الناعمة الى التلال الرملية المنتشرة هناك والمعروفة باسم « العجّات » . غير ان هذه التلال أخذت تتحول الى أكوام صغيرة عندما اقتربنا . ثم عبرنا مجرى وادي « الاثل » الذي ينبع كذلك من بعض جبال « الحره » المعروفة باسم « وتْر » و « شيبان » . ويلتقي هذا المجرى بغيره عند البحيرة الطينية المعروفــة باسم « خَبرة القصيم » ، وتقع بالقرب من محطة سكة حديد « محتَطَـب » . ومن تلك النقطة بدت للعيان قمم أشجار النخيل الباسقة المزروعة في ضواحي « تبوك » ، وكانت هـــذه في مواجهتنا تماماً .

وقد قطعنا سكة الحديد بعد نصف ساعة فقط من رؤيتنـا لقمم النخيل ، وبعدها وصلنا الى القصر الذي أنشأته الحكومة المحلية هناك . وكان يستعمل وقتذاك كدار للحكومة تُفض فيه المنازعات والمشاكل بين القبائل المختلفة .

هذا ، و كانت المسافة بين مخيمنا الذي قضينا فيه ليلتنا الاخيرة وبين تبوك لا تزيد على خمسين ميلاً .

٦

واحـات تبوك

« ما هذا الذي تبوكُونَه » ؟

يقال ان النبي « محمـداً » قد وجه هذه الملاحظة الى بعض اصحابه حين مر بهم فرآهم منهمكين في جرف الرمـــال التي كانت تطمر موقع النبـع الكبير الذي كان يعتمد عليه القسم الرئيسي من الواحات ، وما زال كذلك حتى الآن. وطالما ان هذا النبـع كان موجوداً فمن المعقول ان يكون اسم « تبوك » قد اشتق منه كما قال لي السكان المحليون .

ويقول « ألويس موسيل » المكتشف النمساوي المشهور والرجـل الواسع الاطلاع والثقافة : ان اسم « تبوك » قد اشتق من هذه الملاحظة . ويقول انه من تبوك – ثابوا - وعن طريق « كراجي » و « رام » أو « أرامو » تمتد أقصر طريق ، تصل بين جنوب شبه الجزيرة العربيـة و « بترا » عاصمـــة النبطيين وأكثرها راحة .

ومن المؤكد انه كان لمدينة تبوك ، منذ الأزمنة القديمة ، مركز ممتـاز على

الطريق العام الممتدة من الشمال الى الجنوب . تلك الطريق التي كان يسلكها التجار في طريقهم الى دنيا البحر الأبيض المتوسط . كما انها درب الحجاج في طريقهم الى المدن الاسلامية المقدسة .

ومن المؤكد ان النبطيين قد استغلوا مركز « تبوك » هذا في توسيع رقعة امبراطوريتهم حتى « مداين صالح » ، بل والى ابعد من ذلك الى الجنوب .

وقد استغني عن الجمال - التي كانت منذ بداية التاريخ وحتى اوائل القرن الحالي - وسيلة النقل الوحيدة التي كانت تعمل على هذه الطريق ، واستبدلت بالسكة الحديدية المعروفة باسم سكة حديد الحجاز ، منذ اكثر من عقد من الزمن . وكانت هذه هي وسيلة المواصلات الرئيسية في شبه الجزيرة العربية ، ابان الحرب الكونية الأولى . وقد استأنفت قوافل الجمال القيام بمهمتها القديمة حتى ما بعد احتلال الوهابيين للحجاز . ولكنها ما لبثت ان اعفيت من مشاق هذه المهمات عندما استبدلت بالسيارات التي كانت محتكرة لنقل التجارة ما بين سوريا و « المدينة » .

ومهما يكن من امر ، فان اي نوع من أنواع المواصلات كانت تجد تبوك مركزاً لا غنى عنه لتأمين حاجتها وحمايتها . وما كان لتبوك ان تظل قائمة لولا العين العظيمة التي تتدفق مياهها من تحت الارض الممتدة تحت ظلال أشجار النخيل الباسقة . ومن يدري ، فقد تتمخض المحادثات العقيمة التي استمرت طوال ثلاثين عاماً حول اعادة تسيير خط سكة حديد الحجاز وبعثه الى الحياة من جديد ، عن احياء الامل في جعل هذه المحادثات تتحول الى اعمال ، فيعاد اصلاح الخط لاعادة تسيير القطارات عليه . وان كان من السابق لأوانه ان يكون المرء متفائلاً . وذلك لأن هذا المشروع ما زال قيد الدرس منذ ثلاث سنوات ، دون ان يتقدم البحث فيه قيد انملة . ومما لا شك فيه ان المعجزة ستتحقق يوماً كما يأمل كل شخص ، وعندها ستبدأ تبوك عهداً من الرخاء لم تشهد له مثيلاً على مر تاريخها الطويل .

هذا وتُظهر حالة تبوك الاقتصادية والاجتماعية الراهنة تقدماً في جميع المجالات التي عرفت في الأزمنة القديمة لتلك المدينة . فعدد سكانها ، حسب احصاء سنة ١٩٥١ ، قد بلغ ٢,٠٠٠ شخص ، ونصف هؤلاء من التجـار والموظفين الذين هاجروا من « نجد » و « الحجاز » .

وقبل قرن من هذا التاريخ ، أي عندما زارها « اوغسطس والين » ، الذي يعتقد بأنه أول اوروبي زار المنطقة ، كانت تبوك عبارة عن قرية صغيرة لا يزيد عدد بيوتها على ستين بيتاً .

وعندمـا زار المنطقة « دوتي » في سنة ١٨٧٧ لم يجد هناك اكثر من اربعين اسرة . ولم يكن يحمي هذه العائلات من طغيـان القبائل البدوية وفوضاها غير دفع المال .

وعقب هذا التاريخ بسبع سنوات قام « هوبر » بزيارته للمنطقة فوجد القرية مهجورة وقلعتها محتلة من قبل خمسة رجال يحملون البنادق .

وفي سنة ١٩١٠ عندما بدأ بتسيير سكة الحديد الى نقطة قريبـــة من « تبوك » قدّر « غروثرز » عدد سكان القرية بما لا يزيد على ٢٠٠ شخص فقط . وليس من شك في ان هذا العدد قد ازداد باضطراد ، عندما أصبح خط السكة الحديدية يصل « المدينة » . غير ان عدد السكان ما لبث ان تضاءل ابان الحرب الكونية الأولى وما بعدها ، حتى تسلم الوهابيون الادارة ممثلة بشخص «عبدالله السديري » (حاكم المدينة الآن) . وقد استبدل هذا بابن عمه « خالد » في سنة ١٩٤٧ ، وظل خالد حاكماً المنطقة حتى سنة ١٩٥٦ . والى خالد هذا تدين مدينة « تبوك » بما تتمتع به حالياً من تقدم وثراء نسبي .

وكما ذكرت سابقاً ، فان « خالد السديري» كان قد استدعي لتسوية المشكلة التي نجمت عن مقتل « عبد الكريم » في تيماء ، وكان ذلك في شهر اكتوبر (تشرين الأول) . وكنت في المدة الأخيرة قد تتبعت آثار عجلات سيارته وهو ذاهب

الى الرياض للتشاور مع الملك. وأثناء غيبته عن تيماء كان سكرتيره « علي ثروة» يقوم بمهام حاكم المنطقة ، حتى انه تولى إمارة المنطقة في غيبة « خالد » . وهو – علي – رجل وسيم جداً وكفؤ الى أقصى حدود الكفاءة . والحق انني مدين له بكل ما حققته أثناء تجوالي في المنطقة المجاورة لمدينة تيماء . وكذلك فقد كان رجلاً عذب الحديث ، ذكياً الى أبعد حدود الذكاء في ميدان عمله الرسمي .

أما دار الحكومة الجديدة ، فقد كانت بناءً قوياً ذا جدران سميكة جداً كانت السلطات قد أنهت بناءها في المدة الأخيرة . وكنت اول زائر يحل في هذه العمارة التي كانت لا تزيد على طابق واحد ، وان كانت ليست معدة ، لاستقبال ضيوف الحكومة فحسب ، بل ولكي تكون دوائر ومكاتب لموظفي الأمير . وبالاضافة الى ذلك فانها كانت معدة لاقامة الاحتفالات الرسمية في المناسبات المختلفة .

وكانت غرف هذه الدار واسعة جداً يبلغ طولها ١٨ متراً وعرضها ستة أمتار، وقد فرشت أرضها بالسجاد الذي يساعد على بعث الدفء . كما انها كانت غاصة بالمقاعد التي صفت على امتداد ثلاثة من جدران كل غرفة . وأمام المقاعد، كانت تنتشر الطاولات الصغيرة وغير ذلك من الأشياء الضرورية للاحتفاء بالضيوف . وفي واحدة من هذه الغرف كنا نتناول طعامنا ، ولكن على الطريقة العربية حيث نجلس على الأرض لنتناول وجبات الطعام التي كانت ممتازة بالفعل – كما اكتشفنا ذلك في الليلة الأولى لوصولنا – اذ دعا « علي ثروة» مدير المالية ومدير البوليس وغيرهما من كبار موظفي المنطقة لمقابلتنا .

كانت الغرفة التي خصصت لي مثلها مثل بقية غرف البناية ، غاصة بالأثاث والمقاعد على وجه الخصوص . وكان في أحد أركانها طاولة فخمة تستعمل كمكتب ، ولم افطن الى ما اذا كان في الغرفة سرير للنوم . وحين تأكدت من عدم وجوده فيما بعد ، اضطررت الى النوم على فراشي الذي أصطحبه معي في

جولاتي الخارجية . وقد فرشت هذا الفراش على الأرض ونمت .

وعلى الرغم من ان كل نافذة من نوافذ الغرفة كانت مقفلة باحكام ، إلا ان الطقس داخل الغرفة كان بارداً جداً ، حتى انني اضطررت الى فتح عـــدد من النوافذ كي يدخـــل هواء الشتاء الذي يمكن اعتباره ساخناً بالنسبة للهواء داخل للغرفة ، وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في مثل هــذه الايام يبلغ ٥٠ درجة فهرنهايت .

هذا وقد اصطحبني « علي » بعد ظهر ذلك اليوم في نزهة بالسيارة الى منطقة الواحات وحولها ، لكي القي نظرة شاملة على المنطقة بقصد التعرف على معالمها . وكان أكثر هذه اثارة بالنسبة اليّ ، وجود العديد من أشجار « اليوكالبتس » نامية في مختلف أنحاء القرية . وقـد علمت ان هذه الأشجار استوردت من الخارج لتزرع في هذه المنطقة بقصد مكافحـــة « الملاريا » في الواحات . وقيل لي انه منذ تم زرع هذه الأشجار انخفضت نسبة الاصابـــة بالملاريا ، اذا لم نتحوط فنقول ان المرض بمجموعه قد اختفى .

ويعتبر جبلا « عين السكّري » الذي تنبع منه العين المسماة بالاسم ذاتــه ، و « حجّ قلعة » الجبلين الرئيسيين في تبوك . وقد أتيحت لي الفرصة أثنـــاء اقامتي في تبوك لزيارتها مراراً ، والتنقيب فيها عن الآثار بشكل مفصل .

أما النبع المسمى « عين السكري » فيخرج من نقطة محاطة بسور حجري يبلغ ارتفاعه معدل ارتفاع كتفي الرجـــل . وقطر هذا السور مائــة قدم بينما يزيد سمكه على ياردة واحدة . ويحيط السور ، وهو غير كامـل الاستدارة بالنبع إلا من الجهة الغربية حيث توجد فيه فجوة يبلغ طولها ثلاثين قدمـــاً ، تسمح للمياه الزائدة بالتدفق الى بركة أقدّر مساحتها ثلاثين قدماً مربعــاً . ومن هذه البركة تنساب المياه الى بساتين النخيل عبر قناة طينية غـير مستوية تبتدأ من الجهة الغربية للبركة .

ويقوم خزان آخر عند الجهة الشمالية ، وهو على شكل مربع تبلغ مساحته ثلاثين قدماً ايضاً . ويشكل جدار هذا الخزان الجنوبي جزءاً من بركة الماء الأولى. ويستعمل هذا الخزان لحفظ مياه الشرب ، وكذلك لري بساتين النخيل على ما يبدو . وليس هنالك أية عناية بهذه المجموعة من خزانات الماء ، ولا نظام التوزيع للمياه ، مع انها تعتبر أشهر مورد للري في تبوك والواحات المجاورة . ويستدل على ذلك من قذارة المنطقة المجاورة . ولا ريب في ان اعادة تنظيم النبع وبناء البركة والخزان على اسس حديثة ، قد يأتي بفائدة جمة للسكان عموماً .

وبالاضافة الى هذا النبع ، فان منطقة الواحات تزخر بالعديد من الآبار التي يرتفع فيها الماء بمعدل ثلاث أو أربع قامات . وتستعمل مياه هذه الآبار لري بساتين النخيل وحقول الحبوب الواسعة الممتدة وراء الواحات . وخلافاً لهذه الآبار ، كانت البئر القريبة من محطة السكة الحديدية ، اذ ان عمقها يبلغ ثلاث عشرة قامة قمت أنا شخصياً بقياسها . وهي لا تبعد عن مجموعة الآبار السالفة الذكر غير ميل واحد .

هذا ، وهنالك ينابيع اخرى غير هذه في منطقة تبوك ، سيأتي ذكرها في حينه .

والظاهرة المميزة لجميع هذه الينابيع والآبار القريبة من الواحات ، انها تنبع من باطن الأرض ، وتنساب في قنوات طبيعية لتروي حقول المزروعات . ولذلك يمكن اعتبار نزوح هذه الآبار وجفافها بين الفينة والفينة ، عائداً الى الاهمال الطبيعي المتوفر عند السكان ، والمنازعات الدورية بين قبائل المنطقة . بيد ان السياسة القاسية التي اتبعها « خالد السديري » جعلت المنطقة تستعيد كامل مقدرتها على الارواء . وقد اشترى خالد نفسه حصة في النبع ، كما اشترى حديقة قربه تعرف باسم « بستان حرب » ، نسبة الى اسم والد شيخ قبيلة « بني عطية »

ولما زرت مدينة تبوك مرة أخرى ، كانت المنطقة المحيطة بالآبار ملكاً له . كما وجدت ان المنطقة بكاملها قد أصبحت مزرعة حديثة ، رغم كثرة زيارات الجراد لها . وكان « خالد » هذا ، خلافاً لاقرانه من أبناء شبه الجزيرة العربية ، يؤمن بفائدة السموم لمقاومة أسراب الجراد والمحافظة على المزروعات . وهو يؤمن كذلك ، بان معظم الحشرات تفضل النخالة المسمومة على طعامها العادي .

وتقع « قلعة الحجّ » بالقرب من الناحية الشرقية للنبع المعروف باسم « عين السكّري » . وهي عبارة عن قلعة مبنية بناء حديثاً ، صُمم للمحافظة على موارد الماء والحجاج الذين يخيّمون في المنطقة أثنـــاء طريقهم من « المدينة » المنورة واليها .

ومما لا شك فيه ، انه لا بد وان تكون في هذه المنطقة آثار قلعة تاريخيـة بنيت في قديم الأزمان . وذلك بالنظر لأهميـــة الموقع . غير ان القلعة القائمة - كما عرفنــا ذلك من أحد النقوش العربية الموجودة على أحد جدرانها - قد بنيت على التحقيق سنة ١٠٦٤هـ و سنة ١٦٥٣ / ١٦٥٤م . وقد وجدت في أحد النقوش الموجودة على مدخل القلعة الرئيسي عبـــارة تقول : « جددت وأصلحت هذه القلعة المباركة بنـــاء على أمر صاحب الشرف السلطان ابن السلطان ، السلطان «محمد خان» ابن السلطان « ابراهيم خان » ابن السلطان... « عثمان » حفظ الله ملكه ... طول الزمن ... وقـــام على تجديدها العبد لله القدير محمد بن ... من دمشق الشام ، غفر الله له في السنة الرابعة والستين بعـد الألف للهجرة » .

والسلطان محمد الرابع ، هو ابن السلطان ابراهيم ، الذي هـــو بدوره ابن السلطان أحمد الأول (لم يكن اسم الأخير ظاهراً على النقش لنا كل حروفه) ، تولى العرش العثماني في سنة ١٠٥٨ للهجرة (١٦٤٧ - ١٦٤٨) م . وكان حينئذ قاصراً في السابعة من عمره . وقد حكم حتى سنة ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧ - ١٦٨٨)م ، حيث تنازل عن العرش

ولم يكن بالاستطاعة معرفة اسم المهندس الذي تولى بناء القلعة ، نظراً لأن اسم والده كان غير ظاهر في النقش . وكان محمد الرابع هذا على ما يبدو معروفاً بانه شجاع وماهر في الصيد والقنص . ومن هنا يمكن القول بان القلعة بشكلها الراهن بنيت قبل ثلاثمائة سنة . وقد فشلتُ في ايجاد أي جزء منها ، حتى أساسها ، يمكنني ان أستدلّ منه على ان القلعة بنيت قبل أكثر من ثلاثمائة سنة. وكانت حجارتها في حالة جيدة ، كما ان جدرانها مزينة بنقوش تمثل مختلف أنواع الحيوانات الصحراوية . وليس من شك في أن النقوش قد أضيفت الى القلعة فيما بعد انشائها .

أما داخل القلعة فكان يبدو ان يد الاصلاح لم تتناوله بالقدر الذي تناولت به مظهرها الخارجي . حتى انني رأيت ، عندما زرتها ، ان البنّائين المحليين عاكفون على ترميم الجدران الخارجية ، من أجل اعدادها لتكون مركزاً صالحاً للشرطة بحيث تحتل مكاتبهم الطابق الأرضي فيها . أما الطابق العلوي فيتخذونه غرفاً للنوم .

وفوق الطابق الثاني ، يوجد سطح ، وغرفة للمراقبة يحتلها الجندي المكلف بالحراسة . وللطابق الأرضي مساحة مكشوفة ، أما المكاتب فموجودة على جانبي الساحة ومدخل البناء . وقدام الساحة غرفة ذات باب ناصيته على شكل قوس . وقد علمت فيما بعد انها مقر قائد الشرطة في المنطقة وفيها يستقبل ضيوفه الزائرين .

وهنالك قسم من الساحة المكشوفة قد سُوّر باسلاك شائكة ليستعمل كمركز للتوقيف ، ولم أجد في هذه النظارة الصحراوية غير رجل واحد قيل لي انه متهم بقتل أحد أبناء عمومته .

ويمكن القول بان الحجارة التي شيدت منها القلعة كانت حسنة التشذيب مع ان قطعها كبير سميك .

وتبلغ مساحة الساحة المكشوفة ثلاثين ياردة مربعة . ويقع مدخل القلعة في

الجهة الشمالية الممر الطويل الممتد من طرف السوق ، حيث ينتهي هناك بشارع عريض جميل .

أما المدينة القديمة ، فتقع الى الجهة الشمالية من القلعة على مسافة لا تزيد على ثلاثمائة ياردة ، بينما يقوم القسم الجديد من المدينة ، ويطلق عليه اسم «الجديدة» ، في الجهة الشمالية الشرقية . وهو يمتاز عن القسم القديم بابنيته الحديثة وأشجار « اليوكاليبتوس » التي تحيط به . ويحتل هذا القسم الجديد مساحة شاسعة .

وتقع ضاحية « الخالدية » الجديدة في القسم الشرقي من المدينة الجديدة . أما القلعة الأساسية المدينة التي تعرف باسم «قصر السديري» -وقد بناها « عبدالله السديري » – فتقع في الجهة الشرقية من السوق .

وتحتل مكاتب المالية والجمارك هذه القاعة ، بينما تحتـــل الدوائر السياسية والسلطة التنفيذية ، بناية المستشفى التركي القديم . وهو بناء طيني كبير ملاصق المحجر الصحي للحجاج . ويقع هذا المستشفى بـين الحجر وبين خط السكة الحديدية ، الذي يبعد مسافة ميل واحد عن القلعة باتجاه شمالي وشمالي شرقي .

وسوق مدينة تبوك مثال للنظافة والترتيب ويرجع الفضل في انشائه الى الاتراك الذين صمموه على هذا الشكل الرائع لمواجهة المتطلبات الآنية والمستقبلة للسكة الحديـدية . وهو عبـارة عن شارع فسيح تحف به من الجانبين بنايات جميلة تستعمل للأغراض التجارية ، كما تستعمل للأغراض الخاصة بأصحابها . وقد وجدت ان داخل بعض البيوت الممتازة البنـاء لا يقل من حيث المظهر عن أي بيت حديث مزود بأحسن انواع الأثاث .

وقد زرت ذات يوم أحد التجار المعروفين في متجره المؤثث النظيف الذي يحتل قسمـاً من الطابق الأرضي للبيت الذي تقطنه عائلته وكان ذلك التاجر رجلاً له مركزه بين اعيان البلد ، واسمه « عناد الفريّض » ولم يكن عنّاد على ثرائه قد فقد أياً من مميزات تجار العرب القدامى ، الذين وصفهم دوتي بأنهم امراء التجارة .

كان والد « عناد » هذا يشغل منصب رئيس البلدية ، أما هو - الولد - فيكفيه انه يملك القسم الأكبر من بساتين النخيل في (تبوك) ، وقد اشتراهـا في مناسبات مختلفة بقصد تدعيم تجارته . وبالرغم من ثرائه ومركزه التجاري ، فقد كان محافظاً ، يحب ان يظهر كأي رجل عادي . فجده الاكبر كان يدعى « غريّض » من فخذ « حميضات » من قبيلة « الكعابنة » - بني كعب - وهي فرع من قريش . ولهذه القبيلة افراد كثيرون يقطنون « معان » في شرق الاردن وان كان بعضهم قد هاجر الى مدينـة « الزرقاء » في الاردن ايضاً ، وما زالوا هناك حتى يومنا هذا .

و « عناد » اكبر اشقاء خمسة بينهم اثنـــان ما زالا صغيرين هما « محمد » و «ابراهيم» . ولعناد نفسه ثلاثة اولاد: هم « محمود » و « احمد » و « حامد » . أما شقيقه الثاني « سالم » فله ولدان هما « محمد » و « سليمان » وللشقيق الثالث ولد واحد يدعى « عبدالله » .

ويشتغل معظم افراد هذه العائلة بالتجارة مع « معان » وفي ذلك الوقت كان عناد مهتماً بمشروع ، كانت الشركة التي امثلها - سوكوني فاكوم اويل - تحبذ تحقيقه فيما اذا ثبت لها انه مفيد من الناحية التجارية . فقد كانت السيارات التي تدخل المملكة العربية السعودية من الشمال ، حاملة البضائع والحجـاج ، تتزود بما تحتاجه رحلتها من وقود ، قبل ان تغادر معان الى المدينة . وكان ذلك شيئاً اضطرارياً تمليه الظروف القائمة آنذاك وكان سعر صفيحة البنزين يعادل سبعة ريالات ونصف (سعودية) . وكانت هــذه السيارات تضطر الى دفع جمارك باهظة على جميع الوقود الذي تحمله فور دخولها الحدود السعودية . وكانت المشكلة ان هذه السيارات لا تستطيع التزود بحاجتهـا من الوقود في الاراضي السعودية حيث يقل سعر الصفيحة هناك .

ومن الواضح ان عملية نقل المحروقات الى تبوك ، سواء على الجمـال أو بواسطة السيارات، عملية عقيمة . اللهم إلا اذا بادرت الحكومة الى انشاء طريق

للسيارات يربط تبوك بمينـــاء « ضُبَه » والمسافة بين البلدين لا تزيد على مائة وخمسين كيلو متراً ، تقابلها مسافة تزيد على ثلاثة اضعافها بين تبوك و « مدْين » التي يؤتى منها الى تبوك بالمحروقات .

والغريب انه قد اتيحت لي الفرصة الآن لأدرس الموضوع من جديد مع أحد تجــار « علا » - وكنت قد قابلته عندمــا توجهت الى دائرة المالية في قصر السديري . وكان هذا التاجر في طريقه الى «معان» لبعض اعماله هناك ولارجاع عائلته الموجودة في ضيافة بعض الاصدقاء والاقارب في الاردن . ويدعى صاحبي « عبد المحسن القَبلي » وهو من التجار والملا"ك المعروفين في « علا » . وكنت قد تعرفت على شخص آخر من ذات المدينة يدعى « عطاالله »من حاشية الأمير، عيَّنوه مسؤولاً عن احدى بعثاتي الاستكشافية الى « روافا » ، وسأتحدث عن هذه الزيارة بالتفصيل في الفصل القادم .

هذا ويدعى الشخص المسؤول عن دائرة المالية في تبوك « محمد صالح » وكان قد تناول طعام العشاء معنا في بيت الضيــافة في الليلة السابقة . وقد علمت من الحديث الذي دار بيننا آنذاك ان مضيفنا « علي ثروة » قد اصيب منذ قدومه الى تبوك ، قبل بضع سنوات ، بمرض (البلهارسيا) نتيجـــة لاستحمامه في مياه البرك .

ولم يكن باستطاعة « علي » ان يشفى من هذا المرض حتى زيارتي لمدينـــة تبوك ، ولذلك فانه كثيراً ما كان يشكو من مرضه هذا . وهو يأمل في ان تتاح له الفرصة للذهاب الى الخارج لمعالجة نفسه فيما لو سمحت له واجباته بمغادرة المنطقة .

ومرض البلهارسيا هذا هو هدية الحجاج المصريين الذين كانوا يفدون لزيارة الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية ، الى سكان المناطق التي توجد فيها آبار ماء أو خزانات .

وقد وجد الفاحصون ميكروب البلهارسيا في عدد من خزانات الماء في « مكة » و « المدينة » ولكن ، هذه هي المرة الأولى التي أسمع بوجود هذا الميكروب في غير مناطق المدينتين السالفتي الذكر من الحجاز .

وينتمي معظم سكان تبوك الى قبيلة « الكمابنة » ، أي انهم فخذ من « الحميضات » التي ينتمي اليها « عناد » . وكان هو زعيم تلك القبيلة آنذاك . ولما كانت هذه القبيلة تدعي انها فرع من « قريش » ، فمن الممكن ان تكون قد استقرت في الأساس في مدينة تبوك على اثر رحلة النبي في السنة الثالثة للهجرة (٦٢٤ - ٦٢٥ م) ، او انهم ارتحلوا واستقروا هنا بعد الحملة التي جهزها النبي الى جنوب الشام .

وكما تأكدنا من قبل ، فان هذه الواحات قد شهدت فترات كانت فيها خالية من السكان او ان عدد سكانها تناقص كثيراً ، بينما شهدت في القرون الأخيرة سيطرة « بني عطية » الذين كانوا على خلاف مقيم مع السكان المحليين والمسؤولين الأتراك حول أمور تتعلق بالحجاج وبناء محطة السكة الحديدية .

ويملك شيوخ « بني عطية » قسماً ضئيلاً من الأراضي الزراعية التي تروى من الينابيع المنتشرة ما بين تبوك وسلسلة التلال الممتدة الى الغرب منها . وقد انهى احتلال الوهابيين للمنطقة طغيان هذه القبيلة الذي طال أمده . وكان شيخها آنذاك يدعى « حرب بن محمد » . وكان هذا الشيخ موجوداً عندما زار « دوغلاس غروثرز » تبوك في سنة ١٩١٠ بعيد وصول خط السكة الحديدية اليها بفترة قصيرة جداً .

أما شيخ القبيلة الحالي الذي يلعب دوراً مهماً في السياسة المحلية (مما يعتبر خارجاً عن الأمور التي تهتم بها قبيلته) فهو «ابن حرب» ويدعى « عيد »، وكان جد « عيد » هذا ويدعى « محمد » هو شيخ القبيلة عندما زار المنطقة هوبر في سنة ١٨٨٤ على الرغم من ان شقيقه الاكبر « صقر » كان ما يزال على قيد الحياة، وله ابن أكبر يسمى « علي » . أما الابن الاكبر لمحمد فيدعى «غضيّان».

وانه ليبدو ممكناً وجود جيل آخر بين فترتي حكم كل من محمد وحرب . وربما كان الحاكم في ذلك الوقت ابن غضيّان ، ويجوز انه كان علياً. غير انني لم أجد ما يلقي ضوءاً على الموضوع سوى ما هو معروف عن ذلك الحاكم من انه كان يدعى حرب بن محمد .

ومن بين أبرز الشخصيات التي قدر لي ان أختلط بها كثيراً ، أثناء مقامي في تبوك ثم رحلتي الى « مدين » ، شخص يدعى « زعل بن مرزوق » ، وهو شاب من أصل سوداني ، وقد توفي والده في سنة ١٩٥٠ عن عمر ناهز الرابعة بعد المائة . وان كان « زعل » يقول ان والده ناهز السابعة بعد المائة ، قاصداً بذلك السنين الهجرية .

وكان « زعل » هذا ووالده قد امضيا عمرهما في هذه المنطقة وما جاورها ، اذ قدم اليها الوالد ايام كان في العاشرة من عمره . وقد حضر الى تبوك من « الخرطوم » في سنة ١٨٤٦ برفقة والده ادريس ، وربما كان قدومهما بقصد الحج ،وان لم يكن زعل واثقاً من ذلك . ومنذ ذلك الحين لم يعودا الى السودان.

ويبدو انهما اُتخذا كعبدين عند شيوخ « بني عطية » فيذلك الوقت، وخاصة والد محمد أو جده .

وعلى مر الأيام استطاعا ان ينالا حريتهما وتمكنا من ايجاد عمل لهما مع الأتراك الذين كانوا حينئذ يحاولون جهدهم التعرف الى طريق الحجيج واعادة اصلاح القلعة . ولربما كان ذلك في الوقت الذي زار فيه هوبر المنطقة ، اذ انه قال في كتاباته ان قلعة تبوك وقلعة الأخضر كانتا محتلتين من قبل « محمد آغا » و « حسن آغا » على التوالي .

وبعد وفاة ادريس ، ترك مرزوق خدمة الأتراك على الأغلب ولما كان زعل ما يزال صغيراً في ذلك الوقت ، فانه لا يستطيع ان يتذكر تلك المرحلة ، كما انه لا يتذكر فترة الحرب العالمية الاولى ولا الفترة التي تلتها عندما اصبحت المنطقة تحت ادارة الشريف .

هذا وقد بدأت مرحلة جديدة في حياة مرزوق باحتلال الوهابيين المنطقة، وهو في الثمانين من عمره آنذاك، أي انـه ليس كبيراً جداً بحيث يقعده الكبر عن العمل وكان أهم ما يَشغله ان يعدّ ابنه للحياة التي تنتظره .

ولقد كان زعل في الثلاثين من عمره عندما قابلته لأول مرة ، فوجدت انه على حظ لا بأس به من العلم ... كان ذكياً وطموحاً يستطيع القراءة والكتابة بسهولة . وهكذا سرعان ما اصبح عضواً نافعاً في حاشية الامير .

ومما لا شك فيه ، ان خالد السديري ومن قبله عبدالله السديري قد عهدا الى زعل بمهمة مراسلة القبائل أو زيارتها كمندوب عنهما وكنتيجة لعمله هذا ، فانه لم يكتسب معرفة عميقة بشؤون القبائل فحسب ، بل وبجغرافية المناطق الشمالية في شبه الجزيرة العربية أيضـاً . وقد استفدت أنا فائدة جـلّى من هذه المعرفة . فقد كان أحسن وأفهم من أي دليل محلي رافقته في هذه المنطقة ، علاوة على انه من المتحمسين للبحث عن النقوش وغيرها من الآثار القديمة . وقد ظل يراسلني حتى بعد ان انتهت مهمتي هنـاك بسنوات عديدة ، وينقل الي في رسائله آخر المعلومات عن النقوش والآثار التي يجدها بنفسه .

ولما قررت القيام ببعثة اخرى الى « مدين » في شتاء سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ، ابرقت الى خالد السديري طالباً منه السماح لزعل بالانضمام الي اثنـاء توجهي الى « ضُبَه » . وهكذا غدا « زعل » دليلي في هذه الرحلة من تبوك حتى جده ، وكان رفيقي فيلسوفاً وصديقاً بالاضافة الى انه دليل ممتاز . ولقد علمت منه انه تزوج من فتاة من تبوك انجبت له ولدين كان أكبرهما « سليم » قد دخل مدرسة المدينة . وأعتقد انه قد انجب ابنة بالاضافة الى الولدين .

هذا وقد اقدم الأتراك عند مباشرتهم في بناء محطة السكة الحديدية على ازالة البيوت التي كانت منتشرة في مكان المحطة الحـالي وممتدة الى الشرق من القلعة . وذلك من أجـــل انشاء سوق مرتب ، وتخطيط قرية « الجديدة » على الطراز

الحديث بغية توفير المساكن للمواطنين الراغبين في الاقامة بمدينة تبوك. وكذلك أنشأ الأتراك مسجداً في تلك النقطة التي يقال ان النبي نفسه قد صلى فيها أثناء حملاته المشهورة . وهذا المسجد مبني من حجارة صلدة مشذبة . أما مدخله فقدوجدته عريضاً ونظيفاً ، كما انــه طلق الهواء للغــاية . وهنالك لوحــة على بوابته الرئيسية نقش عليها باللغة التركية ما يُفهم منــه ان المسجد قد بني في سنة ١٣٢٥ للهجرة (١٩٠٧ - ١٩٠٨ م) .

وتحتل محطة السكة الحديدية ذات النظام الرائع مساحة نصف ميل تنتشر فيه بناياتها في خط مستقيم وعلى أرض منبسطة صحراوية . وهي محطة حديثة التصميم أشرف على بنائهــا المهندس الالمــاني المعروف « ميسنر باشا » . ويبلغ عرض الخط الحديدي حوالي المتر او أكثر ، أما « العوارض » التي تمسك الخط بالأرض فجميعها من الصلب ، ولعل ذلك يعود الى الرغبــة في تفادي سرقات البدو لهذه « العوارض » فيما لو كانت خشبية يمكنهم استعمالهــا في وقودهم .

ومنذ ان دمر « لورنس » وقواته هذا الخط في أثناء الحرب الكونية الأولى ، قام الاعراب بانتزاع جميع الخشب الذي استعمل في بنايات محطــة السكة الحديدية وذلك للاستفادة منه في اغراضهم الخاصة . وقد أعيــد اصلاح بعض هذه البنايات في السنوات الأخيرة . هكذا وجدته أثناء زيارتي هذه . لقد أعيد إصلاحه واصبح يستخدم كثكنات لقوات الجيش والبوليس المحلي ، الذين بنى المتزوجون منهم أكواخاً لهم ولعائلاتهم قرب المحطة الى الجهة الشرقية من الخط.

وقد استخدمت إحدى البنايات كمركز للاسلكي ، وحجرات لسكن بعض الموظفين فيه . أما خزان الماء الذي كان يستخدم (في يوم من الايام) لتزويــد القاطرات بالماء ، فقد كان جافاً . إذ انه لم تعد هناك أية قاطرات تحتاج الى ماء ، ولا الى أية اصلاحات في الورشة المشيدة في أقصى جنوب المحطة . وبالقرب من هذه الورشة يوجد أبرز ما في المحطة ، وهو عبارة عن نفق أرضي ، لعله كان

يستخدم فيما مضى كمخزن للذخيرة وان كان (زعل) قد أكد لي انه استُخدم في عهد الأتراك كسجن لأخطر أنواع المجرمين والموقوفين بتهمة العمل على عرقلة بناء الخط الحديدي . ويعرف البدو النفق باسم « القبو ». وكان الملك حسين يستعمله لسجن الأشخاص الذين لم يكونوا يروقون له . وهناك كانت الأفاعي والعقارب والجرذان التي تسرح في « القبو » تزيد من بشاعة الغرض الذي انشىء من أجله، ولا سيما اذا علمنا ان المساكين كانوا يلقون فيه وهم مقيدون بالسلاسل الحديدية الثقيلة ، كاجراء احتياطي لمنع وقوع معجزة تمكنهم من الفرار . وقد وجدت قبو تبوك هذا مهجوراً الا من الرمال التي احتلته فامتلأ بها .

وفي الطرف الجنوبي لمحطة السكة الحديدية فرع للخط يقود عربات الحجاج الى « المحجر الصحي » . وكان هذا في يوم من الايام ، محاطـاً باسلاك شائكة ومزوداً بالخيام التي كانت تُضرب في خطوط متوازية ، بينها شوارع تقطعها الى عدة اتجاهات . أما اليوم فقد رأيت المحجر الصحي خاليـاً إلا من الأسلاك الشائكة ، ومن بعض سيئي الحظ الذين أوقعهم سوء طالعهم في يـد السلطات اثر ارتكابهم جرماً من الجرائم المختلفة المعروفة في المنطقة . وكان من المفروض على هؤلاء ان يمكثوا في هذا السجن الموحش عدداً من الايام ، تقـل او تكثر حسب نوع الجرم الذي يرتكبه كل منهم ، قبل ان يسمح لأي منهم بالعودة الى العالم الذي جيء به منه .

أما المرضى والذين هم في حاجة الى العناية الطبية ، فقد كانوا يحشرون في القلعة الكبيرة الواقعة في الطرف الغربي من المحجر الصحي ، تلك القلعـة التي يطلقون عليها اسم « مستشفى » . وهي تستعمل بالاضافـة لذلـك كمقر لموظفي الصحة ، ولتقديم العلاجات للحجاج اذا ما احتاجوا اليها ، والمعالجـة الطبية اذا تعرض أحدهم لمرض من الامراض

وقد تحولت هذه القلعة فيما بعد الى مركز للادارة المحلية بانتظار انتهاء العمل في دار الحكومة الجديدة . والبناية قديمة الطراز لا تتوفر فيها اسباب الراحة

ولكنها تفي بالغرض الذي تستخدم من أجله .

والى الجنوب الشرقي من المستشفى ، وعلى بعد ليس بالكثير عنه ، توجد مجموعة صغيرة من الصخور تدعى « الحُدَيبة » و « الحُدَيبة الصغيرة » . وقد استُخدمت هذه الصخور في بناء محطة السكة الحديدية وغيرها من البيوت التي بناها الاتراك في تبوك .

ودلتني النقوش العربية الموجودة على تلك الصخور على ان الحجـــاج، الذين كانوا يساقون الى الحجر الصحي ، كانوا ينـــالون اذناً بمغادرة الحجر حتى تلك الصخور ، وان كنت لم أجد في تلك النقوش أية قيمة أثرية . ومهما يكن مـن أمر فان المرء يستطيع من فوق هـــذه الصخور ان يحظى بمنظر ممتع المنطقة المحيطة بها .

وعلى مقربة من المجموعة الكبيرة مـــن تلك الصخور ، وجدت بئراً أنشأ الأتراك عليها مضخة آلية لنضح الماء ، وتوفيره للقوات التركيـــة زمن الحرب الكونية الأولى . تلك القوات التي كانت تتمركز في المرتفعات القريبة من هذه المنطقة . وقد علمت ان هذه المضخة تستعمل الآن من قبل صديقي « عبد الله » لارواء حقل قمح قريب .

وعلى مقربة من ذلك الحقل ، كان اثنان من حرس الأمير ، يبدو انهما فضّلا هواء الصحراء النقي على الجو الخانق في القرية ، فضربا خيمتهما هناك قرب الماء . وكان الرجلان من قبيلة « مرّة » بالربع الخالي ، التحقا بخدمة عائلة السديري ومن ثم تبعا « خالداً » الى أقصى شمال الجزيرة العربية .

ويبلغ طول مجموعة الصخور الكبيرة التي تعرف باسم « الحديبـه » حوالي خمسمائة ياردة ، تمتـــد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، وبذا تهيء المرء نقطة ممتازة يدرس منها المنطقة الواقعة خارج تبوك والمناطق المجاورة لها .

والى اليسار من الواحات يمتد خط متصل من الاراضي الزراعية ، كل

ارض منها تعتمد على البئر الخاصة الموجودة بها .

أما ضاحية السكن الجديدةالتي تعرف باسم « الخالدية » ، نسبة الى مؤسسها الأمير الحالي « خالد السديري » ، فتقع الى الشمال الغربي . وفي هذه الضاحية تقع منطقة مشجرة أشبه ما تكون بالحديقة . ويقع « بستان حرب » الى يسارها . ويسيل الى اليمين واليسار نبع « عين السبعة » والارض الزراعية المعروفة باسم « أرض عين السبعة » .

ويقع جبل « رُحَيّل » خلف هذه الأرض الى الجهة اليمنى . وبعد هذا الجبل يوجد نبع « عين كُرَيّم » ، وبقربه مركز للبوليس . اما الواحة الكبرى « عين ريّس » فإلى يسار جبل « خَضْمه » . وأخيراً نجد الى الجنوب مجموعة صخور مبعثرة يطلق عليها اسم « جَرثومه » .

وتسير سلسلة جبال « الغوانم » الطويلة على امتداد الضفة الشرقية لوادي تبوك ، ثم تتصل بجبال « شارورا » التي تتجه جنوباً . وكنت أستطيع ان ارى من فوق تلك الصخور سلسلة من التلال تقع الى الجهة الغربية وتمتد حتى تقترب من مدينة تبوك . وبين هذه التلال تقع الطريق الوحيدة التي تستطيع الآليات عبورها الى « حِصما » في الطريق الى ممر « خَريطة » ومنها الى البحر عند « ضُبَه » .

وقد امضيت بعد ظهر يوم كامل في زيارة الينابيع والأراضي الزراعية المحيطة بها . وابتعدت في زيارتي الى اقصى مدى استطعته حتى بلغت « جرثومه » .

ولعل من الانصاف القول بأن هذه المنطقة قد شهدت أياماً خيراً مما تشهده في الأوقات الراهنة ، بالنظر لما يبدو عليها من امارات الأسى والوحشة . فقد رأيت هناك شجرة نخيل واحدة تبدو عليها الكآبة لقلة الاعتناء ، وحقلاً صغيراً مزروعاً بالحبوب يحيط به جدار واطيء ، وهو يسقى من نبع صغير تتحلب

مياهه القليلة من أعالي جبل صغير ثم تسيل عبر قنوات ضيقة تتشعب جنوباً وشمالاً وشرقاً حتى تصل الى أوطأ أرض زراعية في تلك المنطقة .

وبالقرب من هذه المنطقة وجدت بئراً بها مياه قليلة لا يزيد ارتفاعها عن قامتين . ولعلها تتلقى ماءها من الينابيع السالفة الذكر .

ويروي السكان المحليون نقلاً عن آبائهم ، ان هذه المنطقة ، وقناة الوادي الواقعة باتجاه الغرب ليمين التلال ، — وهي منطقة مشهورة بما تنتجه من التين وغير ذلك من الثمار — هي أول بقعة نزلتها قبيلة « الكعابنة » قبل ان يصل المهاجرون الى تبوك ، وينشئوا المدينة ذاتها .

ومن المؤكد ان « جرثومه » لم تتقدم منذ زمن طويل . وكان عدد سكانها عندما زرتها لا يتجاوز عدد افراد عائلة واحدة، يعيشون في كوخ صغير يتيم . غير انهم فخورون بما يملكون فخرهم باستقلالهم .

اما مالك جرثومه الذي يقوم بيده بما تتطلبه ارضه من أعمال فيدعى « بنيى ابو طربوش» من قبيلة « بني عطية » وقد اعتذر عن دعوتنا لتناول القهوة في كوخه لأنه لا قهوة لديه كما قبل المبلغ البسيط الذي قدمته له ، ولكن باباء الرجل الفقير الذي يشعر بان وراءه أفواه عائلة يجب الاهتمام بأمرها على كل حال .

ولم أسأله - بطبيعة الحال — أي تفسير عن اسمه الغريب غير المألوف الذي يعني « ولداً صغيراً يرتدي الطربوش » . ولا يتعدى ما يملكه هذا الشخص جزءاً من قرية « جرثومة » الأصلية . أما بقية المنطقة فقد رأيتها أرضاً بوراً

هذا ويتقطّر نبع ثان من قمة صخرية عالية قرب من مجموعة من أشجار الأثل ، التي تنفذ جذورها الى باطن الارض . وقد وجدت بجانب هذا النبع عيناً أخرى ، غير انها كانت جافة تملأ فوهتها الأتربة والحجارة .

وهنالك نبع آخر على بعد بضع مئات من الياردات ، لازالت تتدفق منه المياه ولكنه لم يكن مستعملاً . ولقد وجدت بين النبعين الأخيرين بقايا بيوت طينية ، قيل لي انها كل ما تبقى من اول قرية بناها « الكعابنة » .

والى الشرق والجنوب الشرقي من السهـــل ، تقع تلتان صغيرتان تعرفان باسم « طُوَيل التركمان » و « طُوَيل النبي » . ومن المعتقـد بان الأخيـرة هي المكان الذي خيم فيه النبي أثناء زحفه على تبوك . وقد ساءني انني لم أستطع ان أجـد تفسيراً لاسم التلة الأولى .

ويقع « رُجم شوَهر » بالقرب من المكان الذي وصلنـا اليه ، على امتـداد منطقة التلال . وسأتحدث عن هذا الرجم بتفصيل أكثر فيما يلي .

وعندما عدنا باتجاه الشمال الغربي ، توقفنـــا عند النبع الأول الذي يدعى « عين كُـرَيّم » ، لنفحص مصدره الذي يقع في قمة صخرة يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً . وتنحدر المياه من أعلى الصخرة عبر قناة منحوتة في الصخور ، حتى تصب في حفرة تتجمع فيها المياه على ارتفاع أربع او خمس قامات غـــير ان النبع كان جافاً عندما زرناه .

ورأيت ان المساحة القليلة التي كان يرويها فيما مضى – لكونها عند سفح السكة – لا ينبت فيها شيء الآن غير أشجار نخيل هزيلة تذكّر المرء بالأيام الخوالي ، أي عندما كانت مياه النبع تتدفق فتبعث الحيـــاة في المنطقة . ووجدت ان فم الحفرة قد سدتـه الرمال التي ذرتها الرياح . بيـنما كانت القناة المؤدية لهذه الحفرة مغطاة بصفائح معدنية ، لعلها مسروقـة من الخط الحديدي نفسه . ومن المؤكد ان هذه الصفائح قد وضعت في مكانها في السنوات الأخيرة ، غير انها لم تقم بالمهمة التي وضعت من أجلها ، لأن الرمال قد سدت منابع الماء ، فجفت العين . . .

وواصلنا المسير في الاتجاه ذاته ، حتى وصلنا الى بستان نخيل تدب فيه الحياة ،

ويقع بالقرب من « عين الريس » ، وهي الواحة الرئيسية التي تقـــع في القسم الجنوبي من تبوك . وتنبثق الميـاه من هذا النبع على علو عشرين قدمـاً ، ثم تنساب في بركة تبلغ مساحتها عشرين قدماً مربعـاً ، وقد سوّرت بجدار يبلغ ارتفاعه ١٢ قدماً ، مبني من الحجارة الصلدة .

ومن هذا الجدار تنساب الميـاه باتجاه شمالي شرقي نحو خزان يقع في طرف بستان يانع من النخيل . وهناك خزان آخر يستقبل الفائض من مياه الخزان الأول وان كان هذا الخزان الثاني يبدو غير مستعمل في الوقت الحاضر ، اذ انه كان مغطى بالحشائش والانقاض .

وخيّل إلي ان تدفق الماء من الخزان الأول كان قليلاً ، بالنظر لقلة الاصلاحات التي اجريت عليه حيث كانت اقسام من الجدار الذي يحيط به ، وأخرى مـن القنـاة الموصولة اليه في حالة من الخراب لا توصف . ويرجع هذا الخراب الى تغيُّب اصحاب الأرض من « بني عطية » وهي القبيلة البدوية المجاورة .

وتقع دائرة البوليس المسؤولة عن أمن المنطقة في نقطة لا تبعد كثيراً عـن «عين الريس» ، الى الشمال الشرقي من تبوك . وقد زرنا مركز البوليس لنتبادل الحديث مع الشرطي الذي كان آنئذٍ مكلفاً بالحراسة قبل ان نعود الى تبوك . ومن خلال حديثنا معه ، تبين لنا ان حياة رجل البوليس ، في مثل هذه المراكز النائية ، قلما يخالطهـا الفرح أو السعادة . غير ان مضيفي البسيط وصديقي في الوقت ذاته قد ألقى الضوء على المشاكل التي يعانيها افرادٌ مثل هؤلاء هناك .

وكانت دائرة البوليس ، والأكواخ الطينية ، والخيام البدوية التي تشكل مساكن الرجـال المتزوجين ، تحتل القسم الأمامي من بستان نخيل يقع بالقرب من النبع الثـاني ، ويطلق عليه اسم (عين كـُرَيّم) ، بينما تقع اكبر الواحات وتعرف باسم (الخضمه) على الطرف الآخر .

وبين مركز البوليس ومدينة تبوك تقع واحة ثالثة تحمل اسم (عين كريّم) أيضاً ، وتنبع مياهها من المرتفعات الواطئة التي تنطلق منها كل من (عين الرحيّل)

و (عين أبو سبع) التي تروي بستان (حرب) . والنبعان الأخيران يقعـان قرب منابع المياه خارج مدينة تبوك ، في مقابل الضاحية الجديدة المدينة، التي تعرف باسم (الخالدية) . ويملك الامير خالد السديري قسماً منها ورثه فيما يبدو ، عن (عيد) شيخ قبيلة بني عطية المذكورة .

وقد اتيحت لي الفرصة اكثر من مرة لزيارة الادغـال الصغيرة الواقعة في ضواحي المدينـة برفقة مضيفي (علي ثروة) ، فلاحظت ان الفرق الوحيد بين هذه المنطقة والمناطق المجاورة يعود الى قربها من مقر القيادة ، حيث يتاح لهـا رعاية اكثر من قِبل السلطات المسؤولة .

ومما لا شك فيه ان هذه المناطق المجـاورة لمدينة تبوك يمكن ان تنقلب الى مناطق خصبة ثرية بما تجود به من محصولات لو ان الحكومة أولتهـا قليلاً من الاهتمام ، بحيث تسترد سابق مجدها أيام النبطيين قبل ألفي سنة .

ومن المؤكد ان المنطقة الخصبة يمكن ان تمتـد ، حتى تصل الى منطقة (رُجم شوهار) الذي زرته في آخر يوم من أيام مقامي في تبوك ، وقبل ان استأنف رحلتي باتجاه الشمال .

ويقع هذا الرُجم على بعد اثني عشر ميلاً الى الجنوب الشرقي مـن تبوك ولكي يصل اليه المرء ، عليه ان يجتاز منطقة وعرة حتى يصل الى نقطة قريبة من جرثومه ، حيث يقطع القنـاة التابعة لشعب (العجّاجات) الذي يقع في طرف المنطقة التي تكثر فيها التلال الواقعة الى الغرب .

وقد رأيت في هذه النقطة اشارات واضحـة كانت تدل على ثراء المنطقـة وخصبها في الأيام السابقات . لقد رأيت حقولاً مهملة منذ زمن قديم وما زالت هذه الحقول تروى من الينابيع الموجودة في المنطقة ومن مياه السيول التي تنحدر الى السهول من اعالي المرتفعات المشرفة عليها من الجهة اليمنى . وكنت أرى هنا وهناك عدداً من اشجار النخيل ما زال باسقاً يؤتي اكله ، الأمر الذي يدل

على ان الماء ليس بعيداً عن هذه الاشجار ، وليس على عمق كبير من سطح الأرض. غير انني وجماعتي لم نجد أثراً للقوم الذين كانوا يفلحون هذه المنطقة .

وظللنا عاجزين عن ان نجد مثل هذا الأثر حتى وصلنا الى (رُجم شوهار) ، وهناك وجدنا ، على أقل تقدير ، قبور الناس الذين كانوا يقطنون هذه الربوع . وجدناها قد ظلت صامدة على مر الأيام، رغم جميع الفيضانات التي تعرضت لها المنطقة ، تلك الفيضانات التي كانت على ما يبدو ، المصدر الرئيسي الذي يعتمد عليه أولئك الناس في حياتهم هناك .

أما المناطق الواطئة التي تقع بين الصخور ، وهي المناطق التي بنيت فيهـــا القبور سالفة الذكر ، فقد شاهدنا فيها من الامارات ما يستدل منه على وجود حضارة قديمة فيها. ولعل هذه الامارات قد اندثرت على مر الزمن فبقيت القبور شاهدة على سابق وجود اناس في تلك المنطقة ، التي خلت في وقتنـــا هذا من كل أثر للحياة .

ولما زرت هذه المنطقة ، وجدت الكثير من البنايات الصغيرة التي لا تعدو كونها أضرحة مبنية من الحجارة . فذكرتني هذه الأضرحة – الى حد كبير – بالأضرحة السبأية التي كنت قد شاهدتهـا في (الرواقا) و (المهيـاش) قرب الحدود اليمانية .

وكانت خرائب البناية الأولى التي فحصتهـا عبارة عن بنـاء مساحته ٢/٧١ قدماً مربعاً ، وارتفاعـــه ستة اقدام . وكان لها سقف جيد الصنع وان كان متهدماً في بعض أجزائه . وكانت هذه البنـاية مقسومة الى نصفين ، يشكل كل قسم منها غرفة خاصة ويظهر جلياً ان كل غرفة قد صممت لتضم جدثين ربمـا كانا لرجل وزوجته .

وقد وجدت قسماً من جدران البناية الجنوبيـة مهدماً . ولا شك في ان هذا الهدم قد تم على أيدي اللصوص الذين كانوا على مـا يبدو مشغوفين بالبحث عن الكنوز . وتقوم هناك بناية اخرى بذات الحجم والشكل ، ولكنها مهدمة

أيضاً باستثناء جزء من جدرانها في أحد الزوايا . وكانت هناك بناية اخرى تبلغ مساحتها تسعة أقدام مربعة ، وارتفاعها سته اقدام ، ولكنها كانت على سعتها منقسمة أيضاً الى قسمين فقط .

وعلى الرغم من ان هذه البناية واقعة في أعلى المرتفع إلا انها كانت مقسومة بدورها الى قسمين أيضاً ، وقد استعمل كل نصف منها كمدفن يبلغ عرضه ٢/١ ٢ قدماً ، وطوله يبلغ عشرة اقدام وارتفاعه اربعة اقدام . وكان من الظاهر ان هذين البنائين قد فتحا من الناحية الغربية ويجوز انهما استعملا في المدة الأخيرة ، كنقطتين للمراقبة .

ويمكن القول بان عدد الأضرحة في تلك المنطقة يتراوح بين عشرة واثني عشر ضريحاً . وقد وجدت في الطرف الشرقي كثيراً من البنايات الأصغر حجماً . ومن بين هذه البنايات ، بيت تبلغ مساحته ٧ أقدام ونصف ، أما ارتفاعه فيبلغ ثمانية أقدام . ووجدت ان جدارين من جدرانه الأربعة كانا قائمين ، بينما كان الجداران الباقيان قد تهدما فكشفا عن قبرين يبلغ عرض الواحد منهما ٢,٥ قدماً وطوله ستة أقدام .

وكانت هنالك بناية أخرى تبلغ مساحتها ١٠ × ٧,٥ قدماً ، أما ارتفاعها فلا يزيد على ٨ أقدام . وهي مقسومة الى نصفين عن طريق جدار يفصلها من الوسط . وثمة بناية أخرى مقسمة الى ثلاثة أقسام يفصل بين كل قسم منها جدار طويل . أما الحجم الخارجي لهذه البناية فيبلغ ١٢,٥ قدماً طولاً و ٦ أقدام عرضاً و ٦ أقدام ارتفاعاً .

وقد لاحظت ان جميع هذه الأبنية كانت مبنية بامتداد شرقي الى غربي ، وان لم يكن هناك ما يثبت ان هنالك تصميماً فيما يتعلق ببناء هذه الأضرحة في الوضع السالف الذكر . ويغلب على الظن ان بناءها قد جاء مصادفة املتها الظروف وطبيعة أرض المنطقة التي كان الناس يعيشون فيها .

وقد وجدت بناية أخرى غير طبيعية الشكل تبين لي انها تضم جدثاً

واحداً . ويبلغ طولها عشرة أقدام وعرضها خمسة أقدام ، أما ارتفاعهـــا فلا ينقص عن ثمانية ، وكان القسم الشرقي منها متهدماً وثمـة بناية أخرى تمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي تبلغ مساحتها ٧,٥ قدماً ، وجدتهـا مقسمة الى قسمين كانا في حالة يرثى لها .

وكانت آخر بناية قمت بفحصها فحصاً دقيقاً تمتـــد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، وتتألف من حجره واحدة تبلغ مساحتها ١٠×٥ أقدام ، أما ارتفاعها فيبلغ ٧ أقدام .

والغريب حقاً انني لم أجد في كل أنحـــاء هذه المنطقة أي شيء من الآثار القديمة . حتى انني لم أعثر في تلك الأضرحة على أية عظام او جماجم او نقوش ، حتى ولا أي أثر يمكن ان يدلني على القوم الذين أُودعوا في هذه الأضرحة !!

وكان شارلز هوبر قد زار المنطقة قبل سنة واحدة من مولدي ، ولم يجـــد غير كِسَر من عظام ملقاة بين آثار عديدة للضباع . وقـــد عزا هوبر ضياع الأجداث التي بنيت هذه الأضرحة من أجلها الى تلك الضباع . غير ان ذلـك يجب ان يكون قد تم منذ زمن بعيد جداً .

ومن المؤكد ان عزوه القبورَ الى زمن النبطيين صحيح مائة بالمائة ، أي انها ترجع الى ألفي سنة او الى الوقت الذي أصبح فيه تاريخ مدينة تبوك معروفاً .

هذا وقد قام خالد السديري ببعض الجهود لاعادة اصلاح الآثار القديمـة في المنطقة وترميم ما يمكن منها ، ولكن ذلك لم يكن كافياً على كل حال . ولعل تعيينه مؤخراً في منصب وزير الزراعة في حكومة المملكة العربية السعودية ، يؤدي الى العناية، أكثر فأكثر ، بالمنطقة التي ظل يحكمها مدة طويلة .

٧

رَوافا والحرّة

تعرف المنطقة الواقعة ما بين وادي تبوك في الغرب ، وتمتد حتى « العقبة » و « الرم » ، باسم الـ « حِصما » . وهي منطقة شاسعة تمتلىء بالصخور والبقاع الرملية ، وتفصل الجبال الغرانيتية في (مدين) بالشمال ، عن الجبال البركانية السوداء في صحراء (حرّات الرها) و (حرات العويرض) التي تمتد بين طرفها الجنوبي وبين مشارف (العلا) .

وتدعى المنطقة الشرقية من هذه الطريق ، حيث تمتد نحو داخل أراضي تبوك الرملية (اللحّا) وهي تشمل الشريط الرفيع من الاراضي الصخرية . وتشكل منطقة (رجم ثوهار) و (جرثومة) وتبوك مع منطقة ينابيعها جزءاً من المنطقة ، التي سيرد ذكر القسم الشمالي منها في حينه .

وكان هدفي في الوقت الحاضر ان استكشف القسم الجنوبي من (الحصما) على طول امتداد المنطقة الصخرية ، بما في ذلك منطقة (روافا) ذاتها ، على

اعتبار ان هذه المنطقة هي آخر نقطة أود الوصول اليها . ويمكنني القول انه من بين جميع الذين سبقوني الى زيارة المنطقة كان (لويس موسيل) هو الوحيد الذي زارها ، حيث اكتشف المعبد النبطي - الروماني ونقوشه الشهيرة . وكان « دوتي » قد سمع بهذا المعبد أثناء تتبعه الطويل لسير الحجاج عبر وادي تبوك ، كما ان « بورتون » وصل الى بعد عشرة او خمسة عشر ميلاً عنه ، عندما وصل الى ممر « خُريطة » ، وأراه أفراد قبيلة « بني عطية » قطعاً من الحجارة المنقوشة التي كانوا قد جمعوها ليجعلوا منها اشارات تدل على الطرق التي يجب ان تتبعها الجمال . ولكنه لم يستطع ان يزور المنطقة التي قيل ان هذه الحجارة وجدت فيها بسبب تعصب الاعراب ورفضهم السماح لأي غريب ان يدخل مناطقهم .

والجدير بالذكر ان « دوتي » و « بورتون » كانا في اتجاهين متعاكسين من صحراء « الحسما » في وقت واحد من سنة ١٨٧٧ ، دون ان يدرك أي منهما انه على بعد قليل من الآخر .

هذا وقد جمع هوبر كمية من النقوش من المنطقة المتاخمة لمدينه تبوك قبل شهر واحد من مصرعه على يد مرافقه العربي ، ولكنه لحسن الحظ كان قادراً على ابداع جميع تسجيلاته في (جده) ، وذلك قبل ان يبدأ رحلته الأخيرة ليزور الجزء الشهير من تيماء .

وبعد ربع قرن من تاريخ هذه الرحلة ، قام جاسن وسافيغناك بتوسيع المنطقة التي زارها هوبر . وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه غروثرز يبحث عن الابل ، وكان فيه موسيل يتابع استكشافاته . وانه لمن المدهش حقاً ان أحداً من هؤلاء لم يكن يعلم بوجود الآخر في المنطقة سنة ١٩١٠ ، رغم ان كلا منهم قد استخدم السكة الحديدية .

ومن بين جميع المستكشفين الذين زاروا شمالي شبه الجزيرة العربية ، كان موسيل هو الوحيد الذي استطاع ان يقوم باستكشاف القسم الجنوبي من الحسما

ولكنه قابل سوء الطالع وهو مشرف على نهاية رحلته . فقد كان ضيفاً في أحد المضارب العربية ، عندما وجـد نفسه عرضة لهجوم من أفراد قبيلة (بني عطية) .

وقد لعبت نساء هذه القبيلة الدور الرئيسي في مهاجمته شخصياً والاستيلاء على الأشياء القليلة التي يحملها معه ، وابادة السجلات التي كان يدوّنها .

وأكثر الامور مشقة على نفس المستكشف في شبه الجزيرة العربية هو ان يفقد ما سجله أثناء تجواله الشاق في مجاهل البلاد . ولما كانت لي خبرة في شؤون الاستكشاف في شبه الجزيرة العربية ، فقد كنت ابلغ مرافقيّ ، بانه لو حدث لي أي حادث سوء ، فانهم أحرار في التصرف بالمال الذي احمله . أما الكتب والاوراق التي معي ، فلعلها تدر عليهم أضعاف اضعاف ما يؤملون ، لو انهم اوصلوها الى أقرب قنصلية بريطانية ، او الى أية مؤسسة بريطانية في البلاد .

ولعلي كنت أبالغ في تقدير قيمة ما كنت أسجله ، ولكن اذا ما قُدر للمرء ان يموت ، فانه يرضيه ان يتأكد من ان نتيجة أعماله ، والمشاق التي تعرض لها ، قد وصلت الى الجهة التي يمكن ان تستفيد منها .

وفي السادس عشر من شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٥١ ، وهو اليوم الذي تلا وصولي الى تبوك ، قمت باول توغل في المنطقة الجنوبية من الحسما. وقد دخلنا من النقطة التي يوجد فيها مركز بوليس (عين كُريم) الى وادي (الخور) او (خور الريس) . ومن أعلى هذا الوادي عبرنا الى السهل الواسع المعروف باسم (البقّار) والوادي المعروف بالاسم ذاته . ذلك الوادي الذي يجمع مختلف مجاري المياه القريبة ، وهي ستة تنبع من (شعيبات) في المنطقة، ثم يحمل مياهها الى وادي تبوك .

وبعد ان سرنا بمحاذاة ضفة ذلك الوادي اليمنى ، وصلنا الى قلعة صغيرة

تدعى (قصَير تمرا) . وكان هوبر قد زار هذه القلعة من قبل . وكذلك فعل كل من جاسن وسافيغناك . ولما كان هؤلاء قد زاروا القلعة فقد اكتفيت أنا بنسخ النقوش الثمودية التي كانت موجودة على جانب صخرة طويلة تقع فوق المدخل الشرقي ، على ارتفاع ثلاثة أقدام عن سطح الارض

ويسجل هذا النقش اسمي شخصين ، ربما كانا هما اللذان بنيا هذه القلعة . وتبلغ مساحة القلعة ١٥ قدماً مربعاً . وهي مقسمة بشكل غير منتظم الى اثني عشر قسماً ، تفصل بينها جدران من الحجارة غير المشذبة . ومع انها قد بنيت دون (مؤونة) ، فقد ظلت قائمة الى الوقت الذي زرت المنطقة فيه .

ويبلغ سمك الجدران في هذه القلعة ٢,٥ قدماً . وتدعم السقف أعمدة وضعت في منتصف البناء . وقد نحتت من حجارة تبلغ استدارتها ٢,٥ قدماً .

وأمام هذه البناية ، توجد مساحة من الارض مسطحة يبلغ طولها حوالي ٢٠٠ ياردة أما عرضها فلا يزيد على عشرين ياردة ، وتوجد فيها رقعة من الأرض على شكل زاوية حادة محاطة بسور من الصخور

وفي المنحدرات المجاورة لهذا الموقع ، وجدت كثيراً من الدوائر الصخرية ، ربما قد تم وضعها بهذا الشكل لتدل على وجود مضارب للبدو في تلك المنطقة .

ومما لا شك فيه ان « قصير تمرا » كان يستخدم في الأيام الخوالي مركزاً للمراقبة في الخط الدفاعي الذي كان معداً لحماية مدينة تبوك . وقد وجدت ان النقوش الأساسية لا تزال في موضعها . ومن هذه النقوش يمكن ان يستدل على تاريخ بناء «قصير تمرا» . ذلك التاريخ الذي يرجع الى ما قبل ألفي سنة على أقل تقدير .

ويبدو ان هذا « القصير » قد بني للاشراف على مجموعة « الشميبات » التي تجتمع عند الناحية الغربية بوادي « بقّار » الواسع . اما هذه الشميبات فهي

من اليسار الى اليمين : شعب « سِلتيّــه » وشعب « عيرين » و « حدارة » و « ثُميّم » و « القنـــاة » . ويحد الطرف الاقصى من وادي « بقّار » سلسلة هضاب « خُلَيْل » . وتحت هذه الهضاب يوجد وادي يحمل الاسم ذاته ، وهو أحد روافد وادي البقار الذي يقع الى أسفل .

وهكذا فان قصير (تمرا) يشرف عـلى مركز ستراتيجي مهم وان كانت حامية الموقع لم تكن في يوم من الايام كبيرة العدد .

ومن هذه النقطة توجهنا صوب الجنوب الشرقي حتى وادي (سلتيه) ، ومنه الى تلة (ام جمايب) التي تواجـه هضبة (عيرين) . وقد تسلقنا هذه الهضبة دونما صعوبة مع انها هضبة وعرة . ومــا ان انتهينا من ذلك حتى وصلنـــا الى سفح هضبـــة أعلى يمتد من تحتها طريق الجمال يأتي من جرثومه والهضاب الواطئة في الشرق .

ولم نجد في هذه المنطقة أية نقوش ، كما اننا لم نجد في المنطقة المجـــاورة أية مناظر تستحق النظر ، فقد كانت سلسلة جبال عيرين تمتد أمامنا ، وأمامها في الطرف الثاني كانت قنــاة سلتيه وقد لاحظت أن هذه القنـــاة قد شهدت فيضاناً في المدة الأخيرة .

ولاحظت كذلك ان المنطقة قد شهدت غزوتين من غزوات الجراد . وقد وقعت هاتان الغزوتان في الفترة الواقعة ما بين الفيضان الأول والفيضان الثاني .

ولما عدنا الى السيــارة لنتناول طعام الغداء ، قررت ان أتوجه نحو وادي سلتيه بعــد ان نمر بمنطقة عيرين ، ومنهــا الى الصخرة المعروفة في تلك المنطقة والمعروفة باسم (مِقيل عيرين) .

وفي هذه النقطة والمكان الذي تقع فيه الصخور المرتفعة ، وجدنا عدداً من النقوش الثمودية والنبطية . وكذلك فقد عثرنا على عدد مـن النقوش في مبنى (أبو زيد) المجاور لمنطقة الصخور. ويعرف هذا الموقع أيضاً باسم(مبنى البيت) .

ويبلغ طول هذه المنطقة حوالي ميل ، أما عرضها فحوالي النصف ميل . وهنا وصلنا الى الطرف الشرقي من هضاب عيرين التي يفصلها من الوسط شعبٌ يحمل الاسم ذاته ، يمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الغربي .

والى الجنوب من الموقـــع الذي كنا فيه على بعد قليل تقع المنطقـــة البركانية . وقد واصلنا الصعود بمحاذاة قناة سلتيـــه مارين عبر أرض صخرية حتى وصلنا الى طريق تدعى (مقيل أبو زيد) ، وتقع تحت هضبـــة (الحرة الكبيرة) .

وتحيط هـــذه الطريق سلسلة من الصخور كانت قـــد تساقطت من المرتفعات المجاورة التي تعرف باسم (شريف المضرا) بينما كانت فوقنا مرتفعات (الحرة ، التي تعرف باسم (عَطـَنا) و (دَبَاشيا) .

هذا ، وقد وصلنا الى نقطة مرتبطة بخرافة يتناقلها القوم هناك ولها علاقة باسطورة هجرة (بني هلال) من موطنهم الاصلي في جنوب شبه الجزيرة العربية الى تونس ومراكش . أما متى تمت هذه الهجرة فنحن لا نعلم . والنقوش الثمودية التي خلفوها وراءهم لا تلقي أي ضوء على أعمال هذه القبيلة .

وتدلنا الاسماء المنقوشة التي رأيناها على ان جموع قبيلة بني هلال قد وصلت الى هذه النقطة ظهراً ، فضربت خيامهـــا لتقضي الليل في موقع يعرف باسم (مبنى البيت) . وهو موقع مررنا به اثناء عودتنا الى تبوك على الطريق ذاتها التي سلكناها في الصباح .

وقد امضينا اليوم التالي في بعثة استكشافية في المنطقة ذاتها وذلك لدراسة وادي (خليـــل) . فبعد ان مررنا بمركز البوليس ، وأشجـــار النخيل في منطقة (الريس) توقفنا عند منطقة صخرية تدعى (قَضا ريس) لاجراء مسح عـــام للمنطقة والمناطق المجاورة التى تقع الى الجنوب من تبوك . ومن هذه النقطة توجهنا الى قناة (الخور) ومنها الى قناة (معايسي) في الطرف الاقصى

مــن وادي (البقـّار) الذي عبرناه الى النقطة التي يلتقي فيهـا هذا الوادي بشعب (الحدارة) .

وقد وجدنا في طريقنا عدداً من الصخور المنتشرة ، عليها عدد من النقوش والصور لمختلف أنواع الحيوانات . وعندمـا دخلنا الى وادي ُخليل وصلنـا الى منطقة لا يمكن للسيارة ان تمر فيها . حيث كانت المنطقة بأسرها مغطاة بالميـاه وتنتشر فيها الصخور التي تجعل تشغيل السيارة فيها مستحيلاً .

وقد قررت ان نواصل السير سيراً على الاقدام حتى نصل الى النقطـة التي تصب فيها الجداول الموجودة في تلك المنطقة من الوادي الواسع ويعرف أحد هذه الجداول باسم (وادي قانا) . وعلى بعد من هذا الوادي يقع مرتفع يحمل الاسم ذاته . وقد سبقت الاشارة عليه باعتبـاره أول مكان استقرت فيه قبيلة (الكمابنة) . ولم ازر هذا المكان بالنظر لأن كلاً من (جوسيل) و (جاسن) و (سافيغناك) قد زاروه من قبل ووصفوه خير وصف ، كما ان الأخيرين نسخا جميع النقوش الموجودة فيه . وبدلاً من ذلك توجهت الى قناة (طِبْق) التي تمتد من الشمال الى الغرب نحو (الحرة) ومن ثم ترتفع باتجاه (وَطر) .

ويمتاز مدخل هذه القناة الذي يفضي الى وادي ُخليل بسلسلة من الصخور العالية ، وقد وجدت بينها بعض النقوش الثمودية .

هذا ويقع وادي (قانا) في المنطقة البركانية ، ويمتد من الجهة الجنوبية الشرقية حتى يدخل في وادي خليل ، ومن ثم يصعّد في مرتفع قريب . أمـا وادي خليل ذاته فيمضي عبر مضيق ضيق يمتد من الهضاب البركانية باتجـاه الغرب وينضم الى هذا الوادي شعب (ناتاشا) الذي يسير بمحاذاة وادي خليل حتى يتصل به قرب النقطة التي تركنا فيها السيارة .

أما مجموعة الشعاب الاخرى ، فتمضي باتجـاه شمالي شرقي ، حتى تنضم الى وادي « البقار » ، قبـل ان ينطلق هذا الوادي من التـلال الى منطقة وادي

تبوك ، حيث يبدأ في صب مياهه عندما تحدث الفيضانات في المنطقة الواقعة بالقرب من سكة الحديد ، ثم تنساب منها الى الارض السبخة التي كنت مزمعاً زيارتها عندما يحين وقتها .

وفي الوقت ذاته ، كنت اعتزم القيام برحلات استكشافية أجرأ في المنطقة الجنوبية الغربية حتى أقصى منطقة (الحصما) ، وذلك بعد ان امضيت الايام الاولى من زيارتي هذه في جولات حول منطقة تبوك . وكذلك فقد كنت مزمعاً زيارة معبد (روافا) . ولكن كان علي قبل ان أتوجه الى تلك المناطق ان اهيء الترتيبات الضرورية . كان علي ان اعد الترتيبات اللازمة لتأمين الفريق من الرجال الذين رافقوني حتى تلك اللحظة .

وقد بدا « علي ثروة » عظيم المنفعة بالنسبة اليّ عندما زوّدني بأدلاء جدد ومرافقين ، بينما لم يستقل محمد العريفي وزملاؤه وكان أحدهم قد بقي في تيماء مع الميكانيكي لاصلاح سيارة اللاندروفر .. لم يستقل هؤلاء من عملهم لأنهم غير راغبين في مرافقتي ، بل انهم تركوا العمل لأسباب تمكنت من اكتشافها فيما بعد فقد كانوا في غاية الشوق الى الرجوع لعائلاتهم في المدينة . وكان قرارهم هذا قد سهل الأمر عليّ ، اذ انني كنت راغباً في التخلص منهم .

وقد كان معنا من المؤن الشيء الكثير ، فقد عملت على ضمان توفير مؤونة كثيرة تكفي طوال عدة اشهر ، وكان ذلك استناداً الى تقديرات محمد العريفي نفسه ، وذلك قبل ان نتحرك من المدينة المنورة وقد تم الاتفاق على ان يرئس مرافقيّ الجدد شخص يدعى « زعل مرزوق » خلال ما تبقى من رحلتي في شبه الجزيرة العربية . وقد تركت اليه أمر توظيف العدد اللازم من الرجال من بين اتباع الأمير . وكذلك كان الحال بالنسبة للأدلاء .

وكان من المقرر ان يغادر العريفي ورجاله مدينة تبوك خلال غيبتنا في « روافا » للقيام ببعض الاستكشافات . ولما كان هؤلاء في حاجة الى المؤن ،

فقد ابلغت زعل بأن يتشاور مع العريفي بصدد احتياجاته من ذلك ، على ان يبقي لنا حصتنا من المؤن .

وهنا بدأت المهزلة . .

فقد بدأنا رحلتنا الاستكشافية في العشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) . وحين قررنا مغادرة تبوك الى « روافا » في التاسع عشر من شهر ينـاير (كانون الثاني) كنا قد امضينا شهراً كاملاً بالضبط . وكنا خلال هذا الشهر وأثنـاء زيارتنـا لكل من خيبر وتيماء وتبوك ضيوفاً على الأمراء المحليين بحكم التقاليد المرعية في البادية . ولذا فقد كنا في غير حاجة الى استهلاك الكثير من المؤن .

ويمكنني القول - على وجه التقدير - بأننا عشنـا مدة ثمانية عشر يوماً على حساب مضيفينا . وكنت اقدر بأننا سنصل الى « جدة » خلال ما يقارب الشهر الواحد . وفي هذه الاثناء سنحل كذلك ضيوفاً على الامراء في مختلف المناطق التي سنمر بها في طريقنا . وكنت اعرف ان المواد الغذائية التي خصصناهـا لمدة الأربعة اشهر اكثر بكثير مما اظننا سنحتاج . ولذا فقد ابلغت زعل بأن يزود العريفي ورجاله بسخاء وبكميات وافرة من المؤن تكفيهم خلال بضعة الأيام التي سيقطعون خلالها الطريق الى « المدينة » . غير ان زعل جاءني مساء اليوم ذاته لينقل اليّ الأخبار فيقول : « انه لم يبق شيء من المواد الغذائية » .

وهكذا وجدت اننـا خلال شهر واحد ، أو نصف شهر في الواقع ، قد استهلكنا المواد الغذائية التي قدرنا انها ستكفينا طيلة اربعة اشهر !!

وقد علمت ان العريفي وعصابته قد باعوا كل مخزوننـا من المؤن في اسواق خيبر وتيماء وتبوك . أما ما تبقى من هذه المخزونات فقد تسلمهـا زعل . وكان من حسن حظنا ، ان وجدنا بقية من المؤن لنتزود بها اثناء رحلتنـا الى « روافا » .

ولكنني عندما قابلت آخر رفاق السوء هؤلاء وجدت نفسي اقرر ضرورة

أبلاغ « علي ثروة » بالوضع .. وقد وجدت ان الأمر لم يدهشه كثيراً ! وقد تلقى « علي » هذا برقية من خالد السديري ، الذي كان آنذاك مع شقيقه عبدالعزيز في وادي سرحان عند الحدود الشمالية . وكان الامير يخبر علياً في برقيته ان يزوّدني بكل ما احتاج اليه من مخازن الحكومة .

ونهضت مبكراً في صباح اليوم التاسع عشر ، وأيقظت مرافقيّ وأعددت كل شيء للبدء في الرحلة . ولم اغادر غرفتي حتى كان كل شيء على غاية ما يرام .

وكنت اعتزم ان اقوم بزيارة وداع لقوم لم اكن احتمل ان اراهم مرة ثانية . وقد قمت بهذه الزيارة وقدمت الهدايا من اكياس النقود حسب العادة ، في الوقت الذي كان يجري فيه تحميل سيارة اللوري بمتاعنا .

وما ان عدت من زيارتي حتى فقدت كل أثر للسيارة ، بينما كان مرافقيّ يجلسون براحة تامة حول موقد النار يحتسون القهوة . ولم يهتم احد منهم لاحتجاجي على فقدان السيارة ، كأن الأمر لا يعنيهم بحال من الاحوال .. وكان لديّ الكثير من المشاكل التي يتحتم عليّ ان اهتم بها ، فتركت مرافقيّ وهم يتبادلون الهمسات المريبة التي لا اراني في حاجة الى القول انها لم تكن ودية ابداً ، وسرت عبر شوارع القرية باحثاً عن « السيد » والسيارة ، فلمحتها تعبر الشارع الرئيسي !

وسرعان ما وصلت متجراً رأيت السيارة واقفة امامه . ودخلت ذلك المتجر فوجدت « السيد » يساوم صاحبه على دفع مبلغ على الحساب من ثمن البضائع التي ادعى انه اشتراها من العصابة . وقد ابلغت صاحب المتجر بأنه يستطيع ان يعتبر كل شيء اشتراه من محتويات مخازني هدية شخصية له . الا ان السائق الذي شعر بالخجل ، كان عليه ان يأتي معي الى بيت الضيافة . وهناك لم اضيّع اي لحظة من الوقت فأمرت مرافقيّ بالصعود الى السيارة .

وفي الوقت ذاته قمت بمسح اخير المنطقة ، ابتداء من (المصلى) او (مصلّى

عيد » . وذلك كي اصحّح المعلومات التي كنت قد حصلت عليها من فوق سطح بيت الضيافة ، ذلك السطح الذي كانت تتكدس فوقه الأشياء المعدنية فتجعل من المسير عليّ ان احقق الاتجاهات بالضبط ، بالنظر لعدم تمكن البوصلة من العمل بدقة . وكنت مهتماً بصورة خاصة في تعيين موقع جبل « دِبَّاغ » الذي يرتفع فوق « تهـامة » وراء ممر « خُريطة » ، وقد استطعت ان احدد موقعه فعلاً ، فكان في المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية .

وبدأنا الرحلة برافقة زعل واثنين من رجال البوليس المحليين بزيهما الرسمي . وكان احد هذين الرجلين على قدر من المعرفة بالمنطقة ، يؤهله ليكون دليلاً لا بأس به . وبدأنا السير باتجاه جنوبي غربي ، فعبرنا بساتين النخيل في تبوك ، ثم السهل العظيم ، حيث قطعنا شعب « معانيسي » ووادي « بقار » لكي نصل الى طرف التلال القريبة من صخور « مُعيْقله » .

ومن هذه النقطة بدأنا نصعّد باتجـاه المنحدر الشرقي عابر مجرى ماء ضحل ، يصل الى قمة أول الصخور . ومن هنـــاك سرنا في طريق وادي « غُويْل » العريض ، وهو استمرار لوادي « عوينـد » بعد ان يخرج من منطقة التلال حيث يجري مع رافده الذي يعرف باسم شعب الـ « فُها » .

وعلى الرغم من ان طريقنا قد اعترضتها ستة مجاري مياه ، إلا ان السير لم يكن صعباً حتى اجتزنا قناة « غويّل » حيث وصلنا الى أول ممر « فُها » الذي يبلغ طوله حوالي نصف ميل ، أمـــا عرضه فلا يزيد على مائتي ياردة تنتشر فيها النباتات والحشائش البرية .

وعندما وصلنا الى « غويل » كنا قد ابتعدنا عن تبوك حوالي اثني عشر ميلاً دون ان نتعرض لأي حادث . غير اننا بعد مسيرة تسعة اميال اخرى وصلنا الى الممر ، حيث غرزت عجلات السيارة في الرمال . وقد خطر ببالي ان « السيد » الذي حرمته من الثروة التي كان يتوقعهـــا ، قد قاد السيارة متعمداً الى هذه المنطقة ، وهو يعرف ان الرمال فيها لا تساعد على السير فوقها ، فآثر ان يتوقف

على بعد قليل من تبوك . غير ان فحص المنطقة اوصلني الى نتيجة جعلتني أقتنع بأن المكان مناسب للتوقف بعض الوقت .

وتركت مرافقيَّ وهم يحاولون اخراج السيـارة من الرمال ، وتوجهت مع الدليل لنتسلق أعلى قمة في سلسلة جبـــال « فُها » التي كانت تقع الى يسارنا ، وذلك لاجراء مسح عــام للمنطقة . والحق ان الصعود الى القمة كان من الامور الشاقة ، خاصة وان القمة ترتفع ألف قدم عن الارض الصخرية . غير ان القمة مكنتني من القاء نظرة عامة على جميع المنطقة المحيطة بنا. وكان منظرها رائعاً بالفعل ، وان كنا لم نستطع ان نلمح بساتين النخيل في تبوك .

كانت ثمة ست قمم من سلسلة جبـال « عجّات » تبرز عند الافق وتمتد من الشمال الى الشمال الشرقي ، وعلى بعد باتجـــاه الشمال الغربي ترتفع سلسلة تلال « ابو الـبَريد » و « شَقيق » و « فِرعون » وهي مجموعة من التلال الصغيرة، إلا انها طويلة في امتدادهـــا تحاذي الطريق بين تبوك و « ضُبه » مارة عبر وادي « مدْين » .

وفي الوقت الذي تسير فيه معظم الطريق الرئيسيـــة مع خط السكة الحديدية باتجـــاه الشمال حتى تبتعد عن الخط بالقرب من خرائب « القُرَيَّة » حيث تتجه من هناك الى الطرف الشمالي من سلسلة جبـال « مدين » على طول امتداد وادي « الأبيض » ، فان بعض السائقين يفضلون الطريق الفرعية ، التي تأتي من أول ممر « فها » ، ثم تنحرف قليلاً الى ما تحت الممر ، حيث وجدنا طريقنا الى « رواقا » و « خريطة » . ومنها وصلنا الى الوادي العظيم الذي يعرف باسم « نقع بني مرّ » .

ومن هناك تمتد الطريق شمالاً الى حيث تتصل بغيرهـا من الطرق في وادي « الأبيض » .

وكان الآن يتسنى لنا ان نرى قسماً كبيراً من تلك المنطقة ، كما انـه بامكاننا

ان نقوم بما فيه الكفاية من الدراسات التي نجم عنها الكثير من الأعمال المثمرة ، ووجدنا العديد من النقوش . وتمتد متاهات « الحرة » الى الجنوب من النقطة التي كنا فيها ، بينما تقع بعض مرتفعاتها البركانية في الجنوب الشرقي . أما هـــذه المرتفعات فهي « وَطر » و « نُوف » و « نُويفان » وعدد من القمم الأخرى.

وكان دوتي قد تجول في متاهات الحرة ، كما ان « موسيل » قد اجتاز المنطقة من وسطها . أما أنا فلم أتمكن من الوصول الى أبعد من مشارفها ، وان كنت قد درت حول المنطقة باسرها ، ماراً بكل طرف من أطرافها وزائراً نقاطهـــا العديدة التي لم يسبق لأحد ممن تقدموني الى المنطقة ان شاهدها .

وأمضيت أنا و « زعل » ساعـة ممتعة جداً ، ونحن نجلس على القمة نحتسي الشاي وندخن ، وذلك قبل ان نعود الى حيث تركنا رفاقنا لنجد انهم ما زالوا مشغولين بالسيارة وكانت الأرض الرملية مغطاة بالنباتات البرية مثل « الغضا » و « الرمث » بينما أخذت أزاهير الربيع الصغيرة تتفتح بعـد ان انسابت فوق المنطقة مياه الأمطار الأخيرة . وقد وجدت هناك أنواعاً من الحشائش الصالحة للأكل والتي يعرفها من يجوبون طرق الصحراء .

هذا وقد مضت ساعة تقريباً قبل ان تصبح السيارة مستعدة للمسير عـــبر الممر . ولم يمض طويل وقت بعد ذلك حتى دخلنا طرف السهـل المنبسط الواقع وراءه . وهناك توقفت السيارة من جديد. فقد طرأ خلل ميكانيكي في محركها. وفي هذه المرة كنت مقتنعاً بان « السيد » يتعمد ايقاف السيارة على أمل ارغامنا على العودة الى « تبوك » ، ولكنني لم أكن أنوي مثل هذه العودة بحـــال من الأحوال، رغم تأصل فكرة لدي تقول باننا قد نتعرض لمشاكل أكثر من السابق كلما ابتعدنا عن المدينة .

وقد أبلغت مرافقيّ بانني على استعداد لقضاء الليلة حيث توقفت بنـــا السيارة ، وبينت لهم ان على أحدهم ان يعود الى تبوك سيراً على الاقدام لاحضار

« ميكانيكي » يُصلح السيارة . ثم اضفت الى ذلك (وأنا أتعمد الكذب) انني لاحظت وجود مضارب عرب على مقربة من المكان الذي نحن فيه . وأضفت، اننا لو استطعنا الوصول الى تلك المضارب قبل حلول الظلام لأمكننا ان نرسل شخصاً على بعير الى تبوك ، وبوسعه احضار ما نحتاج اليه من مساعـــدة من هناك .

وقد أوضحت لهم الأمر قائلاً : اذا لم نستطع ان نصل الى تلـك المضارب بالسيارة ، فان من المنطقي ان لا تتمكن السيارة من الوصول الى تبوك . وفي تلك الحال يكون عليهم القيام بالاستعدادات اللازمة لتحضير طعـــام العشاء . وفي الوقت ذاته قمت بجولة في المنطقة القريبة متظاهراً بالبحث عن النقوش ، كما كنت التقط بعض الصور بفتور ، كي اجعل رفاقي يؤمنون بانني لست في عجـلة من أمري .

وأخيراً تحققت المعجزة وأُصلح العطب في السيـارة بقدرة قادر . ومن ثم استأنفنا سيرنا مصعّدين في الوادي . وقد قطعنا مسافة عشرين ميلاً دون توقف حتى وصلنا الى مساقط المياه . وكان الوقت آنذاك قبيـــل غروب الشمس ، فأمرت بضرب خيامنا قرب مرتفعات « الرضا » ، حيث وجدت عندها عدداً كبيراً من النقوش . كما ان قمة من هـذه المرتفعات أتاحت لي فرصة التمتع بمنظر المنطقة وما جاورها وكانت السماء توحي باننا سنتمتع بيوم جميل في غد .

ومهما يكن من أمر ، فقد كنا تحولنا عن الطريق الفرعية على بعد قليـل الى القرب من ممر « فُها » لنعبر أرضاً رملية واسعة . وكانت هـــذه مغطاة بنباتات الصحراء التي نمت نتيجـــة لسقوط أمطار الخريف (الوسم) . وتحف بهذه الطريق من الجانبين صخور متكسرة تدعى « الزُّور » وتشكل هـــذه الطريق قسماً من مجرى وادي « فُهـا » الذي يمر عـــبر وادي « الغويّل » ، ومن ثم يبتعد عن طريقنا حتى يصل الى الأرض السبخة الواقعة خلف السكة الحديدية ، في نقطة تقع بالقرب من محطة « حَزم » .

ويتصل هـذا الوادي في احد طرفيه بوادي عوينة الذي سبق ذكره ، كما يتصل عند جانبه الآخر بشعب « السقّاء » الذي يفصل المرتفعات العالية التي تحمل الاسم ذاته عن سلسلة « فها » من الناحية الجنوبية . وكانت مرتفعات « الزور » التي واجهتنا ترتفع ارتفاعاً بسيطــاً ، وتتسع في النقطة الواقعة بين « جداريّة » و« بَرقا عيد » (وتقع هذه المرتفعات الاولى الى يميننا والثانية الى يسارنا) ، حتى تنقلب الى مراعٍ خصبة تمتد مسافة بعيـــدة الى الغرب حتى مشارف اراضي « خريطة » .

وتشكل سلسلة جبـال « الرضا » خطاً فاصلاً بين هذا السهل العظيم ونهايته الواسعـة حيث تكثر المراعي التي تعرف باسم « الزاوية » . وهذه تقع بين السهل والمنطقة البركانية ، ومن هنـــاك تمتد حتى مشارف المنطقة المجـاورة لأراضي ثمر « خريطة » .

ولم نجد أية صعوبة في اختيار مكان مريح نقضي فيه تلك الليلة ، وكان بين مجموعة من الادغــال النابتة في مجرى جاف ينحدر من المرتفعات وتكسو قاعه الرمـال ، ويدعى « شعب أم سوْرة » . ومرة ثانية سررت اذ وجدت نقوشاً بين الصخور المبعثرة هنا وهناك حول النقطة التي ضربنا خيامنا فيها . ولقـــد ابصرت علامة غريبة على الارض لم استطع تبيان اهميتها. فمن قاعدة غير مألوفة يبلغ طولها ٢٤ قدماً كانت تمتد ثلاثة خطوط من كل جانب من جوانب القاعدة وثلاثة اخرى من وسطهـا بشكل دائري ثم تتصل بدائرة اخرى مشكلة بذلك رقم (8). ويبلغ طول الخطوط من القاعدة الى الدائرة ٣٥ قدماً . وقد يكون الرقم (8) يدل على معنى غامض . ولربمـــا انه محاولة بدوية لرسم خريطـــة لتحديد معالم المنطقة امامنا !

ومن الغريب ان احداً من المرافقين لم يعرب عـــن دهشته لعدم مرورنا بالمضارب التي زعمت اني رأيتها على مقربة من مكاننا حين توقفت السيـــارة عند قمة « فها » ! وبعد ان تناولنا عشاءً دسماً (لأننـــا كنا قد احضرنا لحوماً

معنا) ، لاحظت ان « السيد » السيء الحظ ، كان غير سعيـد للفشل الذي مني به ، ولكنه ما ان انضم الينا عند تناول طعـــام العشاء ، حتى تخلى عن امتعاضه .

ولما علم السائق ان الأمر قد قضي ولم يعد بامكانه الرجوع ، وبعد ان تأكد لديه ان زملاءه المتآمرين لن يذكروا حقه اذا غاب ، رأيته يحوّل غضبه ، الذي كان يحاول ان يصبه عليّ ، الى زملائه . ولم اتقاعس طبعاً عن انتهاز الفرصة في الاعراب عن وجهة نظري في الخيانة التي وقعت رغم الثقة المطلقة التي وضعهـا فيهم أمير « المدينــة » . وفي الوقت ذاته انذرت مرافقيّ بأنني لن التمس لأي منهم العذر فيما لو تكرر الحادث خلال ما تبقى من الرحلة وحتى تنتهي الرحلة فقد عينت زعل مسؤولاً عن مراقبة المخزونات التي تسلمناها في تبوك والتحقق من ان المؤن ستصرف وفق حاجة البعثة .

وقد قلت لهم ، ان الذي يقوم بمساعدتي باخلاص ، سينـــال المكافأة التي يستحقها ، والتي سأوزعهـــا على من يستحقونها فقط . وأدرك السيد بصورة خاصة ، انه يستطيع بعد كل ما جرى ان ينقذ شيئاً من انقاض آماله السابقة ، وهكذا اخذ يتخلص شيئاً فشيئاً من القصة القديمة وأصبح خلال الايام القليلة التي تلت وهمّه الأول ان يحاول استعادة ثقتي به لآخذ عنه فكرة طيبة .

ومن الطبيعي انه وضع اللوم كل اللوم على محمد العريفي وابن عمه «ابراهيم» وعلى « عبدالله » الذي تخلف في تيماء بحجة البقاء مع الميكانيكي لاصلاح السيارة ، مع انه في الواقع قد تخلف هناك ليتسلم المبالغ التي لم تسدد بعد من اثمان البضائع المباعة . وقد اعترف السيد متطوعاً باشتراكه في المؤامرة ، وقال انه لولا اشتراكه هو فيهـا لما كان من الممكن ان يكتب لها النجـاح . وقد علمت مما قاله بأن العصابة قد باعت في خيبر وتيماء وتبوك خمسة اكياس من الأرز بسعر ١٤٠ ريالاً لكل كيس ، وكيساً من الدقيق بسعر ١٠٠ ريال ، وتنكة سعتهـا اربعة غالونات من السمن ، وحقيبة ممتلئة بالسكر لقاء ريال . كما باع افراد هذه العصابة (١٥٠)

علبة من المربى والفواكه المحفوظة ، وعدداً غير معروف من غالونات البنزين والنفط .

وقال لي السيد كذلك ان بيع النفط لم ينجح ، فقد وجد أفراد العصابة ان سعره في تبوك لم يكن مشجعاً . وذلك بالنظر لوجود كميات مجانية منه توزعها الحكومة على الأهالي ، ولهـذا فقد قرر السارقون الابقاء على ما كان معنا من نفط ليبيعوه في « العلا » باسعار أكثر مناسبة . فاذا لم يتيسر لهم ذلك باعوه في تيماء حين عودتنا اليها . وقد قدرت ان مجموع ما باعوه لا يزيد على ٢٠٠ او ٣٠٠ ريال ، فابرقت بهذه التفاصيل الى « عبد الله السديري » الذي لم يرعه ما قام به اتباعه بالمقدار الذي قدرت انه سيفعل . كان ذلك واضحاً انه عمل طبيعي عند هؤلاء الناس الذين يعيشون في أوضاع مماثلة لأوضاعهم ، وان كل انسان يعرف ذلك عنهم .

وكنا في موقعنا الجديد على ذات الارتفاع تقريباً لقمة جبل « الفُها » أي حوالي أربعة آلاف قدم عن سطح البحر . أما قمة جبل « الرضا » التي زرتها في صباح اليوم التالي فقد كانت تعلو ٣٠٠ قدم عن المكان الذي ضربنا فيه الخيام . وقد أتيحت لي الفرصة ان ألقي نظرة على المنطقة الرائعة التي تحيط بذلـــك الجبل ، ومن هناك تمكنت ان أرى لأول مرة المجموعة الكاملة لجبال « تهامه » ابتـداء من مرتفعات « شرّ » بالقرب من « ضُبة » والى الجنوب الغربي حتى « لوز » ، وغيره من المرتفعات الهائلة القريبة من المدينة ذاتها والتي تمتد باتجاه الشمال الغربي .

وكان أكثر الجبـال لفتاً للنظر بين هـذه المجموعة هو جبل « دِباغ » الذي كنت قد رأيته من تبوك ، وجبـل « حرب » الذي يقف كالحارس على طرفي وادي « السدر » الواسع ، ويمتد حتى ممر « خريطة » وتظهر فيـه طريق للسيارات تتراوح جودتها بين الحسن والقبيح ، وتنحدر حتى البحر .

وكنا في تلك الأثناء قد وصلنا الى طريق تبوك – خريطه ، غـير ان هذه

الطريق بالذات لم تكن مطروقة من قبل الآليات، ذات العجلات وهكذا وجدنا فراغاً يقدر بمسافة ميل واحد يمتد في خط مستقيم ويربط مـا بين تبوك والساحل .

ومن شأن هذه الطريق ان تقصّر المسافة الطويلة التي قطعناها عبر « ضبة » بمعدل الثلثين . وكان الخبراء الأميركيون التابعون للنقطة الرابعـة وغيرها من المؤسسات، قد زاروا الممر من طرفيه بتشجيع من « خالد السديري » . وذلك في محاولة لمعالجة مشكلة « الفراغ » . وهو أمر بسيط نسبياً ، إلا ان التقارير التي رفعوها تجمدت في ملفات وزارة المالية ، وذلك من أجل المحافظة على الأموال الضرورية من ان تنفق على الأمور غير الضرورية ! !

هذا ويقع الممر على بعد حوالي خمسة وعشرين ميـــلا الى الجنوب والجنوب الشرقي من المكان الذي كنا فيه ، ويمتد على طول قاعـــدة وادي « حفرة الزاوية » الذي تنتشر فيه بعض الفوّهات والصخور البركانية . ويمكن القول بان بئر « البترا » هو أبرز الآبار التي تبعد عن « الحرة » وأكثرها أهمية . ويمتـــاز بانه ينبع من بين صخرتين صغيرتين تدعيان « الرخامتين » . أمـــا صخور الـ « مُكيان » فتقع في الأسفل على شكل انقاض خربة . وهي تشكل مجموعة كبيرة من الحجارة المركومة . وقد عُرفت هذه الحجـــارة والصخور في الأيام الخالية بالسرقات التي كانت تتعرض لها القبائل ، وباعمـال قطاع الطرق الذين يكمنون فيهـــا للقوافل المارة من تبوك الى البحر ، فيتخذون منهـــا ومن الكهوف المنتشرة بينها مخابىء لهم بانتظار مرور القوافل للانقضاض عليها .

وكانت هنالك مجموعات أخرى من الحجارة والصخور ذات أشكال غريبـة تنتشر في تلك المنطقة أو على بعدٍ منها . وقد قررت ان أزور بعض هذه المجموعات بحثاً عن النقوش في طريق عودتنا .

ومن الصدف ان ممر (الفُها) الذي كان ما يزال بادياً للعيان وراءنا ، كان

في الأزمنة القديمة مسرحاً لمعركة وقعت بين قبيلة « بني عطية » التي تقطن المنطقة في الوقت الحاضر ، وبين قبيلة اخرى وفدت من الشمال تدعى « شرارات » . وقد اوضح لي زعل الأمر ثم اشار الى القبور التي دفن فيها قتلى المعركة، فوجدت بينها ضريحاً كبيراً اخبرني زعل عنه انه لجمل مشهور كان يمتطيه احد ابناء القبيلة وقتل اثناء المعركة .

وكان ممر خريطة الواقع امامنـــا الآن ، متصلاً بمنطقة الحره الأساسية عن طريق لسان رفيع طويل يدعى « القارَه » ، بينما تمتـــد الى يساره سلسلة من الصخور الغرانيتية الصلدة. وكانت تقطعها في اكثر من ناحية ممرات ضيقة تصلح لمرور قوافل الجمال وتؤدي الى اسفل سهل « تهامه » ووديانها .

وقد حضر « موسيل » الى المنطقة عن طريق احد هـذه الممرات الضيقة ، المعروف باسم « سِلك »، ويقع (في الغالب) الى الغرب من «الرضا» بين سلسلتي مرتفعات تعرفان باسم « الشِقري » و « الشَطي » . وكان « بورتون » قد قدم الى المنطقة من البحر ليصل الى ممر خريطه ، ولكنه عجز عن التوغل الى داخل منطقة بني عطية . ومن سوء الحظ ان من سبقني الى هذه المنطقة من الاميركيين ، قد التزموا الصمت حيال ما حققوه من استكشافات في هذه الناحية !

ولم نكد نتقدم اكثر من ميلين ، حتى توقفت السيارة ، وكان توقفهـا هذه المرة حقيقياً ، إذ غرزت عجلاتها في الرمال العميقة المتراكمة على المنحدرات في أعلى خرائب « الزاوية » . وقد قمت اثناء ذلك بالتجوال في السهل القريب الغني بالمراعي والذي يعرف باسم « عرفَج » بينما انهمك مرافقيّ في انتزاع السيارة من بين الرمال .

وبعد اربعين دقيقة من العمل المتواصل ، امكننـا ان نستأنف سيرنا لنقطع مسافة لا بأس بها باتجاه مرتفعـــات « مُكيان » . وشاهدت الى جوار هـذه المرتفعات اعداداً كبيرة من الصخور المختلفة الاحجام وِفق ما استطاعت الرياح

ان تحسره عن سطح كل منها من الرمال .

وبعد ان سرنا حوالي عشرة اميال وصلنا الى أرض صخرية منخفضة تشكل جزءً مـــن قاعدة « مكيان » وتتجه شرقاً لتشرف على وادي « الأبيْضات » ووادي « رَتَمَـــه » . والواديان يخرجان من الحرة ثم يتجهان الى الشمال الغربي مع الطريق الى « الشقري » حيث تصب جميع مجاري المياه في المنطقة . وتلتقي قناتاهما بالقرب من المرتفعات الصخرية التي تعرف باسم « عاصية » حيث ينضم اليهما عدد آخر من المسايل النابعة من المنطقة البركانية ، حاملة ميـــاه اكثر من ستة جداول صغيرة تنبع من منطقة « روافا » والمنحدرات الشرقية القريبة من سلسلة جبال « ديثان الخور » و « العلاليق » و « الرويان » .

وبعد ان قطعنا مجرى (رتمَه) ابتدأنا بالتحول نحو الشرق عن طريق خريطة تاركين الممر ، وان كنا لم نبتعد عنه كثيراً .
ووصلنا الى ارض لم يسبق ان مرت فوقها عجلات سيارة ، وبعد ان قطعنا مسافةً صوب أعالي مجرى رتمَة ، وفي النقطة التي تأتي فيه القنـــاة من الحرة ، أشار الي زعل ليريني بئر « خَمبارا » . وهو بئر له شهرته في المنطقة حيث تروي الأساطير انه شهد كارثة مرعبة ، بلغني خبرها اثنـــاء زيارتي الثانية لهذه المنطقة بعد سنتين .

لقد ذكروا لي ، ان مياه هذه البئر قد غاضت لسبب من الاسباب . وقد تطوع احد افراد قبيـلة بني عطية بالنزول الى أسفل البئر ليكتشف السبب ، ولكنه لم يعد مطلقـــاً . وعلى الأثر تداعى افراد القبيلة الى مكان البئر لدراسة الأمر الذي غدا سبباً في كارثتين اثنتين ، أولاهما فقدان الماء والثانية فقدان الرجل . ولما سمع شقيقه بما حدث أتى مسرعاً ونزل الى البئر لينقذ اخاه، ولكنه هو الآخر لم يعد مطلقاً .

وقد أصر والد الشابين على النزول الى البئر ليرى بنفسه مصير ولديه ، غير

ان شيوخ القبيلة تمكنوا من ثنيه عما اعتزم بعد صعوبة فائقة. وكان هؤلاء الشيوخ قد اقتنعوا بأن الشابين قد غرقا وان نضوب ماء البئر وفقدان الشابين يعود الى اسباب خارقة للطبيعة يصعب التحقق منها .

وحين أبلغ الامر على الفور الى خالد السديري ، زار الأمير مكان الحادث وأمر بأن تسد البئر بالتراب والحجارة على ان لا يعاد فتحها ابداً .

وهكذا ظل اللغز دون حل . اما التفسير الوحيد الذي يبدو منطقياً فهو انه : بالنظر لوجود البئر في المنطقة البركانية فانه يكون من المحتمل ان احد هذه البراكين قد تحرك فتسبب في نضوب المـاء في البئر ، وفي الوقت ذاته ملأ البئر بنوع من الغاز الخانق السام . وانه لمن سوء الحظ فعـلاً ان لا تتـاح الفرصة لاجراء بحث علمي في الموضوع،إما بسبب الخوف أو بفعل فقدان الاهتمام بالأمر ، لمعرفة أسرار الكارثة .

هذا وما ان استأنفنا سيرنا شرقاً عبر أحـد المراعي الخصبة في وادٍ واسع يقع بين الحرة التي كانت على بعد ميل واحد الى يسارنا ، وبين لسـان صخري على بعد ميل أيضاً الى يميننا ، حتى فوجئنا بالسيارة « تسعل » ثم تتوقف عن الحركة نهائياً من جديد . إلا أننا سرعان ما تمكنا من إصلاح العطب . وتابعنا السير الى الأمام باتجاه منطقة « الروافا » الرائعة . وقد وجدنا صخرتين كبيرتين لونها أسود وأحمر ، تلمعان تحت أشعة الشمس ، وتواجه الواحدة منهما الأخرى على بعد حوالي مائة ياردة ومن هذه الفسحة يمر مجرى قناة « ديثان » لينضم الى « الأبيض » الذي سبق ذكره .

وكما اكتشفت مؤخراً ، فان هذه القناة هي إحدى روافد « الروافا » . ومما لا شك فيه انها أهم تلك الروافد . وتحف بها صخور تمتاز بالوان صخور «البتراء» وان كانت هذه الصخور تبدو وكأنها جافة الحوافي لنضوب المـاء من القناة في الوقت الحاضر . ولعل جفاف القناة في الأزمنة السابقة هو السبب الذي حـدا

بالنبطيين الى عدم ممارسة فنونهم الرائعة على هذه الصخور الجميلة .

وكان مجرى « ضُيبقات الفهْدية » لا يزيـــد على بضع مئات من الياردات طولاً ، ومنه عبرنا الى وادٍ واسع خصب يدعى شعب « ديشان » يتسلل بـــين سلسلة من الصخور المتعددة الألوان .

ومرة ثالثة توقفت السيارة نتيجة لانغراز عجلاتها في الرمال العميقة ! وفي غمرة من حنقي على هذه المصاعب ، قمت برفقة زعل بالمشي في الوادي . وكان الأمر الذي زاد حنقي ان زعل أخذ يبدو وكأن الأمر قد اختلط عليه بالنسبة لتحديد الموقع الذي نقصده ، وهو المعبد .

ثم سرنا مدة ساعة ونصف الساعة قطعنا خلالها ثلاثة أميال لا أكثر . وكان السير شاقاً عسيراً فوق رمال كثيفة تنتشر فيها ادغال صغيرة شائكة يستعملها القاطنون في صنع « المكانس » كما شاهدت ذلك في « بترا » .

وأخيراً لحقت بنا السيارة .. وهنا اتجهنا يميناً عـــبر سلسلة من الصخور . وسرعان مـــا وجدنا أنفسنا في واد يحاذي الطريق يدعى شعب « هواتف » . ومن هنا أخذنا نصعد في الوادي حتى اعترف زعل بانه قـــد فقد آثار الطريق التي يعرف انها تقود الى المعبد . وحينئذ عدنا ادراجنا لنهبط الوادي . ولم يمض طويل وقت حتى لحنا البناء الذي تحملنا كل هذه المشاق من أجل ان نراه !

كان هذا البناء ممتداً أمام صخرة كبيرة صفراء اللون قاعدتها حمراء .

وهنا كنا قد وصلنا الى روافا ، فبقي أمامنا رحـــلة غامضة لا ندري ماذا سنتعرض له فيها .

كان من الواضح هنا ان سيارتنا ستدرج الآن على طريق سيء . وكان الشيء الوحيـــد الذي أسفت له هو اضطراري للتضحية ببطارية جهـــاز الراديو الذي أملكه حتى تتمكن السيـــارة من الوصول الى وجهتنا . وذلـــك بعد أن

بذل السيد جهوداً يائسة في محاولة منه ان يحمل السيارة على التحرك من مكانها. وكان هذا السيد ، والحق يقال ، قد تخلى عن محاولاته الرامية الى حملي على العودة الى تبوك . وذلك منذ ان بدأنا السير ، عبر « ضُييقات الفهدية » .

وعندما وصلنا الى تلك النقطة ، كنا قد قطعنا مسافة ثمانية وثلاثين ميلاً عن آخر معسكر ضربناه عند سلسلة جبال « الرضا » . وكان علينا حتى نصل الى المعبد ان نسير على الأقدام ، او نستقل السيارة مسافة لا تقل عن ستة او سبعة أميال ، على الرغم من ان المسافة الحقيقية اليه لا يمكن ان تزيد على أربعة أميال . وهكذا فان المسافة من تبوك الى رواقا حسب الطريق التي اتبعناها كانت حوالي ٨٣ ميلاً .

وقد وصلنا في ساعة متأخرة من بعد الظهر ، فلم يكن لدي من الوقت ما يسمح باكثر من اجراء تفتيش عاجل عن النقوش بين الخرائب ، قبل ان نستقر في معسكرنا لنتدارس مختلف المشاكل التي تواجهنا . وكان زعل ورفيقاه يعملون بصورة مقبولة . والحق انهم كانوا مفيدين لي كأدلاء ، ولو انهم ادنى من المستوى الذي تتطلبه بعثة استكشافية كهذه ، وفي منطقة كالتي وصلنا اليها . تلك المنطقة التي تشكل انتقالاً من المنطقة البركانية في الجنوب (حرات الرها) الى منطقة « حِصما » الى الشمال .

وقد حلَّت المشكلة نفسها بوصول عدد من رعاة المنطقة كان قد جذبهم الينا منظرنا ونحن نصل الى المعبد ، ورائحة طعام العشاء الذي كان على وشك النضج . وسرعان ما انتهزت الفرصة وعينت أحدهم ، (يدعى « سعيد بن سلامه » من قبيلة بني عطية) في خدمتي . وكانت مضارب قبيلته في المنطقة المجاورة لنا .

وقد تبين لي ان معرفته بالمنطقة ، من غرب الحرة حتى المكان الذي وصلنا اليه ، مرضية بما فيه الكفاية . أما معرفته بمنطقة « تهامه » فكانت

تافهة للغاية . وقد أوضح هو ذلك بقوله : ان تلك المنطقة « ليست تابعة لبني عطية » ، ولهذا فلم يكن مهتماً بها . بيد اني كنت كثير الاهتمام بالمنطقة التي يتقاسمها افراد كل من قبيلتي « بيلي » (بالي) و « الحويطات » . وكذلك فقد كان سعيد هذا قليل الخبرة بقمم جبال الحره البعيدة . وقد ذكر لي انه رأى ظباء افريقية في وادي « الأبيض » ولكنه فشل في اصطياد أي منها . وكان ذلك قبل سنتين (١٩٤٩) . ولعل هذه هي آخر مرة رُؤيت فيها هذه الحيوانات في شبه الجزيرة العربية .

كان الأمر الثاني الذي يشغل بالي ، هو ابلاغ السلطات في تبوك بمكان وجودنا . وقد تمكن سعيد من احضار احد افراد قبيلته في مساء اليوم التالي واقناعه ان يمضي برسالة كتبتها الى «علي ثروة» . وقد طلبت اليه في تلك الرسالة ان يبعث الي بسيارة اخرى وبطارية للسيارة التي معنا . ولما كنت اقدر انه سيمضي بعض الوقت قبل ان نتمكن من الحصول على مساعدة اخرى ، فقد قررت ان نعسكر حيث نحن طوال فترة مكوثنا في المنطقة .

ومن ثم عملنا على حماية خيامنا من تقلبات الطقس . وكان الطقس هنا أبرد بكثير منه في تبوك ... كانت درجة الحرارة تتدنى في صبيحة بعض الايام الى ما دون درجة الصفر . وقد بلغت درجة الحرارة في أول ليلة قضيناها في روافا ٢٥ ١/٢ درجة فهرنهايت . وفي الصباح وجدنا ان مياهنا التي كنا نحتفظ بها في القرب والصفائح قد تجمدت ، بينما كانت الارض مغطاة بطبقة سميكة من الصقيع . وقد ظل هذا الصقيع حتى اشرقت الشمس فذاب .

هذا وقد حدث الشيء ذاته في الليلة الثانية ، وبعد ان مرت بضع ليال يمكن اعتبارها أدفأ من الليلتين سالفتي الذكر (كانت خلالها درجة الحرارة لا تزيد على درجة أو اثنتين فوق الصفر) سجل الترمومتر درجة ٢٥ فهرنهايت في آخر ليلة قضيناها في روافا . وكان ذلك في الخامس والعشرين من يناير (كانون الثاني) .

ويقع المعبد على بعد بضع مئــات من الياردات عـن ينبوع صغير يسمى « ميشاش » ويخرج من كهف صغير معلق بين مجموعة من الصخور تمتد بمحاذاة الضفة اليمنى لسلسلة مرتفعات وادي « هواتف » الذي ينحدر الى اسفل حيث يعرف باسم « الخور » عند التقائه مع وادي « ديثان » ، بعد ان يخرج الأخير من مجرى الضييقات ليتصل بمجموعة مجاري « الابيض » .

وتبرز الصخور التي ينبع من بينهـا الينبوع الصغير (ميشاش) قليلاً الى الامام بحيث تبقى مغـارة الينبوع بكاملها بعيدة عن اشعة الشمس إلا في فترة قصيرة حوالي منتصف فصل الصيف . وفي تلك الفترة تجف المياه التي تلفظهـا ارض الكهف الرملية . ويقال بأن النبع يوفر الماء لطالبيه طيلة الفترات الاخرى من السنة بشكل مستمر .

وقد وجدت أكثر من دليل على عظـم قيمة تلك الميــاه لأصحاب قطعان الماشيـة من الاعراب . ولكن هؤلاء ويا للاسف ، مـا كان يهمهم في شيء ان يتركوا المكان نظيفاً . ولهذا وجدت المغارة قذرة ، تغطي أرضهـا اكوام من مختلف أنواع القاذورات . أما حوض الماء بالذات فكان نظيفاً ، ومياهه عذبـة صالحة للشرب .

ووجدت على ظهر إحدى الصخور الكبيرة العاليـة قرب قمة المجموعـة الصخرية سطراً طويلاً من النقوش الثمودية . وقـد نجحت في نسخ هذه النقوش مستعيناً بمنظاري المقرب ، وذلك لأن الصعود الى حيث كانت تلك النقوش بدا من الأمور المستحيلة . وقـد لاحظت ان منابع المـاء تغطيها طبقة رقيقة من الجليد في الأوقات التي تتدنى فيها درجة الحرارة الى حد التجمد .

ومن الطبيعي ان البدو يعرفون مصادر أخرى للميـــاه في أقاصي الحرة ، (مثل بئر الخبارا) ، غـــير ان هذا (الميشاش) كان أيسر مورد للاعراب الذين يفدون الى المنطقة للنزهة او طلباً للصيـــد . وجميع هؤلاء من الأشراف

والمتقدمين في السن ، الذين يعيشون في خيام ينصبونهـا طوال مكوثهم خارج مدينة تبوك ايام استجمامهم هذه .

ويبدو أن بعض هؤلاء القوم كانوا معجبين جداً بهذا الموقع الجميل ، لدرجة انهم أرادوا ان يقيموا لهم أثراً تذكارياً دائماً يكون شاهـــداً على زياراتهم . واختاروا نُصُبهم على شكل بناء . والعجيب ان اسم هذا البناء والبناء ذاتـه ظلا قائمين بالرغم من كرور العصور . ولعل ذلك يعود الى مصادفة حسنة تنبىء عنها النقوش القليلة التي وجدها المنقبون بين الخرائب . وهي نقوش يونانيـــة ونبطية .

أما ان البناء كان معبداً فما في ذلك أدنى شك . ويشهد بذلك أحد النقوش اليونانية القصيرة التي ذكرت ان البنـــاء يعود الى hieron touto في أرض Robathai . ويمكن اعتبار كلمة « روافا » تحريفاً صحيحاً لهذا الاسم . هـذا وتعادل الـ - b - اليونانية حرف v (والواو في العربية) ، في حين ان مقابـــل حرفي - F - و - th - اللذين كانا موضع نقاش من قبـــل الثقاة يجب ان يكونا خاضعين للحقيقة البسيطة التي تجعل اسمي يُلفظ « ثيلبي » وذلك من قبل عدد قد يقل أو يكثر بين أصدقائي في شبه الجزيرة العربية .

أما الخراب الذي لحق بالبناء ، فمن المرجح ان يكون قـد حدث من جراء هزة أرضية لا يذكرها السكان المحليون. هذا ، ومعظم أقسام البنـــاء لازالت في حالة لا بأس بها . ويبقى تاريخ انشاء هذا البناء . وهو ما يحدده ، على وجه التقريب ، احد النقوش الجميلة التي تم الحصول عليها منـــه . وهو خليط من اليونانية والنبطية . ولا يزال يشكل جزءً من واجهة المعبد .

وقد اكتشفه « الويس موسيل » في سنة ١٩١٠ . والحق انني لم أجد صعوبة كبيرة في العثور على هذا النقش حين نظرت الى خرائب المعبد . وحينئذ كان من الطبيعي ان انسخه بكثير من الدقة ، ثم اقوم بالتقـاط عدد من الصور له .

وذلك بالنظر لأن النسخة التي استنسخهـا « موسيل » قد فقدت نتيجة للمعاملة السيئة التي لقيها الرجل من افراد قبيلة بني عطية كما سبق ان ذكرنا .

ويذكر هذا النقش اسمي « ماركوس اوريليوس انطونيوس » و « لوشيوس فيروس » على اعتبار انهما الشخصان اللذان بني المعبد على شرفهما .

والجدير بالذكر ان الأسبق قـد خلـف « انطونيوس بيوس » على عرش الامبراطورية الرومانية سنة ١٦١ ب.م. بينما اشترك الثـاني في شرف اللقب مع « اغسطس » و « وبرنسبس » في السنة ذاتها .

وقد توفي « لوشيوس فيروس » بعد ثماني سنوات وهو في طريقه الى رومـا اثنـاء قيامه بجولة في بلاد الدانوب ، بعد ان انهى مهمته كقائد في سوريا سنة ١٦٢ ب.م. وكانت المهمة المعهودة اليه في ذلك الوقت هي مقاومة غزو الفرثيين الذين تدفقوا على البلاد في ذلك الحين . وقد اكسبه الفوز الذي احرزته الكتائب الرومانية ، لقب « بارثيكوس ماكسيموس » . وهذا ما يجعلني اذهب الى القول بانه من الضروري ان يكون في هذا الوقت قد نال اعتباره الرفيع في نظر أهل هذه المنطقة من الشرق الاوسط .

في تلك الاثناء، كانت بلاد النبطيين قد ظلت خاضعة للأمبراطورية الرومانية منذ اكثر من خمسين سنة ، ويبدو ان رعايا الامبراطور قد احتفلوا بالنصر الذي احرزته فيالق الرومـان على الفرثيين . وقد كان هذا النصر من الأهمية بالنسبة للشعب في سوريا بالقدر الذي هو عليه من الأهمية بالنسبة لحكام الرومان . ولذا عمد السكان المحليون الى انشاء هذا المعبـد رمزاً لولائهم للامبراطورية . وقد تم ذلك في سنة ١٦٥ ب.م.

وقد وجدت في المعبد نقشاً يونانياً (سبق ان أشرت اليه) ، كما وجدت نقشاً ثالثاً بالنبطية ، ولكن هذا كان أقل ايضاحاً من سابقيه. اما النقش الرابع فقد ذكر اسم « كلوديوس موديستوس » الذي تعرّف عليه «م. هنري سيريغ »

الاستاذ في المعهد الافرنسي في بيروت ، فقال انه القائد الروماني الذي حكم شبه الجزيرة العربية من قيادته في « بوسترا » أو بُصرى بجبل الدروز . وكان هذا النقش باليونانية . ومما لا شك فيه انه كان من الممكن اكتشاف عدد كبير من النقوش بين خرائب المعبد ، غير انه لما لم يكن لدينا الوقت الكافي أو العمال الضروريون لمثل هذه الحال ، فقد اكتفينا برفع بعض الحجارة الثقيلة التي كانت تغطي المعبد .

والمعبد ، عبارة عن بناء مربع يبلغ طول ضلعه ٣٠ قدماً . وقد وجدت ان جداره الغربي مدعم بخمس عشرة قطعة من الحجارة مركومة بعضها فوق بعض دون ان تلتصق بأية « مؤونة » أو اسمنت وكان الحائط الشمالي مدعماً بشكل مماثل للحائط الغربي . أما جدران المعبد الاخرى فقد رأيتها في حالة من الخراب لا توصف . هذا ، اذا استثنينا بعض الحجارة التي ما زالت قائمة هنا وهناك . وقد لاحظت ان معظم حجارة المعبد قد نقلها البدو حيث استعملوها في اقامة شواهد لقبورهم في الجبّانة المجاورة .

وعلى بعد قليل الى الجهة الشمالية ، وجدت أساساً لبناء أصغر ، اقدّر انه أحدث عهداً من المعبد . ويجوز ان يكون قد بني من مواد أخذت من المعبد ذاته . وكانت هذه الأساسات ظاهرة للعيان ، غير انه لم هناك أي أثر للجدران ، وكأنما لم يكن لذلك البناء أي جدران أبداً . وقد خطر ببالي بادىء الأمر انه ربما كانت هذه الدائرة من الحجارة والتي تبلغ مساحتها ١٥ × ١٢ اقدماً ، خزاناً لحفظ مياه السيول . وخاصة انني وجدتها مليئة بالرمال والتراب .

ويظهر ان جميع الحجارة التي استعملت في بناء المعبد والبناء الآخر قد اقتطعت من الصخور الواقعة خلف الكهف الذي ينبع منه «ميشاش» . وكانت هنا وهناك في وادي «هواتف» امارات تدل على وجود مزروعات في مساحات لا بأس بها ،أغلبها من القمح والشعير . وقد نبتت هذه المزروعات بفضل السيول التي حدثت في الخريف الماضي على اثر تساقط الامطار في تلك المنطقة .

هذا والمعبد يمتد من الشرق الى الغرب ، وله مدخل واحد يقع في الجهـة الجنوبية الشرقية على زاوية مقدارها ١٠٤ درجات . أمـا سمك الجدران التي ما زالت قائمة فقد كان ٧٨ سنتيمتراً . وتشير جميع الدلائـل المتوفرة الى ان الخراب الذي لحق به كان من جراء هزة أرضية ، مع انه من الممكن ان يـتم ذلك نتيجة فيضان غير طبيعي يغمر المنطقة باسرها . حيث ان المعبـد قائم في طرف الوادي .

وفي الزاوية الشمالية الغربية من المعبد توجد غرفة بناها صاحبها كيفما اتفق له ، وتبلغ مساحتها ١٤ × ١/٢ ١٢ قدماً . وكل ما تبقى منهـا الآن لا يعدو جزء من الجدار الشمالي ما زال قائماً ، ومثله من الجدار الغربي الملاصق له . أما بقية الجدران فهي في حالة خراب . ومن المؤكد ان أرض الغرفـة ، ترتفع عن سطح الأرض التي بني عليهـا المعبد بمعدل أربعة أقدام . ولقـد خطر ببالي ان يكون هذا البناء قد استخدم كمقبرة في العصور المتأخرة ، وذلك بدليل وجود الحجارة الكبيرة التي تسد المنافذ . ولعل هذه الحجارة قد وضعت لحماية الجثث من نهش الضباع او نبش لصوص المقابر .

ويبلغ طول القسم القائم من الجدار الشمالي ١/٢ ١٢ قدمـاً ، يمتد بعدهـا الجدار خمسة أقدام أخرى هي الجزء الأخير منه . وهو في حالة خراب تام . وفي الجهة المقابلة للجدار الأيمن خراب يشمل ما طوله عشرة أقدام . ويمتد هذا القسم الخرب من النقطة التي يتصل فيها هذا الجدار مع الجدار الغربي. وبعدهذا الجزء كان الجدار مهدمـاً بشكل لا يمكن المرء ان يستبين معالمه . أما مدخـل المعبد فقد كان مدعماً من نواحيـه الشرقية والشمالية والغربية بثلاثـة او أربعة أعمدة حجرية ضخمة ، منحوتة نحتاً ممتازاً .

ويبدو ان الزاوية الجنوبية الغربية كانت لغرفة على ذات المستوى الأرضي للغرفة الأخرى في الزاوية الشمالية الغربية ، وان كانت الأدلة على وجود مثـل هذه الغرفة ليست متوفرة ، ما عدا أساساتها .

ولم أستطع ان أجد أية دلائل تشير الى وجود سقفي الغرفتين . غير انه يبدو ان «عابد قيصر» الداخل الى المعبد من البوابة الشرقية كان يجد نفسه في ساحة مكشوفة تقع أمام تماثيل الآلهة ، وتحتل النصف الغربي من المعبد . ولا بدّ انها كانت مقسمة الى قسمين بينهما ممر ضيق . وكل منهما مخصص لواحد من الامبراطورين .

أما طول الجدار الغربي الذي كان ما يزال قائماً فيبلغ ٣٨٢ سنتيمتراً . وهو مقام على بلاط طبيعي من الصخر . ومن هذا البلاط أيضاً أنشيء الممران ، او بضعة الممرات الأخرى في الناحية الشمالية من البناء . هذا ولعل المحور (الشرقي – الغربي) للبناية أطول من مثيله (الشمالي – الجنوبي) ببضعة أقدام مكوّناً بذلك شبه مستطيل أكثر منه مربعاً تاماً . ولم أرَ أي أثر يدل على وجود أعمدة مستديرة بين الخرائب .

أما البناء الثاني الذي ورد ذكره فيما قبل ، فيقع على بعد خمسين ياردة الى الجهة الشمالية الشرقية من المعبد ، وقد صمم على غرار المعبد الى حد كبير . وربما كان منزل باني المعبد او الكهنة فيه . أما سقفه فقد سقط وغطته الرمال .

وتنتشر فوق السلسلة الصخرية القائمة على الضفة اليمنى لوادي « هواتف » طبقة رقيقة من « اللافا » ، هي التي جعلت الناس يطلقون عليها اسم « سد الروافا » . والواقع انها أتاحت لي الفرصة لالقي نظرة ممتعة على المنطقة المحيطة بها عندما تسلقت قمتها بعد يوم او اثنين من وصولنا الى تلك المنطقة وقد وجدت ان قمتها مكللة بخرائب ربما ترجع الى القرون الوسطى أو لعلها قلعة عربية بنيت في الأزمنة الحديثة .

والقلعة مبنية من حجار اللافا المتوفرة عند القمة دون تشذيبها . ومن القمة ، بدا لي المعبد تحت سطح السلسلة مع ميل قليل الى الجهة الجنوبية الشرقية ، بينما ظهر « الميشاش » الى يمينه قليلاً . ومن هنا ايضاً ألقينا نظرة شاملة على

وادي « هواتف » .

وقد مررنا ونحن نتسلق القمة بمجموعة من الصخور الوردية اللون لم أر اجمل منها من قبل ، تعرف باسم « خُرَينات » . وتقع على الغالب الى الشرق من الطرف الاقصى لسلسلة من القمم والمرتفعات البركانية ، يمرّ من بينها مسيل الماء يأتي من بعيد مفتشاً عن طريقه عبر الأخاديد التي تشكل رأس وادي « داما » . وهو ينفذ الى البحر من نقطة تبعد قليلاً الى جهة الجنوب عن وادي ضُبَه .

كانت صخور الخُريبات محاطة من جميع نواحيها بعدد كبير من حجارة اللافا التي تمتد يميناً حتى أسفل الجزء الأبعد من وادي هواتف حيث تتصل بجبل « لاوي » الكبير . وهو جبل صخوره من اللافا ، يقوم عند قاعدة جبال « ابو عتبة ، والعليلاق ، والعشارية ، وابو طفيف » . وتجري من بين كل جبلين من هذه الجبال قناة تتصل بقناة « خور » التي هي امتداد لوادي هواتف .

ويدخل الى هذا الوادي عدة شعاب صغيرة ، بعد النقطة التي يصبح فيها معروفاً باسم وادي الخور .

وتمتد سلسلة مرتفعات « سلوع » الى اقصى الجنوب من المرتفعات التي تمتد حتى تتصل بجبال مدين . ويقع مضيق « الضُيقات الفهدية » في الجهة الشمالية الغربية من المكان الذي كنا فيه . ولم يكن هذا المضيق بعيداً عنا ، بل كنا نستطيع ان نرى من خلفه القمم العالية لجبال « حرب ، ودبّاغ ، وشرّ » الممتدة من اليمين الى اليسار بانتظام .

اما قناة « ديثان » التي مررنا بها اول ما وصلنا الى المنطقة ثم تركناها وراءنا ، والتي كانت تقع الآن تحتنا في أقصى طرف مرتفعات سد روافا ، فقد أخذت تدعى الـ « حنوّ » ، وراحت تجري بين جبلي « ام عوال » و « قَبَل » .

وفي اليوم التالي - وكان الثالث والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) -

قررت ان اشاهد المنطقة من قمة جبل « لاوي » : وسرعان ما استحضرت الحمير من مضارب قبيلة « سعيد » . وركبت مع سعيد وزعل ورجل من بني عطية يدعى (عوده) . وقد هبطنا الى قاع وادي هواتف ، حيث سرنا حوالي نصف ساعة وصلنا بعدها الى صخرة بارزة يطلق عليها اسم « هُضيبة البيضا » . وقد شاهدت بالقرب من هذه الصخرة قبوراً ودلائل على ان المنطقة كانت معمورة في يوم من الايام .

وفي منتصف قناة هناك وجدت دائرة مسوّرة بالحجارة ، تبلغ مساحتها ٢٥ ياردة مربعة . ولعلها كانت أساساً لخزان ماء .

وقد أزعجني ان أحداً من مرافقي لم يكن بوسعه القاء ضوء ، ولو بسيط ، على سبب وجود هذه الدائرة . ومهما يكن من أمر ، فانها لم تكن لتدل على أي نوع من أنواع الأعمال المعروفة عن البدو في الوقت الحاضر . وعلى هذا ، فلا بد انها من اعمال بني هلال . مع انه يجوز ان تكون اشارة الى احتلال النبطيين للمنطقة .

وقد امضينا نصف ساعة اخرى قبل ان نصل الى حضيض جبل «لاوي» . ويمكن القول بأننا كنا في ذلك الوقت على بعد اربعة اميال من مخيمنا وذلك لأن حميرنا لم تكن من حمير السباق ، كما انها بدت مستعدة للذهاب بنا الى أية نقطة نعيّنها ما عدا الموقع الذي نقصد اليه . وقد لاحظت عند الحضيض ان الصخور ذات لون أبيض مائل الى الرمادي .

والحق اننا لم نجد في تسلقها صعوبة تذكر رغم وعورتها في بعض المناطق . وانقضت أربعون دقيقة قبل ان نصل الى نقطة قريبة من القمة اقدّر انها على ارتفاع يتراوح بين ٧٠٠ ٨٠٠ قدم عن قاع الوادي . وعند هذه النقطة كان لا بد لنا من ان نترجل لنتسلق ما تبقى من الطريق . وبالفعل تركنا الحمير هناك ، بعد ان اطمأننا الى انها لن تبرطع الى الوادي .

ووصلنا.. فرأيت القمة بأسرها ، والصخور التي تنحدر منها الى مسافة مائتي قدم ، من صخور « اللافا » . ولم اجد أية صعوبة في التفرج على المنطقة المجاورة رغم وجود ضباب كثيف كان يخيم فوق الأراضي الواطئة من «تهامه» . وكانت هذه المناظر تمتد من قمم « ريدان » الواقعة خلف وادي « داما » باتجاه الجنوب، حتى قمة جبل « شواتي » في الشمال الغربي .

ولم استطع ان أرى البحر من فوق تلك القمة غير ان السهل الساحلي الذي يقع خلف الجبـال كان واضحاً تماماً بالرغم من الضباب . وكان معبد « روافا » يقع في الجهة الشمالية الشرقية من مكاننـا على القمة ، وعلى بعد يتراوح بين أربعة وخمسة اميال ، بينما كانت مرتفعات « خرينات » تقع الى الشرق . وتحت هذه المرتفعات كان ممر « حَجَلَة » .

وكنت أرى مضيق «ضيبقه» في الجهة الشمالية الغربية بينما كان الممر (حجلة) يقع في الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية عند أول وادي « سُليسيل » . وكانت صخور هذا الوادي تبـدو تحتنا في منحـدره العميق . والأعراب يشعرون بشيء من الخوف وهم يقودون قطعان الابل الى المراعي القريبة من هذه المنطقة ، وذلك لصعوبة الوصول اليها . وكذلك تجدهم يشعرون بالرهبة ذاتها عندمـا يهبطون بقطعانهم الى تهامه أيام فصل الشتاء . ومع هذا فقد وجدتهم يزعمون ان تسلق هذا الجبل ليس أمراً عسيراً . والبدو يطلقون على الطريق التي يصعدون منها الى قمة الجبـل اسم « طلعة طيب الاسم » ، وهو اسم يطلقه الاعراب (من باب النقيض) على الاماكن التي يكونون غير راضين عنها .

وتمتد قبالة جبل « لاوي » الى الجنوب والجنوب الغربي ، صخرة غير مستوية الاطراف تبدو عن بعد وكأنها كتل من الصخور مكومة بعضهـا فوق بعض . وتعرف هذه الصخرة باسم « وُهيثا » . ويقع بئر لاوي الذي يبعد مسافة ثلاثة اميال ، في السهل الذي يربط بين وهيثا وجبل لاوي .

ويشكل جبل لاوي هـذا شبه قوس يميل رأسه قليلاً الى الجنوب الشرقي ،

بينما يميل رأسه الثـاني باتجاه المكان الذي كنا فيه . وأخيراً فقد كانت هنالك سلسلة جبلية اخرى أراها جديرة بالتنويه ، خصوصاً وانني قد زرتها بعد عامين من هذه الرحلة ، الا وهي سلسلة جبال « شُونْيوين » التي يمتد طرفاها الكبيران بمحاذاة الضفة اليمنى لوادي « سَدر » .

وبعد ان نزلنا من القمة ، امتطينا حميرنا وتوجهنا الى صخرة رملية عظيمة عن طريق مسيل الماء الذي يعرف بقناة « أم علاليق » ، حيث وجدنا عدداً وفيراً من النقوش الثمودية . كما وجدنا مجموعة أخرى من هذه النقوش عند الصخرة المعروفة باسم « أم القويرف » . وهذه أيضاً تقع في مجرى القناة .

وهنا كنت قد اكتفيت بما قمت به من عمل خلال ذلك اليوم ، ومن ثم توجهنا الى معسكرنا منهوكي القوى من جراء المشاق التي تعرضنا لها على ظهور الحمير وهي تسير بمشقة فوق الصخور . ولقد شعرت بانني أشعر براحة أكثر لو مشيت على قدمي ، غير ان حذائي الرديء الذي اشتريته في تبوك ، كان قد سلخ قدمي بشكل فظيع ولذلك فقد رأيت من الأفضل ان أتقبل خدمات الحمار بامتنان .

كانت السحب الكثيفة التي تلبدت في السماء أثناء ساعات الصباح الباكر وبعد ليلة ليلاء هبت فيها رياح قوية ، قد تبددت بعد شروق الشمس ، فتمتعنا بشمس مشرقة رافقتها نسمات باردة كلها انتعاش . وقد استمر الطقس على هذه الحال طوال النهار فظللنا خارج المخيم . ثم قاسينا ليلة لعينة أخرى هبت فيها رياح باردة وتدنت خلالها درجة الحرارة الى الصفر ، او فوق ذلك بقليل . وبانقضاء تلك الليلة ، انتهت اقامتنا في وادي « روافا » .

وقد وصلت الى معسكرنا سيارة لوري من طراز « شيفروليه » (علمتُ فيما بعد انها قادمة من تبوك) ومعها قطع الغيار اللازمة للسيارة الأولى . وكان على ظهرها عدد من رجال الأمير جاؤوا لمساعدتنا على الخروج من أي مأزق

قد نتعرض له. وحين ضمنت كل هذا ، قمت بزيارة نهائية لنقطة في وادي «ديشان» بينما تركت بقية مرافقيّ يعالجون السيارة المعطوبة لعلهم يصلحونها . وقد قيل لي ان هذه النقطة من وادي « ديشان » تزخر بالخرائب التي تحوي الكثير من النقوش المهمة ، فاصطحبت كلاً من زعل وسعيد وعوده وتوجهنا اليها .

وبعد مسيرة عشر دقائق وصلنا الى مجموعة من الصخور تدعى « حدَيبة المبرأة » ، تقع في الطرف الجنوبي من السهل الذي كنا قد عبرناه أول ما دخلنا وادي هواتف . وعندما انتحينا الى اليمين ، بعد ان قطعنا ذلك المنبسط من الأرض ، وصلنا الى شعب « حنو » فشعب « مشيّش » ، وهما رافدان يستقيان ماءهما من مرتفعات « ام بطمه » ويجريان حتى يصلا الى سفح الجبال البركانية المعروفة باسم « ام القرون » .

وقد وجدنا في المجريين إذ ينحدران بقايا ضيعة مهجورة ، ربما كانت قرية عربية يعود تاريخها الى القرون الوسطى ، او لعلها خطاً دفاعياً بني فوق صخرة مسطحة من حجارة وضعت بعضها فوق بعض دون « مؤونة » . ولذا فان الزمن والطقس قد فعلا فعلها في تدميرها ، حتى اننا لم نجد من تلك الخربة غير جدار لا يزيد ارتفاعه على ثلاثة أقدام ، يبدو ان الزمن قد رحمه فسمح له بالبقاء .

وكانت بعض البنايات في تلك القرية مستديرة الأرضية . ويبدو ان أصحابها بنوها على تلك الصورة ، وجعلوها متراصة قريبة من بعضها علّها تشكل سوراً يمنع الأعداء من اقتحام القرية أو منطقة روافا .

ومن هذه النقطة أخذنا نتسلق أقل القمتين ارتفاعاً كي نلقي نظرة على المنطقة وجوارها ، وقد أشار ادلائي الى سلسلة من الصخور غريبة الشكل تسمى « العمدان » . ولما لم نكن قد رأينا هذه الصخور من قبل . فلم أهتم بها كثيراً إذ انني قلت محدثاً نفسي ، انني سأزور المنطقة بعد سنتين ولا بد ان أضرب خيامي عند اقدام هذه الصخور وبالقرب من القرية النبطية المجهولة

كانت قمة جبل الخرينات تقع الى الجنوب من المكان الذي نقف فيه الآن ، بينما يقوم جبل دِباغ الى الغرب ، بين جبلي حرب الى اليمين وذرى سلسلة «شمر» الى اليسار . أما في الجهة الشرقية ، فقد كنا نرى قمة جبل « هويدي » .

وفي حضيض هذا الجبل توجد آبار ماء واشجار نخيل تحمل الاسم ذاتـــه . وكذلك كان اخدود وادي « تَمَـارَ » يجري من امامنا باتجاه اليسار الى اليمين حتى يصبح القناة الرئيسية لوادي « داما » . اما بقية المناظر المحيطة بنا فقد كانت ذات المناظر التي سبق ان رأيناها من نقاط اخرى . ولذلك فقد قررت الاسراع بالعودة الى المخيم على امل ان امضي بعد الظهر في اتمام نسخ النقوش التي وجدناها عند المعبد ، والاستعداد للرحيل في صبيحة اليوم التالي .

وكانت الحادثة الوحيدة التي وقعت بعد ظهر ذلك اليوم ، هي وصول اسراب من الجراد قادمة من تهامة . ولم تلبث هذه الجيوش الجرارة ان حطّت فوق المراعي الخصبة الموجودة في المنطقة .

لقـد سبق لي ان اشرت الى ان منطقة الصخور الوردية في الخرينات والتي رأيتها في مستهل زيارتي لمنطقة زوافا ، منطقة جديرة بالاستكشاف ، وفيها امل كبير بوجود كثير من المنقوشات التي قد تروي لنا شيئاً عن زوارها السابقين من النبطيين ، والثموديين . ولذلك قمت ظهر اليوم الذي وصلنا فيه بزيارة اقرب تلك الصخور على جانبي وادي هوانف . وهو واد يقع رأسه الى الشرق من مجموعة الصخورالكبيرةالمعروفة بـ «ام عُوَل» المشرفةعلىالخرينات .

وكانت احدى تلك الصخور الوردية تدعى « بُخترية » وتقععلىالضفةالشمالية للوادي . وهي عبارة عن كتلة ضخمة من الصخور الوردية اللون تحيط بها طبقة سميكة من الصخور البيضاء . ومن تلك الصخرة تمتعنا بمنظر المنطقة وشاهدنا جبلي وطر وشيبان الواقعين في المنطقة البركانية الى الشرق .

اما النقطة الثانية التي زرتها فقد كانت تضم صخرة معزولة بـــين حقول

المزروعات الموجودة في الوادي ، وتدعى « درّة الهاتف » . ولقد وجدت هناك بعض المنقوشات ، غير انها كانت مشوهة الى حد كبير . كما وجدت بعض الآبار المهجورة أبيار هاتف - على بعد حوالي ثلاثمائة ياردة من درة الهاتف . وبين الصخرتين سالفتي الذكر وجدنا ما يمكن ان يكون اساساً لبناء الحجارة غير المشذبة ، وان كان من الجائز انه بقايا خزان ماء طمرته الرمال والحجارة .

وعلى مقربة من ذلك المكان تقع الأرض المرتفعة التي تؤدي الى صخور هواتف ، وهي معلقة في اعلى الجبل بشكل يسمح ان تكون قد استعملت كملجأ يقي شدة الهاجرة من قِبل اجيال من الثموديين وغيرهم من الرعاة الذين وفدوا بعدهم الى المنطقة .

وقد زرت منطقة خربنات ذاتها في صبيحة اليوم التالي ، حيث قمت بالتجول في ممراتها الضيقة التي تصفر فيها الرياح ، وذات الجدران الناعمة المتعددة الألوان . وانني لأذكر كيف تناولت طعام الغداء هناك في ظل صخرة هائلة على شكل مخروط احمر وردي ، تشرف على مرتفع يتصل بقمة احدى الصخور الاخرى . وقد مررنا في أحد المواضع تحت قوس طبيعي من الصخور الوردية . وكنا نجد بين الفينة والفينة الكثير من المناظر التي تستحق الاعجاب والتأمل بجمال الطبيعة .

غير ان هذه الصخور الجميلة كانت خالية من أية نقوش ، الأمر الذي اثار حفيظتي الى حد ما ، فهي لم تحدثني بشيء عن الأجيال التي عاصرتها قبل ان ازورها أنا . وكنا قد مشينا الآن مسافة اربعة اميال أو أكثر لنشاهد هذه الصخور ، ولم يبق هناك ما يستحق ان يرى . ولذلك عدت ادراجي من الطريق التي قدمت منها لأصل الى المخيم قبيل غياب الشمس .

وأشرق صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) ، فكان أشد برودة من أي يوم آخر اثناء رحلتنا بطولها ، حيث تدنت درجة الحرارة الى ٥، ٢٠ درجة فهرنهايت . وفي تمام الساعة السابعة والنصف ، كنا

جميعاً على اهبة الاستعداد لنستأنف تجوالنا ، ومع ذلك فقد أخرنا المسير حتى بلغت الساعة التاسعة والنصف . وفي الوقت ذاتـه حشدت جميع عمـالي ، وكان عددهم يقارب الاثني عشر ، لرفع الحجارة الكبيرة الأربعة التي عثرنا عليها بين خرائب المعبد وعليها بعض النقوش . وذلك من أجل صيانتها من عوادي الزمن ومن ان تصاب بالمزيد من الدمـــار ومن ثم تحركنا باتجاه وادي « هواتف » .

والجدير بالذكر ان سيارتينا كانتا أول آليات تصل الى روافا ، غير ان المزيد من الآليـــات ، ما لبثت ان تبعتنا فيما بعد ، مستدلة على الطريق بآثار العجـلات التي تخلفت . وقد تلقيت رسالة من زعل بعد سنة من الرحلة يبلغني فيهـا ان تاجراً من « القطيف » يدعى « خالد الفرج » له اهتمام بالآثار قد زار المنطقة (روافا) .

وحين زرت المعبد مرة ثانية بعد سنة ، وجدت ان النقوش الأربعة ما زالت قائمة في المكان الذي وضعناها فيه ، أما النقوش النبطية فكانت قد اختفت . كما وجدت أحد النقوش اليونانية المهمة قد اصيب بعطب شديد من جراء محاولة تجزئته كي يصبح قابلاً للحمل . ومع ذلك فقد كانت محتويات النقش مـا زالت مقروءة . وعن طريق هذه النقوش تمكنت من معرفة الاسطورة المسجلة عـلى ذلك الأثر . وكذلك اكتشفت ان نقش « غلاديوس موديستوس » قد اختفى أيضاً !!

ومما لا شك فيه ان خالد الفرج هذا هو المسؤول عن اختفاء الآثار التي تعبت أنا في اكتشافها ، ولكنه وقد توفي في السنة التالية ، لم يعد هنـاك ثمة من نلقي المسؤولية على كاهله .

أما مجموعة الآثار التي جمعها خالد الفرج ، وكان قد اتيح لي فرصة رؤيتها عن طريق بعض خبراء شركة الأرامكو الاميركيين من اصدقاء خالد ، فأعتقد بأن الحكومة الأميركية لن تتعب نفسهـا بالتفكير في شرائها لاضافتهـا الى متحف

« جدة » ، وكذلك فانني اعتقد بأن السلطات السعودية في يومنا هذا لن تجد في هذه الآثار ما يغريها بشرائها من ورثة خالد .

هذا وقد واصلنا سيرنا نحو وادي هواتف منحدرين في طريق رملية بللتها مياه الامطار وغطتها الحشائش . وكنا نهبط الطريق على مهل حتى وصلنا الى الطرف الداخلي لمضيق «الفهدية» ، حيث تمهلنا قليلاً لأجمع النقوش الثمودية القليلة المتناثرة بين صخور الموقع . وقد قمت بالتقاط بعض الصور ايضاً . وكانت الطريق حتى هذه النقطة قد استغرقت خمساً وأربعين دقيقة ، مع ان بعدها لا يزيد عن عشرة اميال من روافا ، حسب الطريق الجديدة التي اتبعناها . وقد اكتشفت ان المسافة بين تبوك وروافا تبلغ أربعة وتسعين ميلاً او أقل من ذلك بقليل .

وكانت اسراب الجراد ما زالت تظهر في المنطقة بأعداد كبيرة ، فأتيحت الفرصة لدليلي « عوده » كي يجمع كمية كبيرة من الجراد كان ينظمها في سلك يريد ان يحتفظ به للمستقبل .

وبعد ذلك توجهنا من طرف المضيق الأبعد ، الى جهة الشمال الغربي فوق طريق سهلية مغطاة بالحشائش والأدغال الصغيرة . اما السهل الذي كنا نخترقه فيدعى « فهم » . وبعد ان قطعنا مسافة نصف ساعة في سير مريح (ولعلنا قطعنا خلالها مسافة سبعة اميال) توقفنا لنتناول طعام الغداء ثم نجمع بعض النقوش من بين الصخور المتناثرة التي تدعى « الهُبيرات » . ومن هذه النقطة مضينا في اتجاه شمالي غربي ، نحو جبل « قُوَيْني » ، وهو في منتصف طريق « الزاوية » التي وصلنا اليها بعد مسيرة ساعة كاملة (ربما قطعنا فيها ١٥ ميلاً) . وفيما هناك وجدنا كمية كبيرة من النقوش عند القمة بين مختلف الصخور المتناثرة بجوار الجبل .

كانت الشمس تكاد تغرب عندما استأنفنا سيرنا في الاتجاه ذاته نحو صخور

« عاصية » التي تبعدمسافة اربعة اميال في اسفل قناة وادي الابيضات. وقد عبرنا هذا الوادي دون اية صعوبة ، ثم توقفنا للاستراحة عند خليج بالقرب من سفح الجبل ذي الصخور الحمراء التي دفعت عنا شر الرياح القارسة وكانت تهب آنذاك من جهة البحر .

وقد اشتركت في نصب خيمتي.. وامضيت تلك الليلة في راحة لا بأس بها بعد ان تناولت عشاء دسماً . وكان الصحب الذين انضموا الينا في روافا لم ينسوا ان يحضروا معهم عدداً من الخراف من تبوك .

والجدير بالذكر ان العرب يرسلون قطعانهم الى وديان تهامة خلال الشتاء ، وذلك لتجنيبها البرد القارس الذي يجتاح منطقة الحصمة العالية ، مع ان الترمومتر لم يسجل في تلك المنطقة برداً خارقاً للطبيعة . فقد بلغ الحد الادنى لدرجة الحرارة في تلك الليلة (٣٦ درجة فهرنهايت) .

هذا وقد أمضيت صبيحة اليوم التالي في التفتيش بين الصخور الناعمة التي يبلغ طولها ١٠٠ قدم ، والصخور المسطحة الموجودة في المنطقة ، عساي أجد شيئاً من النقوش او غيرها من آثار ثمود . والمعروف ان منطقة الزاوية مليئة بالصخور المختلفة الأحجام . وقد اكتشفت بان عدداً قليلاً من هذه الصخور لا تحوي نقوشاً او صوراً ، بينما تبين لي ان مجموعة عاصية هي أفضل الصخور . ولعلها كانت آثار مركز للحضارة القديمة . وقد ظلت محتفظة باهميتها حتى يومنا هذا .

ومما لا شك فيه ان الكهوف والمغاور العديدة الموجودة في هذه الصخرة الهائلة ، كانت قد استخدمت من قِبل بني عطية ، كحظائر يودعون فيها قطعانهم ومخابىء لتموينانهم مثل القمح والدقيق والتمر والأرز ، والمواد البسيطة التي يحتاجها الرعاة في تجارتهم كالسمن ، وحياتهم كالملابس .

وتملك هذه المخازن عائلات او مجموعة من الناس يتفقون فيما بينهم وبموجب

هذا الاتفاق يحق لكـل فرد مشترك في الملكية ، ان يأخذ مـا يحتاج اليه من محتويات المخازن ، ولا يطلب الى مثل هـذا الرجل أي اجراء رسمي سوى ان يترك اشارة تدل على انه زار المخزن . ومن أجل ذلك كان مثل هـذا الرجل يعمد الى نقش اسمه على الصخر . وكان المسؤولون عن هذه المخازن يجتمعون في فترات دورية على شكل مجلس قبَلي يحضره أصحاب التواقيع (النقوش) المسجلة على الصخرة ، وذلك من أجل عدّها ولكي يدفع كل واحد منهم ما يستحق عليه من مبالغ .

ويقال ، واعتقد بان هذا صحيح ، بانه لم يحدث ان حاول أحدهم غش جماعته ، وان كان مجال شرورهم يبدو واسعاً في المنطقة . وهكذا فان ثقتهم الواحد بالآخر تثبت القول السائر « بان هناك شرفاً بين اللصوص » .

ويمكن القول بان أسوأ الجرائم التي يرتكبونها ضد بعضهم البعض هي جريمة تخريب بساتين النخيل وغيره من الأشجار الكثيرة في المنطقة . فهم يعمدون الى قص أغصانها لاطعام قطعانهم التي يجمعونهـا بالقرب من الأشجار . وكثيراً ما كنت أرى فتاة صغيرة تتسلق شجرة عاليـة تُعمل في أغصانهـا يد القطع والكسر ، دون ان يكون في رأسها أية فكرة عما تفعل غير حاجتها الآنية لاطعام حيواناتها .

ولربما يأتي يوم يتعلمون فيه ان القيام بالتقليم الحذِر في أوقات تقليم الأشجار ، من شأنه ان يوفر لهم كمية من علف الماشية تعادل ما يقطعونه بشكل اعتباطي ، ودون ان يدمروا مصدر هذا العلف بما يقومون به من أعمال فظيعة .

هذا وما زالت عمليات صنع الفحم وجمع الحطب للوقود أكثر قساوة وشراً من العمليات الأولى . ويمكن اعتبار هذه جرماً أفظع . وان كان لا يوجد في منطقة الزاوية عدد مغرٍ بذلك من الأشجار التي يمكن ان توفر لهم حاجتهم من الفحم والوقود . وكثيراً ما شاهدت أشجاراً سوداء محترقـة من جراء تحضير الفحم بغية بيعه في أسواق المدن والبلدان المختلفة .

وقد وجدنا في أحد الكهوف الكبيرة في صخرة عاصية منصة دائرية من « الجص » يبلغ قطرها ١٢ قدماً وتحتل معظم أرض الكهف . أما عمق هذه الدائرة الغائص تحت الأرض فتبلغ أربعة أقدام عند الطرف الخارجي . ويقل هذا العمق عند الطرف الداخلي بمعدل ثمانية عشر انشاً . وكان يبدو ان الدائرة انشئت منذ قديم الزمان. وقد أكد لي أدلائي بانها لا يمكن ان تكون قد انشئت لأي قصد حديث ، وان كانوا في حيرة من الأمر بصدد ذلك . وهم لا يعرفون لماذا انشئت في الأزمنة القديمة .

ومن الممكن ان تكون لهذه الدائرة أهمية خاصة عند الثموديين الذين لا يزال واضعو الدراسات العلمية حول نقوشهم في حيرة من أمرهم ، ومما زالوا يتناقضون فيا بينهم حول طبيعة حياة أولئك القوم . فالنقوش الثمودية تطالعنا في المنطقة الواقعة على طول امتداد الجزء الغربي من شبه الجزيرة العربية من جوار مدينة بتراء حتى اليمن . ولكن هذه المنطقة تشمل مساحة أوسع بكثير من تلك التي كان يقطنها الثموديون كما هو مذكور في كتب الأدب العربي !

وهكذا فان خلاصة الأمر يمكن ان تكون على النحو التالي : ان النقوش واللغة الثمودية رغم اختلاف اللهجات المحلية ، كانتا منتشرتين بشكل واسع بين القبائل العربية القاطنة في المنطقة خلال فترة « بداوة العرب » ثم أثناء فترة الاستقرار في القرى .

إذاً ، من هم مؤلفو الثلاثة عشر ألفاً او الأربعة عشر الفاً من النقوش الثمودية التي باتت الآن معروفة لنا ، بالاضافة الى الألفي نقش التي وجدت في شمال شبه الجزيرة العربية ، والتي اكتشفها « بيير فان دن براندن » ؟ لقد نشر المنقب مؤلفه ، حول النقوش الثمودية فكان أول دراسة جامعة للموضوع .

يقول بعضهم : ان تلك النقوش تعود الى أصحاب القوافل التي كانت تعبر الصحراء ، حاملة التجارة عبر الطرق الصحراوية . ومن الغريب ان يكون بعض هذه النقوش من صنع أصحاب القوافل أنفسهم . وأغرب من ذلك ، ان

حقيقة وجود أعداد كبيرة من هذه النقوش في قمم الجبال العاليــة ، حيث يصعب على أصحاب القوافل الوصول اليها ، يجعل من الممكن القول بان الرعاة ، هم الذين نقلوا هذه النقوش من أمكنتها الأساسية الى أماكن أخرى مختلفـة في الصحراء .

ومن المحتمل كذلك ان يكون هؤلاء قد جمعوا هذه الحجارة التي تحمـــل النقوش لتحصين أماكن اقامتهم ضد الغارات التي كانوا يتعرضون لها بين الفينة والفينة . ومثل هؤلاء الرعاة ، لا بد وان يكونوا من البدو من قبائـــل الصحراء والقرى التابعة لهم .

ويبدو انه من الصعب التهرب من الخلاصة التي تدل على ان كلاً من اصحاب القوافل والرعاة قد لعبوا دوراً في نشر الثقافة الثمودية . وفي رأيي الذي كونته بعد دراسة معقولة للموضوع ، ان اصحاب هذه النقوش هم بدو الصحراء الرحّل والمقيمون . وان هؤلاء قد زودوا اصحاب القوافل بهـذه النقوش على مر الأيام حتى السنوات الأخيرة . وقد كان افراد الطبقة المثقفة يمرون على فترات متقطعة في الطرق الصحراوية التي تمر بها القوافل. وكان هؤلاء يقطنون في مراكز الحضارة والحكم ، وقد استفادوا من هذه النقوش .

ومهما كان أمر هذي النقوش ، فان منطقة « الحصمه » بأسرهـا عبارة عن مكتبة ومتحف للصور يعرض فيهما أدب العرب الأقدمين وفنهم . وهي غنية بالآثار اذا ما قورنت بمنطقة تيماء وما جاورها. وكذلك بالنسبة للمراكز الوسطى في الجنوب مثل « القَهرة » و « قارة » . وقد درست طبيعة الأرض من قمة جبل « عاصيه » بينما كانت الرياح البـاردة تلسع وجوهنا كالسوط ومن القمة استطعت ان أرى ان وادي هواتف ليس رافداً من روافد « الأبيضات » ولكنه يشكل رأس وادي « سُليسِل » الممتد الى اليمين . أما نقطة اتصال « ديشان » و « رويّان » بوادي الابيضات فكانت تقع على بعد ميل واحد في الجهة الجنوبية الغربية . بينما كان وادي « الشِقري » الذي تمر فيه مجموعة القنوات سالفة الذكر

يقع في الجهة الشمالية الغربية . أما الصخور الغريبة الشكل والمحـــاذية لطريق «السد» ، فكانت تقع في الجهة الشمالية الغربية من النقطة التي كنا فيها .

وواصلنا سيرنا باتجاه هذة الصخور . وبعد ان سرنا في تلك الطريق ما يزيد عن ميل، وصلنا الى ثلاث صخور كبيرة تقع على طرف بركة واسعة مليئة بالمـاء تعرف باسم « العُوَيسيه » . وتنساب المياه الى هذه البركة من مكان أمام السد . وهنـــا كان مجرى وادي الابيضات قد تحول الى الجهة الشمالية من الطريق التي كنا نتبعها ماراً بطريق يؤدي الى « الشقري » .

وقد مررنا باسراب عديدة من الجراد كانت غـارزة في الأرض حول سهول « الروثا » . وكانت هذه الأسراب تغطي الأرض السهلية التي نسير فوقهـــا حتى ان عجلات سيارتينا قد قتلت منهـا الألوف . أما الأسراب التي كانت تستطيع الطيران والفرار ، فقد جعلت ترتطم بزجـــاج نوافذ السيارتين ومقدمتيها .

ويبدو ان برودة الليلة السابقة قد جمدت الجراد الغـارز في مكانه ، اذ كان الوقت ظهراً عندما مررنا بتلك الاسراب .

ومررنا من عند طرف « أخَيرم » الذي كان الى يميننا ، فوصلنا الى ارض طينية كبيرة في وسطها صخرة منعزلة تعرف باسم « المقلويّة » ، أما الميـــاه المتجمعة في تلك الأرض فتجري مباشرة نحو السد .

وبعد ان سرنا مسافة عشرة أميال بعيداً عن « عاصيه » وصلنا الى اقصى شمال« أخيرم»، حيث توقفنا لبضع دقائق من أجل القاء نظرة علىصخور منطقة السد ، التي أصبحت قبالتنا مباشرة الآن، قبل ان تتحول الى اتجاه شمالي شرقي على طول امتداد صخور « الشّعْرا » حتى تصل الى سلسلة الصخور الكبـــيرة المعروفة باسم « بايْر » . وتحتل هذه منطقة واسعة ويمتد في وسطهـا سهل رملي يسيح فيه عدد من الينابيـع الصغيرة (ميشاش) ، وتشكل مياهها حفراً مليئة

بالمياه القذرة . ويبلغ ارتفاع هذه السلسلة من الصخور حوالي مائتي قدم ، ولها منزلقات ناعمة وعدد من الرؤوس . وقد كان منظرها على العموم مقبضاً للنفس .

وكان موسيل قد زار المنطقة بحثاً عن النقوش ، ولكنه لم يوفق في العثور على شيء ، وان كان من المحتمل ان يكون قد فتش المنطقة تفتيشاً غير دقيق يتناسب مع طاقته على تحمل مشاق الوصول اليها .

اما انا فقد وجدت الكثير من النقوش هناك ، وكانت هذه النقوش تبدو أقدم من تلك التي وجدناها في عاصية مثلاً .

ومن سوء الحظ ان يكون الكثير من نقوش هذه المنطقة قد مُحيَ بفعل العوامل الجوية . ويستطيع المرء ان يقدّر كونها ترجع الى فترة تاريخيه اقدم من سابقتها ، من اللون الباهت الذي وجدت فيه . ومهما يكن من أمر ، فان اقدم النقوش الثمودية يجب ان لا يزيد عمره على الفي سنة ، ومع ذلك فان بعض هذه النقوش كان يبدو وكأنه حديث تماماً ، الأمر الذي يثير الاستغراب .

وانه لمن سوء الحظ ان لا تعطينا قمة «باير» المنظر الذي كنت اتوقع الحصول عليه بعد تسلق قمة على ارتفاعها . اذ انه على الرغم من شروق الشمس فقد كان الضباب الكثيف يلف المنطقة بغلالة سميكة ، كما كانت هنالك ريح باردة قوية . ولقد شعرت انا وعودة بكثير من الارتياح ونحن ننزل من تلك القمة لنعود الى رفاقنا حيث جلسنا نصطلي معهم حول النار . ثم تناولنا غداءاً قبل ان نستأنف سيرنا .

ومن ثم درنا حول الفجوة الواقعة بين « برقا عيد » الى اليسار ، وسلسلة مرتفعات « عقير » التي تمتد حتى اقصى الطرف الشمالي من برقا عيد . وتُقطع المسافة الى هناك بأقل من عشر دقائق بالسيارة . وبعد ذلك مباشرة اصيبت السيارتان وغرزت عجلاتها في الرمال الكثيفة ، وكان يغطيها ضباب كثيف .

ولقد توقفنا لحظات قليلة لنجمع بعض النقوش من عند صخرة من صخور العقير ، ثم سرنا على الأقدام مسافة اثني عشر ميلاً قبل ان تلحق بنا السيارتان . بيد ان احدهما سرعان ما غرزت عجلاتها في الرمال من جديد فتوقفنا مرة ثانية .

كان معسكرنا في « رضا » على بعد بضعة اميال عن المنطقة التي كنا عندها مع ميل الى الجهة الجنوبية الشرقية . وكانت سلسلة مرتفعات رضا ومرتفعات « دافِن » من النجود القليلة الارتفاع ومحاطة بمساحة شاسعة من الأراضي الرملية التي تصلح ان تكون مراعياً جيدة . واستأنفنا المسير ، فوصلنا الى ممر الزور ثم سرنا حوالي اثني عشر ميلاً حتى وصلنا الى نهاية مضيق فيها .

وبدلاً من ان اسير الآن في طريق تبوك كما كان مرافقيّ يأملون ، انعطفت يميناً عبر أعالي وادي « غُلَيْل » . ويمكن القول ان طريقنا ظلت محاذية لسفح جبال فيها حتى وصلنا الى منطقة وعرة جداً مليئة بالصخور والحفر وقطع الحجارة . وكان لا بد من سلوك هذه الطريق لكي نصل الى قناة وادي « عويند » الذي لم نستطع بلوغه الا بعد غروب الشمس .

وسرعان ما توقفنا لنضرب الخيام بالقرب من دغل كبير فوقه صخرة هائلة تدعى « خاقوق » ، وبقربها صخرة بركانية تعرف باسم « مُواعز » ، وحولها عدد آخر من الصخور البركانية . وقدّرت اننا لا بدّ قد انحدرنا الف قدم من قمة المرتفعات حتى وصلنا الى الرضا . غير ان نسيم المساء الرقيق قد عوضنا عما كنا نلاقيه من برد قارس ونحن في المرتفعات . وكانت السماء صافية الأديم ما عدا غيمة واحدة تحلق فوق الوادي .

وفي هذه الأثناء وصلت السيارة الثانية ، وكانت قد تخلفت اثر خلل ألم بمحركها ، وهكذا اجتمع شملنا كما نبغي . وكان في تلك السيارة كل من «زعل» ورجلي البوليس « عطا الله » و « عبد الله بن قعم » ، والسيد الذي لا يمكنني ان أنساه أبداً . وهؤلاء هم كل الذين استبقيتهم معي . أما رجال بني عطية فقد سمحت لهم بالعودة بعد ان اجزلت لهم العطاء نتيجة اخلاصهم في عملهم أثناء

مرافقتهم لي ، كما وعدتهم بالمزيد من العطاء فور عودتنا الى تبوك .

وكانت عودتنا المتأخرة الى هذا المكان ، والعشاء غير المتقن الذي قدم لنا على عجل ، قد جعلانا نشعر بالنعاس ، فسرعان ما نمنا جميعاً . ولم أستيقظ إلا بعد ان أشرقت الشمس وراحت تجاهد بحزم لطرد الضباب الذي يخيم على المنطقة . ولو لم يكن وقت الصلاة قد حان لما أيقظوني ، ولما شعرت بحاجتي الى قدح من الشاي . وكان الوقت عندما استيقظت السابعة صباحاً .

كانت نظرات الامتعاض البادية على وجوه مرافقيّ ، الذين كانوا يؤملون ان يقضوا الليلة بين أحضان زوجاتهم ، حافزاً لي على القاء محاضرة عليهم في ضرورة الجدّ في العمل والفضيلة . وهكذا استطعت ان احتفظ برفقتهم .

أما السبب الذي كنت من أجله تواقاً لزيارة وادي العويند ، فهو ان مرافقيّ أنفسهم تحدثوا عنه بكثير من الحماسة بينما كنا بعيدين عنه . وقالوا انه غني بالخرائب المهمة التي تنتشر فيه وفي الوادي المجاور له في منطقة يطلقون عليها اسم « بيبان » . وقد قالوا أيضاً ، ان الخرائب هناك تشبه الأضرحة النبطية الى حد كبير .

على ذلك الأساس قررت ان أزور هذه البيبان . فأبلغت المرافقين انه كلما أسرعوا في ايصالي اليها ، كلما كان ذلك أفضل لهم ، إذ انه يقصّر مدة غيابهم عن بيوتهم ويقرب عودتهم الى تبوك .

وبعد ان ألقيت نظرة على الطريق ، وجدت ان الصخور المنتشرة فيها ستجعل انطلاق السيارتين أمراً شاقاً ، ولكنني صممت على ذلك . ولم نكد نتابع نشاطنا مدة نصف ساعة حتى تبين لي ان احراز أي تقدم الى الأمام من الأمور المستحيلة ، ان لم يكن الأمور الخطرة . ولذا فقد استدرنا لنعبر سهلاً جانبياً خرجنا منه الى بقعة تنتشر فيها صخور مستديرة رائعة تدعى « حَدَق الذئب » .

وهنا كانت تعتمل الرغبة في أعماقي لتسلّق احدى هذه الصخور ورؤية ما وراءها من أشياء غريبة جذابة . ولما كنا قد تركنا حوائجنا في المخيم الذي قضينا فيه الليل بحراسة عطا الله فقد أمرت « السيد » أن يعود بالسيارة الى هناك بانتظار عودتنا .

وهكذا اصطحبت زعل وعبد الله وبدأنا نتسلق الصخور ، رامين الى الوصول الى وادي عويند الأعلى من حيث نعود أدراجنا بعد ان نلقي نظرة على الخرائب .

وكنت قد أعطيت تعلياتي الى السائق ، بان ينتظرنا ساعة قبل ان يتوجه الى المخيم ، فقد كنت أخشى ان لا نتمكن من الصعود الى قمة الصخور . وعندها يكون لزاماً علينا ان نعود . ولما كان زعل غير معتاد على تسلق مثل هذه الصخور القاسية ، فقد طلبت اليه ان يعود الى السيارة وان يتوجه بها الى المعسكر على ان نلتقي هناك في وقت لاحق من النهار .

وأخيراً وصلنا الى قمة الصخور .

ولكن ، بعد ان بذلنا مجهودات شاقة استغرقت أكثر من ساعة ، على الرغم من ان ارتفاع القمة لا يزيد على ٤٠٠ قدم عن سطح الأرض . وعندما بلغنا القمة وجدت اننا في اتجاه جنوبي غربي من 'فهـا او سلسلة جبال « ام َجلاد » .

ومن هناك هبطنا الى قاع وادٍ ثم صعدنا منحدر وادٍ آخر (تلاهما رافد من روافد وادي عويند الذي كان يقع الى يسارنا) حتى وصلنا الى مرتفع صخري وعر ، قادنا الى سفح منحدر يبلغ عمقه حوالي ٥٠٠ قدم . وكانت تتراكم في أسفل هذا الوادي رمال كثيفة ، لا تكاد تتحمل أي ضغط من أية مادة صلبة . وبعد بجهود شاق تمكنا من تسلق قمة ذلك المرتفع . وهناك توقفنا لفترة من الزمن ريثما نتمكن من مسح المنطقة . وكانت صخور (الحاقوق) التي تشرف على معسكرنا تقع في الجهة الشمالية الشرقية . أما القسم الجنوبي من

سلسلة مرتفعات ُفها فكان يقوم في الجهة الشمالية الغربية على وجه التقريب . ويبقى وادي عويند ، وكان يمتد الى يسارنا مع ميل الى الجنوب في أقصاه حتى يدخل في سهل واسع تبيّنته في الجهة الجنوبية من النقطة التي نقف فيها .

وعند زاوية انحناء الوادي على الضفة اليمنى منه تقع التلة الكبيرة التي تعرف باسم (حمرا شوار بي) ، وفي أسفل هذه التلة على الضفة اليسرى من الوادي توجد قطعة من الأرض المرتفعة تسمى « َخشم عسّاف » .

وفي هذه النقطة بالذات قام أفراد قبيلة بني عطية بمهاجمة قافلة للوهابيين كانت محملة بالمؤن المرسلة من «وْجه» الى تبوك . وكان ذلك في أوائل عهد احتلال آل سعود للمنطقة . وكان ناصر بن عساف يرافق تلك القافلة الكبيرة، وهو من سكان «رس ّ» الواقعة في قصيم ، وكان من المقرر ان يخلف هذا اول حاكم وهابي في تلك المنطقة واسمه « محمد بن شهيل » .

وقد ُقتل ناصر في المعركة ، وحينئذ ما كان من عصابات بني عطية الا ان أعملت يد السلب والنهب في حمولة القافلة . غير ان التاريخ لا يحدثنا عن الحملة التي هرعت الى المنطقة لمواجهة تحدي القبيلة لسلطة ابن سعود !!

وقد وقعت هذه الحادثة في سنة ١٩٣٠ . وبعد سنتين من هذا التاريخ وأثناء عودتي من رحلة الى الربع الخالي وجدت محمد بن شهيل قد عين حاكماً لمنطقة « ُترَبة » في اقصى جنوب شبه الجزيرة العربية . وكانت هذه الحادثة في العام ذاته الذي وقعت فيه ثورة (دويش) (١٩٢٩ - ١٩٣٠) . تلك الثورة التي كانت موجهة ضد ابن سعود في شرقي شبه الجزيرة العربية والتي قتل اثناءها (عبد العزيز بن مساعد) حاكم حايل عبدَ العزيز ابن فيصل الدويش في (ام رضمة) على الحدود العراقية .

**

كان علي ان اخلع نعلي لأتسلق المرتفع الرملي الكبير . وقد فعلت، ثم توجهت

وانا عاري القدمين ، الى المنحدر الرملي لأتفحص مدى احتماله للثقل ، وهوذلك المنحدر الذي يفضي الى الأرض الفسيحة المتاخمة لوادي عويند . وقد استغرقت المسافة حتى الضفة الغربية للوادي حوالي نصف ساعة ، مررنا اثناءها بتلتين لم نستطع ان نعرف لهما اسماً وإن كان عبد الله قد ابلغني انهما تدعيان البيبان !

وعندما بحثت حولهما لم أجد شيئاً يمكن ان يحقق الآمال الواسعة التي كنت أعلقها على هاتين التلتين ، تلك الآمال التي ضغطت على دماغي نتيجة الاسم الغامض الذي كان له في نفسي اثر السحر. ولقد وجدت انهما ليستا غير تلتين عاديتين جداً ، وفي وسطهما ممر ضيق للجمال ، شقّه أصحاب القوافل من أجل أن يكفوا أنفسهم مؤونة الدوران حول الوادي .

وهنا بدا لي أن عبد الله قد أصبح قليل الخبرة ، ولعله كان في حيرة من أمره فلم يستطع أن يحدد مكان بئر عويند . وعلى هذا الأساس رأيت أن أفضل شيء نفعله هو أن نتبع طريق الوادي الى أسفل ، اذا ما أردنا ان نصل الى المخيم في ضوء النهار . وكان الوقت آنذاك ظهراً .

وهكذا بدأنا نشق طريق العودة ، غير اننا لم نمض غير بضع خطوات حتى برز لنا بعد منحنى الوادي شيء غير عادي أثار انتباهنا جميعاً .

ولما كان لدي متسع من الوقت فقد قررت ان ارضي فضولي ، فلم نستأنف سيرنا مع انحدار الوادي قبل مضي ساعتين . ولشد ما كان استغراب عبد الله الذي حدثني عن خرائب « عويند » عندما وجدنا أنفسنا في وسطها فجأة .

كانت هذه الخرائب لقرية أثرية كبيرة ، وكانت حجارتها المتساقطة تحمل اعداداً كبيرة من النقوش الثمودية . ولم أجد على وجه هذه الخرائب غير بقايا قليلة من النقوش المكسورة التي لا يمكن ان تقص علينا تاريخ هذه البقعة الأثرية .

وكان لدي انطباع بأن النصوص الثمودية المبعثرة على الحجارة هنا وهناك

قد تكون سُجلت قبل ألفي سنة على حجـــارة نقلت من خرائب مدينة أثرية أخرى أقدم من هذه عمراً . ولما لم يكن هنالك من يستطيع ان يحل لنا المشكلة وينير لنا الطريق غير أحد علمـــاء الآثار ، فقـــد اقنعت نفسي بالاكتفـاء بنسخ تلك النقوش .

وكان العطش قد بلغ برفيقي (عبدالله) شر درجـــة ، فجاءني مستأذناً بالبحث عن ماء . وكنت ظامئـاً ، فسمحت له بأن يقوم بجولة عله يجد البئر ، وقد وجده على بعد ميل من هذه الخرائب .

وكنت قد انتهيت من عملي تقريبـاً ، عندما عاد عبدالله ، فجلسنا نتناول غداءنا البسيط الذي كان عبارة عن البسكويت والتمر . وكنت احمل في « الترموس » كمية مـــن الشاي بدون سكر . ولكن عبد الله رفض دعوتي له ليشاطرني هذا الشاي قائلاً انه قد وجد البئر فأطفأ غلّته . وقد شربت القليل من الشاي جاهداً ابقاء شيء منه للطريق الطويلة التي تنتظرنا

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر تحركنا منحدرين مع الوادي من جديد . وبعد حوالي مسيرة ربع ساعة تركنا ذلك المجرى لنحاذي في سيرنا مرتفعات صخرية تقع الى الناحية اليسرى من الأراضي الرملية . وهناك وجدنا الجمال قد شقت لها طريقاً تتجنب بفضلها السير في الرمال الكثيفة المتراكمة حول منحنى آخر لذلك الوادي .

وقادتنا الطريق الى نقطة اخرى من مجرى الوادي تقع مقابل مرتفعـــات (شواربي) حيث وجدنا ضريحاً مبنياً من الصخور ، يبدو انه أثري ، وان كان من الممكن ان يكون قبر (ناصر بن عساف) نفسه .

وتابعنا سيرنا الى الامام حتى توقفنا قبيل الساعة الرابعة لنؤدي صلاة العصر في نقطة توقّعنا ان نجـــد السيارة بانتظارنا فيها . ولكننـــا لم نجد لها أي أثر أو صوت . فمضينا قدماً ونحن نأمل ان تأتي السيارة لتنقذنا من الكارثة الـــتي

كنا سنتعرض لها . وفي الوقت ذاته اعترف لي عبدالله بأنه وجد بئر (عويند) جافاً ، وانه تبعاً لذلك لم يشرب أي شيء منذ ان غادرنا مخيمنا في الصباح .

كان كل ما تبقى معي من الشاي لا يزيد على نصف قدح ، فقدمته اليه وأنا على ثقة من ان السيارة ستصل لانقاذنا مهما كان الوقت . وقد أصر عبدالله عليّ ان أشرب كل ما تبقى من الشاي ، فشكرته على ذلك ثم استطعت اقناعه بصعوبة ان يحتسي حصته بعد ان هددته بسكب تلك الحصة على الرمال . ولم اكن خلال جميع تجاربي في شبه الجزيرة العربية قد قابلت ولاءً يؤثر في النفس وتضحية بالروح مثل هذه التي ابداها عبدالله .. لقد كان يموت عطشاً ، ولكنه لم يعترف بالهزيمة ، ولم يحاول ان يطمع !!

ومررنا حوالي غروب الشمس بأشارة منصوبة ، لعلها لارشاد الرعاة الى الطريق . وقد عقب تلك الاشارة ان مررنا بكومتين صغيرتين من الحجارة تشيران الى ان بعض البدو المجهولي الهوية قد قتلا هناك . وعلى ضوء النهار المحتضر ، استطعنا ان نرى آثار عجلات السيارة وهي عائدة فتبعنا هذه الآثار حتى ارخى الليل سدوله فأصبح من الصعب علينا ان نسترشد بتلك الآثار . ومن الممكن ان يكون مخيمنا غير بعيد عن هذه المنطقة ، ولكننا كنا نتوقع ان نفقد أثره في الظلام .

وبالاضافة الى ذلك ، فاننا لم نر أي أثر نهتدي بواسطته الى المخيم .. لم نر ناراً مثلاً . ولذلك فقد قررنا ان نتوقف حيث نحن ، دون ان يكون معنا عشاء أو ماء .

وعمدنا الى الحيلة فأشعلنا ناراً لعلها تهدي جماعتنا الى مكاننا أو تبعث الدفء في أوصالنا على الأقل ، في تلك الليلة القارصة البرودة . ولم نستطع ان نرى آثار عجلات السيارة إلا بعد ان اشرقت الشمس ، حيث رأينا السيارة متجهة نحونا من نفس الطريق التي سلكناها ليلة البارحة . وقد اتضح لي ان جماعتي امضوا الليل في « حدق الذئب » رغم انني ابلغتهم بأنني لن ارجع من تلك الطريق بل من

طريق وادي عوينذ .

وكذلك فانهم لم يحاولوا الاهتداء الى آثارنا ، وان كان عطاالله قد امضى الليل يبحث –هو وبعض البدو على ظهور البعران– عن آثارنا في الوادي. وكان من حسن الحظ انهم وجدوها . وانه لمن حسن حظنا بالفعل ان تكون الخاتمة على هذا النحو . ولم يسعني أنا وعبدالله إلا ان نحمد الله على كل حال ، وان كان شعورنا الداخلي يختلف تماماً .

كان أول ما فعله عبد الله الآن هو أن ملأ معدته بالماء ، بينما انتظرت أنا قدحاً من الشاي . ولم أكن في الحقيقة أشعر بجوع أو عطش !.. كنت أستهلك الكثير من الطباق في فترات صحوي ، الأمر الذي لم يكن يحبه عبد الله .

وسرعان ما نسينا مصاعبنا ، ولكننا لم نتحرك من مكاننا للعودة الى المخيم حتى الساعة العاشرة. وقد وصلنا الى النقطة التي تعطلت فيها سيارتنا الثانية ، وكانت تلك النقطة تقع ما بين (برقا سمَيحان) و (برقا دياج) . وبعد ذلك بقليل توقفنا عند صخور (معيقلة) لكي أنسخ بعض النقوش الهزيلة التى بدت بعد كشطها وكأنها جديدة تماماً . وكانت عبارة عن صور لفرسان وجمال . وبعد حوالي نصف ساعة وصلت الى بيت الضيافة في تبوك حيث قدمت نقوشي الى (علي ثروة) عندما التقيت به حول عشاء فاخر ، أعده مضيفنا للترحيب بنا.

أما ما تبقى من ذلك المساء فقد أمضيته في قراءة مجموعة كبيرة من الرسائل كانت قد وصلت أثناء رحلتي ، وكانت هذه المجموعة اول رسائل تصلني منذ أن غادرت المدينة قبل أربعين يوماً .

٨

« شرورا » والـ « قرَّيّة »

أمضيت الفترة الواقعة ما بين عودتنا من بعثة (الروافا) في الثامن والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني) والأول من (شباط) فبراير ، (وهو اليوم الذي غادرنا فيه تبوك نهائياً لنقوم بالمرحلة الثانية من جولتنا : أمضيت هذه الفترة في نشاطات شملت منطقة الواحات وخارجها ، وهي المنطقة التي سبق ذكرها في الفصول السابقة .

وقد كرست يومنا الأخير في تبوك لزيارة المكان المعروف باسم « رجم شوهار » . وعدنا من هناك في الوقت المناسب لنتناول غداء أخيراً في بيت الضيافة بمعية علي ثروة ، الذي سأظل أذكر مساعداته وكرم وفادته بكثير من التقدير .

كان الوقت بعد الظهر عندما غادرنا تبوك متبعين طريق السيارات المعتادة الى الغرب من السكة الحديدية ، على أمل ان نقضي الليلة في سفح جبل « شرورا » القائم الى الشمال من تبوك . وبعد مسيرة حوالي اربعة اميال عبرنا مجرى وادي

« النّصَيْفه » ، لننفذ منه فندخل سهل « المحتطب » الفسيح بعد بضعة اميال اخرى .

ويبلغ عرض هذا السهل عدة اميال ، وتحصره سلسلتان من المرتفعات من جانبي خط السكة الحديدية . وكانت مياه الفيضانات الناجمة عن ارتفاع منسوب قنوات « معايسي » و « غويّل » و « بقّار » وهي جميعها روافد لوادي عوينِد تصل الى هذا السهل فتمحو آثار الطريق في كثير من المواضع ، وتترك السيارات وحظها لتقفز فوق الحفر التي ما زالت قائمة رغم مضي خمس وثلاثين سنة على استعمال الطريق .

وبعد نصف ساعة من مغادرتنا تبوك وصلنا الى محطة سكة حديد المحتطب وهي بناية من طابق واحد ، مؤلفة من أربع غرف ، مشيدة من حجارة مشذبة .

وتقوم حول البناية بضعة اكواخ على شكل دائرة ، غير ان هذه الأكواخ كانت في حالة يرثى لها . ولم أجد بئراً في هذا المكان ، غير ان البناية هنا كانت تزود بالمياه بواسطة السكة الحديدية من تبوك . وذلك لتأمين احتياجات الموظفين والقاطرات عندما كان خط السكة الحديدية ما يزال عاملاً .

وتحتل « المملحة » التي تقع خلف خط السكة الحديدية ، القسم الواطىء من السهل الفسيح ، وقد شاهدت هناك إمارات تدل على قيام البدو بأعمال استخراج الملح ، كما رأيت كميات من الملح المستخرج ، وكان لونه بنياً تدل هيئته على انه من نوع رديء . ومن تلك النقطة كنا نلمح محطة سكة حديد تبوك وأشجار النخيل المحيطة بها ، وربما كانت هذه على بعد اثني عشر ميلاً أو أكثر . بينما كانت تلة النبي (منبر الرسول) في الجهة الشمالية الشرقية . وكانت طريقنا ما تزال تمتد في اتجاه شمالي وشمالي غربي مع امتداد الجهة الغربية لخط السكة الحديدية . وقد ظلت الطريق هكذا حتى المحطة التالية ، وهي محطة « حزم » .

وقبيل ان نصل الى هـــذه المحطة عبرنا القناة الضحلة لوادي « ضم » وهي المسيل الرئيسي الذي يزود « الحصمة » الوسطى بالماء . والحصمة واد يقال ان له اكثر من تسعة وتسعين رافداً .

وتمر هذه الروافد من تحت الخط الحديدي عبر خط طويل من العبّـارات حتى تصل الى سهل يتحول بفعلهـــا الى ارض سبخة ، ويمتد حتى طرف تلال شرورا والسلسلة الطويلة من مرتفعات « عجات » . وتتجمع عند طرفي شرورا وعجات حوالي اثني عشر رافداً . ومن هذه النقطة بدأت تلة النبي تميل صوب الشرق ، وكنا ما نزال نسير في اتجاه شمـــالي لنجد طريقاً صالحاً عبر أراضي شرورا المرتفعة .

ومحطة سكة حديد حزم اشبه ما تكون بمحطة المحتطب . وعند هذه المحطة تقطع طريق السيارات خط السكة الحديدية ، ثم تعود لتتبع الخط من ناحيته الأخرى فتمر عبر سهل منبسط ، شاهدنا فوق رماله آثار أقدام قوافل الجمـال التي كانت تقل الحجيج منذ القدم . ويبلغ عرض هذا السهل حوالي نصف ميل ، ولذلك فانه يتسع لمرور مئات الجمال في وقت واحد .

وههنا يستطيع المرء ان يكوّن لنفسه فكرة او صورة عن طريق الحجاج القديم . الحجاج الذين كانوا يفدون الى مكة كالجيوش الجرارة عبر هذه الطريق، قاطعين آلاف الكيلومترات التي تفصل بين دمشق ومكة المكرمة .

غير ان فكري لم يكن قادراً على استيعاب أكثر من حقيقة واحدة من مئات الحقائق التي تتساوق عبر التاريخ مصوّرةً الحجاج وهم يتدفقون كالسيل العرم في الطريق المؤدي الى المكان الذي يعبدون فيه الاله الحق ويزورون نبيه الكريم . تلك الحقيقة هي ان العرب كانوا يحترمون الحجاج فلا يعتدون عليهم احترامـاً للقصد الذي قطعوا من أجله آلاف الكيلومترات ، ألا وهو عبادة الحي القيوم . كانوا يفتحون أمامهم الأبواب ويرشدونهم الى أفضل الطرق للوصول الى الكعبة الشريفة .

وإذ أخذنا ننحرف تدريجياً عن طريق الحجيج ، وصلنا بعد حوالي خمس عشرة دقيقة ، الى الطرف العلوي لبناء طيني كبير . وكان هذا البناء غريب الشكل يدعى « قـَصْل حردا » ، ويقع في خليج واسع عند سفح « عجّات » تاركاً ممراً يوصل الى داخل سلسلة جبال شرورا . وعند بلوغنا هذه النقطة كنا قد قطعنا مسافة خمسة وعشرين ميلاً منذ ان غادرنا تبوك .

ومن هنا تحولنا الى اتجاه جنوبي غربي ، ويممنا صوب « تلة النبي » متتبعين في صعودنا القناة الضحلة لشعب « حردا » . وغابت الشمس ، فتوقفنا لنؤدي الصلاة . ومن ثم واصلنا السير في الظلام الذي أخذ يتكاثف ، متجهين نحو هدف بدا انه يتباعد عنا كلما اقتربنا منه . وأخيراً ، وجدنا أنفسنا نتخبط في الظلام ، كما أدركنا اننا نسير في طريق تنتشر فيها الصخور وتعيق الوصول الى الجبل المقدس .

وفي الساعة السابعة والنصف قررنا ان نضرب خيامنا في أرض مرتفعة نوعاً ما ، تشرف على سهل يمتد تحت سفح التلة . وفي هذه البقعة أمضينا أتعس ليلة ، ليلة لم نشعل فيها ناراً ، ولم يكن معنا أثناءها شاي ، ولا تناولنا عشاءً .

والأسوأ من ذلك كله انه لم يكن معنا دليل . وقد عمدت الى غليوني انفث دخانه باستمرار ، بينما أنا أستمع الى جهاز الراديو ، الذي كان ينقل الي انباء العالم الكبير . وكان هذا بعيداً جداً عنا في تلك اللحظة ، ونحن نجلس في بقعة من المؤكد انها لم تر انساناً « متحضراً » من قبل . هذا ، اذا استثنينا بعض المغامرين الأميركيين .

ويجوز ان يكون هؤلاء قد زاروا المكان قبل وصولي اليه وربما بعدي بقليل ، إذ ان التقرير الذي رفعوه حول احتمال وجود البترول بالقرب من تلة النبي قد دفع بعدد من الخبراء للاجتماع حول صخور التلة لدراسة المسألة . غير ان نتيجة هذه الدراسة لم تعرف حتى الآن . لقد أبقوها سراً !

هذا وقد أوجدت مشكلة فقدان الدليل شبحاً قاتماً راح يخيم فوق مخيمنا



منظر جانبي (لقصر تبوك) ، لاحظ شموخ الجدران ، واشجار النخيل المحيطة بالقصر.



قلعة (مويليح) من الجانب الشمالي الشرقي ، ويظهر فيها
الجدار الشرقي للقلعة



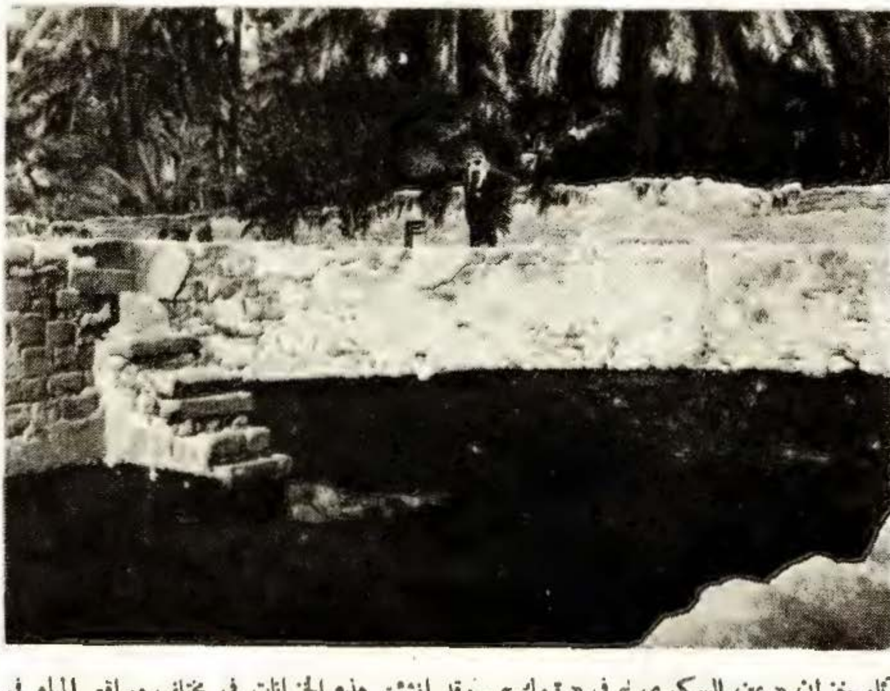
بقايا آثار (قصر الاردم) ، وتبدو البوابةالداخلية منهدمة على شكل اقواس



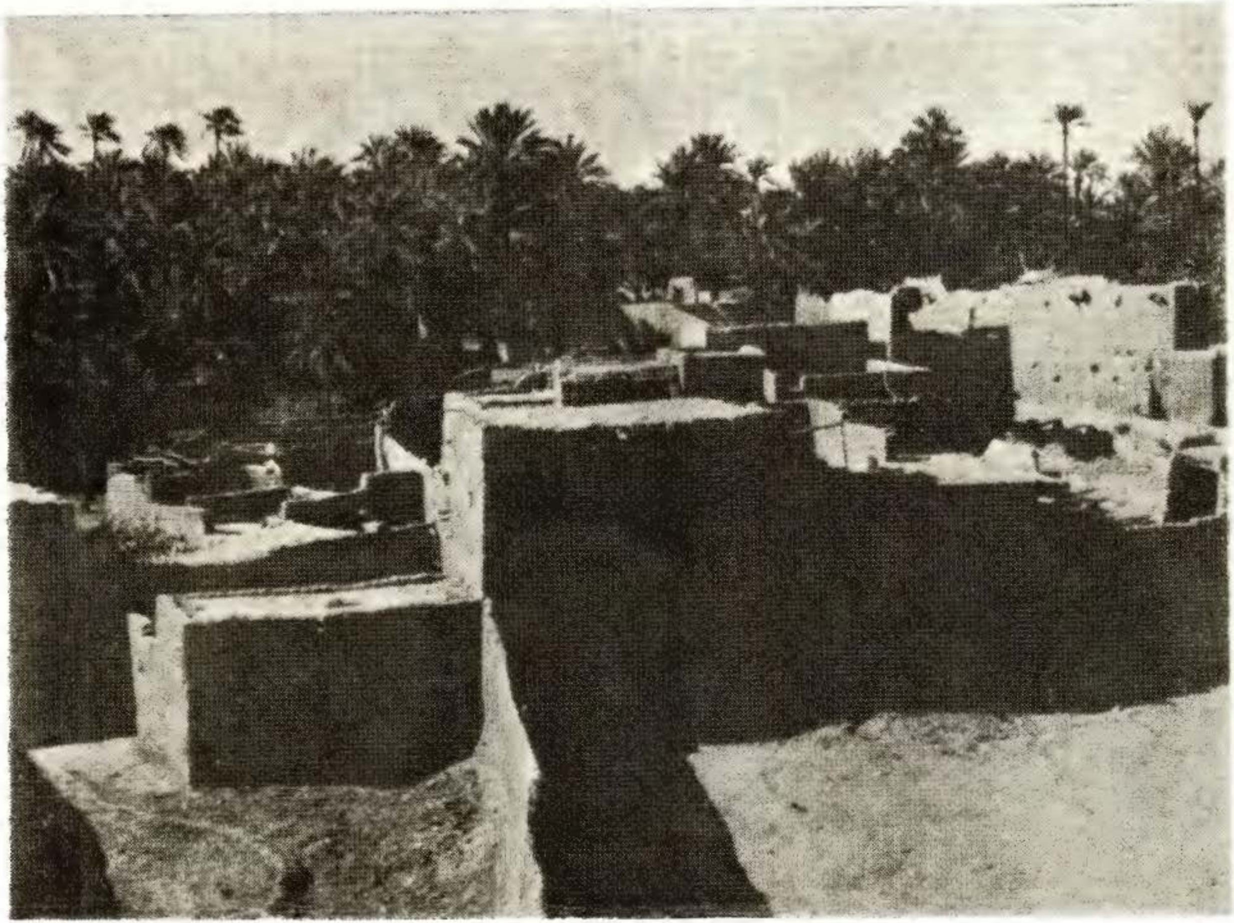
بوابة قرية (ام كدا) في خيبر . لاحظ اقامة الجدران على اساس صخري



صخور وادي « مسيل » وعليها نقوش اثرية تعود الى أعهد « ملوك سبأ » .



آثار خزان « عين السكري » في « تبوك » . وقد انشئت هذه الخزانات في مختلف مواقع المياه في شمال جزيرة العرب .



منظر عام لقرية « تيماء » من ناحية القلعة المعروفة بهذا الاسم . لاحظ بساتين النخيل الكثيفة



جانب من سوق (خيبر) ، وتبدو فيه المدرسة الحالية التي تحتل الحجرة التي اتخذها « دوتي » مسكناً له عام ١٨٧٧ م . وكانت تخص محمد واحمد النجومي



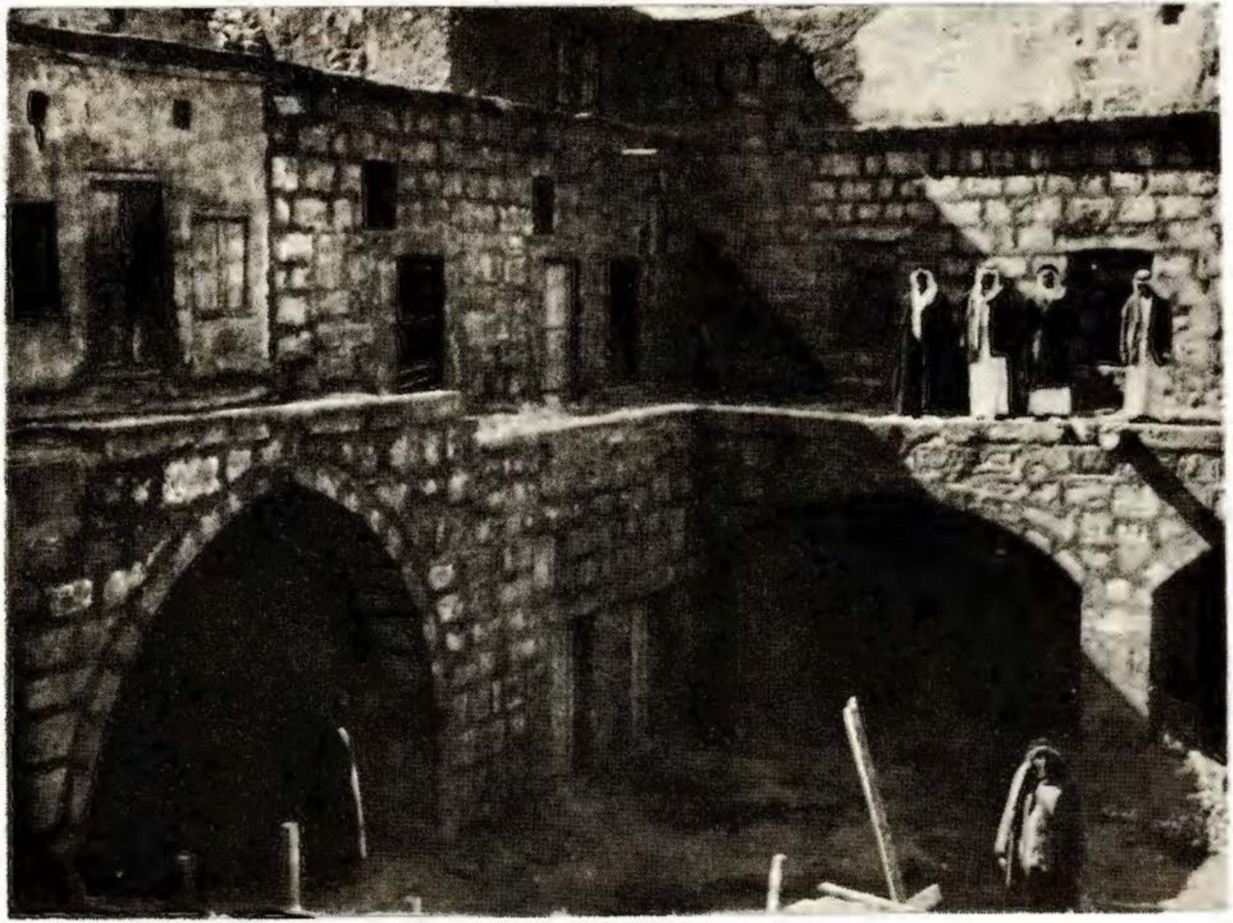
منظر عام لقصر (قلعة ابن رُمّان) في (تيماء)



صخرة « ابي الهول » في « المذبح » . والصخرة طبيعية غير منحوتة . لقد شكلتها عوامل التعرية الطبيعية على هذه الصورة



صخرة « منصة الرسول » او « منبر النبي » . وهي من صخور سلسلة جبال « شروراء » ، وقد صعد عليها الرسول اثناء حملته على خيبر .



داخل « قصر تبوك » . لاحظ الجدران السميكة ، والاروقة



قمة صخرة (المذبح) ، وهي صخرة رملية



معبد (رَوّافة) ، وتبدو امام آثاره الخربة قافلتنا اثناء السفر



« بوابة خوخة » في خيبر .لاحظ طراز البناء وهو أميل الى طراز القلاع المحصّنة في القرون الوسطى .



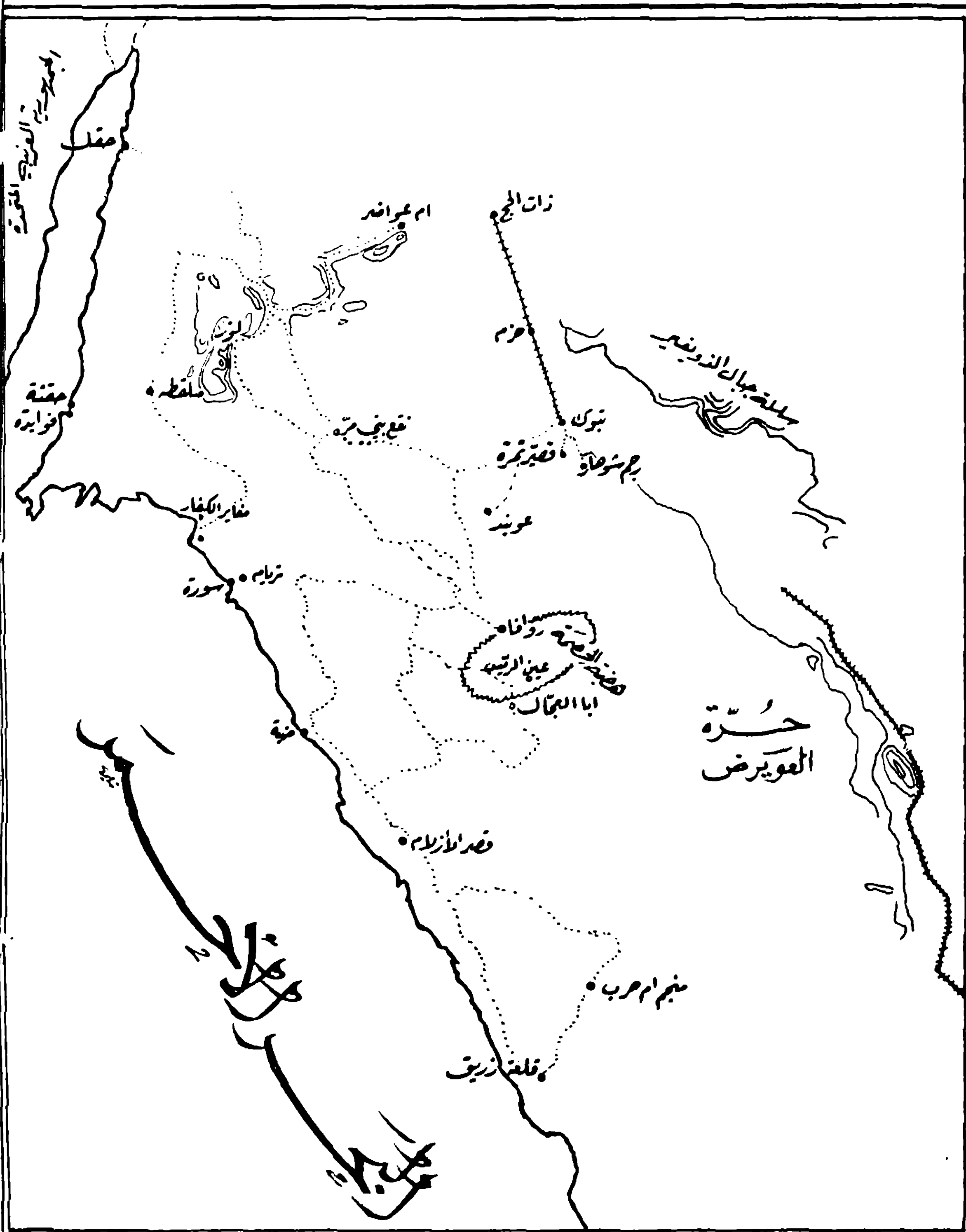
منظر عام ا « سوق تبوك » من على شرفة قصر الامير عبد الله السُديري . وتظهر هنا اشجار الكينا .



الطريقة البدائية لنضح الماء من (بئر حدّاج) ، لاحظ الأقواس والجمال



صخور (روّافة) ، وهي صخور رملية تغطيها طبقة سميكة من البازلت



خريطة تبين كثيرا من المواقع الرئيسية التي مررنا بها في هذه الرحلة

بالحاح . وزاد الأمر تعقيداً ان الرجل الذي جاء معنا على انه دليل ، لم يكن غير رجل بوليس يريد مطية تنقله الى « ذات الحج » . وهي محطة الحدود على خط السكة الحديدية .

وصحيح انه كان يعرف الطريق ، ولكنني كنت أريد شخصاً ملماً بطبيعة المنطقة فأين هو ؟ كل ما كنت أستطيع عمله في هذه اللحظة ، هو ان أبعد الموضوع عن مخيلتي . وهكذا فعلت . وقد أمضينا فترة ساعتين قبل ان نصل الى موقع المخيم في حردا ، رغم ان المسافة بين النقطتين لم تكن تزيد على اثني عشر ميلاً . وقد قطعنا المسافة ذاتها في ساعة واحدة من الزمن أثناء عودتنا في صبيحة اليوم التالي .

واستيقظت في الصباح ، لأجد كل شيء معداً للانطلاق فوراً ، بعيداً بعيداً عن هذه البقعة غير المضيافة .. لم نحتس الشاي .. ولم نتناول طعام إفطار .. وكان كل من في البعثة يعاني الأمرّين .. كان الجميع في حالة يرثى لها ما عداي . فقد كنت آخذ الأمور على أيسر وجوهها ، وبكل تقبل وبساطة ، مستعيناً على ذلك بدخان غليوني الذي استبدلته بشاي الصباح .

وفي الساعة الثامنة صباحاً ، ودون ان أقول كلمة لأحد ، بدأت أنحدر الى السهل الذي يقع تحتنا على مسافة مائة قدم ، ثم عدت وتسلقت المرتفع بجهد وبطء نظراً لوجود الكثير من انقاض الصخور المتساقطة من قمة ذلك المرتفع . وقد لاحظت ان الهدف الذي كنا نراه من تبوك ، ليس الا جبلاً منيعاً ، أمضيت ساعة كاملة حتى رقيتُ جناحه الشمالي الغربي الذي يقع تحت القمة بمائتي قدم .

وهنا قررت ان الصخرة فوقي لا بدّ وأنها تخبىء لي مفاجأة غير سارة فيما لو حاولت تسلقها بمفردي . فقد كانت مستعصية الى درجة يمكن القول معها بان أحد محترفي تسلق الجبال لن يقدم على تسلقها إلا اذا قصد المخاطرة قصداً ، وقد كان بوسعي ان أجد طريقاً حولها لو لم يكن وقتي محدوداً .

وسرعان ما توصلت الى نتيجة تقول بان النبي الكريم لا يمكن ان يكون قد القى خطابه المشهور من فوق تلك التلة ! وبينما أنا جالس هنـــاك اقلب الرأي ، رأيت طائرة تحلّق فوقي ، وكانت تختفي وراء السحـــاب وهي تتجه الى الشمال الغربي نحو دمشق

ورأيت على بعد مني سلسلة جبال « الطُبيق » التي تشكل الحدود الفاصـلة بين السعودية والاردن . وكانت هذه الجبـال ظاهرة رغم ان مرتفعات شرورا تعترض البصر اليهـا . اما جبل « عجات » فقد كان غير واضح من مكاني رغم انني كنت أرى نقطة اتصاله بجبلي « الدِقداش » و « الثيّا » من المكان الذي ضربنا فيه خيامنا .

وفي الوقت ذاته رأيت ان السيارة قد وجدت طريقاً لهـــا حول الصخرة فسلكته حتى وصلت الى سفح تلة النبي . ومن ثم انحدرتُ الى نقطة أقل ارتفاعاً من أجل القاء نظرة على الصخرة التي ترتفع ٦٠٠ قدماً منتصبة في الجهة الجنوبية الغربية من الجبل .

وبعد ذلك عدت الى حيث كانت السيارة . ولما وصلت الى هنـاك وجدت القوم قد تشاوروا فيما بينهم اثناء غيابي ، وقرروا ان ينعشوا انفسهم بشيء من الشاي ، بعد ان تأكدوا من ان في السيـــارة كمية كافية من الوقود . وقد قام « عبدالله بن قعم » باحضار المـــاء ، ومن ثم اشعلوا النار وأعدّوا الشاي ، ولقد رفضت الكأس التي قدموهـــا الي . وكانت الساعة تقارب الواحدة بعد الظهر عندما بدأنا المسير عائدين عن طريق اكثر سهولة من تلك التي كادت تضللنا اثناء حلول الظلام

ولما وصلنا الى رأس سهل « حردا » توقفنا عند البناء الطيني فترة واصلنـا بعدها السير لنصل الى محطة سكة حديد « بئر ابن هرماس » . وقد قطعنا هذه المسافة في أقل من نصف ساعة ، ربما بثماني دقائق . وكان البعـد من سطح التلة الى المحطة حوالي عشرين ميلاً . وهنا وجدنا بئراً ممتلئة بالماء على عمق ست قامات

وكان هذا البئر مشيداً من الحجـــارة بشكل جيد ، ويبلغ قطر فوهته عشرة اقدام . وقد أقام مهندسو السكة الحديدية على هذا البئر مضخة هوائية ، كانت معطلة منذ فترة لا يتذكرها أحد في المنطقة .

وكانت بالمحطة حامية صغيرة مؤلفة من ثلاثة جنود ، سرني ان انزل دليلي الفـاشل عندهم ليتولى الوصول بنفسه الى محطة « ذات الحج » . والحق ، اني لم اشكره ولم آسف على رحيله .

ويمتد خط السكة الحديدية من هنا باتجـاه الجنوب الشرقي والشمال الغربي ، والاتجاه الأخير هو الذي يؤدي الى محطة « ذات الحج » .

ولم نستطع من تلك النقطة ان نرى بساتين النخيـــل المحيطة بتلك المحطة ، وان كنا قد شاهدنا الطريق الملتفة حولهـــا بوضوح تام . وبين هذه المحطة و « المدوّرة » الواقعة داخل الأراضي الاردنية ، تقع الحدود بين المملكتين .

وكان الخط الحديدي بين « المدوَّرة » و « معان » قد انتزع اثنــــاء الحرب الكونية الثانية ، من أجل اعادة تمديده بين معان والعقبة . وقد نجم عن ذلك الانتزاع الخلل الكبير الوحيد في الخط الحديدي بأسره ، ذلك الشريان الذي يربط بين « المدينة » و « معان » و « دمشق » . وانه لفخر يستحقه صاحبه ، وفضل عظيم نحن مدينون به الى « ميستر باشا » وزملائه الذين أنشأوا هذا الخط فظل صامداً رغم عوادي الزمن، والاهمال الطويل الأمد ، وعدم الاستعمال الذي امتد حوالي اربعين سنـــة ، وان كان في بعض اجزائه قد تعرض الى جهل بني الانسان فانتزعت قضبانه .

والجدير بالذكر ان الأمير علي أكبر أبناء الملك حسين قد سيَّر في سنة ١٩٢٤ عدداً من القطـارات من « المدينة » الى « عمَّان » على هذا الخط الحديدي دون ان يجد أية صعوبة في ذلك . وذلك للاحتفـــال بمناسبة زيارة والده الى عاصمة « شرق الأردن » . وقد مرت القطارات رغم ما كان يفترض ان يكون قد حل

بالخط من خراب على أيدي « لورنس » ونسفِ عصاباته خلال الحرب الكونية الأولى . لقد كان الخط كأحسن ما تكون الخطوط الحديدية التي تنشأ في أراضٍ غير مضيافة لأمثاله .

ولربما عادت القطارات تدرج فوق هذا الخط في يوم من الأيام اذا شاءت الحكومة السعودية ان تنفق أموالها على مشاريع اكثر فائدة من تلك التي تحاول صرف اموالها عليها .

وقد سمعنا بأنباء اصلاح الخط الحديدي منذ ثلاثين سنة ، غير اننا كنا على ما يبدو نتفاءل كثيراً طوال هذه السنوات الثلاثين .

***

كنت الآن مهتماً بالمناظر الواقعة الى الغرب بالقرب من خرائب « القريّة » اكثر من أي شيء آخر . وقد قيل لي ان الموقع لم يزره أوروبي واحد من قبل . وكان« دوتي » و « بورتون » و « موسيل » و « غروثرز » قد سمعوا « بالقريّة » وتمنى كل منهملو يزورها ، غير ان أحداً منهم لم يتمكن من تحقيق أمله . أما أنا فقد استطعت ان اصلالى تلك المنطقة في المساء ، فأكون بذلك أول من يكشف القناع عن غوامض قرية نبطية أثرية .

ولم أدرِ إلا بعد ثلاث سنوات ان غيري قد سبقني الى المنطقة ، وذلك عندما اخبرني صديقي « جورج رينتز » من موظفي (الأرامكو) ان « برنارد مورتيز » ، وهو مستكشف الماني معروف ، قد زار المكان في سنة ١٩٠٦ .

وقد نشر « مورتيز » هذا نتفاً من المعلومات عن جولاته في شبه الجزيرة العربية في كتيّب طبعته له احدى دور النشر في « هانوفر » عام ١٩٢٣ ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في سبقه اياي لزيارة المكان . والعجيب انني لم استطع العثور على أية تفاصيل عن زيارته هذه ، مع ان المجلة التي كانت تنشرها كانت

تصدر في بيروت سنة ١٩٠٦ أو في العام الذي تلاه .

هذا وقد اخذت الطريق في صعود رفيق بعد ان غادرنا المحطة متجهين غرباً مارين بمجموعات من الصخور المنتشرة هنا وهناك على امتداد الطريق . وبعد مسيرة بضعة اميال بين هذه الصخور التي تدعى المجموعة الواقعة على يسار الطريق منها « عُظيْمات البير » ، والمجموعة الواقعة على الجهة المقابلة « عُظام التعوس » ، وصلنا الى أحد المرتفعات . وكان اسما هاتين المجموعتين من الصخور قد اوحيا الي بشكل هيكل عظمي منظره يقبض النفس .

أما المرتفع الذي وصلنا اليه الآن فكان أعلى من مجموعتي الصخور السابقتين ، ويدعى « عظمة المساعيد » . وقد حجب عنا هذا المرتفع رؤية الوادي الذي كان يمتد من تحتنا ، والذي كانت « القريَّة » تقع فيه . غير اننا كنا نستطيع ان نرى سلسلة الهضاب الواقعة خلفه .

وكانت خرائب وعرائش « سرابة الحج » وأعلى تلال « الشعثة » تشكّل المكان التقريبي لموقع محطة « ذات الحج » التي لاحت صوب الشمال الغربي ، على بعد اثني عشر ميلاً أو اكثر . وكانت الفجوات ما بين التلال والمرتفعات مليئة بالرمال التي تشكل في بعض النقاط كثباناً رملية قليلة الارتفاع .

وقد وجدت قليلاً من النقوش عند صخور « عُظمة التعوس » ، وبعدها أسرعنا باجتياز هضاب « المساعيد » عن طريق واطىء تميزه صخور تشبه الأعمدة وتدعى « عُميدات الخريم » . ومن تلك النقطة ألقينا نظرة الى أسفل حيث يمتد سهل الوادي الفسيح الذي يعرف باسم « غويّل الصِل » . غير اننا لم نعد نرى شيئاً من « القريَّة » . وكان السهل الذي اجتزناه على طول الضفة اليسرى لشعب غويّل مليئاً بالمواقع التي توجد فيها الرمال الكثيفة الناعمة ، والحجارة وأكوام الرمال وبعض الصخور .

وتقطع الطريق الرئيسية التي تربط ما بين تبوك والمدينة عبر «حزْم» هذا

السهل عند ممر يقع بين مرتفعات « عمارة العجوز » و « الذيابيّة » ، وهي نجود تبعد عنا مسافة معتدلة الى جهة اليمين .

ومـا ان عبرنا تلك النجود حتى وقعنا على أول اشارة تدل على الحضـارة القديمة ، وهي عبارة عن حقول رصّت فيهـا الصخور على شكل صفوف شبه منتظمة وبينهـا آثار بيوت خاربة . وانقضت عشر دقائق ثم باشرنا في نصب خيامنا على مقربة من الزاوية الشمالية الغربية للمدينة الأثرية ذاتها .

***

كنت أعتزم البقاء في هذا المكان طوال المدة اللازمة لاتمام استكشاف منطقة « القريّة » وجوارها . غير ان اكثر ما كان يشغل اهتمامي ، هو اعـادة تنظيم أمر المرافقين . ولشدّ ما أسفت لأن زعلي لم يكن قادراً على مرافقتي . كما ان علي ثروة قد أعاد تعيين كل من : عطاالله ، وعبدالله بن قعم ، والرجلين الآخرين اللذين رافقاني في بعثة الروافا ، وهما محمد بن دُخيّل ، وحامد بن وايل . وقد عيّن الأخيرين كحرس لي .

وعلى الرغم من المصاعب التي تعرضنا لهـا حتى الآن ، فانني لم استأ كثيراً لهذه الترتيبات ، على أمل ان يكون هؤلاء المرافقون - وقد عرفوا الطريق التي اتبعها في عملي - أدركوا ضرورة قيامهم بجهود اكبر يساعدني على تحقيق مهمتي . غير انهم أثبتوا ، حتى خلال اليومين الأولين من وجودهم معي ، انهم لا يعتزمون القيام بأي مجهود ! لهذا قررت التخلص منهم .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ، جلست معهم حول موقد النار وأبلغتهم انني اضع السيارة تحت تصرفهم لتنقلهم الى « تبوك » ، مع رسالة الى علي ثروة ، اشرح فيها الأسباب التي صرفتهم من اجلها . ولقد كانت مهمة ايجاد الأدلاء من المشاكل المزمنة التي صادفتها في جولاتي الكثيرة .

والحق . ان ايجاد الأدلاء امر من اختصاص السلطات ، حتى تكون هي المسؤولة عنهم . وللمسؤولين في هذه السلطات يد مطلقة في اختيار من يشاؤون للقيام بهذه المهمة غير انه بالنظر للفوائد التي قد يجنيها هؤلاء المرافقون من خدمتي ، جعل اولئك المسؤولون يعيّنون أقاربهم وأصدقاءهم لذلك العمل .

وقد أوضحتُ لهم المرة تلو المرة ، ان كل ما اطلبه منهم هو ان يزوّدوني بأدلاء محترفين ، على معرفة كافية بالمنطقة . كما صارحتهم ايضاً بأنني على استعداد للتغاضي عن جميع النقائص الاخرى ، كالنقص في كميات الغذاء التي يزودونني بها .. وما أشبه ذلك .. اذا قدّروا حقيقة اني لن استطيع القيـــام بعملي على الوجه المرضي دون دليل كفؤ وعلى هـــذه الصورة فقط اتمكن من تجنُّب الهفوات التي لا بد ان نتعرض لها ، نتيجة قـلة معلومات الأقارب والأنصار بالمنطقة ! ولكن المشكلة ذاتها كانت تبرز في كل مرة . لقد ظلوا لا يفهمون لماذا أريد شخصاً يعرف اكثر من هدايتي على الطريق ! !

وفي هذه الحادثة ، استطيع ان اقول : ان عطاالله وعصابته كانوا مسرورين بمغادرتي سروري برؤية آخر رجل منهم يختفي عن ناظري ، وان كنت غير متأكد من انه اختفى بالفعل . وقد تمكنت من التنفس براحة ، بعد ساعة او حوالي الساعة ، عندما رأيت السيارة تبتعد بهم نحو تبوك .

كان احتمال وجود القهوة والأغذية معي في المخيم ، قـــد جذب الراعيين الوحيدين في المنطقة ، فعينتهما كدليلين لي خـــلال الفترة التي سأمضيهـا في « القريّة » والطريف ان كل واحد منهما كان يدعى « سلمان » . وكذلك فان كليهما كان من قبيلة بني عطية ومن فخذ « رُبيْلات » . وقد أقمت أحدهما لحراسة المخيم ريثما تعود السيارة مع المرافقين الجدد ، وتركته هناك ، بينما توجهت مع الآخر لتفقد المناطق المحيطة بالصخور العالية التي تشرف على الخرائب .

وقد مرت طائرة فوقنا ونحن ماضيان في طريقنا فقدّرت اننا كنا نسير في الطريق الصحيحة التي تربط بين « جدة » و « دمشق » .

***

كانت القلعة المشادة على التل المعروف باسم «تل القريّة »مدهشة فعلاً ، فهي تبلغ حوالي الف ياردة طولاً وثلاثمائة ياردة عرضاً . ويشرف طرفهـــا الشرقي على المدينة . وهو عبارة عن صخور صلدة يبلغ ارتفاعها حوالي ٤٠٠ قـــدم . وكذلك كان طرفا هذه القلعة الشمالي والجنوبي ، مؤلفين من صخور مماثلة يتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠ - ٤٠٠ قدم وتمتد الى ما يقرب من ٦٠٠ ياردة . وفي هـذه النقطة ، وجدت ان الصخور قد انشقت فملأت ما بينها الرمال والحجارة ، في حين ظل الجزء الغربي المواجه للسهل منيعاً كجدار صامد .

وكانت الأماكن التي تشققت فيها الصخور تكوّن مسارب وفجوات يمكن القول بان الصعود فيها الى القمة ، رغم وعورتها ، يكاد يكون سهـــلاً بالنسبة للمشاة والدواب على حد سواء . إلا انها لم تكن صالحة أبـداً لأي نوع من أنواع الآليات التي تتحرك على عجلات . وقد تدارست أنا و « سلمان » رقم (١) أمر الصعود الى القمة عبر الجهة الشمالية ، حيث نصعد الى أعلى بقمة فيها، وهي برج للمراقبة تبلغ مساحته ٢٥ قدماً مربعاً .

والى جانب هذا البناء الذي يشبه القلعة ، (او ما تبقى منـــه في بعض الحالات) لم أستطع ان أجد أي أثر يدل على وجود انشاءات من أي نوع كان . وخصوصاً في الرقعة الواقعة ما بين الجدارين والصخور التي تنحدر من عندهمـا على شكل قسمين متساويين . وحتى لو كانت هناك أية انشاءات ، فانها ستكون قد اندثرت بفعل الأمطار التي هطلت عبر السنين ، بل القرون، ثم انحدرت من أعالي الصخور فجرفتها السيول معها . هذا ، مع انني لم أجـــد أي أثر لحجارة

متساقطة عند سفح الصخور ، الأمر الذي يؤكد انه لم تكن هناك أية بنايات أخرى غير هذه القلعة .

وفي الوقت ذاته فان المنطقة لا زالت مليئة بالآثار التي تشير بانها كانت مأهولة بالسكان . وقد وجدت هذه الآثار في شقوق الأرض وبين الصخور . ولعل المكان قد استعمل كملجأ من قبل أهالي « القريّة » عندما كان يلم بهم خطر . وهنالك في الأمر رأي آخر ، إذ انه :

ألا يجوز ان هذه القلعة كانت مخصصة للقيام باحتفالات لها علاقة ببعض الطقوس الدينية ؟

ليس هنالك من يستطيع تقرير الصحيح إلا احد علماء الآثار بعد ان يحضر الى هذا المكان لاجراء البحوث اللازمة .

وفي كلتا الحالتين ، فان من المحتمل ان يكون الناس الذين سكنوا هذه المنطقة قد أقاموا في خيام او في العراء أثناء المدة التي مكثوها هنا ، حاملين معهم ما يحتاجون اليه من مواد غذائية وماء في جرار وقدور ، تلك الجرار والقدور التي كنت أستطيع ان أرى آثارها في كل مكان أتوجه اليه . وخاصة في المنطقة الشرقية التي لا يمكن ان يفسر وجود الحطام فيها ، إلا بان هذه الجرار والقدور قد القيت من علٍ بعد انتهاء الغرض الذي أحضرت من أجله .

وقد وجدت في أكثر من مكان واحد ، العديد من النقوش . وكان أكثر هذه النقوش ثمودية يوحي بعضها بانه ذو أهمية أثرية ، والثمودية منها بصورة خاصة ، وبعضها بالغة من جراء اغراقه في القدم . وأخيراً وجدت بالقرب من الطرف الشرقي للوجه الشمالي للصخور ، مغارتين ترتفعان ارتفاعاً طفيفاً فوق سطح الأرض . وقد قمت بفحص هاتين المغارتين فحصاً شاملاً بعد ظهر أحد الأيام .

***

كانت أسوار القلعة صلصالية ترتفع حوالي مائة قدم عن قاعدتها ، ثم تغدو حجراً رملياً خشناً بنيّ اللون . أما منظر المغارتين من المكان الذي اقمنا فيه مخيمنا فيوحي - لأول وهلة - بان النبطيين كانوا يحاولون جعل هذه الصخور مكاناً صالحاً يُضجعون فيه موتاهم . غير ان احد النقوش التي وجدتها بالقرب من المغارتين اوضح لنا ان وجودهما هناك كان نتيجة عامل النحت الطبيعي في الصخور ، إذ انه بالنظر لشدة ملاسة القاعدة التي ترتفع فوقها التلة، تلك الملاسة الاصطناعية التي يُعتقد بان للانسان نصيباً فيها ، فقد اختيرت المنطقة لتكون جبانة عامة للقاطنين .

وكان مدخل المغارة الأولى ولأسمّها « الناووس الأول » مسدوداً بقطع كبيرة من الصخور بينها شيء من « المؤونة » . أما مدخل الناووس الثاني فيبدو ان الباحثين عن الكنوز قد فتحوه عنوة ، فتساقطت قطع من الحجارة المتكسرة الى داخله كما تساقط بعضها الآخر خارجه عند قاعدة الجدار .

والناروس الواحد عبارة عن غرفة يبلغ عرضها عند المدخل ١٥ قدماً ثم تضيق في الداخل الى عشرة أقدام . أما طولها فيبلغ ٥٠ قدماً ابتداء من المدخل . ويبلغ ارتفاع سقفها ١٥ قدماً . وقد لاحظت ان الجدار الداخلي قد نُقر في موضعين ، ولست أدري السبب في ذلك . وقد حيّرني انه لم يكن في المنطقة أي أثر لأية قبور أخرى كعادة النبطيين في ان يقيموا أضرحة موتاهم قرب الصخور .

والجدير بالذكر ان الناروس باسره من قاعدته حتى سقفه قد تم نحته ، (سواء أكان ذلك طبيعياً أم اصطناعياً) داخل الصخرة . وكانت جدرانه مزركشة بنقوش تدل على قرون حيوانات مختلفةاو أمشاط . أما أرضه فهي زاخرة بعظام أشخاص وجمال . الأمر الذي يوحي بان الضباع قد جلبت هذه العظام الى المكان من قبور مجاورة .

وكان الناووس الثاني أعلى من سابقه قليلاً ، وهو مثله منحوت في الصخر بكامله باستثناء قدمين عند مدخله نحتا في الطبقة الترابيــة ، الأمر الذي يشير بوضوح الى ان النحت كان من صنع بني الانسان . ولم يكن مدخل هذا الناووس مسدوداً (كسابقه) بالصخور المبنية ، بل بطبقة من الحجارة والشظايا والأتربة التي تكدست فوق بعضها فشكّلت شبه جدار سميــك . ويجوز ان يكون سارقو القبور هم الذين دفعوا بهذه الأنقاض الى الخارج .

والناووس مؤلف من قسمين : الأول، وفيه غرفة خارجية عرضها ١٥ قدماً وطولها ٢٥ ، اما ارتفاعها فحوالي ١٢ قدماً . والثاني، وفيه غرفة داخلية ضيقة لا يزيد ارتفاعها على ثلاثة اقدام . وتمتد من فتحة في الجدار الخلفي مسافة تقدّر بحوالي ثمانين قدماً حتى تصل الى الصخور الصلدة .

ومرة ثانية لم استطع ان اجد اثراً لأية قبور من أي نوع كان . بالرغم من ان البقعة كانت تزخر بالهيا كل العظمية البشرية ، وعظام الجمال ، كما هو الحال في الكهف الاول . وقد حملت من هذا المكان جمجمة بشرية كاملة ، هي الآن في متحف جدّة .

وقررت ان امضي يومي الثاني في فحص شامل لأوجه النشاط الزراعي في المنطقة . غير انني قمت بتمضية النهار في القلعة لإجراء مسح عام لجدران المدينة . وما ان جلست في المخيم ، بعد غياب الشمس وحلول الظلام ، الى جانب دليليّ « السليمانين » ، حتى كدّر صفو سكون الليل عندنا صوت سيارات تقترب . وسرعان ما اتضح لنا ان « عطاالله » وجماعته قد عادوا من « تبوك » .. ومعهم « زعل » الذي رحّبت بقدمه كثيراً . وكان يحمل معه رسالة من « علي ثروة » يقترح فيها ان اقبل توظيف الجميع ، وان كان قد ترك لي الخيار في إرجاعهم اذا ما رغبت عن توظيفهم .

وعقدنا شبه مجلس حربٍ تدارسنا فيه الموضوع . ونتيجة لهذه الدراسة ،

قرر المجلس تعيين زعل ، وابن دُخيّل وبقاءهما للقيام بشؤون الطبخ وما الى ذلك ، على ان يعود الباقون في سيارة الأمير التي حضرت برفقة سيارتنا .

وقد وضعت شرطاً واحداً ينص على ان يتوجه زعل في صبيحة اليوم التالي الى « ذات الحج » ، ليختار بنفسه من هناك دليلاً كفؤاً لمرافقتنا في الرحلة القادمة .

كان هذا الشرط ضرورياً ، لان « السليمانين » لم يكونا راغبين في ترك المنطقة . ثم لأنهما اعترفا لي بصراحة انهما يجهلان كل شيء خارج هذه المنطقة الضيقة الحدود . وفي الحقيقة انهما لم يكونا كثيري المعلومات ، حتى بالنسبة لمنطقتهما الضيقة ، وان كانا أمينين ساذجين ، تلذُّ للمرء رفقتهما .

وفي صبيحة اليوم التالي – حسبما تم الاتفاق عليه – بقي « ابن دُخيّل » و « السيد » في المخيّم الى جانب سيارتنا ، بينما توجه « زعل » وبقية الرجال ، بما فيهم « السلمانان » في سيارة الى تبوك . وقد رافقتهم حتى النقطة التي كنت ازمع القيام فيها ببعض الأبحاث عن أوجه النشاط الزراعي والحضاري في هذه المنطقة . وكان السهل الفسيح قد ضاق ههنا نتيجة لانعطاف الهضاب العالية الى داخل السهل من ناحيتين .

هذا هو السبب الذي جعل الأقدمين يختارون تلك النقطة بالذات ليبنوا فيها سدّاً طويلاً يحتجز مياه السيول حيث يستعملونها لري محاصيلهم فيما بعد . وكان لهذا السد طابع مميز وان كان شكل بناؤه فظاً للغاية ، فهو من الحجارة غير المستوية وقطع الصخور غير المشذبة ، إلا انه كفؤ للقيام بالمهمة التي انشىء من أجلها .

وقد بدأت مسيري من عند الهضاب الواطئة الممتدة من الطرف الغربي للسد حيث تقوم صخرة كبيرة كعلامة تشير الى الطريق الذي يجب ان يُتبع . وظللت اسير حتى وصلت الى الطرف الأبعد ، في الجهة الجنوبية الشرقية . وقد

رأيت فجوة في امتداد هذه الهضاب عند منتصفها ، وأنا اعتقد بشكل جازم ان هذه الفجوة قد حدثت بفعل الفيضانات التي وقعت مؤخراً ، مع ان هنالك آثاراً يمكن ان تدل الناظر اليها على ان سبب الفجوة يعود الى ان المياه الفائضة عن استيعاب الخزان ، كانت تتسرب الى ذلك المكان فأحدثت الفجوة مع مرور الأيام .

وترتفع قمة الخزان مائة قدم عن سطح قاعدته . أما جداره الصخري فيمتد مسافة ١٣٣ ياردة . وهنا يبدأ السد الحقيقي . وهو عبارة عن ملء فجوة واسعة من الصخور والتراب . ولم أستطع ان اجد فيه أثراً لأي نوع من أنواع البناء . وقد تتبعت امتداد الفجوة مسافة ٣٨٣ ياردة ، حتى وصلت الى فتحة الفجوة التي يبلغ طولها ٨٧ قدماً . وهناك وجدت شجرة طلح يتيمة متوسطة الحجم ، ترتفع فوق الفتحة مباشرة .

ويمتد السد من عند الطرف الاقصى لفتحته الخاربة مسافة ٥١٨ ياردة حتى طرف الضفة اليمنى . وهو يتميز هنا ببناء مستطيل عالٍ مشيد من حجارة كبيرة غير مشذبة ، يبلغ طول الحجر الواحدمنها ٢٠ قدماً وعرضه ٢/١٢١ قدماً . أما الغرض الذي انشيء هذا البناء من أجله فمن الصعب على المرء ان يخمنه .

وتحت هذا البناء كان السد يواصل امتداده ، ويغدو جداره مكوناً من حجارة كبيرة متلاصقة . ويبلغ امتداد السد من تلك النقطة ٢٣٦ ياردة ثم ينتهي بشبه برج مربع حسن البناء تبلغ مساحة قاعدته ١٥ قدماً مربعاً وارتفاعه عشرة اقدام . وقد اندثر جداران من البناء المربع وصمد الآخران . وهكذا فان طول السد في مجموعه يبلغ ١,٢٥٧ ياردة ، منها ٨٨٨ ياردة هي طول القسم الذي يمر فعلاً بالسهل السابق الذكر ومن هنا كنت استطيع ان أرى دعائم تسند جدار السد الذي يمتد جنوباً .

هـذا وتتدمن سفح تلة القلعة على مقربة من الناووسين اللذين سبق الحديث

عنها ، مجاري مياه قليلة العرض طولها ٥٠٠ ياردة . وهي تتجه صوب الشمال الشرقي ، ثم تنعطف الى اليمين نحو اجمة من شجر الطرفاء (عَبَل) ، عند مجرى شعب القريّة ، القريب من الاسوار الشمالية المدينة . ويلتقي هذا المجرى عند منحناه بمجرى آخر يخرج من سفح قلعة صخرية على بعد ٤٠٠ ياردة من الناووسين .

ويبدو انهذين المجريين قد صُمما كي تسيل فيهما المياه التي تنزلق عن الصخور فيجمعانها في قناة صغيرة تؤدي الى قاع الشعب . ويبدو ان اجمة الطرفاء هي كل ما تبقى قائماً من حديقة غناء كانت ملحقة بعدد من البنايات تقع على الضفة اليمنى للقناة .

ويمكن القول بان هذه المنطقة كانت تضم قصر حاكم المنطقة ، أما احتمال انها كانت تضم أروقة ومباني لمعبد قديم فلم يكن احتمالاً قوياً . ولذلك رجّحت الاحتمال الأول واشرت الى البنايات الموجودة هنا على خريطتي بانها معابد « إلهة الماء المحلية ».

ومن حسن الحظ ان مراجع النقوش السبأية التي تشير الى « منزهات » او - آلهة الماء - التي كانت ذات أهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية في تاريخ شبه الجزيرة العربية خلال فترة ما قبل الاسلام ، تبدو وكأنها تبرر هذه التسمية .

ولا يعني هذا ان الأمر صحيح والحكم قاطع . كلا ، ان الحقيقة الكامنة تحت الخرائب هناك لا زالت مجهولة ، ولن يعرفها العلم إلا بعد اجراء تنقيبات كثيرة على يد خبير مختص يدرس الموضوع قبل المباشرة بالعمل .

ولم أجد في هذه المنطقة أي شيء مثير ، غير بعض القطع من الفخار والزجاج ، (وهذه الأخيرة غير مألوفة مطلقاً في خرائب منطقة القريّة) . كما وجدت بعض الأدوات العادية التي لا فائدة منها . ولا يكاد ما تبقى من المعبد

يعطي المرء فكرة عنه . ولولا أساسه لما استطاع المرء ان يكوّن فكرة تقريبية عن مساحته .

وقد قمت بما وسعني من تدقيق فوجدت ان الجدار الشرقي لذلك المعبد يمتد باتجاه يجري من الشمال الى الجنوب ، ويبلغ طوله حوالي ٨٥ قدماً . بينما يقترب طول الجدار الشمالي من ٧٠ قدماً . وضمن هذا المستطيل وجدت ان زاويتيه الشمالية الشرقية والشمالية الغربية تحتويان على غرفتين كبيرتين تبلغ مساحتها ٢٧ × ٤٠ قدماً. أما القسم الداخلي منه ، وهو الى اليسار على شكل غرفة أكبر ، فيبدو انه كان ساحة المعبد .

وتضم بقية المكان أربع غرف صغيرة ، (ولعلها اربع ممرات لا حجرات) طول الواحدة منها ، من الشرق الى الغرب ٤٠ خطوة ، أما عرضها فيتراوح بين ٩ و ٧ أقدام . وقد قدّرت سُمك جدران المعبد بـ ٢/١ ٢ قدماً ، معظمها من الحجارة غير المشذبة ، رغم ان بعض أجزاء هذه الجدران كان مشيداً من حجارة رائعة التشذيب .

ويبقى البناء المجاور .. كان مؤلفاً من غرفة واحدة مساحتها ٣٠ × ٢٥ قدماً ، ويمتد جدارها الشمالي بموازاة الجدار الجنوبي للبناء الرئيسي ويبلغ طوله ٣٠ قدماً . وكان هنالك بناء آخر مؤلف من غرفتين على موازاة القسم الشمالي من المعبد .

ويفصل هذا البناء عن المعبد ممر عرضه سبعة اقدام . امـا مساحة الغرفتين فكانت ٥٠ × ١٨ قدماً مربعاً للأولى و ٥٠ × ٣٨ قدماً مربعاً للثانية .

ويمكن القول بأن بناية من البنايات الاخرى التي تُذكر في منطقة الخرائب في القرّية ، تقع خارج السور الدائري عند زاويته الجنوبية الشرقية ، وفي طرف المدينة من جهة السدّ حيث توجد قناة « طَرَف » وقد اطلقتُ على هذا المكان اسم « القصر » ، رغم انه اقرب الى ان يكون مقرّ دائرة الري

المسؤولة عن الاشراف على تنظيم تصريف المياه .

وقد وجدت في المنطقة المجاورة «للقصر» ، في نقطة بين السور والوادي، مجموعة من الخرائب المبعثرة ربما كانت بيوت موظفي القناة . اما القصر ذاته فقد كان البناء الوحيد بين مجموعة بيوت « القرية » الذي ظل قائماً ، مع خرابه، رغم عوادي الزمن . وكانت اقسام كثيرة من جدرانه ما تزال بحالة سليمة، خاصة ذلك القسم الذي شيد من حجارة مصقولة ، وهو عشرة « مداميك » يبلغ ارتفاعها ١٥ قدماً .

وقد ذكّرني هذا القسم من البناء ، مع عدد من الاقسام الاخرى ، بالمعبد الذي رأيته في « روافا » . ولا بد ان البنائيْن يرجعان الى تاريخ واحد .

ويقوم القصر على هضبة طبيعية في الغالب ، (وعلى الأقل في قسم منها) ، ويتراوح ارتفاعها بين ١٥ ٢٠ قدماً خارج موقع المدينة . ويمتد جداره الغربي بموازاة سور المدينة لا يفصله عنه إلا ممر صغير . ويبدأ هذا الجدار على بعد ثمانين ياردة الى الشمال من زاوية المدينـــة الجنوبية الشرقية ، حيث يمتد شمالاً مسافة تعادل ٣٧ ياردة . واليـاردات العشر الأولى تابعة ، كما يبدو ، الى شرفة متصلة بالبناء الرئيسي الذي يبلغ طول واجهته المقابلة للمدينة ٢٧ ياردة .

أما عرض البنـــاء من الغرب الى الشرق فيبلغ حوالي ١٧ ياردة . ويتألف داخله على الغالب من غرفتين رئيسيتين ، وغرفتين اخريين أصغر حجماً يفصلهما ممر يقود الى الداخل عبر بوابة في الجدار الغربي .

وأحسن اقسام السور حـالة هو الجزء الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية ، حيث بقيت حجارته على حالها. وهذه النقطة هي أعلى نقطة في خرائب البناء ، ومنها يمتد السور الجنوبي مسافة ٢٢٠ ياردة باتجاه الزاوية الجنوبية الغربية. وتلوح البوابة الرئيسيـة قرب تلك الزاوية مدعمة بجدارين ليسا عـلى علو كبير (بين ٨ــ١٠ ياردات) . ويقع طرفا هذين الجدارين في الخارج قرب بناء صغير الحجم لعله كان يستخدم مقراً للحرس .

أمـا القسم من الجدار الذي يميل قليلاً الى الشرق ، فيبلغ طوله حوالي ٢٤٠ ياردة بعيداً عن الزاوية الجنوبية الشرقية . وهو ينقطع عند فجوة يُعتقد بأنهـا كانت بوابة تسهّل مرور القادمين من الشمال والشرق . وهناك خط مستقيم يربط ما بين البوابتين يشكّل قاعدة لشبه منحرف كان يضم اكثر بقاع المدينـة احتشاداً بالسكان . أما اليوم فان هذا الخط مهدّم تراه في حـالة يرثى لها من الفوضى .

وكان مخيمنا خارج خرائب المدينة عند زاويتها الشمالية الغربية على الضفة اليمنى لشعب القريّة . ولعل هذه الخرائب ستصبح في يوم من الأيام موضع اهتمام علماء الآثار فيدرسونها ويقومون باجراء الحفريات فيها .

وعند ذلك فقط يمكننا ان نأمل بمعرفة شيء حاسم عن الناس الذين قطنوا هذه الخرائب أيام مجد الحضـارة النبطية . ولعلهم ، كما يبدو ، قد سكنوهـا قبل هذا العهد .

هذا ويختلف ارتقاع « القريّة » عن مستوى تبوك من نقطـة الى أخرى ، وربما كان يزيد على ارتفاع تبوك بحوالي مائتي قدم .

كانت السحب الكثيفة قد غلّفت السماء ليلة وصولنا الى « القرية » غير ان هذه السحب انقشعت خلال الساعات الأولى من صبيحة اليوم التالي . لكن بعضها عـاد في اليوم الذي تلاه فتساقطت بضع قطرات من المطر. أما الطقس فكان لا بأس به ، إذ كانت درجة الحرارة الدنيـا اثناء الليل ٥٢ درجـة فهرنهايت .

ولم تكن الليلة الثالثة التي أمضيناهـا في القرية سارة كالليلتين السابقتين . لقد هبت فيها رياح قارصـة البرودة ، بدأت منذ ظهر ذلـك اليوم واستمرت طوال الليل . وقـد هطلت الأمطار بغزارة عند منتصف الليـل ، الأمر الذي دفع برافقيّ الى التماس ملجـأ لهم من هـذا « الدوش » البارد في الناووسين ، حيث بقيـا برفقـة الجماجم والهيا كل العظمية ومختلف أنواع العظام . ولكنهم

خرجوا بعد تلك السهرة الممتعة ، وثيابهم جافة .

وقد رأيت الى شمالنا سحباً كثيفة داكنة تنذر بهبوب عاصفة هوجـاء ، كما تدنت درجة الحرارة حتى بلغت ٤٠ درجة فهرنهايت . ومع ذلك فقد أشرق فجر ذلك اليوم دافئاً . أما ليلة اليوم السادس من فبراير (شباط) فقد شهدت انخفاضاً جديداً في درجة الحرارة ، إذ بلغت ٣٦ درجة فهرنهايت .

ومرة أخرى كان نهار اليوم الذي تلا تلك الليلة جميلاً ، وان كانت ترافقـه نسمات باردة تلسع الوجوه . وكان من الواضح ان هذه هي بوادر اقتراب الشتاء بشكل تدريجي ، مع العلم باننا سرعان ما سنصبح في شتاء حقيقي عندما نصل الى صحراء « الحِصمه» .

هذا وكانت ندرة وجود البدو في هــذه المناطق تهدد بخلق مشاكل خطيرة تعترض اعادة تشكيل الجماعة التي سترافقني في رحلتي القادمة . تلك الرحـلة التي ما كنت لأقوم بها ان لم أحصل على ادلاء أكفاء . وكان مما يهمني الآن ان أحافظ على من تبقى معي من الرجال ، حتى عودة الجماعـة التي توجهت الى « ذات الحج » للبحث عن الأدلاء ، وإحضار دليل واحد على الأقل .

وقد عادت الجماعة دون ان تحضر معها أحداً غير الضابط المسؤول في مركز شرطة « ذات الحج » الواقع على الحدود ، ويدعى « ابن مزيد » . وكان هدفه الوحيــد من الحضور ، هو التوسط لدي كي اقبــل إعاده توظيف « عطا الله » وزملائه !

وقد أخبرته بكل رقــة تتناسب مع رتبتــه ، بوصفه مسؤولاً عن مركز شرطة مهم ، وان كان مغموراً في أقاصي شبه الجزيرة العربية ، انني لا أستطيع قبول رجائه . وذلك نتيجة لتجاربي السابقة مع هذه الزمرة .

ثم أضفت الى ذلك قائلا : انه كان لطيفاً جداً حين كلف نفسه مشقة الحضور بنفسه لمساعدتي على تحقيق مغامرتي ، وان أقل مـا أرجوه منه هو ان يجــد لي

الدليل الذي انا بحاجة اليه ، قبل ان أخاطر بترك « القريّة » ولو أمضيت في متاهات المنطقة بقية حياتي اذا لزم الأمر .

وأخيراً ، وبعد مضي وقت طويل بعد ظهر ذلك اليوم ، غادرنا ِمز يَـــد برفقة عطا الله وعصابته للبحث عن الدليل الذي أريده في مضارب البـــدو المجاورة . واني لشاكر له تجشّمه المشاق في سبيل مساعدتي ، إذ انه عـــاد في ساعة متأخرة من الليل ، وكان معه رجلان من قبيلة بني عطية جـــاءا ليخلفا « السلمانين » اللذين دفعت لهما اجرهما ، ثم غادرانا وهما في غاية السرور ، لأنهما قد تخلصا من رفقتي والعمل معي .

وقد اثبت خلفاهما « سليمان » و « حوَيمل » انهما أكثر كفاءة من سلفيهما ، ضمن حدود منطقتهما على الأقل .

وقد شرفني « ابن مزيد » ببقائه ليلتين في المخيم ، غادرنا بعدهما ومعه عطاالله وجماعته ، ولم ارهم بعد ذلك أبداً .

وهكذا اعدت تنظيم جماعتي التي تألفت من زعل و « ابن دخيل » والشمر الذي لا بد منه «السيد» ، والدليلين الجديدين . وقد تنفست الصعداء اذ تأكدت انني قد تخلصت نهائيـاً من رفقة عطاالله وجماعته ، تلك الرفقة كانت تبعث في نفسي قلقاً شديداً لا يجعلني اطمئن الى أي واحد منهم على الاطلاق .

وقمت برفقة الدليلين الجديدين بزيارة تلة القلعة مرة اخرى، لأتأكد من اسماء المواقع التي اعطاها لي السلمانان . وقد حدث ما توقعته ، اذ انني اجريت بعض التصحيف في تلك الاسماء . وهو أمر مألوف عند المستكشفين في شبه الجزيرة العربية ، وان كان يثير القلق فعلاً . وأكثر ما كان التصويب في اسماء قمم الجبال والقنوات وبعض الوديان .

وقد اخبرني دليلاي عن وجود خرائب في مرتفعـات تدعى « ام رقبة » ، ومكان آخر لا يبعد عنهـــا كثيراً . وعلى هذا الأساس خصصت قسماً من اليوم التالي ، وهو آخر يوم لنا في « القرية » ، للقيام بزيارة لتلك الأماكن فبعد ان

قطعنـــا وادي « مُسبْويـغ »، وهو واد رملي فسيح ، ومررنا على طول امتداد هضاب « ام رقبة » ، دون ان نشاهد شيئــاً ذا اهمية تذكر ، صعدنا بمحاذاة مجرى «خريف الظُبا» حيث وجدنا في واديه الواسع كثيراً من الشارات الحجرية والقنوات الصخرية والجدران الخربة . وربما كانت هذه هي الخرائب التي أشار اليها الدليلان .

وعلى بعد بضعة اميال من هذه الخرائب ، وصلنا الى خرائب مدينة كبيرة تقع فوق هضبة تعرف باسم هضبة « خريف الظُبا » . وقد تسلقنا الجدار الشمالي الغربي حتى قمته، وهناك لاحت لنا مرتفعات ام رقبة في الجهة الجنوبية الشرقية بينما لحنا مرتفعات شرورا في الجهة الشرقية تمامــاً . وكان خط امتداد هذه الخرائب – بعد ان يسير مسافة مائة ياردة باتجاه الشرق – ينعطف حوالي مائة ياردة اخرى باتجاه الشمال الشرقي . وعند ذلك الانحناء كانت الخرائب مركومة فوق بعضها في حالة مزرية من الفوضى وكأنها ليست اكثر من رجوم متراكمة بعضها فوق بعض ، بحيث لا يستطيع المرء ان يقدر انها آثار عمران وبنايات . وكنت أجد هنا وهناك قطعاً من الحجارة المصقولة، وبعض الأواني القديمة وقطع الفخار العادية وزلف البحر .

والقسم الشمالي لهذه الخرائب ، تفصله قناة ماء قديمة شكلها اقرب الى الخليج. وهنـــاك ما يشير الى وجود سد خرب . وقد وجدنا مجموعة اخرى من الخرائب فوق هضبة مماثلة الأولى ، إلا ان محورها يتجه من الغرب الى الشمال .

ولم يكن يبدو عليها انهــا تستحق الزيارة ، ومع ذلك فقد بعثت « حويمل » ليرى ما هناك.ولما عاد اخبرني انه لم يجد شيئاً يستحق الذكر غير بعض الهياكل العظمية ، وجدهـــا بين الصخور . ومن الغريب ان هذه القرية كانت تقوم على أرض مفتلحة ملاصقة للوادي ، ويبدو من مظهرها انهــــا كانت تُفتلح من قِبل العبيد لحساب أسيادهم من النبطيين .

هذا وقد عدنا متبعين طريقاً أكثر استقامة من تلك التي سلكناها في مجيئنا ،

وذلك عبر قناة « خريف الظُبا » ـ او لعل الاسم «حارف الظبا»ـ مارين بحزام عريض من الكثبان السافية الرمال .

وخرجنا من هناك الى وادي « مسيويغ » وأراضيه الزراعية ، التي ترويها قناة ماء خاصة كانت عامرة في سالف الايام . وكان من السهل ان نتتبع مجرى هذه القناة حتى منبعها ، خصوصاً وانني أعرف ان الاعراب في الأزمنة الحديثة يتتبّعون مجرى القنوات حتى منابعهـا الأساسية . ومن هناك يستقون الماء اذا وجدوه . ولكنهم قليلا ما يفعلون .

ولا حاجة الى التأكيد على انه بقليل من الجهد ، وبعض الاعتمادات المالية ، يمكن للسلطات ان تعيد لهذه المنطقة خصبها وثراءها السابقين عن طريق حفر الآبار . وحينئذ يستفيد سكان هذه المناطق التي يعيشون في حالة مزرية جداً ، خاصة بعد ان منعوا من تقاضي الجعالة من الحجاج او من غيرهم من المارة .

وقد أخبرني دليلاي ، ان ثمة خرائباً مماثلة لهذه توجـد في مكان يدعى « ام العُويضر » ، فتوجهنا الى هناك في اليوم التـالي ، وكان السابع من شهر فبراير (شباط) . وهو اليوم الذي غادرنا فيه « القريَّة » الى الأبد . وقـد انحرفنا تجـاه الشمال الغربي ومررنا من أقصى ذراع هدب « عِمارة المعجوز » ، ثم سلكنا الطريق الرملية الواقعـة بين « مسيويغ » ووادي « القريَّة » حتى وصلنا الى الطريق الوعر « للقرية » عند التقائها بمجرى شعب « حارف الظبا » ، لنصل من هناك الى سلسلة من الصخور منبثقة من هضاب « عمارة المعجوز » .

ولما كانت الطريق صعبة جداً ، فقد أمضينا عشر دقائق من العذاب حتى قطعنا رافد شعب « طَـفّ » لنهبـط الى طريق السيارات الرئيسية التي تجري على امتداد الضفة الجنوبية لشعب « غال » . وحينئذ كان علينا ان نتجه أكـثر وأكثر الى الشمال الغربي على طول امتداد قناةٍ ما لبثنا ان قطعناها بعـد بضعة أميال حتى سرنا في حاشية « الذيابية » ومن هناك اتجهنا الى الشمال . وسرعان ما وصلنا الى وادٍ فسيح يدعى وادي « زَيتا » .

وقد اتصلت في هـذه النقطة طريق السيارات القادمـة من « ذات الحج » بالطريق التي كنا نسير عليها ، بموازاة الضفة اليمنى للوادي . غير اننا لم نلبث ان أجبرنا على التوقف عندما غرزت عجلات سيارتنا في وسط الدلتا . وكانت هذه مليئة بإمارات تدل على ان المنطقة قد شهدت حضارة قديمة راقية ، حيث امتدت فيها القنوات التي أراها الآن في حالة تامـة من الخراب . وتقع هـذه القنوات على الضفة الشمالية لسلسلة صخور « ام العويضر » .

ووجدنا مقابل السلسلة الصخرية القصوى ، عدداً من الصخور العالية تتوجها خرائب كثيرة تشبه تلك التي رأيناها في « خريف الظبا » . وقد أخترت كبرى هذه الصخور لأجري عليها فحصاً شاملاً فتوفر لديّ ما يلي :

كان ارتفاع هذه الصخرة مائة قدم ، اما طولها فيبلغ خمسمائة ياردة تمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وأظن عرضها يتجاوز ٢٥٠ ياردة بقليل .

أما التلة الصخرية الثانية فكانت تمتد الى الشرق حوالي ٦٠٠ ياردة . وكان هنالك صخرة ثالثة طولها ٥٠٠ ياردة تمتد باتجاه جنوبي غربي ، ورابعة طولهـا خمسمائة ياردة أيضاً وتمتد باتجاه الغرب .

والجدير بالذكر ان هذه التلاّت الأربع تشكل وحدة قائمة بذاتها كان يقطنها عدد من الفئات المختلفة من قبيلة واحدة أفرادها كلهم من الزرّاع .

وقد وجدت هناك قناة تدعى قناة « ام العويضر » تجري باتجـاه وادي « زيتا » على امتداد ضفته الجنوبية ، بينما يمتد شعب « السعايدي » على الضفة الشمالية . وفي هذه النقطة بالذات وجدت ان وادي « زيتا » قد أُقفل عند طرفه الأسفل بتلة رملية تدعى « الزلاّقة » . وكانت هنـالك تلة اخرى تدعى « مُنْدَفِنة » ، وكلتاهما تتربعان في دلتا ذلك الوادي الذي كان قسم كبير من ارضه مجرد أرض سبخة .

وقد شاهدت المزيد من الخرائب عند قمة السلسلة الجنوبية للهضاب . ويمكن القول بأن خلقاً كثيراً كانوا يقطنون هذه الديار في قديم الزمان ، وانه لمن سوء

الحظ ان اجد الخرائب عند هذه الهضاب غير واضحة المعالم ، فلا استطيع ان اقع على شيء ذي قيمة أثرية بينها . ولعلها كانت مخابىء تقي العبيد والخدام الذين كانوا يعملون من أجل توفير المؤن والطعام لأسيادهم . وكذلك لم اجد أية اشارة تدل على نشوء حضارة قديمة بين تلك الخرائب التي يبدو ان حجارتها تساقطت بفعل الاقفار ، وليس بفعل أية ظاهرة من الظواهر الطبيعية .

وكان من الواضح انه ليس من فائدة في تفحُّص المجموعة الصغيرة الاخرى من الخرائب الموجودة على الهضاب الباقية ، ولذلك ، فقد يممنا صوب الجنوب حتى عدنا الى طريق السيارات في أقل من عشر دقائق ، بعد ان مررنا بهضبة واطئة تفصل قناة « ام العويضر» عن وادي « زيتا » . وهناك رأينا بقايا سدّ اثري . وواصلنا السير مصعّدين في الوادي ، فلاحظنا انه اخذ يتحول الى وادٍ رملي وان كانت تكثر فيه الحجارة كلما تقدمنا الى الامام .

وبعد خمسة اميال من التصعيد لاحظت ان الوادي اخذ يضيق حتى اصبح يشبه ممراً يتراوح عرضه بين ٢٠٠ – ١٠٠٠ ياردة ، يميز الحد الفاصل بين اراضي « لِحّ » الواطئة ، وبين نجود « الحصمه » وكان الى يميننا طريق رملي يتصل بمرتفعات « عويضر » ويشكل امتداداً لها ، بينما كانت « السليمية » القليلة الارتفاع وذات الصخور الحادة تقع الى يسارنا وبعد ان مررنا بهذه النقطة غرزت سيارتنا في الرمال .

وإذ تركت مرافقي يحاولون رفع السيارة ، تابعت سيري مشياً على الاقدام لأحدد للسائق معالم الطريق التي يجب ان يتبعها متى استأنفنا نشاطنا من جديد . وقد تخلصت السيارة من سجنها الرملي فلحقت بي أخيراً ولكنني آنئذ اكتشفت ان بوصلتي قد اختفت ، فعدت ادراجي محاولاً العثور عليها عبثاً ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وأخيراً تركنا منطقة « لِح » الى أراضي الحصمه .

٩

هضبة الحصمة

اذا استثنينا مجموعة بنايات معبد « الروافا » - التي يجب ان تنسب الى منطقة « حرّة الرحا » لأنها تقع عند حدودهـا الشمالية أمكننا القول بان منطقة « الحصمه » خالية تمامـاً من أي نوع كان من البنايات . ومن المحتمل ان تكون هذه المنطقة لم يعمرهـا الانسان أبداً . فهي تبدو وكأنهـا المكان الذي يفضـله الاعراب الذين يجوبون فيافي المنطقة حيث يجدون هنـاك مرعى خصباً طوال فصول ثلاثـة من السنة . أمـا في فصل الشتاء فان رياح المنطقة الباردة الشديدة تضطر كلاً من الناس والحيوانات ان يلجأوا الى حيث يكون الطقس دافئـاً ، أي في المناطق الواطئـة الى الشرق والغرب حيث يقع واديا تبوك و « تهامة » . هذا ويبلغ ارتفاع منطقة « الحصمه» حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، كما يبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها ٥٠٠٠ قدم او أكثر .

كنـا الآن مـا نزال في الوادي المعروف باسم وادي « زيتا » ولكن ضمن منطقة التلال . وبعد بضعة أميـال من السير ، وجـدنا أنفسنا أمام مرتفعات عالية وتلال يتلوى بينها الوادي منحدراً من الجهة الغربية . وهنا درنا الى اليمين

بعيداً عن الوادي ، ومن ثم اتجهنا نحو الجنوب حيث دخلنا في أرض مرتفعة تكسوها الرمال الكثيفة وتمر الطريق من بين صخور مذببة ، وجدنا بينها سيارة نقل نصف مدفونة . وقد عرفنا فيما بعد ان ركابها قد تخلوا عنها قبل أربعين يوماً .

وغني عن القول ان سيارتنا قد غرزت في الرمال أيضاً ، وان لم تطل بها الضيافة أكثر من نصف ساعة لم أضيّعها عبثاً ، حيث توجهت الى أعلى المرتفعات لأقوم بمسح عام للمنطقة التي أمامنا . وقد وجدت ان الطريق الوعرة لا تمتد أكثر من ميل واحد الى الأمام ، ولكن عبر كثبان الرمال المعروفة باسم « خرم نميري » . ومع قصر هذه المسافة فانها كانت كأسوأ ما يمكن لسائق ان يصادف في حياته .

وقد رأيت من على القمة ان هنالك طريقاً واضحة سهلة تمتد باتجاه الجنوب الشرقي فوق أرض منبسطة عند سفح مرتفعات « السُدير » . وكانت هنالك هضاب أخرى كثيرة على يمين الطريق ، عرفنا منها المرتفعات التالية :

« قلنب » و « قَطَرية » و « نميري » و « الزور » . وكلها على جانب الطريق . أما فوق الطريق فتنتصب سلسلة جبال « حوسال » العالية . وقد ارغمنا وقوع تلك الجبال في هذا المكان ، على تحويل طريقنا الى الجنوب الغربي عند طرف جبل « سُدَيْر » .

وبعد مسيرة ربع ساعة وصلنا الى تلة منفردة تدعى تلة « الضبّ » وهناك توقفنا فترة تناولنا خلالها الشاي . ثم تسلقت التلة برفقة حويمل ، لأجد بين الصخور المتناثرة في المنطقة بعض النقوش الثمودية والصور الرائعة . فقمت بنسخها وتصويرها . وعند سفح التلة وجدنا أثراً لا يمكن ان يخطئه الانسان . كان لسور قديم ودوائر من الحجارة ، ولعلها استعملت لتثبيت حواشي خيام نصبها اصحابها في هذا المكان .

أما الطريق الرئيسية للسيارات في تلك المنطقة ، فلا تعدو كونها طريق قوافل الجمال . وهي طريق شُقّت قبل اختراع الآليات، حين كان الوادي الذي يحيط بتلك التلة المنفردة يوفر مرعى خصباً للجمال اذا ما توقفت القافلة في هذه النقطة المراحة .

ولقد كانت تلة الضب مهمة جداً بالنسبة لأغراضي الجغرافية . ، فطوال الطريق من تيماء حتى هذه النقطة لم يكن لدي شيء استطيع ان اقيس به المسافات ، وذلك بالنظر لأن عدّاد السيارة كان معطلاً . وهذا ما دفعني الى ان احتفظ بسجل وافٍ أدوّن فيه كل دقيقة نتوقف فيها عن السير وكل دقيقة نسير فيها . ومع ذلك فان المرء لا يستطيع إلا ان يقدر المسافة بشكل غير دقيق ، خصوصاً وانه ما من سيارة تستطيع ان تحافظ على معدل سرعة منتظم في منطقة تختلف فيها طبيعة الأرض بين لحظة واخرى . وأنا اعترف بأن تقديري للمسافات يجب ان يخضع لفحص دقيق ، ولم اكن راضياً عنه أبداً ، ولكنه في الواقع خير ما يمكن ان يقوم به انسان في مثل هذه الظروف والملابسات .

وبوصولنا الى تلة « الضب » تغير الوضع ، فقد تعمدت العودة اليها بعد سنتين من تجوالي الطويل ، وكنت الآن اصطحب معي سيارتي اللاندروفر بعد ان تم اصلاحها وتزويدها بعداد جديد . وكان رفيقي في هذه الرحلة صديق يدعى ر . ج . بوغو ، يملك جهازاً لقياس الارتفاعات في مختلف النقاط .

ومن هذه النقطة كنت أرى قمة شرورا واحدى قمم جبال « عجات » بالقرب من بعضها في الجهة الشرقية ، ولكنني لم اكن قادراً على رؤية « القرية » ولا تلال « مقاتي الخَدَر » التي تطل على قناة « طَرَف » . وكذلك الحال بالنسبة لقمة « غوينم » خلف تبوك . وقد افدت من زيارتي الثانية لهذه المنطقة في تصحيح الأخطاء التي ارتكبتها أثناء زيارتي الأولى لها .

ومن تلة « الضب » قدنا السيارة مسافة عشرة أميال فوق أرض رملية

واسعة محصورة بين سلسلتي هضاب واطئة ، ثم صعدنا مرتفعاً لم يلبث ان انحدر باتجاه وادي « زيتا » حتى وصل الى مسقط مياه مشترك بينه وبين قناة وادي « سَحاب » ، أحد روافد وادي « الأبيَض » . ويمر وادي الأبيض بـ « مدين » ثم يجتازها لينفذ الى البحر في نقطة تقع الى الشمال من « خُريبه » .

ولم نصادف ما يستحق التسجيل خلال سفرتنا حتى هـذه النقطة باستثناء أشياء ثانوية لم نأبه لها ، ومضينا في طريقنا فوق الرمال الناعمة لذلك الوادي .

والحق اننا استمتعنا ونحن في الطريق بلمحات من جبال « مدين » ، وخاصة قمة « لوز » التي كانت تقـــع الى الغرب من « هضب البير » او « قرة الحمرا » حيث نصبنا خيامنا لنقضي الليلة هناك . وقد قطعنا المسافة بين تلة « الضب » وهذه النقطة في سبع وستين دقيقة مع انها تزيد على خمسة عشر ميلاً .

كان معسكرنا على ارتفاع يبلغ ٣٫٩٠٠ قدم . وكانت تمتد أمامـــه أرض سبخة يبلغ طولها ٥٠٠ ياردة ، أما عرضها فيبلغ نصف عرض الوادي . وقـد وضعت فراشي عند سفح صخرة مرتفعة يفصلها عن بقية رفاقي ستار من نبات « الرَتم » الذي يستعمل في صنع المكانس .

ولاحظت عند غروب الشمس ان الرمال التي ذرتها الرياح في الوادي قـــد أصبحت ذات منظر رائع . كما أدهشني ، عند شروق الشمس ان لمحت هـــذه الرمال والصخور المحيطة بها منظراً جميلاً امتزج فيـــه اللون الوردي برفيقه الأبيض

وكان الهواء في ساعات الصباح الباكر يحمل معه رائحة الشتاء والمطر ، أما درجة الحرارة الدنيا فقد بلغت ٣٥ درجة فهرنهايت . وقد وجدنا على بعـــد عشر ياردات من المكان الذي كنت أنام فيه آثاراً حديثة لضبع يبدو انـه ود زيارتنا فاقترب من مرقدنا كثيراً ، ولكنه آثر السلامة فتخلى عن محاولة افتراس العنزة الوحيدة التي نملكها . وكانت مقيَّدة بالقرب من مرقد بقيــة المرافقين .

هذا ، وكنا قد احترسنا على العنزة الأخرى التي كانت معنا وذلك بان خبأناها من الضباع في معدنا أثناء العشاء .

وينحدر وادي « سحاب » من جهته العليا ، حتى يصل الى أرض رملية واسعة يتراوح عرضها بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ياردة . وهي محصورة بين سلسلتين من الصخور الكبيرة التي يزداد ارتفاعها تدريجياً من ٣٠٠ قدم في جهة مساقط المياه ، الى الف قدم بالقرب من مراحنا في الليل .

وخلف هذه النقطة مباشرة ينعطف الوادي الى الشمال مغيراً مجراه الأساسي الذي كان الى الجنوب في السابق . وذلك بعد ان يقطعه مجريان للمياه ينبعان من مرتفعات « نُتَيْش » العالية ، (ولعل اسمها هو « انتيش » وتقع في الجهة الشمالية) ، ومرتفعات « ام طليحة » الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية . وهنا ينخفض الوادي مائة قدم . وبعد مسافة خمسة اميال ينقلب الى منطقة تكثر فيها الصخور الغرانيتية التي يبلغ ارتفاعها ٥٠ قدماً وتدعى « المفرّق » . ومن هنا ينطلق الطريق العام للمسافرين المتوجهين الى « مدين » والى نقطتي الحدود المعروفتين باسمي « عَلَقان » و « أبو الحَنشان » .

وأخيراً وصلنا الى الحدود الغربية لصحراء « الحصمه » . ولقد امضيت فترة لا بأس بها من صباح اليوم التالي برفقة دليليّ للبحث عن مكان مرتفع نستطيع ان نلقي منه نظرة شاملة على « الأرض الموعودة » . وبعد محاولات فاشلة قررت ان المرتفعات التي تحيط بضرب خيامنا من جانبيه ، غير قابلة للتسلق . ولاحظت ان دليليّ قد اصيبا بفزع قاتل حين رأوني أدور حول قاعدة هذه المرتفعات بحثاً عن مكان يمكنني منه ان اصعد الى القمة .

واني لاستطيع القول بأن أي متسلق جبال محترف قد لا يتمكن من ممارسة حذقه في تسلق هذه المرتفعات . ولكنني لست متسلقاً محترفاً . ولذلك فقد ظننت انه سيكون باستطاعتي ان ادّعي بأنني تسلقت قمم مرتفعات في شبه

الجزيرة العربية اكثر من أي انسان حي على وجه الأرض (أو أي انسان ميت) ..

والحقيقة ان شبه الجزيرة العربية هي من البلدان اللطيفة في العالم ، وان جبالها ليست من الصعوبة بما يجعل تسلقهـا أمراً مستحيلاً . غير انه من المؤكد ان هنالك الكثير من المصاعب التي تصادف اولئك الذين يبحثون عنها .

واخترنا المرتفع المعروف باسم ام طليحة » . وبعد مجهود شاق اقتربنـا من القمة ، حيث وصلنا الى نقطة ترتفع ٥٠٠ قدم عن مخيمنا . وهنا تراءت لي جميع عظمة « مدين » الأثرية أمام عيني . وقدّرت اننا ما نزال على بعد ٢٠٠ قدم من قمتي « هضب البير » و « قرة الحمرا » .

كان مرتفع ام طليحة يحتـــل مساحة من الأرض تتراوح بين ميلين وثلاثة اميال مربعة . وكان ثمة مسيل يدعى مسيل « العَقَلة » يفصلنـــا عن الصخور الغرانيتية التي ترتفع رأسياً باتجـــاه سلسلة جبال مدين . وقد شاهدنا قمم تلك الجبال تمتد شاهقة أمامنـــا الى علو يقارب ٧,٠٠٠ قدم . وكان جبل « لوز » ومجموعة المرتفعات التي تطوّقه تقع في اقصى الشمال ، والى جنوبهـا يشمخ جبل « المقلع» الهرمي الشكل ، وكذلك كانت مرتفعات «سَلاّلا» تمتد من المرتفعات العاليـــة المعروفة باسم « زُهد » حتى الى ما قبل البحر بقليل . والى الجنوب الشرقي تقع الأرض الواسعة المعروفة باسم « البُطينه » لتفصل صخور « حصمه » عن طريق مدين .

كان لزاماً علينا اذا أحببنا الوصول الى ممر « بُطينه » ان نهبط حتى مستوى صخرة « المفرق » ثم نصعد قليلاً حتى وادي « عَقله » حيث يقودنا أحد الروافد (شعب العينيات) الى جبل عال يعرف باسم « طور الجوّاف » . وقد فعلنـا كل ذلك ، ووجدنا هناك عدداً كبيراً من النقوش . وفي هذه النقطة ضربنا خيامنا في طريق عودتنا بعد ثلاثة أيام ، بعد ان عينت دليلاً جديداً يدعى « عودة بن سعيد » . وكان من فخذ « الخمَسات » التـابع لقبيلة بني عطية في موقع « أبو

مخروق » . وقد زرت مضارب القبيلة هنـــاك علّني استطيع استبدال كل من « سليمان بن محمد » و « حويمل » وكان هذان من فخذ « الربيلات » .

وفي الصباح قمت مع عودة بجولة في منطقة التلال، كما هبطت الى منطقة صخور «فرع الأسمر» كي القي نظرة على صخرة هائلة كانت قد استرعت انتباهي عن بعد، على اعتبار انها أفضل مكان نستطيع ان نشاهد منه المنطقة . وقد تبيّنا ان هذه الصخرة غير سهلة الارتقاء ، خاصة وان حواشيها ملساء ، وارتفاعها ٨٠٠ قدم . أما طولها فيبلغ ٥٠٠ ياردة . وهي تتربع فوق القمم العاليـــة التي يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٥٤٠٠ قدم ، وربما أقل من ذلك بقليل .

وقد مررنا بآثار حديثـة لضباع كثيرة حين بدأنا تحميل خيامنا في الصباح. كما شاهدنا في أحد الوديان بعد العصر آثار أقدام ضبعين أكبر سناً من تلك التي رأينا آثارها في الصباح . ولم نعدم آثاراً حديثة لاقدام ريم انطبعت في الأرض الرملية التي تطل عليها قمة جبل « ام طليحة » . ولقد مررنا في عودتنـــا الى المخيم باحد جانبي شعب « اشهب » ، حيث شاهدنا خرائب كبيرة كانت قـــد تساقطت خلال الأيام القليلة الماضية نتيجـة لهطول الأمطار . وقـد رأيت ان نصف البناء الرئيسي قد سقط ، تاركاً المجال لرؤية صخرة تطل من ورائـه . وكنت قـدّرت اني قطعت مع « عودة » مسافة ثلاثة أميال حتى وصلنا الى « فرع الأسمر » ، أما طريق العودة فكانت أطول قليلاً ، وذلك لأننا عدنا عن طريق الوادي .

وفي الوقت ذاته اتبعنا في طريق الذهاب خطـاً مباشراً الى وادي « نقعة بني مر » . وذلك عبر ممر « بُطينه » الذي اجتزناه ثم تابعنا مسيرنا نحو الجنوب الشرقي .

وبعد مسافة تتراوح بين ميلين او ثلاثة اميال من جبل « طُور الجوّاف » ، وصلنا الى قمة الممر (حوالي ٤،١٠٠) قـــدم فوق سطح البحر) . وتشكل هذه النقطة حداً فاصلاً بين مجريين للمياه :

الأول يتجه شمالاً حتى يتصل بقناة وادي الابيض على بعد قليل من صخرة المفرق .

والثاني – وهو اكبرهما يتجه صوب الجنوب ، جامعاً معه عدداً كبيراً من المسايل الصغيرة اثناء الطريق .

ويمكن القول ان هذا المجرى يشكل اعـالي وادي « ضَمّ » الذي قطعناه بالقرب من محطة سكة حديد « حزم » قبل ان يتجه الى الشرق ، فيُعرف في المناطق المجاورة باسم صخرة هائلة مشهورة تدعى « ام سَرْهج » .

وهناك وجـدنا بقايا حجارة أثرية لسدّ قديم عند سفح الصخرة ، وبئراً ما زالت عامرة بالماء . اما مسقط المياه الى تلك البئر فيندفع من شق في جبل « عُيينات » حيث كنا نستطيع ان نرى اساس بناء صخري ما زال قائمـاً . وقد لاحت لنا امامه مباشرة بقايا بناء حجري كبير تتجمع بينها المياه في فصول المطر . ووجدت ان قسماً من الصخرة القريبة من بقايا البناء قد سُوي سطحه بحيث اصبح صالحاً لنقش بعض الرسوم ، رأيت صفاً منها يمثّل مجموعة رؤوس لرجل خيالي .

ولما كانت الصور غريبة مختلفة الاحجام ، فقد قدّرت انها ربما تكون تصاوير احد آلهة الثموديين . غير ان النقوش القليلة التي وجدناها في المنطقة المجاورة لم تكن إلا تواقيع الأشخاص الذين زاروا المنطقة او مروا بها .

وهكذا ، لم أستطع ان أجد شيئاً يلقي ضوءاً على هوية صاحب تلك الصور ، فظلت بانتظار أحد الخبراء ليكشف لنا عن كنهها ومدى أهميتها . وقد لاحظت ان جميع الصور قد نقشتها يد شخص واحد ، ومن غـير المعقول ان تكون كلها قد نقشت لمجرد قتل الوقت .

وعندما آويت الى فراشي بعد ان جَن الليل انهمكت في قراءة مـا تلقّيته من صحف قبل ان نغادر تبوك . وانتصف الليل .. وهممتُ بالقاء عدد من جريدة

« التايمس » لأنام ، واذا بازيز طائرة تمر من فوقنا .

وكان البريد الذي تلقيته في تبوك هو أول بريد أتلقاه منذ ان غادرت « المدينة » ، وكنت قد وضعت لنفسي قاعدة لا أحيد عنها وهي قراءة جريدة واحدة كل ليلة ، وذلك حتى أوفر لنفسي الرفاهية الوحيدة التي يمكن ان أجدها أثناء تجوالي .

واستيقظتُ في الصباح لأجد « دمّلاً » كبيراً في فخذي اليمنى أخذ ألمه يزداد أثناء النهار . وكان كل ما استطعت ان أعمله ، هو ان أطوف حول صخور «ابو مخروق» وأنا أعرج . وربما لم أقطع أكثر من نصف ميل في تجوالي الكسيح ، حيث قصرت مهمتي على نسخ النقوش المهمة ، وكان معظمها من النقوش النبطية . وبعد ان فرغت من ذلك عدت لاضطجع في فراشي ، ثم تناولت قرصين من الأسبرين لأخفف الألم .

وقد امضيت طوال فترة بعد ظهر ذلك اليوم في كسل تام ، وعكفت خلال تلك الفترة على تدخين غليوني عدة مرات كما حاولت فك معمّيات الكلمات المتقاطعة المنشورة في الجرائد . وكان أشد ما يؤلمني هو انني لم اكن قادراً على القيام بالمزيد من العمل خلال فترة بعد الظهر .

وغابت الشمس .. وبدت السماء ملبدة بالغيوم ، ولم تلبث ان تساقطت بضع قطرات من المطر كانذار يسبق العاصفة القادمة التي كانت قد ألمت بالفعل بمرتفع « شماتي » وغيره من الجبال في المنطقة . وهناك كان المطر يتساقط بغزارة ، ويتخلله الرعد والبرق على فترات متقطعة . وكانت السحب كلما اقترب بزوغ الفجر ، تزداد اقتراباً من فوق مخيمنا . وما ان انتصف النهار حتى بدأت الامطار تتساقط بغزارة ، وفي موسيقى صاخبة من قصف عواصف رعدية شديدة. واذ نظرت حولي رأيت ان كل العالم الذي اراه يرتجف من الزوبعة .

وقد استمرت احدى الزخات الغزيرة طوال عشرين دقيقة مظلمة ، وبعدها بانت بعض الرقع الزرقاء من السماء فوق بقية المنطقة .

ومن الطبيعي انه لا يمكن القيام بأي عمل جدي في مثل هذه الحالة ، ولذلك فقـــد قررت ان نبقى تلك الليلة حيث نحن ، على أمل ان يتحسن الطقس في الصبـــاح . ولما كان وادي « نقعة بني مرّ » من العوامل المهمة في اقتصاديات منطقة « الحصمه » ، فانه غدا من الضروري ان اهتم به ، خصوصاً وانني لم اكن آمل ان اراه مرة ثانية. ولكنني عدت لزيارته بعد سنتين مع صديقي « بوغو » .

كان القسم الواطىء من الوادي يرتفع ٣٫٥٠٠ قدم عن سطح البحر ، وبذا نكون قد هبطنا ٤٠٠ قدم من مخيمنا في « قارَة الحمرا » . أما الرافد الرئيسي الذي يزود هذا الوادي بالماء فهو وادي « ريط » ويقع أوله في الجهة الغربية على بعد كبير ، حيث توجد مساقط مياه ترسل قسماً من مياههـــا الى وادي الأبيض .

وينضم الى هذا الوادي اثناء جريانه العديدُ من الروافد ، وحين يقترب من وادي « نقعة بني مر » ينتشر في دلتا واسعة. وثمة اخرى يشكلها وادي «بلاس» ، وهو وادٍ تنبع ميـاهه من تلة عالية تحمل الاسم ذاته وتقع في الجهة الجنوبية الغربية . وهنـــاك منحدر شديد يبدأ من الأرض المرتفعة في الجهة الشرقية من وادي « شعب خاوي » الذي ينبع من مساقط الميـــاه الموجودة هنـــاك على علو ٤٠٠ قدم عن سطح البحر .

وقد قمت بزيارة هـــذه المنطقة مع « بوغو » حيث وجدت صخرة مزدانة برسوم مذهلة على بدائيتهـا تمثل ست عشرة نعامة في صف واحد . وتبعد هذه النقطة مسافة لا تزيد على ثمانية اميال عن الطرف الشرقي للوادي ، وتسيح فيها المياه الناجمة عن الفيضانات حيث تنساب هذه الميـاه بين قطعتي أرض مرتفعتين تدعى الأولى « قور البيضا » والثانية « قور الحمرا » .

أما مجرى الماء الذي يتجمع من المرتفعات الخلفية فيشق طريقه الى وادي «ضم» كما يجد طريقه الى سهل « حرده » في وادي تبوك .

وكما سبق ان ذكرت فان ممر « بطينه » ينحرف شرقـــاً لينضم الى وادي

« ضم » على بعد ميل أو ميلين من الطرف الشمالي لوادي « نقعة بني مره » الذي يتلقى المـدد من عيون الصخور ومياه المرتفعات . وأهم هذه المرتفعات هي « َشقيق » و « ُشقيق » ، وهما من المرتفعـات العالية حتى ليبدوان وكأنهما يصافحان السماء .

وثمة مرتفع آخر يدعى « مقلع » قمت بزيارته بحثاً عن النقوش . غير انني لم اجد هناك شيئـاً . بل وجدت العديد من النقوش في أماكن أخرى في المناطق المجـاورة ، وخاصـة عند صخرة صغيرة معزولة تبعد مسافة لا تزيد على الف ياردة عن المكان الذي كنت فيه .

وقد وجهت اهتمامي الى هذا المكان في صبيحة اليوم الذي شفيت فيـه من « الدُمَّل » . وكان الوادي يكتنفه ضباب كثيف غـير ان الشمس عملت على تبديده تدريجياً . وهكذا أصبحت السماء خالية من أي أثر للسحب مع ان الهواء ظل قارس البرد وكأن الثلوج تكاد تتساقط . هذا مع ان درجـة الحرارة الدنيا في الليلة الماضية لم تنخفض عن ٤١ درجة فهرنهايت .

ولم تكن هناك رياح أول الأمر ، غير انها ما لبثت ان أخذت تهب خـلال النهار . وكان هبوبها قاسياً يبعث في النفس القشعريرة من البرد ، ممـا جعلني ارتعش حتى ان أصابعي غدت لا تكاد تقوى على الامساك بالقلم ، أثنـاء زيارتي الثانية الى الصخرة لاكمل نسخ النقوش. وقد لاحظت ان جهات الصخرة الأربع مليئة بالنقوش الثمودية ، إلا ان بعض هذه النقوش كان بالسبأية والنبطية مع عدد كبير من النقوش العربية .

ويبدو ان وادي « نقع بني مرة » هذا ، كان مشهوراً كمنتجع معروف منذ عصور قديمة . ولعله كان محطـة للحجاج الذاهبين الى « مكة » . فلا ريب في ان النقوش العربية من صنع الحجاج الذين مرّوا من هذه الناحيـة الى الوادي المماثل الذي يدعى ، « النعمي » . ويميز مركز هذا الوادي الواقع الى الجنوب ، تلة سوداء تدعى « الغراب » تمتد حتى ممر « ُخرَيطة » الواقع الى جنوبها .

كان سطح أرض الوادي رخواً من اثر الأمطار التي هطلت خـــلال الأيام الأخيرة . فمرت سيارتنا فوق هذه الطريق بحذر حتى « مِقليع » . ومن هنا أتيحت لنا فرصة طيبة لمشاهدة المناظر الممتعة في المنطقة المجاورة ، رغم اننا لم نستطع ان نتسلق قمة « مِقليع » لصعوبة الوصول اليها . فقد كانت تلك القمة شاهقة فوقنا ، ولكنه لا سبيل الى الصعود اليهـا إلا عن طريق صخرة ملساء ربما كان ارتفاعها مائة قدم .

هذا وقد وجدنا عند صخرة قريبة من « المقليع » عدداً كبيراً من النقوش. والصخرة هذه أصغر من الأولى ، كما انها منحاشة عن صخور « قور الحمرا » .

ومن ثم عدنا الى مخيمنا مارين بالوادي عن طريق الآبار التي وجدناهـــا مترعة بالمياه في ذلك الحين . وقد زرت المنطقة بعد سنتين من هذه الجولة برفقة « بوغو » فوجدت هذه الآبار جافة وخرِبـة ، من جراء حدوث سيول شديدة دمرتها . وكانت الى جانب الآبار بقايا كوخ حقير ، لعـــله كان يستخدم لايواء حراس الآبار المكلفين برد الأعداء عنها .

وقد عكفنا على حزم متاعنا ووضعه في السيارة حين عدنا الى المخيم ، ومن ثم تحركنا بحذر شديد عبر الوادي متجهين نحو الشمال ، ومتنقلين من صخرة الى اخرى بحثاً عن المزيد من النقوش . والحق اننا وجدنا العشرات منها ونحن في طريقنا الى الصخور الواطئة التي تدعى « الشُقَيْق » ، وهي تبعد حوالي خمسة اميال الى يمين صخور « أبو مخروق » ، حيث قررنا ان ننصب خيامنـــا لتمضية تلك الليلة .

وكنا نجد هنا وهناك بركاً ضحلة من الماء عند سفوح الصخور المختلفة ، كما لاحظنا ان الجراد ما يزال يحتل المنطقة بكاملها . وليس من الضروري ان نذكر هنا بقية رحلتنـــا (وهي تتعلق بعودتنا عن طريق وادي « مغار » و « أبو البيبان ») فقد سبق ان تحدثت عن هذين الموقعين بما فيه الكفــاية . غير انني لا بد ان اشير الى اننا وصلنا صخور « المفرق » يوم الاثنين في الثـاني عشر من

فبراير (شباط) ، وكان من المقرر ان نمضي من هناك الى وادي الابيض .

وبعد مسيرة خمسة اميـال من صخرة المفرق لاحظت ان السهل بدأ يميل باتجاه غربي مع ميل الى الجنوب ، حتى سفح سلسلة جبال « لوز » . وقد بدت بعض قمم هذه السلسلة للعيان وان كانت الذُرى الرئيسية قـد ظلت مختفية عن أعيننا بالنظر لوجود جبل عالٍ كان يحجبها . وفي هذه النقطة كان بئر « عَقلا » منحاشاً عن طريقنا قليلاً الى الغرب . أمـا على الجهة الشرقية من الطريق فقد وجدت تلالاً تدعى « رُمَيْمِنه » .

وعندما وصلنا الى قاعدة الجبل،لاحظت ان الوادي قد انقلب مليئاً بنباتات الرتَم والأدغال الصغيرة وغير ذلك من النباتات البرية .

وبعد حوالي ثلاثة اميال من انحناءة الوادي وجدت شعباً هنــاك يدعى « الحزيّن » ، ويقع على الضفة اليسرى من الوادي . أمـا على الضفة اليمنى ، فقد كان ثمة شعب آخر يدعى « عُميّد » . وقد قيل لي ان هذين الشعبين همـا الطريق العادي للجمال التي تحمل احمالاً خفيفة ، وتؤدي الى ممر وعر بين الجبال يؤدي بدوره الى وادي « أفَل » في الطرف الأقصى من الطريق .

وكانت هنالك طريق اخرى تمر من مبتدى شعب « سّيق » ثم تسير فوق الكتف الأيمن لجبل لوز عند مرتفع « الحجبة » .

وهنا يبدأ وادي الأبيض بالابتعاد عن الجبل صوب الجنوب الشرقي ثم باتجاه الجنوب ، وذلك عندما وصلنا الى مساقط المياه النابعة من صخور « المُحرّق » السوداء .

وبدأنا الآن نسير في طريق وعرة جــداً تتعرج في أسفل منحدرات جبل « المِقليع » حتى خرجنا الى أرض فسيحة قادتنا صعُداً الى رأس وادي الابيض الواقع بين جبل «المحرق» الذي كان الى يميننا ، وجبل « قَحَبونه » الى يسارنا . وفي هذه النقطة توقفنا لاداء صلاة العصر وتناول المرطبات .

وكانت هذه النقطة على بعد عشرينميلاً من صخرة « المفرق» ، وعلى ارتفاع

٥٬٢٦٠ قدماً فوق سطح البحر حسب قراءة جهاز القيـاس الذي كان يحمله بوغو في الرحلة الثانية .

ومن هنا أخذ وادي الأبيض يتجه شمالاً ثم الى الشمال الغربي ، بينما كانت امامنا وباتجـاه الجنوب الشرقي المنحدرات التي تعرف باسم « علو حيفا » والتي تصب مسايلها في قناة وادي « حيفا » . ولم يكن هنالك أي شيء مهم في هذه المنطقة باستثناء بعض الصخور المتفرقة التي ربما كانت قبوراً لبعض الحجاج .

وبعد ان استأنفنا السير اثر استراحة دامت ساعـــة كاملة ، وصلنـــا بعد اكثر من ميل الى شجرة تسترعي الانتبـاه . ومن غير المألوف في هذه المناطق ان تطلق على الأشجار اسماء معينة ، أما هذه فقد كان اسمها « مَطعمة » .

ويبدو ان هذه هي كل ما تبقى من مجموعة أكبر من الأشجار ، ربمـا كانت ذات أهمية دينية او قبلية ، بدليل قطع القماش الكثيرة التي كانت تزدان بهـــا أغصانها المجردة من الورق .

وقد أوحت لنا هذه الشجرة وما تزدان به من أقمشة مختلفة ، بان هـــذا المراح كان يعتبر بمثابة مرحـــلة محدّدة في طريق الحجاج المسافرين عن طريق وادي « بني مر » . وقـــد سبق ان ذكرت احتمال كونه طريق الحجاج الى « مكة » .

ومهما يكن من أمر ، فان دليـــلي « مقبل » لم يكن يعرف أي شيء عن الموضوع ، وان كان قد اطلق على الشجرة اسم « البُطمة » . والبُطم نوع من الشجر مألوف في الشمال الى جوار « بترا » ، وقد ورد ذكره في التوراة . غـير انني لم أستطع ان أتبين كنه هذه الشجرة حتى بعـــد فحص الأوراق الملقاة على الأرض . ولهذه الشجرة ثلاثة فروع تبدو عليها الشيخوخة والهرم ، وتمتـــد أغصانها بعيداً ، كما يبلغ ارتفاعها حوالي عشرين قدماً .

وكان علينا ان نترك قضيـــة شجرة البطم دون حل ، حيث بدأنا بنزول منحدرات « حيفا » الى فراغ ضيق يقع بـــين سلسلتي جبال « جَهْر »

و « أُغَيْثِر » . وهناك مررنا برجل وحيد يمتطي بعيراً ويتجه الى حيث مساقط المياه التي اجتزناها منذ قليل .

والحق انني استغربت إذ تبين لي ان القناة التي عبرناها عند مساقط ميـــاه وادي الأبيض قد قطعتها المرتفعات الواقعة الى الجنوب الغربي فحوّلتهـــا الى وادي « أفَل » مارة من بين جبلي مقليع و « شلاّلا » !

وتابعنا سيرنا باتجاه الجنوب الشرقي عبر الطريق الممتد بين جبال (جهر) و (أغيثر) لنصل الى رأس وادي « الريْط » ، حيث ضربنا خيامنا لنقضي الليلة هناك .

كنا الآن قد انحدرنا حوالي الف قدم عن مكان مساقط المياه . إلا انـه على الرغم من ان السماء كانت صافية الأديم ، فقد مضى يومنا ذاك والرؤية فيه غـير واضحة تمامـاً ، بسبب الضباب الكثيف الذي انتشر في الصباح . وقد قطعنا خلال ذلك اليوم مسافة لا تزيـد على ثلاثين ميلاً ، غير انه كان يوماً حافـلاً بالأعمال .

ومن سوء الحظ اننا لم نقابل أحداً من البدو ، فظللنا لا نملك لحمـــاً نعدّه للعشاء باستثناء طير صغير اصطاده دليلي الثاني « مسفر » .

وقد اقحم رجل من بني عطية نفسه علينا فانضم هو وزوجته وشقيقـــه الصغير الى جماعتي بينما كنا في « النُخَيلة » ، وكان هؤلاء قـــد أتوا مشياً على الأقدام من « رمّ » في الأردن . وقـد وضعوا أمتعتهم القليـــلة خلف دغل قريب من المكان الذي اخترته لقضاء الليلة . واقترحت ان نبعث بالطير الصغير الى الامرأة لتأكله غير ان زوجها عارض في ذلـك ، فكان ان أكلت المسكينة ما تبقى بعدنا من طعام ! وقد علمت ان هؤلاء الجماعـة كانوا في طريق عودتهم الى « نقع بني مر » بعد ان قاموا بزيارة بعض أقاربهم في « رمّ » .

كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في تلك الليـــلة ٣٤ درجـة فهرنهايت .

وقد تساقط الندى بغزارة ، ولأول مرة منذ بضعة أسابيع - وان كان الصباح قد أشرق عن سماء صافية لا ريح فيها .

وكانت طريقنا الآن تمتد باتجاه الجنوب الشرقي الى أسفل وادي (الريط) . ولم نتعرض لما من شأنه ان يلفت الانتباه، اللهم إلا بعض الروافد التي كنا نعبرها من هنا او هناك . وكانت سيارتنا تدرج فوق أرض كستها النباتات المختلفة مثل (الشيح) و (الرَتم) و (البُعيثران) ، وللأخير رائحة زكية منعشة . وقد اصطاد (مِسفر) أثناء الطريق عدداً من الطيور ، كان من سوء حظي انني لم أشاهدها إلا بعد ان طبخت وأعدّت للغداء .

وكنا قد قطعنا مسافة خمسة عشر ميلاً من معسكرنا ونحن نهبط في وادي (الريط) (٢٣ ميلاً من مساقط مياه الأبيض - حيفا) عندما بدأنا نرى بعض الاشارات المألوفة في أراضي (نقع بني مر) .

وفي هذه النقطة كان نجد « بالاس » الصغير يلوح الى الجهة الجنوبية الشرقية، بينما تظهر الصخرة الكبيرة التي تشكل « مقاليع » في الجهة الجنوبية مع ميل اكثر الى الشرق . أما القمم الشاهقة لجبال « مَنْوة » و « يَزار » و « وُعَيْر » ، فكانت تقوم على يميننا مشكّلة قوساً يمتد من الجنوب تقريباً حتى الغرب . هذا بينما ظهر الى يسارنا جبل « غُشَيْرمي » الواقع خلف مرتفعات « الحوض » ، ومشكلاً الخط الفاصل بين القنوات التي تصب في وادي « ريط » وبين تلك التي تصب في وادي «غشيرمي» الذي هو بدوره أحد فروع وادي « الضم » .

وكانت طريقنا مع ارتفاع قناة وادي « ريط » المؤدية الى ممر « الضييقات » بين سلسلتي جبال « جهر » و « أغيثير » تتجه نوعاً ما نحو الشمال الغربي. بخلاف تلال « المُحرّق » التي تطل على مساقط مياه الأبيض وتتجه نحو الشمال الغربي مباشرة . وكان ارتفاعنا في هذه النقطة ٣,٤٠٠ قدم فوق سطح البحر .

وهنا أخذ الوادي - ريط - ينبسط في أرض واسعة (دلتا) وهو يقترب

من نقطة اتصاله بدلتا اخرى مماثلة لوادي (بلاس) ، حيث أصبح يتلقى مياه عدة وديان اخرى كانت تتدفق من الجهتين .

ولاحظت ان دليلي (مقبل) يبدو غير واثق من نفسه مع انه ظل حتى هذه النقطة دليلاً ممتازاً للغاية .. وكان تخبطه الآن لا يهمني كثيراً ، فأنا اعرف هذه المنطقة من قبل .

وبعد مسيرة حوالي أربعة أميال وصلنا الى نقطة اتصال فعلية مع وادي بالاس تكاد تكون منتصف الطريق بين مخيمنا في أبو مخروق وبين سهل فسيح اعرفه هنا . وقد رأيت ان ما تغير خلال السنتين اللتين غبتهما عن المنطقة كان قليلاً . ولاحظت ان آبار المنطقة مخربة ،فكان لزاماً علينا ان نرسل من يحضر لنا الماء من مكان قرب (المقليع) .

***

كنت أنا وزعل كل من تبقى من جماعتنا مع (السيد) وسيارته الجبارة . غير ان غزوتنا الحالية لمنطقة (الحصمة) كانت على مستوى اكثر اهمية من سابقاتها ، فمن الضروري ان تتم بمرافقة ما لا يقل عن خمس سيارات . وفي هذه الأثناء جاءني الفرج حين وصلتني سيارة اللاندروفر بعد ان تم اصلاحها تماماً من العطب الذي ألم بها في تيماء . كان في عروقها دماء جديدة .. واستبد بها الحماس فقطعت مسافة ١,٧٠٠ ميل من جدة حتى المنطقة التي وصلت اليها . وقد رافقتها سيارة جيب كانت تقل بوغو . وبالاضافة الى السيارتين ، أحضر بوغو معه سيارتين قويتين من طراز دودج تابعتين للنقطة الرابعة ومزودتين برافعتين تساعداننا في التغلب على أية صعوبات قد تعترضنا في الطريق . كما اصطحب بوغو ستة من رجال الحرس زودته بهم وزارة المالية السعودية . وكان لهؤلاء الحرس سيارتهم الخاصة بهم .

وسرنا حتى ابتعدنا عن صخرة المفرق مسافة خمسين ميلاً . وهناك دلنا جهاز القياس الذي يملكه بوغو على اننا اصبحنا على ارتفاع ٣,٢٨٠ قدماً عن سطح البحر . واني لأرى من الواجب الاقرار بفضل صخور المنطقة هذه . فقد

ساعدتنا تلك الصخور في اتقاء ريح شمالية شرقية كانت في منتهى البرودة .

هذا وقد عاد زعل الآن ، وكنت ارسلته ليستأجر لنا دليلاً جديداً ، عاد ولم يكن معه الدليل فحسب بل خروف سمين صنع لنا منه عشاءً فخماً . وكان الدليـل من فخذ (خمْشات) من قبيلة بني عطية ، اسمه (مطير بن مسعود بن خضر بن نجم) . وقد صرح لنا بأنه ملم بالمنطقة التي كنا نريد استكشافها، غير ان قصة هؤلاء الأدلاء يجب ان تترك لمناسبة اخرى ، فقد حان الوقت للعودة الى صخرة المفرق وسنة ١٩٥١ ..

١٠

وادي مدين

تعتبر صخرة (المفرق) التي غادرناها في الثاني عشر من شهر فبراير (شباط) سنة ١٩٥١ – منحدرين نحو وادي (الأبيض) – أبرز موقع طوبوغرافي وجيولوجي في هذه المنطقة . ومن على هذه الصخرة تنكشف المنطقة بكاملها : الصخور الغرانيتية وأحدث الصخور النوبية .

والصخرة ، من الناحية الجغرافية ، نقطة التقاء مجريين للماء ، هما المجريان الرئيسيان اللذان يمتدان الى الغرب من (حِصمة) والى الشرق من (مِدْين) على التوالي . ويصب الأول في وادي (سحاب) ، ويقع رأسه على بعد عشرة اميال على طول الطريق التي قدمنا منها . ويصب الثاني في وادي (الابيض) الذي تقوم مساقط مياهه على بعد حوالي عشرين ميلاً الى الجنوب دون مرتفعات سلسلة جبال مدْين .

وتصب مياه السيول التي تنحدر من الجبال المجاورة مثل : (حَسَب) و (جَحَشة) القائمين على الضفة الشمالية . و (هضَب البير) و (نُخَيلة) (وام هاشم) على الضفة الجنوبية ، في نقطة الالتقاء .

اما المسيلة الصغيرة التي تمتد من المنحنى الغربي للمجرى الرئيسي للوادي فتلتقي مع الواديين الشهيرين : (زِيتا) و (قَحازه) . وهما يأتيان من الشرق والشمال على التوالي ، ثم يصبان في منطقة شبيهة بمنطقة الحصمه من حيث طبيعتها ، ويشكّلان - في الواقع - امتداداً لها نحو الحدود الاردنية .

وعلى بعد حوالي ثلاثة اميال الى اسفل مجرى وادي زِيتا والابيض - على بعد عشرة اميال من المفرق - تبتعد طريق السيارات عن ارض الوادي لتمرّ برافد قصير ، ولكنه عريض ، يدعى شعب (الضّال) . وهو ينحدر من بين جبل (جَحَشه) والمرتفعات الواطئة التي تُعرف باسم القريّة (وربما القُريع) على الضفة الشمالية من وادي الابيض .

والى اسفل هذه النقطة - على بعد قليل - توجد القلعة المشهورة ذات الصخور الحمراء والسوداء ، المعروفة باسم (كاشو) معلنةً بدء طريق ، قيل لي انها غير صالحة للسير ، وللآليات خاصة . وذلك بالنظر لطبيعة الارض الصخرية وصعوبة اجتياز المجرى من هناك الى النقطة التي يجعل فيها الوادي آخر منعطفاته الكبيرة الى الجنوب ، حيث تعود الطريق لتلتقي به مرة أخرى .

وفي الوقت ذاته فقد تباحثنا حول الطريق الصعب عبر شعب (ضالّ) بالتفصيل ، تلك الطريق التي تمر من بين جبال (جحشه) و (الرس) و (القريّة) ، ثم تدور قليلاً الى الشمال الغربي لتعود فتصعّد في النجد المؤدي الى شعب (المنْطية) حتى تصل الى مبتداه على بعد أربعة او خمسة أميال من النقطة التي تركنا فيها وادي الأبيض .

هذا وقد توقفنا لنتدارس موقعنا ونحن في النقطة التي تنحدر فيها الأرض الواسعة لوادي (الصُرَيْم) . وتتميز هذه البقعة بعدد من النتوءات لعلها قبور او تحصينات للدفاع عن هذا الممر . وقد لاحظت عند فم شعب (ضالّ) وجود بعض البقايا لبنايات خشنة المظهر ، يمكن ان تكون بقايا سدّ منهار او اثار بيوت بدائية للسكن .

وكان هنالك شيء ما في المنطقة جعلني أمعن التفكير . فاسم القريّة ذاته يوحي للمرء بان هذا الاسم قد اطلق بشكل تقليدي للتعريف على مكان خرب. والأمر الذي يؤكد هذا الاعتقـــاد ، وجود بعض الخرائب وان كانت ليست بذات أهمية كبيرة . غير ان التقارب والتشابه في اسم (الرسّ) لا يبدو انـه جاء مصادفة . فقبيلة (نوح) وأهل (الرس) و(ثمود) و(عاد) و(فرعون) واخوة (لوط) واهل (الايكة) وقبيلة (تبّع) : جميع هؤلاء عارضوا دعوة النبي . ومرة أخرى فان قبيـلة (نوح) و (عاد) و (فرعون) ذي الأوتاد انكروا الرســل الذين جاؤوهم من قبـل . ولم يستطع أحد – حسبما أعلم – التعرف على (الرس) و (الايكة) . (وهي تترجم عادة « الخشب ») وان كان يبدو على وجه العموم انهما يجب ان تكونا في المناطق المجاورة (لمدَين) .

ولعله يبدو من التسرع القول بانني قد وصلت الى خرائب الأولى ، ولكنني لم أعرف مكاناً آخر يدعى (الرس) في شبه الجزيرة العربية غير هذا الموقع ، ومكان آخر في (قصيم) . والثانيمكان يُشك في ان الله قد أشار اليه في الآيات السالفة . وكما سنرى فيما بعد ، فان اسم (ايكة) موجود في مكان آخر . وهو وادٍ يتفرع من وادي (أفل) الذي ينبع من جبل (لوز) الكبير .

هذا ولا توجد أية أدلة قاطعة تؤيد الاعتقاد بان النقاط العديدة المنتشرة على طول الوادي المؤدي الى المراكز الأساسية في أقصى الجنوب ، كانت مأهولة من قبل أهل مدين الأقدمين ، (او الذين خلفوهم ، بما في ذلك النبطيين) .

ولعله من سوء الحظ ان تحوُّل طريق السيارات عن مجرى الوادي قد منعني من زيارة المنطقة التي ما زالت مأهولة بالبدو حتى يومنـــا هذا ، وهم من البدو المعروفين باسم (وَلي صمويل) . وقد قيل ان (رس) تقع على مرتفع يطل على الضفة اليمنى لوادي الابيض من نقطة يلتقي فيها هذا الوادي برافد ينحدر من الجهة الشمالية الغربية يدعى شعب (وسيطه) ، ومن الممكن ان هذا الموقع كان مزاراً يؤمه الناس قبل الاسلام .

وأشار موسيل الى هذا المكان على خريطته ، غير انه لم يزره . وأكاد اجزم بان هذا المكان لم يزره أوروبي من قبل .

***

كنا نستطيع من مكاننا في رأس وادي (صُرَيم) ان نرى سلسلة الجبال العالية المحاذية للضفة اليمنى من الوادي . غير ان (عوده) لم يستطع ان يتعرف على اسماء قممها . وهكذا ظلت هذه الأسماء مجهولة لدي حتى عثرت على دليل آخر . وعندها ارضيت حب الاستطلاع في نفسي وعرفت ان الجبل الكبير الواقع في الطرف الجنوبي لتلك السلسلة يدعى (شمّال) ، كما عرفت قمتي (الشميّل) اللتين تقعان الى الشمال منه قليلاً . وهنالك رأيت قمتين اخريين تدعيان (القصيْر) وتقعان بين القمتين السابقتين وبين الجبل الكبير المعروف باسم (الشُريف) الذي يقع في أقصى الشمال . وبعد الفراغ الناشيء عن وادي (شرَف) تعود سلسلة الجبال الى الامتداد حيث تبرز سلسلة جبال (حميّر) القليلة الارتفاع ، وهذه هي التي كانت تحجب انحناءة وادي الأبيض الذي يحمل في تلك المنطقة اسم (أفل) .

وينحدر وادي (صريم) من اعلاه حتى نقطة اندماجه بالوادي الأخير حوالي ١,٣٠٠ قدم . وذلك خلال مسافة اثني عشر ميلاً .

كان مخيمنا على ارتفاع ٢٦٠٠ قدم فوق سطح البحر . وقد لاحظت على بعد ميل او ميلين الى أسفل ونحن ننحدر فوق طريق رملية مغطاة بنبات (الرَتم) ونبات (المكانس) مخيماً صغيراً للرعاة الى يميننا . وهنا اوقفنا السيارات وأرسلت زعل وعوده يبحثان لنا عن دليل . وقد عادا صفر الأيدي ... ثم توقفنا بعد بضعة أميال أخرى لنفحص مخيماً يقع تحت الضفة اليسرى لوادي (رُقَط) مقابل مرتفعات (الغراب) على الضفة المقابلة . وهنا كنا أكثر نجاحاً ، إذ بينما كنا بانتظار عودة زعل ، جاءنا صبي صغير من

المخيم ليتحدث الينا ، وأخبرنا بأسماء بعض المعالم التي كنا نراها من مكاننا ذاك . وكان دليلنا الجديد يدعى « زيد » وهو من فخذ (النشاره) التابع لقبيلة بني عطية . وقد أخبرني ان لفظ (ممزة) – goat - totem – الذي كثيراً ما استعمله (ريتشارد بورتون) و (موسيل) في معرض اشارتها الى (بني عطية) قد أصبح الآن عديم الاستعمال بالمرة ، وان كان معروفاً على انه لفظ يشمل القبيلة باسرها .

وتحت هذه النقطة مباشرة ، وعلى بعد ستة اميال من الرس ، وجدنا قناة مسيل (َشمرخ) تنحدر من الكتف الشمالي لجبل (لوز) لتدخل (صريم) ، بينما تتصل سلسلة جبال (شمرخ) بجبال (رقط) فتأخذ منها الامتداد على طول الضفة الشمالية .

وبعد ذلك مباشرة يتسع الوادي في دلتا عريضة بين عدد من التلال الواطئة . وهنا ضربنا خيامنا بين عدد من اشجار (الاكاسيا) مبعثرة هنا وهناك . ولا تبعد هذه النقطة كثيراً عن مخيم صغير للرعاة من قبيلة (عمران) التي تزعم انها قبيلة مستقلة وان كانت في الواقع فرعاً من بني عطية . وقد زارنا عدد من رجال هذه القبيلة ليتذوقوا طعام العشاء الذي اعددناه ثم عادوا في الصباح ليتناولوا معنا القهوة وطعام الافطار قبل ان نستأنف المسير . وأفراد هذه القبيلة لا يعلمون إلا القليل عن اصلهم ، وان كان اسم القبيلة يذكر المرء بـ (آل عمران) وهي العشيرة التي انحدرت من آدم ونوح وابراهيم .

ويبدو ان هذه القبيلة ليست من الأشراف مثل قبيلتي (حطيمه) و (شرارات) التي تقطن في شمال – غرب شبه الجزيرة العربية ، وان كان ممكناً انها ذات تاريخ قديم مثل (بني ُعقبه) التي تقطن (مَقْنه) .

ولم نكد نسترح في معسكرنا قليلاً حتى بدأت عاصفة عاتية تزأر فوق المرتفعات المطلة علينا . وما ان غابت الشمس ، حتى كانت المنطقة باسرها في

جلباب من السحب تعرضنا لوابلها بعد بضع ساعات. ولكن السماء عادت صافية بعيد منتصف الليل . وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في تلك الليلة ٤١ درجة فهرنهايت .

هذا ولم نستأنف مسيرنا قبل منتصف يوم الثالث عشر من شهر فبراير (شباط) ، ذلك لأن مرافقيّ كانوا سعداء جداً بضيوفهم من قبيلة (عمران) ، وركابِ سيارتي نقل كانوا في طريقهم من تبوك الى (ضُبة) . وكان هؤلاء هم الذين نقلوا الينا آخر الأنباء عن عروس الحدود الشمالية ، ومنهم علمت ان (خالد السديري) قد عاد الى تبوك بعيد مغادرتنا لها .

ومن الطبيعي انني لم أضيع هذه الوقفة الطويلة ، اذ قمت بالتفرج على المنطقة من فوق صخرة رائعة يبلغ ارتفاعها ١٠٠ قـــدم . وكان ذلك الصباح رائعاً ترافقه نسمات باردة تهب من الجهة الشمالية . وكانت القمة الرئيسية لجبل (لوز) تغطي جزءاً منها السحب وتقع الى الجنوب الشرقي من المراح الذي كنا فيه ، بينما كان منعطف وادي الابيض على بعد ميل واحد الى الشمال – ويُعتقد أن طول هذا الوادي من مساقط مياهه حتى هذه النقطة يقارب الخمسين ميلاً . وكانت قمة (الرس) واضحة للعيان بالقرب من رأس وادي (صُرَيْم) مع مَيل قليل نحو الجنوب الشرقي ، بينما ينحدر وادي (الشرف ، العميق بشكل مستقيم الى دون مرتفعات (الشُريف) المقابلة . وكانت هذه هي احدى الطرق القديمة التي كان يتبعها الحجاج القادمون من مصر على ظهور الجمال ، بعد ان يقطعوا صحراء سيناء الى (العقبة) ومن ثم يحاذون الساحل حتى يتحولوا الى الداخل في هـــذه النقطة . ثم يتبعون وادي (افل) في انحداره الى الشاطىء قرب (عينونه) . وكان ممر (حجيبّه) الذي تدور من عنده قوافل الجمال نحو الجهة الشمالية من (لوز) لتنحدر من هناك الى وادي (افل) ، كان هذا الممر يقع الى الجنوب منا . وبالقرب منه تحت تلة أخرى تدعى (القصيْر) يوجد نبع ماء تستقي منه القوافل. ويتلقى الوادي الذي يمر بين تلك السلسلتين من الجبال

العالية مياه كثير من الروافد التي ترد اليه من جانبي الجبال طوال مسافة امتداده من مصب وادي « صُريم » حتى خرائب مدين .

وهذه هي الروافد التي تأتي من « لوز » و « مقمة » الخ .. على الضفة الشمالية وتسير من الشمال الى الجنوب :

« سُبَيت » و « شَمْرَخ » و « خُبيط » و « حُجَيه » و « مَلاحَـه » و « العَين » و « عَلجان » و « ام مطر » و « مُوَث » .

أما الروافد الأخرى على الضفة المقابلة فهي :

« جرْف » و « هــاوي » و « عرَنجي » و « أعقَر » و « نُقَيْب » و « نتــاش » و « مرفدْ » و « ابُونه » و « نصب الشَعرا » و « قَلْخه » و « عَجْوجه » و « رَغَامه » .

ويتراوح عرض القسم العلوي من الوادي بين ٥٠٠ – ١٥٠٠ ياردة ومن هناك شاهدنا مناظر خلابة للجبــال الشاهقة ، بما فيها قمة جبل لوز التي بدت وكأنهـا قطعة من الثلج . وقد أكد لي الدليل بأن القمة مكسوة بالثلوج ، فاذا صح ذلك تكون هذه هي أول مرة أرى فيها الثلوج في المملكة السعودية ، رغم انني سمعت اكثر من مرة تقارير عن تساقط الثلوج في جبال « ابها » وغيرهـا من الأماكن بما فيها الصحراء شمالي حايل .

وفي القلخه يضيق الوادي بحيث لا يتجاوز عرضه ٢٠٠ ياردة . أما ضفتاه فرمليتان ، رمالها كثيفة ناعمة .

وهنا أمرت بالتوقف لتناول المرطبــات ، ودراسة التطورات الجديدة . وكان الوقت بعد الظهر والطقس دافئاً والشمس مشرقة . وقد تعرضنــا لهجوم عنيف من الذباب اثناء توقفنا ، وكانت الطريق تبدو حجارتها وجافة .

وأخبرني « زيد » بأن الأمطار لم تهطل ، ولم تشاهد المنطقة أية سيول خلال

السنوات الأربع الأخيرة . ولم نجد أي اثر للنقوش طوال طريقنا ونحن ننحدر مع الوادي ، حتى ولا نقوشاً عربية مثل تلك التي ينقشها الحجاج .

ومما لا شك فيه ان ذلك يعود الى طبيعة الصخور التي هي في الغالب من الغرانيت والفلسبار الوردي . أما وقد غادرنا منطقة الصخور الصلدة والمنطقة ذات الحمم البركانية القديمة ، فقد لاحظت ان الوادي قد اتسع الى عرض يزيد على ميل واحد ، وجعل يمر بين صخور واطئة ترتفع في بعض الأماكن الى ٤٠٠ قدم أو ما يقرب من ذلك .

وتتألف هذه الصخور من صخور غرانيتية مختلطة بالبازلت من جميع الأحجام والأشكال ، وبعضها يطل على المنحدرات فوق القناة . وكان سطح الأرض ناعماً وصلباً . وكانت ضفتا « أفل » تتناقصان ارتفاعاً كلما انحدرنا باتجاه القناة .

وبعد ان دخلنا في شعب « مطر » تحولت ضفتا الوادي الى شيء اكثر بقليل من مجرد صخور صماء يتراوح ارتفاعها بين عشرة الى عشرين قدماً ، وخلفهما منخفضات متداخلة في الناحيتين .

هذا وقد اقتربنا من سلسلة صخرية متقاطعة تبدو وكأنما هي تمتد باستمرار تجاه ما يشبه الدلتا العريضة ، وتشقها قناة الى قسمين ضيقين بين مرتفعين من الأرض يلفتان الانظار ويعرفان باسم « شَقَنْدُوين » ومما يدعيان كذلك باسم « رغامه » .

ومما لا شك فيه ان نعومة الصخور القريبة من مجرى الماء عائدة الى الفيضانات . أما المنطقة باسرها فتبدو انها من المراعي الخصبة . وان كانت حالة المراعي فيها تعتمد على هطول الأمطار الموسمية ويبلغ معدل اتساع الممر الضيق ٢٠٠ ياردة ، أما طوله فيقل عن الميل ، بينما يتسع الوادي ذاته من جانبيه الى ٥٠٠ او ٦٠٠ ياردة . أما قسما الأرض العاليان فيرتفعان حوالي ٧٠٠ قدم

او أكثر فوق نهاية الممر الغربية ، تلك النهاية التي ترتكز على قاعدة صخرية يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ قدم .

وفي هذه النقطة بلغت المسافة التي سرناها من مخيمنا اثنين وثلاثين ميلاً . أما مجموع طول وادي الأبيض - أفل فيبلغ اثنين وثمانين ميلاً حتى النقطة التي وصلنا اليها .

ويستمر الوادي بعض الشيء في قناة مستقيمة نسبياً . ولكنه بعيد ان يمر ببقايا العاصمة المدينية يبدأ في الاتساع في دلتا واسعة جداً حتى يصل الى البحر ، فيقطع بذلك ٣٠ ميلاً بعيداً عن الممر ، ويصير مجموع طوله ١١٢ ميلاً .

وكنت أستطيع ان أرى جبل « سيناء » بوضوح تام من نقطة تقع عند قاعدة الأرض العالية الجنوبية ، كما كنت أشاهد سلسلة الجبال المحاذية لخليج العقبة ، الواقع في أقصى طرف هذه الجبال .

ويقع الخط الطويل من هضاب « تيران » على طول امتداد الجانب البعيد من الوادي الذي يؤدي الى أسفل حيث البحر وميناء « مقنه » . إلا ان كل ما كنا قادرين على رؤيته من أهدافنا الأولية ، كان قليلاً من أشجار النخيل في أقصى الطرف الأيمن لواحة « بدعة » ، تطل بخجل حول نقطة فيها هضاب واطئة تحمي ما تبقى من عاصمة أهل « مدين » .

وكانت أشجار النخيل لا تكاد تبعد عنا أكثر من ميلين . وسرعان ماوصلنا الى الزاوية لنجد أنفسنا وسط بستان صغير يبلغ طوله حوالي ميل ، ومعدل عرضه ١٥٠ ياردة ، تزدحم فيه الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل والخشب .

كان أحد هذه الأكواخ هو دار الحكومة ، وتشغلها قيادة لقوة صغيرة من البوليس برئاسة أحد الضباط الصغار . وفي مقابل دار الحكومة هذه يقع المسجد ، وهو دون سقف او جدران ، عبارة عن مستطيل حددت معالمه بواسطة صفوف من الحجارة . ولم يكن هنالك أحد في المكان .

وكانت ريح رقيقة تداعب قمم أشجار النخيل ، فتمايل هذه بتعب وكأنما هي أرواح أناس ذهبوا ولم يعودوا .

ولواحة « بدعة » شهرة ضعيفة كمنتجع للصحة ، بالنظر لوجود مرض الملاريا فيها . ويساعد على نشر هذا الداء هناك آبار ضحلة عديدة ، يبلغ عمق الواحد منها ثلاث او أربع قامات ، وتتلقى مياهها من الوادي .

وكان « موسيل » قد وجد في سنة ١٩١٠ نبعاً يجري على سطح الأرض ، ولربما كان هذا النبع ما زال في مكانه ، تجري فيه المياه في مواسم المطر الجيد .

أما البدو أصحاب أشجار النخيل فيأمّون المكان فقط لجني المحصول ، وهم لا يعتنون حتى بمجرد تحسين تربة الأرض . فهذا الشيء متروك للطبيعة ، الأمر الذي ينجم عنه ان الأشجار تعطي نتائج غير مرضية .

وكان هذا الموقع جميلاً وكأنه ملجأ ايتام مهجور . ولكن المشكلة الأولية التي كانت تواجهنا ، هي انه لم يكن معنا أحد يستطيع ان يقودنا الى كهوف « جيثرو » (مغاير شمب) ، حيث كنت اعتزم قضاء بضعة أيام للقيام بفحص شامل للمنطقة باسرها ، تلك المنطقة التي زارها من قبل كل من « بورتون » و « موسيل » ووصفاها بالتفصيل التام .

والغريب ان جميع مرافقيّ ، قد مروا بواحة « بدعة » ، اثناء مرورهم بين تبوك و « ضُبه » غير ان أحداً منهم لم يكلف نفسه بزيارة مكان نشاط «جيثرو» الذي ورد ذكره في القرآن . هذا اذا تركنا جانباً الأمكنة التقليدية المتعلقة بالنبي موسى .

لهذا كان عليّ ان أتولى مسؤولية قيادة الجماعة ، معتمداً على ذاكرتي كما تشير الخريطة التي رسمها موسيل -. ولكننا بعد دقائق من مسيرنا وجدنا أنفسنا في وسط خرائب ومعابد. فبادرنا الى ضرب خيامنا في تلك المنطقة قبالة نُصُب ضريح ذي حجم لا بأس به ، ولكنه كان في حالة خراب تام ، ووجهه قد

اختفى كلياً . وكان كل ما تبقى لا يعدو اثني عشر ُفرجة في الجدار الخلفي ، بمواجهة المدخل ، وثلاثة مماثلة في الجدار الأيمن عند المدخل .

ويبدو ان هذا الضريح يخص عائلة على شيء من الجاه ، مع اننا لم نجد أي اثر يمكننا معه ان نستدل على باني هذا الضريح أو على اصحابه .

وقد اطلقت على هذا المكان اصطلاحاً هو (المجموعة أ) ، ومن ثم انطلقت لألقي نظرات سريعة على بقية المجموعـــات من الأضرحة الواقعة عند الطرف الأقصى للمرتفع ذاته ، الذي يعرف عند العرب باسم (مصلى شعيب) . وكنت أرد ان اشاهد هذه الاضرحة قبل حلول الظلام .

ومن الطبيعي ان جميع هذه الاضرحة كانت نبطية . وعلى هذا فهي قـــد تأسست بعد ما لا يقل عن ١٥٠٠ سنة من زمن (جيثرو) . غير انه من المذهل حقاً ان القرآن لم يذكر أي شيء عن العهد النبطي ، بينما هو يذكر تقاليد عصور اقدم من العصر النبطي بكثير ، لم يستطع أحد من علمـاء الآثار حتى الآن ان يجد دليلاً واحداً على وجودها .

وقد اطلق موسيل على خرائب المدينـــة الواقعة على الضفة اليمنى لوادي (أفل) اسم (حوّارة) . ولكنه يبدو ان السكان المحليين قد نسوا هذا الاسم .

وقد ذهبت كل محاولاتي واستفساراتي من بدو (المساعيد) الذين هم اصحاب النخيل والوادي بأسره سدى ، وفشلت في ايجـاد ضوء يمكن ان يؤكد تسمية موسيل ، وهو (رقبة المَليحة) . وهو اسم يبدو انه اكثر ملائمة لسلسلة مـــن الهضاب في الوادي يدعى (مليحة) ويميز المنطقة على مسافة اميال من حولها .

أما الأضرحة فتعرف بطبيعة الحال باسم (مغاير ُشعيب) ، وأما كلمـــة (حوّارة) التي تعني كذلك (طباشير) ، فقد استعملها (موسيل) على انهـا تعني (ابيض) ، وهي صفة لا تنطبق إلا قليلاً على الخرائب السوداء الموجودة في المنطقة .

وكلمة (حوراء) مثلها مثل كلمة (حورية) تطلق على حوريات الجنة نسبة الى عيونهن السوداء .

وفي جميع الاحتمالات يمكننا القول بان الروعة الحقيقية للكلمة هي في التضاد بين اللونين الأسود والأبيض .

ومن الغريب حقاً ان الاسم ذاته قد استعمله على ما أعتقد كل من (بورتون) و (موسيل) ، اذ أطلقاه على الخرائب التي تقع قليلاً الى الداخل قرب ميناء (ام لج) على شاطىء البحر الأحمر ، بـــين (الوجه) و (ينبع) ، وتعرف عند الجغرافيين القدماء باسم (القرية البيضاء) .

ومرة أخرى نجد ان هذا الاسم قد اختفى هنـــا من ذاكرة المعاصرين. وكذلك فاننا نرى مرة أخرى ان الخرائب في هذه المنطقة ، على الشكل الذي رأيناها عليه ، سوداء حجارتهـــا في الواقع من (البازلت) ، وليس في المكان بيوت بيضاء غير تلك الموجودة في القرية الحديثة نسبياً ، والواقعـــة على الشاطىء . وربما بنوها كذلـــك لكي تظهر للمسافرين بالمراكب الذين يمرون بمراكبهم على مسافة ترى منها هذه البيوت .

وتقع الواحة الصغيرة المعروفة باسم (المليحة) - والموجودة في الوادي ذاته وتحت موقع الخرائب مباشرة - تقع على بعـــد حوالي الف ياردة من مخيمنا بالقرب من (المجموعة P) عند (المغاير) . ويجري من جوارهـــا جدول قصير ينبع من صخور (المصلى) ، ويمر بين الخرائب الى القناة المؤدية الى الواحـــة حيث توجد هناك عدة آبار يبلغ ارتفاع الماء فيها ثلاث قامات ونصف القامة . وماؤها حلو جداً حتى ان السكان المحليين يقارنوه بماء النيل .

وهنا ، نجد ان اسم النبع يعني (البئر المليح) وذلك على سبيل المجاز .

ولا تتجاوز مساحة الواحة كلها ٥٠٠ × ٢٥٠ ياردة . وأشجارها جميعاً من النخيل بينها عدد من الفسائل . ومما لا شك فيه ان الصورة التي التقطهـــا

(موسيل) على انها المواحة ، هي بالواقع لمنطقة (البرج) التي لا تبعد كثيراً عن الواحة . أما وصفه للجدول والخزان والنبع فلا يمكن اعتباره منطبقاً على (المليحة) التي تعتمد دائماً ، ومن غير شك ، على الآبار لري أشجار النخيل فيها .

أما خزان (البرج) فهو من أحسن أمثلة الفن التركي في بناء خزانات المياه. وتبلغ مساحته ٣٠ × ٢٠ ياردة ، وهو مشيد من حجارة مصقولة وبشكـــل ممتاز. وفي زاويتين من زواياه سبع درجات تهبط بالمرء الى القاع، وفي الزاويتين الأخريين نجد درجاً مزدوجاً .

ويعرف هذا الخزان باسم (الفَسقية) أو (النبع) .

وقد وجد موسيل ماءً جارياً في تلك المنطقة مع انه لم تكن هناك أية علامة تشير الى وجود الماء في الوقت الذي زرتها فيه .

وبالقرب من هذا الخزان تقوم صخرة (البرج) ، وبالقرب من طرفها العلوي وقبل قمتها بقليل ، وجدت بئراً عمقها خمس‌عشرة قامة ، قد بنيت بمناية ليست زائدة . ولها قوس يقسّم قسمهـــا العلوي الى نصفين . أما بقايا الجدران القائمة هناك فمن المحتمل ان تكون لبناء يضم البئر ومنشآتها كلها .

ولقد كان من الصعب معرفة تفاصيل هذا البنـــاء الذي كان جداره الشمالي يبلغ ٣٨ قدماً طولاً بينما يبلغ الجدار الغربي ، وكذلك الجدار الشرقي ٢٢ قدمـاً لكل منهما . وهما يمتدان نحو طرف التلة ذاتها .

ووجدت خارج البنـــاء مباشرة حفرة عميقة ، من المحتمل ان تكون قد استخدمت لتجميع الماء . ويربط هذه الحفرة ببئر الماء شق منحوت يبلغ طوله ثلاثة اقدام يمتد مع امتداد الحائط الغربي .

وقـد اخبرني الشيخ (محسن) من قبيلة (المساعيد) ، وكان قد انضم الي وأنا أفحص المنطقة ، بأن البئر لم تعرف أبداً على انها احتوت مـــاء منذ القدم

وانها تبعاً لذلك تدعى (بئر سعيدني) .

وربما كان ذلك يعني عكس (سيّدنا) ، اذ ان البناء كما تأكد لنا كان لأحد الأولياء أو مكاناً مقدساً ، ولعله كان بناء تركياً يرجع تاريخه الى الايام التي كان فيهـا الحجاج المصريون يأتون الى مكة من العقبة عن هذه الطريق . حيث كانوا يضربون خيامهم بالقرب من المـاء قبل ان يواصلوا سيرهم الى المحطة التالية وهي (عينونة) أو (الخـُريبَه) .

ولم يكن من الصعب على منظمي الحج ان يحملوا الحجاج يعتقدون بأن هذا البئر المديني ، هو البئر الذي دحرج موسى عن بابه الحجر ليخرج المـاء لغنمات بنت (جيثرو) – شعيب – . وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول ان البناء قد اقيم تكريماً لموسى .

هذا وقد كانت المضارب المحيطة بالمكان مليئة بآثار الحجاج الذين يمرون من هذه المنطقة ، كقطع القدور وغير ذلك من الأشياء المعروفة ذات الطابع العام مثل عقود الفيروز والخرز . وقد وجدنا منها عدداً كبيراً . ويحتمل ان تكون قد صنعت في المانيا أو في برمنغهام .

وقد اخبرني (زيد) صدفة عن مجرى ماء (شعب حجيه) على انه يؤدي من (افل) الى جبل لوز . وقال انه رأى فيه عدداً من الحجـــارة الزرقاء اللامعة التي قد تكون كذلك من الاحجار الكريمة (فيروز كما كان يسميها) . وان كان وصفه لهذه الحجارة يوحي بأنها من الزفير .

ومن سوء الحظ اننا كنا قد ابتعدنا كثيراً عن المنطقة ، فلم يعد بوسعي القيام بأية تحقيقات ، ولم استطع اثناء رحلتي الثانية ان أجد أي شخص يعلم شيئاً عن الموقع أو عما يحتويه من احجار كريمة .

لم يقم « بورتون » بفحص منطقة جبل لوز أو غيرها من سلسلة جبال مدين . وليس من المستغرب ان تكون تحتوي على معادن من مختلف الأنواع ! وقد بدت

لنا صخرة « المقلع » الهرمية الشكل سهلة التسلق ، أمـــا الصخور الغرانيتية لجبل لوز فقد كانت تحتاج الى وقت وجهود اكثر مما في طاقتي . وحسبما اعرف فان قمة هذا الجبل لم يتسلقها انسان من قبل .

والمسافة بين بئر « موسى » ومركز البوليس الحديث في « بدعة » تستغرق عشرين دقيقة مشياً على الأقدام دون استعجال ، وهي مسافة تقرب من الميل في طريق تمتد تحت مرتفعات « دَرَك » العالية . وتغطي قمم هذه المرتفعـــات ومنحدراتها خرائب بنايات قديـمة شيدت كيفما اتفق ، لا شك في انهـا كانت تشكل موقعاً نبطياً ربما عاد تاريخه الى ما قبل مجيء النبطيين .

ويعتقد بعض المؤرخين ان سكان هذه الخرائب قد عـاشوا بكل تأكيد في موقعيْ « رقبة المليحة » و « ملقطه » .

وعلى امتداد سفح هذه المرتفعات اقيم حائط كانت بعض اجزائه قد اندثرت أما الغرض من انشائه هناك فلا بد ان يكون وقـاية الطريق من انهيار الحجارة والتراب من منحدرات المرتفعات .

والواقع انني تأكدت اثناء زيارتي الثانية للمنطقة من ذلك عندمـــا جادت السماء بالمطر لعدة ساعات ، ثم حاولت تسلق التلة ، فكانت جميع محاولاتي ترتد بالفشل ، لأن طبيعة ارضهـــا تساعد على الانزلاق . فهي من الصخور الجيرية الناعمة .

وبالقرب من طرف الطريق عند الواحات وجدت مقبرة لافتـة للانظار . وربما كانت تضم اجداث المتوفين من الحجـــاج . وكان ثمة بلاطة تحمل نقشاً يدوياً كبيراً . أما النصب الاخرى في هذه المقبرة فلم تكن تحمـــل أية اشارة أو اسم .

هــــذا وكان خط القبور الطويل يمتد قليلاً الى جهة الشمال الشرقي وجهة

الشمال الغربي ، اذ ان من تقاليد المسلمين ان يدفنوا موتاهم ورؤوسهم نحو الغرب ووجوههم نحو القبلة في مكة .

وفي هذه الاثناء كان افراد الحامية من رجال البوليس قد عادوا الى مقرهم ، فدعيت بمناسبة زيارتي لمنطقة البرج لتناول الشاي والقهوة مع قائد الحامية الذي يدعى « سعد بن ابراهيم » ، وهو من أهالي « الحريق » بمنطقة «الطُويق» جنوبي الرياض .

وتقوم نقطة البوليس في هذا المكان بشكل خاص ، لمنع تسلل الحجاج من الاردن وفلسطين الى مكة عبر هذا الطريق دون دفع الضرائب الحكومية . ولكي يتمكن القائد من القيام بهذه المهمة وضعت السلطات تحت امرته خمسة من رجال الهجّانة يقضون معظم اوقاتهم في التجول على ظهور الجمال بحثاً عن المخالفين .

وكان الشيخ « محسن » قد دعانا لزيارة خيمته التي تبعد قليلاً في أسفل وادي أفل ، ولكنه بات من الضروري عليّ ان اتجاهل هذه الدعوة لأنني دعوت « سعداً » ورجاله لتناول طعام العشاء معنا .

وليس صحيحاً القول بأن هؤلاء الرجال يقومون بواجباتهم بحماس في الدفاع عن حدود المملكة السعودية . فكثيراً ما كانوا يمضون فترة طويلة دون ان يتسلموا رواتبهم النقدية ، وان كانوا يتسلمون مؤنهم -على فترات- من (مقنه) أو (خُريبة) . ولما كان هؤلاء الأفراد منقطعين في هذه البقعة فقد عقدوا قرانهم على نساء من قبيلة المساعيد القريبة منهم .

والجدير بالذكر ان مساهمة هؤلاء الجنود في تزويدي بالمعلومات عن المنطقة لم تكن ذات بال ، على الرغم من ان « سعداً » كان يحفظ جميع قصص «موسى» و « جيثرو » او « شعيب » وقد تطوع بان حكى لي بعض المعلومات التي

لا بد ان يكون استقاها من رجال أكبر منه سناً . ولست معتاداً على مرافقة مثل هؤلاء الرجال المسنين .

لقد قال لي ان ارض « مدين » قد شهدت قيام وسقوط خمس اسر حاكمة بدأت باسرة (جيثرو) من « بني أبجد » التي تزوجت إحدى بناتها من النبي « موسى » . أما الأسرة الثانية التي حكمت المنطقة فكانت قبيلة « هوّازْ » التي أفسحت المجال من بعدها الى قبيلة « حطي » ، وهي القبيلة التي تبعتها في الحكم افخاذ من « كَلَمُنْ » و « سعفص » و « قَرَشَت » . وهذه تجعل مجموع الأسر الحاكمة ستاً بدلاً من خمس ولعله كان يريد ان يضيف اليها « ثَخَذٌ » و « ضظغ » ، ليكمل الكلمات الثماني التقليدية التي تضم أحرف الهجاء ، ويجري بموجبها حساب « الجُمَّل » من عشرة الى الف .. ويبدو انه لم يكن مطلعاً على هذه الملابسات .

هذا وقد نسيت بهذه المناسبة ان أذكر قلعة « البرج » التي بناها الأتراك للاشراف على الآبار خدمةً للحجاج . فهي تقع على أرض مرتفعة قليلاً على بعد حوالي عشرين ياردة عن الآبار .

ويبلغ طول هذه القلعة من الشمال الى الجنوب ١٨ ياردة ، ومن الشرق الى الغرب ١٥ ياردة . وجميع جدرانها تتفق واتجاهات البوصلة ، كما انها في وقتنا الراهن ، تعاني حالة يرثى لها من الانهيار ، رغم ان بُناتها قد أجادوا حين جعلوها من حجارة صغيرة مصقولة مدعمة بالمؤونة . فالجداران الشرقي والشمالي قد تهدما كلياً ، وليس بالامكان رؤية أكثر من أساسيها تحت أكوام الانقاض التي غطتها . أما الجدار الغربي فلا يزال قائماً الى ارتفاع « المدماك » العاشر . ويرتفع في بعض النقاط الى الثالث عشر حيث يمتد مسافة قصيرة بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية . وهناك يتصل بالجدار الجنوبي الذي يرتفع الى (المدماك) الثالث عشر ، أي ما يقارب تسعة أقدام . أما مدخل القاعة

القريبة من هذه الزاوية للجدار الجنوبي فقد تداعت ، باستثناء الواجهة الداخلية التي تبتعد عن الواجهة الخارجية ثلاث ياردات هي سُمك الجدار .

***

كانت نيران مخيمنا وأنواره تلفت انتباه الضيوف.. فجعلوا يفدون اليه من المراعي المجاورة . وقليلاً مـا تناولنا وجبات الأكل دون ان نقدم القِرى ، او احتسينا القهوة وحدنا . وعن طريق هؤلاء الضيوف ، استطعت ان أعين دليلاً جديداً عوضـاً عن « زيد » . وكان اسمه « عبد بن محيسن » ، من قبيـلة « المساعيد » . وهو الذي ذكر لي اسماً جديداً لخرائب « حورا » . وكان ذلك الاسم « ملقى » ، وقد افهمني انه يعني اسم المكان الذي يستطيع المرء ان يجـد فيه شيئاً او يلقى خيراً ، مثل قطع النقود ، وشُقف الزجـاج ، او رُضف الخزف .

ولم يكن هذا الاسم ، بالاسم اللائق ليطلق على القسم الرئيسي من هـذه الخرائب الموجودة على الضفة اليمنى ، إذ انه كانت هنالك مجموعة أخرى كبيرة من الخرائب في جزيرة بوسط الوادي ، وهذه هي بكل تأكيد التي يعرفهـا البدو باسم (مَلـَقى) كما يلفظون .

والخرائب الأخيرة ، زاخرة بالفعل بقطع الخزف من مختلف الألوان وغير ذلك من الأشياء التي يرجح انهـا نبطية ، وان كان من الممكن ارجاعهـا الى العصور الوسطى .

ومن المستحسن وصف هذه الخرائب قبل التحدث عن المدينة الرئيسية .

تقع « الجزيرة » على بعد يقل عن ميل من بساتين النخيل في « المليحة » . وترتفع أرضها عشرة أقدام عن أرض الوادي . وهي هنا مغطاة بأدغـال كثيفة من (الحِيش) والطرفاء . وربما كانت المساحة المزروعة بالنخيل اكبر

من هذه في الأزمنة الغابرة .

ويحيط بالمنطقة المعمورة جدار طيني متساقط ، مع بقايا دهليز عند الزاوية الجنوبية الغربية ، وخزان ماء صغير قربهـــا - ولكن خارجها - . ويستعمل الخزان الآن كحقل لزراعة المزروعـــات البدوية البسيطة مثل الشعير والقمح . الذي ينمو في الموقع الذي كان قاع الخزان فيما مضى .

وفي الزاوية الشمالية الغربية يقوم جدار آخر يمتد الى الجهة الشماليـة مسافة مائة ياردة - أو ما يقارب ذلك - لينضم الى حائط معترض طوله مائة ياردة ، ويمتد الى الجهتين : الشمالية الشرقية ، والجنوبية الغربية . وربمـا كان هذا قناة أقاموها لتحمي الجزيرة من طغيان مياه السيول .

ويمكن القول ، استناداً الى قطع الخزف التي عثر عليها هنـــاك ، ان هذه الجزيرة كانت مأهولة بكاملها. وان قاطنيها كانوا ذوي مستوى اجتماعي مقبول.. كانوا يفضلون العيش خارج المدينة الرئيسية .

ويمتد اثر الجدار الطيني الى أسفل الضفة اليمنى للوادي مسافة ١٢٠٠ ياردة مع ميل قليل الى الجهة الشرقية ثم الجنوب . وهو ينقسم الى اقسام ثلاثة متساوية تقريباً لوجود مجريين قصيرين للمـــاء ينبعان من الاراضي العليـــا في مرتفعات « مصلى » .

وثمة قناة مماثلة ثالثة تمر من القسم الأوسط ، لتملأ خزاناً يقع في داخل زاوية « L » التي تتشكل من التقاء الطرفين ، بعد ان يمتد أحدهما على طول الوادي الرئيسي باتجاه الغرب حتى يصل الى التلة .

أما (الموقع) في هذا التل فيمتد من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي. وهو بناء مربع يقرب طول الواحد من جوانبه سبعين قدمـاً . والجوانب مبنية من الحجارة غير المشذبة ، وبينهـــا مؤونة من الطين والكلس . ولا يزال قسم منها قائماً .

ولا يمكن الجزم بعمق هذا الخزان ، اذ ان داخله ممتلىء بالأنقاض والأتربة ، فلا بد ان يكون قد مضى عليه وقت طويل منذ استخدم -لآخر مرة- للغرض الذي انشىء من أجله .

وقد شيد هذا الخزان على بعد اثني عشر ياردة داخل الزاوية أ . وعلى بعد ٢٠٠ ياردة من انحناءة هذه الزاوية الى الجنوب الغربي ، يقع بناء طويل على شكل سد بمحاذاة قناة « المصلى » ، ثم يمتد منها الى المجموعة (أ) التي تضم الأضرحة، فالى مخيمنا . ويجوز انه كان يمتد بمحاذاة الضفة اليمنى لأحد الفروع التي ينقسم اليها الوادي عندما يصل الى الخرائب . ويحتل الخزان (الذي أتصوره) ما مساحته مائة ياردة طولاً وأربعين ياردة عرضاً . وتنحصر هذه المساحة بين الفرعين وربما انتشرت لتشملها معاً . - اقول هذا مع انه ليس هنالك في الوقت الحاضر أي دليل على سابق وجود مثل هذا السد .

وفي هذه الحالة يكون البناء قد انشىء من أجل تحويل مياه القنوات الى الخزان . ومن جهة اخرى فان أساس هذا البناء الذي ما يزال قائماً يوحي بأنه كان هنالك حديقة أو بستان نخيل ترويه مياه القناتين اذ تنساب نحو الخزان .

وتبتدأ القناة التي تفصل الاقسام الوسطى والجنوبية من المدينة من المنطقة الرئيسية للأضرحة أي عند الطرف الآخر من مخيمنا باتجاه المصلى . وبين هذه المنطقة وجدران منطقة الخرائب ، يوجد عدد من التلال المختلفة الارتفاع والاحجام يحتمل انها آثار بيوت قديمة كانت مشيدة من احجار جيرية جصّية . وتبدو قاعدة احداها وكأنما انشئت مربعة لتكون اشارة للأساس .

أما القسم الشمالي من موقع الخرائب ، فيبدو انه كان قرية فقيرة سكنها العمال والبناؤون الذين شيدوا ذلك البناء . ويمتد القسم الجنوبي موازياً لواحة « مليحه » في قاع الوادي . ولهذا القسم منظر مميز يجعلني ارجّح انه كان حيّ

الارستوقراطية وأبناء الطبقة الحاكمة . اما القسم الأوسط الواقع على مقربة من الخزّان ، فمن المحتمل انه كن المركز التجاري ومكان السوق .

وقد سُوّر القسمان الأوسط والجنوبي بسور لا يزال يلفّها جميعاً . اللهمّ إلا من ناحية ضفة الوادي ، حيث من المؤكد ان تجرف مياه الفيضانات أي جدار يقام هناك .

ومهما يكن من أمر ، فان هنالك الكثير من بقايا الأسوار على طول امتداد القناة الشمالية حتى النقطة التي تلتقي فيها مع الوادي الرئيسي .

ولا شك ان هذه الزاوية قد دعّمت لمقاومة خطر الفيضانات . الا ان ذلك لم ينفع ، فقد لحقت بها اضرار فادحة من جراء السيول .

ويبدو ان القسم الشمالي لم يكن مسوّراً ، مع انه كان مأهولاً في الأزمنة الأخيرة ، إما بالبدو الملاكين الذين يحضرون لجني محصول التمر ، او من قِبل الحجاج .

وتبقى الارض المنخفضة الواقعة ما بين بقايا المساكن والوادي وهذه كانت تُستعمل كمقبرة لدفن الموتى .

والجدير بالذكر انه لم يبق إلا القليل -اذا استثنينا الحجارة المهشمة وانقاض الأبنية المتخلفة- من المساكن التي يجب ان تكون قد احتلت القسمين الرئيسيين من المدينة . غير ان المرء يستطيع ان يميز نتفاً من اسوار هنا وهناك ، وقطعاً من أساسات البيوت والغرف .

وللقسم الجنوبي من المنطقة الوسطى ملامح تشبه القامة الى حد ما . ويبدو ان هذا القسم كان أقل احتشاداً بالدور .. ولذلك كان فيه مجال أوسع لانشاء منازل أكبر .

والى خارج الزاوية الشمالية الغربية لمنطقة القلعة سالفة الذكر ، يجد المرء بناية مستطيلة من ذات الحجم ، يجوز انها كانت قلعة أو معبداً أو قصراً .

واذا كان لا بد ان نحكم بموجب الانقاض والحجارة المتخلفة على الجانبين فانه لا بد ان يكون هنالك قناة بين القسمين ، ولكنها اما ردمت أو انهارت .

أما افضل سلسلة من الأساسات التي ما زالت قائمة فتقع ضمن الزاوية الشمالية الغربية لمنطقة القلمة ، حيث يستطيع المرء ان يشاهد بوضوح الخطوط العريضة لتصميم احدى الغرف . وتبلغ مساحة هذه الغرفة ثمانية ياردات من الشرق الى الغرب .

وثمة اقسام صغيرة من الأساسات ما زالت قائمة الى جانب هذه الغرفة ، مثلها في ذلك مثل أساسات غرفة ثالثة اكبر من السابقتين تبلغ مساحتها ٩ × ٧ ياردات .

والآن .. لعن الله الوقت كيف يسرق نفسه ، فبالنظر لقلة الوقت وانعدام الوسائل بين أيدينا غدا من المستحيل ان نقوم بأي شيء من أجل ايضاح مشكلة هذه الخرائب ، وكان من الضروري ان ننتظر – وربما الى وقت طويل جداً – حتى يأتي أحد علماء الآثار ليقوم بفحص المكان فحصاً دقيقاً .

ولست ابالغ اذا قلت : يمكن للمرء ان يقول وهو آمن انه لم يبق أي شيء مدْيني في المنطقة بأسرها . أما الأضرحة التي سآتي على ذكرها باختصار فيما يلي فهي تؤكد ان النبطيين قد سكنوا الوادي لفترة طويلة من الزمن . وان تاريخ الوادي بعدالنبطيين، وأثناء اقامتهم،وتاريخ المدينيين يجب ان ينتظرا البحوث العلمية العميقة . ولربما ان القطع الفخاريةالموجودة حالياً في متحف جده تساعد في القاء شيء من الضوء على هذه المشكلة .

هذا ويؤسفني انني اخفقت في الحصول على وصف – ولو نسبي – للعينات الفخارية التي أخذتها معي الى مصر قبل سنوات.وكل ما اعرفه عن هذه العينات انها اما ان تكون قد سرقت أو ضاعت .

ومن الطبيعي ان تكون الأضرحة النبطية أو كهوف جيثرو (شعيب) – كما يسميها العرب – هي ابرز معالم منطقة « مدين » فهي حقاً لا ندّ لها . صحيح ،

اننا لا ننكر عظمة آثار « بتراء » و « مداين صالح » ، غير ان هذه الأضرحة غير ذلك . فبالاضافة الى عظمتها فان المرء يجد لها طابعاً مميزاً ، هو الصخور التي حفر فيها معظمها . وأحسن ما يمكن ان توصف به قولنا انها صخور رملية متآكلة تحتوي على مواد جيرية صلدة وثابتة اللون . وانه ليبدو مذهلا ان هذه الصخور رغم تقلب عوامل الجو ، كالريح والمطر والشمس عليها آلاف السنين ، قد قاومتها ، وجعلتها عاجزة عن محو فن المعمار النبطي المتعلق بالحياة الاخرى محواً تاماً .

وسأورد قائمة كاملة بجميع الأضرحة التي شاهدتها مع شرح واف لحالتها ومحتوياتها فيما بعد . وسأجعله في ملحق خاص لمصلحة اولئك الذين قد تهمهم مقارنة ملاحظاتي مع تلك التي دونها كل من بورتون وموسيل .

ولست اذيع سراً حين اقول : لقد كنت احمل معي اثناء هذه الرحلة كتاب موسيل عن هذه الاضرحة . وهو كتاب مصور يضم كثيراً من الصور والرسوم « السكتشات » الكلاسيكية ، بشكل تصبح معه أية محاولة لاضافة شيء جديد اليه من الامور التي تعتبر مضيعة للوقت .

كنت احمل هذا المؤلف النفيس معي .. ورأيت ان افضل ما أفعله بخصوصه هو ان اسجل ملاحظاتي على هامشه وهوامش صوره وشروحه التي كتبها تحت الصور . والى هذه الملاحظات اود ان ادل أياً من قرائي ممن يساعدهم حسن الحظ في يوم من الأيام فيزور هذه الخرائب .

وفي الوقت ذاته ، فانني سأحاول فيما يلي ان الزم نفسي بتقديم وصف قصير جداً عما رأيته بأم عيني :

لقد كان ثمة ضريح كبير في (المجموعة أ) بالقرب من المخيم الذي نصبناه ، وفي الصخرة عدد من الفتحات يمكن ان تكون مخبئاً . وقد سبق ان قلت ان

ذلك كله ضروري . أما (المجموعة ب) التي تقع على الناحيـــة الاخرى من مرتفعات « مصلى » – والتي تفصلها عن هذه المرتفعات قناة الشعب الجنوبي فهي عبارة عن مجموعة من سبعة أضرحة تقع في مختلف جهات تلة صغيرة . وهي ذات ارتفاعات متفاوتة ، وواجهاتها الامامية جميعاً في حالة متفاوتة من الخراب الفظيع . وفي كثير من الحالات رأيت الجدران والسقوف لا تعدو كونهـــا مجموعـــات من اكوام الانقاض والأتربة ، ولكن الطابع المشترك للجميع هو القبور .

ولم اجد في حالة من الحالات ان الارض قـــد استخدمت في دفن الموتى . وكان مجموع عدد المدافن (٣٥) يضم الضريح الواحد منهـــا عدداً يتراوح بين ١ الى ٩ .

وتحتل (المجموعة ج) تلة معزولة مماثلة تقع الى الغرب من المجموعة ب) ، وأضرحتها تواجه الغرب ، وفي حالة احسن من سابقتها . اذ ان المرء يستطيع ان يميز نتوءات الزخارف المدرّجة لثلاثة منها على الأقل . كما يستطيع ان يجد أثراً ظاهراً لتاج عمود كورنثي الطراز للرابع ، وتاج عمود مـــن طراز نقوش بتراء للخامس . وهنا أيضاً يوجد الكثير من القبور خارج الأرض بالاضافة الى عدد من النقوش الجنائزية على الحائط .

وعلى كل حـــال ، فان أحسن الأضرحة كان في (المجموعة د) المنحوتة في صخور جبل « المصلى » عند منتصف الطريق بين سفح هذا الجبل وقمته . وهي منحوتة في صخور اكثر ملاسة . ويوجد في هذه المجموعة ثلاثة اضرحة رأيت أحدهـــا قد فقد واجهته الخارجية . وتبلغ مساحته احد عشر قدماً مربعـــاً ، وارتفاعه ستة اقدام . وكان في المجموعة خمس فرجات (مدافن) في كل جدار، وعرض احدـــاها خمسة اقدام ، وعمقها في الجدار ستة اقدام . اما ارتفاعهـــا فخمسة اقدام . وكان هنالك واحدة ثانية من هذه المدافن بالحجم السابق تقريباً أما الباقيات فأصغر من ذلك بكثير .

وكان النُصبان الآخران بديمين حقاً ، لها واجهتان أماميتان قد حافظتـا على نقوشهما بشكل ممتاز . وتعود الى كل منهما سُدّة يحيط بها جداران من كل ناحية . ويلاصق كل جدار من هذين مقعد حجري طويل . ويلتقي المقعدان عند منتصف الجدار الثالث (أي الخلفي) حيث ينفتح هناك باب الضريح .

وطول الباب ستة اقدام ، وعرضه قدمان ونصف القدم .

وباب الضريح الأساسي مزدان بنقوش تتداخـل على شكل اقواس تظهر آثارهـا واضحة وان كانت آساسها على الناصية لا تكاد تبين . أما طول هـذه الناصيه المزدانة فهو حوالي ثلاثة اقدام . وفوقهـا تجثم الصخرة العتيدة . وهي من نوع الصخور الرملية ، عارية صلدة . ويبلغ ارتفاع هذه الصخرة التي تشكل الجدار في نفس الوقت ، نحواً من اربعة اقدام . وتستقر فوق هـذه الصخرة طبقات من الكلس المتحجر على شكل صخور طباشيرية متماسكة .

وهكذا يكون مجموع ارتفاع افريز النقوش (بالناصية مع الصخور) حوالي اربعة وعشرين قدماً . اما مساحته فستة عشر قدماً مربعة .

وعمق هذا الضريح الى الداخل ١٥ قدمـاً ، وعرضه ١٢ ، وعلو سقفه عن ارضه ٧ اقدام . وفي جداره الخلفي على علو قدمين عن الارضية يجد المرء منفذاً يرتفع اعلاه ستة اقدام بينما يبلغ عرضه قدمين اثنين . وهو يقود الى غرفة صغيرة عرضها ٩ اقدام وعلو سقفها خمسة اقدام ونصف القدم .

وكانت هذه الغرفة فارغة تماماً غير ان أرضية قاع الناووس الرئيسي كانت غاصّة بقبور طول الواحد منها سبعة أقدام وعرضه ٢/١ ٢ قدماً . وهي مصفوفة صفاً على طول الجدار الخلفي . وثمة زوجان من القبور عنـد المدخل يفصلها عن بعضهما ممر يؤدي الى داخل الضريح وجميع هذه القبور قد نبشها اللصوص في بحثهم عن الكنوز الثمينة .

وقد وجدت بعضها مليئاً بالعظام في حين ان البعض الآخر قد نُظف بقصد استعماله للناس او القطعان ، وكان هنالك بضع قطع من الخشب منتشرة هنـــا وهناك ، ربما كانت بقايا توابيت .

وكان الضريح الثاني شبيهاً بالأول في كثير من النواحي . فلهـــذا الضريح فَسقية داخلية كالأول ، غير انها في منتصف الجدار الأيمن وقبورها مرتبة قبالة الجدار الشمالي . وثمة ممر يفصل خمسة من القبور عن مثيلاتهـــا الأخرى . وهو يفضي الى الفسقية الداخلية . وهنالك قبران في جهة المدخل الرئيسي وثلاثـة أخرى مقابل الحائط الخلفي . واعتقد بان هذين الضريحين يمكن اعتبارهمـــا ضريحي الملكين عن جدارة .

وقد تسلقت أنا ودليلي من هنا الصخرة لنقوم بزيارة « دوائر » جيثرو – في قمة سلسلة جبال « المصلى » . ومن هناك نزلنا بسهولة وتوجهنـــا الى معسكرنا عند الطرف البعيد .

ويقول « موسيل » بانه اضطر للقيام بدورة طولها كيلومتران حتى يصل الى هذه المرتفعات من الشمال ، غير ان الطريق المباشرة المستقيمة كانت خاليـة من أية صعوبات !

وهناك صخرة حولها عدد كبير من الدوائر في المكان الذي يُفترض بان « جيثرو » قد صلى فيه . ولكنه من الصعب القول أيها الأهم . والمعتقد ان بعض المتأخرين قد قام برسم هذه الدوائر عملاً على مساعدة الحجاج حين يريدون زيارة المكان الذي شهد مجادلة « جيثرو » مع أهل مدين .

ومن تلك النقطة تمتعت برؤية منظر كامل لسلسلة جبال « مدين » ، وجبل « لوز » وقمم الجبال الأخرى القريبة منه في الجهة الشمالية الشرقية . هـــذا بالاضافة الى جبل « المقليـع » على بعد بسيط من الجبال السالفة الذكر باتجـــاه الشمال الشرقي حيث يفصله وادي « نُمير » عن سلسلة الهضاب الواطئـــة التي

تعرف باسم « مَرّة » . وتمتد هذه من الشرق الى الجنوب الشرقي ، وهنـــاك تنتصب قمتا جبل « حرب » في مواجهة السلسلة الكبيرة لجبـال « زُهد » التي تنحدر الى أسفل حتى نقطة ليست بعيدة عن البحر ، والى الجهـــة اليمنى من المكان الذي كنا فيه .

وفي الجهـــة اليسرى ، من الجنوب الغربي حتى الشمال الغربي ، تنتصب سلاسل الجبال التي قطعت علينا فرصة التمتع بمنظر الخليج « خليج العقبة » .

وكانت جبال « تيران» و « نُتيش » و « سُكّ » و « مرشه » و« زُرَيق » مع التـلة الشاهقة المعروفـة باسم « عبدين » ، تحدد معـالم الطريق الى ميناء « مقنة » . وكنت اعتزم زيارة هذا الميناء في اليوم التالي .

وكانت النقطة التي أثارت تخيلاتي وملكت علي أفكاري هي جبل « حرب» بقمتيه الغرانيتيتين الناعمتين . وهذا الجبل منافس عنيد لجبل « حارب » الذي ورد ذكره في « سِفر الخروج » من التوراة . وهو المرشح الوحيد لهذا الشرف والذي يحق له ان يدعي بانه أهل لحمل الاسم .

وبالقدر الذي أعرفه يمكنني القول بان وجود هذه التلة في « مدين » لم يرد له ذكر من قبل . ولذلك فمن الطبيعي ان أكون في شوق لاكتشافها وما حولها . غير ان سيارتنا العجوز ، لم تعد صالحة للقيام برحلة أخرى عبر المنطقة الوعرة ، فكان لزاماً علي ان انتظر مدة سنتين ، حتى أُشبع طموحي . وكان ذلك اليوم الحادي والثلاثين من شهر « يناير » كانون الثاني سنة ١٩٥٣ . ولمـا كنت قـد قمت بهـذه الرحـلة وحدي لا يرافقني سوى السائق « حسب الله » فانني أرى ايراد القصة هنا علها تكمل الصورة العامة لمدين .

كنا قد وصلنا الى « بدعة » في الليـلة السابقة بعد ان تركنـا « بوغو » و « محيسن » ليقضيا الليلة عند جبل « مرر » بغية القيام ببعض الأعمـال الجيولوجية الملحة في المناطق المجاورة لذلك الجبـل . وقررت ان أستفيـد من

فترة الانتظار هـذه بزيارة « حرب » هذا . فتوجهنـا بالسيارة على الطريق الرئيسي منحدرين باتجاه البحر ، وسرنا مسافة ستة عشر ميلاً حتى وصلنا الى نقطة وجدنا فيها تلة مرموقة تدعى « نخلة » ، تقع في المنطقة الكبريتية شمالاً مع ميل قليل الى الغرب . أما الذروة الرئيسية لجبل « حرب » فهي ترتفع في الجهة المقابلة ، في نقطة ما بين الجهة الشمالية الشرقية والشرق المائل نحو الشمال الشرقي (٥٨ درجة) . وهنا أخذنا نسير في خط مستقيم عبر منطقة مستوية الى حد ما ، حسبما تسمح بذلك طبيعتها .

وقد مررنا خلال مسافة ثلاثة أميال بثلاث قنوات لتصريف مياه الفيضانات من وادي « افل » ، وكل قناة منها بعرض مائـة يارده ، وكانت الثالثـة على ما يبدو قاعاً مهجوراً للنهر ولهـا حافة عالية على طول ضفتها الشماليـة ، التي تسلقناها دون صعوبة .

وقد واجهتنا بعد ذلك قناة أخرى أوسع بكثير من القنوات السابقة ولهـا أيضاً حافة مماثلة على امتداد جهتها الشرقية ، التي عبرناها لنصل الى سهل ينحدر برفق . وبذا نكون قد رأينا جميع أقسام وادي « افل » بما في ذلك القاعان الراهنان لمجري مياه الفيضانات واثنتين من قنوات المنطقة القديمة ترتفعان بعض الشيء عن القاعين . وأصبح مسيرنا الآن سهلاً للغـاية ، لو ان قليلاً من الرمـال ملأت الحفر الموجودة في الطريق .

وبعد ميلين أتينـا الى طريق الجمال التي تقـل الحجاج وهي طريق تنحدر من المعسكر عند « البرج » حتى سفح الجبـال . ثم تدور حول أقصى نقـاط جبل « زُهد » حتى تصل الى « عينونه » . وتحت هذه الطريق ، بدأنا بمعارضة طريق السيارات الذي سرنا فيه في الليلة الماضية ، عندما حاولنـا جهدنا ان نلتزم السير على طريق الحجاج ، وان كنا كثيراً ما نفقد أثر هذه الطريق أثناء الظلام . وخاصة عندما كانت طرق الحجاج تختلط مع مفارق الوادي .

وبعد مسيرة مسافة ميلين وصلنا الى طرف خلع طبيعي عريض على ضفته اليسرى سلسلة من الصخور يقارب ارتفاعها أربعين قدماً . وهنا لم تستطع سيارة اللاندروفر ان تتقدم ياردة واحدة . .

وقد قمت بفحص الوادي وأطراف الجبال مشياً على الاقدام . فعرفت ان اضخم الصخور في ذلك الموقع هي صخور الغرانيت والبازلت . والأخير يتخلل الصخور على شكل طبقات تتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي على زاوية مقدارها ثلاثون درجة .

وقد تمقلت فلم احاول ان احذو حذو « موسى » في تسلقها ، هذا اذا صح انه قد تسلقها بالفعل . ولكنني قمت بتفتيش دقيق في الوادي والصخور الموجودة فيه على أمل أن اجد بعض النقوش . وكان كل مـا وجدته لا يعدو بضعـة « وصمات » بدوية . غير ان القناة ذاتهـا والتي يبلغ عرضهـا مائة ياردة مغطاة بأشجار وأدغال كثيفة من الاكاسيا ، والمنحدر السحيق للجبل الذي تبدأ منه القناة ، هذان كانا مثيرين حقـاً . فقد كان ثمة جدار هائل من الصخر يشكل الضفة الشمالية الى مسافة قصيرة من ابتداء فم الوادي ، بينما كانت الهضاب الصخرية الى أسفل أقل ارتفاعاً . وكانت الصخور في الخمسة عشر قدماً الأولى فوق قاع الوادي حمراء اللون تليهـا صخور صفراء اللون ثخنها عشرة اقدام . وفوق هذه الصخور العليا طبقه كثيفة من الجير . وكانت هذه الصخور تزداد صلابة ويتحول لونها الى اسود في نواح متفرقة .

واستنـاداً الى « حسب الله » فان اسم « حرب » يشمل الوادي بالدرجـة الاولى ، بينما يطلق على الجبل ذاته اسم « المنيفة » . ولو ان في جبل « حرب » أية أسرار بوده ان يكشفها لعتبتُ عليه كثيراً اذ انه لم يكشف لي أياً منها .

وليس هنـالك غير أمل ضعيف في امكانية العثور على أية أدلة تثبت زيارة « موسى » والاسرائيليين الى هذه المنطقة ، ولكن اسم المنطقة على الأقل يوحي باحتمال وجود مثل هذه الأدلة . وليس من المعقول ان يكون الاسرائيليون قد

تاهوا في صحراء سينـاء والصحارى المجاورة مدة اربعين سنة دون ان يكونوا قد شقوا طريقهم الى وادي « مدين » .

هذا وقد عدنا الى سيارتنـا وتحركت بنا نحو الشمال الغربي مسافة خمسة اميال وصلنا بعدها الى صخرة هائلة كان تجاوزهـا من الأمور العسيرة . ومن هناك توجهنـا الى واد عريض ينحدر بين ممرات صخرية ، أدت بنا الى الطريق الرئيسية عند نقطة تبعد مسافة أحد عشر ميلاً عن المخيم .

وقد امضينا القسم الأكبر من يوم الخامس عشر من شهر فبراير (شباط) في زيارة « مقنه » التي اعدتُ زيارتهـا في مناسبتين لاحقتين (ابريل – نيسان سنة ١٩٥٢ وفبراير – شباط سنة ١٩٥٣) .

**

الآن نعود الى قصتنـا الاولى ، فبعد ان مررنا بتلال (المجموعة ب) من الأضرحة ، وعبرنا القناة التي تنبع من مرتفعات « المصلى » الى خرائب ووادي « أفل » وجدنا أنفسنا في طريق « الحمضه » ، وهي عبارة عن مرعى عريض . وكان ثمة واد تابع للمرعى تنساب مياهه من امامنا الى قناة تقع بين مرتفعـات « تيران » على الشمال وبين صخور جبل « نتيش » الرائعة الى اليمين .

هذا ويواصل الأخير امتداده خلف المجرى الذي حفره تدفق ميـاه شعبه أمام مرتفعات « الحمرا » التي تماثل مرتفعات « تيران » . ويتراوح عرض وادي « الحمضه » بين ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ ياردة ، لكنه يضيق حتى ٣٠٠ ياردة عندمـا يدخل بين سلسلتي جبال ، هي الجبـال ذات الصخور الحمراء والسوداء القريبة من قمة جبل « عبدين » . وخلف هذه لاحظت ان القناة قد بدأت تتسع حتى تلتقي مع وادي « الخراج » الذي يجري باتجاه الشمال عبر مسرب بين الصخور الجيرية المرتكزة على قاعدة من الصخور الصلدة . وعن طريق هـذا الممر تتدفق مياه القنوات الأخرى لتصب في البحر ، بعد ان تتجمع ويصبح اسمهـا وادي « مقنه » .

ويوجد في أسفل هذا الوادي – عند ملتقى القنوات ببعضها – حقل فيه أشجار نخيل كثيفة ، لا يمكن لأية سيارة ان تمر بينها ، مع ان المسافة الى « مقنه » ذاتها الواقعة على سيف البحر لا تزيد على ميلين اثنين . وكنا الآن قد قطعنا مسافة ثمانية عشر ميلاً من مخيمنا في « بدعة » الى هذه النقطة . وقد اضطررنا الى الدوران مسافة اربعة اميال في منطقة وعرة اعترضتنا قبل ان ننتهي الى وجهتنا .

وإذ سرنا مسافة ميل في وادي « الخراج » درنا نحو منطقة الرمال ، حيث تسلقنا منحدراً رملياً تكثر فيه الصخور ، أدى بنا الى بساتين للنخيل تبعد حوالي نصف ميل عن القرية ذاتها . وعند رأس المنحدر وقعت عيناي لأول مرة على البحر ... كان البحر هادئاً ازرق اللون في خليج العقبة ، ومن خلفه تمتد جبال سيناء العظيمة .

وهنا .. أي عند اشجار النخيل ، وجدنا جدولاً جارياً يتفرع من نبع « عين الطيور » ويجري نحو الواحة ثم يتدفق باتجاه البحر ، ولكنه في الواقع لا يصل اليه .

وعلى شاطىء البحر بالذات يوجد بستانان صغيران لأشجار النخيل يقطن في احدهما نفر قليل من الناس في اكواخ صغيرة . اما سكان القرية ذاتها فيقطنون في اكواخ مماثلة ، ويعملون في جني التمر والرّطب .

وقد رأيت اكبر هذه الاكواخ محاطاً بسياج خشبي لوقايته من الرياح وعرفت فيما بعد انه دار الحكومة . وفي هذه الدار وجدنا جاويشاً وثمانية جنود « جندرمه » هم الذين يسيطرون على مصير « مقنه » . فهم يقاتلون الذباب والبعوض عند الواحات ويقومون باعمال الدورية على الشاطىء لمنع أعمال التهريب من المنطقة او اليها .

ولم أجد في هذه القرية متاجر ولا غيرها من المرافق العامة. وتساءلت كيف

يتلقى أفراد حامية القرية مؤنهم .. واستفسرت عن ذلك فقيل لي انها تنقـــل اليهم عبر البحر بواسطة مراكب صغيرة (قطيرة) تأتي من « ضبه » .

هذا ويعرف عن ميناء القرية انه يستقبل المراكب التجارية الصغيرة ، وهو فيا عدا ذلك لا يصلح لشيء إلا لابحار المراكب الشراعية (سنبك) الى البحر الأحمر . ويقع مرسى هذا الميناء بين صخرتين واطئتين تتكسر عليها بحكل أمواج رقيقة من بحر هادىء . هكذا شاهدنا البحر الأحمر عند زيارتنا له .

والجدير بالذكر ان جميع أشجـــار النخيل في « مقنه » من ممتلكات أفراد قبيلة « بني عطية » . وهم غائبون عن المنطقة . وكان هؤلاء قد اشتروها في يوم من الأيام من مالكيها الأصليين ، وهم من فخذ « فوايده » من القبيلة القديمـــة المعروفة باسم « عقبه » ، والتي تعاني الضيق في الوقت الحاضر نتيجة لاستتباب الأمن في شبه الجزيرة العربية في ظل حكم الوهابيين .

وسيف البحر بالذات عبارة عن دائرة متوسطة الاتساع تقع تحت قاعدة من الصخور الغرانيتية ، وعلى كل حال ، فان الجهة اليمنى ، كانت خاليـــة من الصخور الغرانيتية او الجيرية ، اذ ان صخور البازلت سائـدة هنـــاك ، وخاصة عند جبل « نتيش » وغيره من المرتفعات الواقعة خلفه .

وعلى بعد ستة اميال من أشجار نخيـــل « مقنه » يلتقي وادي « حمضه » بشعب « المُطيرِف » الذي تتجمع مياهه من مسايل منحدرات « تيران » ، ثم يجري في مرعى واسع يعرف باسم « الخنجور » . وعلى بعد ثلاثة أميال أخرى الى أعلى توجد منطقة صخرية واسعة تمتد مسافة ليست بالقصيرة الى داخـــل الوادي من مرتفعات « تيران » . ومن جانبي هذا الوادي تمر قنوات يطلق عليها عند تجمعها اسم وادي « أمغار » وهذا يلتقي مع شعب « العجوجا » .

وتقع أماكن استسقاء المياه في « ضحل حمضه » عند طرف سهل « الحمضه » ، وعلى بعد ثلاثة أميال من الجدول . وهي عبارة عن حفرة كبيرة مفتوحـــة

حفرها البدو في أرض الوادي ولم يبنوا لها جدراناً ، بل وضعوا ثلاثـة حجارة كبيرة في زواياها ليقف عليها الرجال عندما يملأون قِربهم بالماء ليسقوا المواشي. أما عمق هذه الحفرة فيبلغ ست قامات . ولم أجد أي أثر للماء في قعر الحفرة ، مع ان الدليل أبلغني عن وجود قنوات في أسفلهـا ، تقود الى البئر من مختلف الاتجاهات في انفاق تحت الأرض . وقد أكد ان واحداً من هذا الانفاق يظل مليئاً بالماء باستمرار . ولكن المشكلة كانت في الهبوط الى القعر للتأكـد من هذا الكلام .

وعلى بعد ميل او ما يقارب الميل تحت هذه النقطة ، تقع تـلة « طويّل الحمضه » ، وهي تلة واطئة ولكنها مثيرة . ومنها القيت نظرة أخيرة على المنطقة التي تحيط بنا قبل ان نقطع مسافة الأربعة أميـال الأخيرة الى المخيم . وهنـاك كانت جبال سيناء تشمخ خلفنا وراء غلالة من الضباب بينما كانت سلسلة جبال « لوز » الطويلة تمتد أمامنا الى جانب سلسلة جبال « مدين » .

وهكـذا انتهت زيارتي الأولى الى « مدين » فاذا مـا أشرقت شمس اليوم التالي ، فاننا سنكون في طريقنا على شاطىء البحر الأحمر .

١١

ساحل مدين

لقد وجدت عندما قررنا استئناف رحلتنـا في اليوم السادس عشر من شهر فبراير (شباط) ان هنالك كثيراً من التفاصيل المتعلقة بأقسام مختلفة من المنطقة التي وصفتها في الفصل السابق،يجب ان توضح . وفي الحقيقة فاننا لم نكن متأهبين لمغادرة مخيمنا قبل الظهيرة . وكانت اللياقة تقضي بأن نقوم بزيارة وداع لقائد الحامية ورجاله الذين كانوا زواراً دائمين لخيامنا .

وقد تقدمنا من « بدعه » على امتداد سلسلة جبال « دَرَك » لالقاء نظرة أخيرة على بئر « موسى » . والتقينـا في الطريق بالشيخ « محسن » الذي أصر على دعوتنا للغداء في مضاربه . ولكن الوقت كان يقارب الثانيـة بعد الظهر ، ولم أجد بداً من ان أرفض دعوته مرة اخرى . ومع ذلك فقـد أرفقت رفضي لهذا الكرم بهدية مناسبة جعلت الشيخ يغادرنا مسروراً .

وبعدئذ واصلنا السير وكلنا أمل في ان نقطع مسافة الخمسين ميلاً التي تفصلنا عن البئر دون مصاعب . غير ان سيارتنـا « اللوري » كانت قمينة بأن تصاب بعطب على فترات . وقد تبين لي ان معلومات دليلي الجديد « سعد » عن المسافة

التي تفصلنـــا عن البئر لم تكن صحيحة ، وان كنا قد قطعنا تلك المسافة في ساعتين مـــن السير المتواصل ، لكي نصل الى « خُرَيْبه » على مسافة خمسة وثلاثين ميلاً .

ولما بلغنا النقطة التي سبق ان وصلتهـــا وتحولت منها لزيارة « حرب » ، تابعنا المسير على امتداد الضفة اليمنى لوادي « أفل » مارين فوق بعض التلال القليلة الارتفاع . ولكن هذه سرعان ما اخذت تضيق تدريجياً عند سلسلة من المرتفعات تفصلها عن القناة التي توازيها . وتعرف هذه القناة باسم قناة وادي « قيال » الواقع الى الجهة اليمنى .

وعلى الرغم من ان هذا الوادي يتلقى جداول المـاء التي تنحدر من التلال فان مياهه تكون ضحلة عندما يصل الى البحر في نقطة تقع الى اليمين من مصب وادي « افل » . وبينما ينتشر وادي « افل » عند نهايته فيتحول الى دلتا رملية واسعة ، مليئة بالأدغال، نرى ان وادي « قيال » يخترق ارضاً مزروعة بالنخيل طولها حوالي الميل الواحد ، وفي هذه الأرض عدد بسيط من الاكواخ ، يقطنها البدو الذين وفدوا لجني المحاصيل .

وقد دهشت في مناسبة ثانية بينما كنت أمر ببستان النخيل هذا عندمـا اوقفني أحد الاعراب وطلب مني مـاء للشرب . وهو أمر مثير في مثل هذه المنطقة التي يفترض ان تكون مياههـا غزيرة . خاصة وان الرجل كان على مرمى حجر من آبار الواحات .

وطبيعي انني رفضت ايقاف السيارة لهذا الرجل، ولكنني بعد ذلك تبينت كم كنت مخطئاً. فقد رأيت أشجار نخيل « قيال » تسبح في مياه البحر ، وآبارها غير صالحة للشرب . ومن سوء الحظ انني ابتعدت كثيراً عن مكان الرجل فلم يعد بالمستطاع اصلاح خطأي الذي لا أملك إلا ان أشعر من جرائه بالخجل .

وقد تعرضنا لبعض المشاكل ونحن نعبر الدلتا والتلال الرملية في مواقع من

« افل » ، ولكننا وصلنا الى أوله لنجد بستاناً صغيراً من أشجار النخيل الهزيلة . وكانت المسافة من هذه النقطة ، حتى الطرف الأعلى لبساتين النخيل في « قيال » ستة أميال . وثمة مسافة مماثلة تفصل الأخيرة عن النقطة التي تحركنا منها باتجاه « حرب » . وهكذا فان المسافة ما بين « بدعة » والبحر تبلغ حوالي ثمانية وعشرين ميلاً :

وما ان دارت بنا السيارة نحو منحدر بين البحر وجدران منحوتة واسعة ممتدة الى يسارنا ، حتى توقفنا لتناول الشاي واداء الصلاة . واستفدت من الوقت الذي كنا سنمضيه في التوقف عند هذه النقطة فقمت بمسح المنطقة من فوق صخرة علوها أربعون قدماً . وقد رأيت من تلك النقطة سلسلة واحدة تعقب الأخرى من جبال « تهامه » . وتنحدر هذه السلاسل باتجاه الساحل بعد ان تبتدىء من أبعد نقطة عند قمم جبل « شرّ » .

وانه لمن سوء الحظ ، ان دليلي « عيد » و « زعل » - وكانا ما يزالان معنا - قد اعترفا بانهما لا يعرفان شيئاً ، مهما قلّ ، عن المنطقة الجديدة التي ستصبح مسرحاً لتجوالنا خلال بضعة الأيام القادمة ولذا فقد طردتهما . وعلى هذا الأساس تركناهم في « خُريبة » .

وهنا كان البحر يتمطى برفق عند الشاطىء وكان مليئاً باسماك (هلامية) من جميع الأحجام . وهي مخلوقات لها أنوف طويلة .

وفي هذه الأثناء كنا قد وصلنا تقريباً الى الجنوب من « بدعة » فأصبحت مرتفعات « سيناء » واضحة للعيان . وكذلك الجزر العديدة خارج خليج « العقبة » ، مثل « تيران » و « صنافِر » و « ابو شوشع » و « برقان » .

وقد سرنا مسافة ثمانية أميال في طريق سهل الى « خُريبه » ، ولكننا قبل ان نصل اليها ، عبرنا قناة وادي « عينونه » بالقرب من اتصالها بالبحر ويبلغ عرض هذه القناة ميلاً واحداً .

و« خريبة » هذه عبارة عن قرية مؤلفة من أكواخ من سعف النخل منتشرة بين النخيل . وهناك مجموعة صغيرة من البنايات الحديثة نوعاً مـــا ، على طول ساحل مرفأ صغير . أما مركز البوليس فيحتل مرتفعاً رملياً صغيراً يقع بالقرب من أشجار النخيل . وعزمت ان أمضي الليلة في هذا المكان لأفحص خرائبه ، غير ان السكان الذين قابلتهم بدوا وكأنهم ليست لديهم أية معرفة بشيء أكثر قدماً من مساكنهم المهلهلة !

وتحدثت الى أحد العبيد ، وكان مظهره يدل على ذكائـــه ، فتطوع بابلاغي بعض المعلومات . وقال لي « أحمد » ، وهذا هو اسمه ، ان ثمة خرائب قديمة في « عينونه » ، وهو مستعد ان يقودنا الى هذه الأماكن . فقبلت عرضه ، وبادرنا بالمسير دون ابطاء ، وقبل ان يحاول رجال البوليس اعتراض طريقنا ليفرضوا علينا كرمهم .

وقد سرنا بحذاء الضفة الشمالية من الوادي فوق أرض صخرية ، حتى وصلنا الى بساتين نخيل « عينونة » بعد أقل من عشر دقائق . (وكانت المسافة تتراوح بين ميلين وثلاثة أميال) . وقمنا بالحال بنصب خيامنا قرب الواحة .

واذا ما استثنينا البعوض الذي كان مزعجاً وكثيراً جداً، نكون قد أحسنا صنعاً باللجوء الى هنا بدلاً من البقاء ضمن منطقة السكن في « خريبه » . ويكاد يكون ثابتاً ان هذه الرقعة من الشاطىء كانت مرفأ عينونه في الأزمنة القديمة ، وان كانت ، على حد رأي احمد – تكاد تكون خاليـــة من الآثار في الوقت الحاضر .

ويبدو ان «عينونه» ذاتها كانت ذات أهميـــة مرموقة ، فهي تقع في مركز ستراتيجي يمتد على شكل شريط رفيـع من الارض ، ويقطعه الوادي عبر مجرى من الصخور الجيرية. ومن هذا المجرى تتفرع جميـع الطرق المؤدية الى السهل والتي تنفذ الى البحر على حد سواء .

وكما سبق ان ذكرنا ، فان رأس وادي « عينونه » يقع باتجاه القسم المقابل للبحر من سلسلة جبال « الروا » في منطقة الحصمه ، في حين ان أعاليه تعرف باسم وادي « نتيش » أو وادي « الروا » ، وان كان الوادي الذي يحمل الاسم الاخير منفصل تماماً . اذ انه يجري باتجاه أفل على طول امتداد القسم الجنوبي من سلسلة جبال « زُهد » .

وقد اكتشفت ذلك في سنة ١٩٥٣ عندما عبرت وادي عينونه وقطعت حوالي عشرة اميال فوق المنطقة التي كنا في الوقت الحاضر مخيمين فيها . ومن ثم تبعت وادي الروا (وادي الشواحط) لمسافة قصيرة داخل وادي افل . أما جدول المـاء الجاري الذي يأتي من منطقة مخيمنا فلا يصل الى ابعد من الارض الرملية الشاسعة في الوادي والتي تقع في الجهة المقابلة للبحر من سلسلة المرتفعات .

هذا وقد امضيت عدة ساعات من صبيحة اليوم التالي في فحص المنطقة المحيطة بنا فحصاً تفصيلياً . فبعد ذلك الشريط دون سلسلة الهضاب الواطئة عند كتف الضفة اليمنى ، وجدت خرائب قرية كبيرة . وكانت بعضها خرائب بناية كبيرة ذات طابع فج خشن يبدو منه انها كانت قلعة صممت بشكل يضمن الاشراف على المدخل المؤدي الى السهل .اما بقية البنايات فتنتشر في مساحة واسعة . وهي مثل تلك الكبيرة في خشونة المظهر ، وان كانت حجارتها متراكمة فوق بعضها بحيث لا يمكن ان يعرف المرء للقرية شكلاً ولا كيف كانت غرفها مصممة .

ويتراءى لي ان هذه البنايات كانت دوراً للعمال وغيرهم من الخدم ، لأن « عينونه » ، كما سنرى في حينه ، لم تكن مركزاً ستراتيجياً مهماً فحسب ، بل ومركزاً اقتصادياً مرموقاً أيضاً .

ومن عند هذه الخرائب تسلقنا المرتفع المؤدي الى المنحدرات الصخرية حتى وصلنا الى قمة المرتفعات . وهنا كان الحي الراقي في مدينة عينونه عندما كان

ارستقراطيوها يعيشون فيها . ويبدو ان هؤلاء كانوا قوماً لا فن لديهم كما تشهد بذلك آثار بناياتهم وربما كان كل همهم ان يؤمنوا سيطرتهم على منطقة كان فيها ذهب يستخرجونه ، ومن ثم يعالجونه بالصناعة ليتاجروا به .

وتمتد القرية القديمة من الطرف الغربي للخرائب ، مسافة تبلغ خمسمائة ياردة تقريباً ، على طول قمة الصخور الجيرية باتجاه جنوبي شرقي حتى مشارف الشريط ، وتمتد القمة باتجاه الشمال الغربي المسافة ذاتها ، غير ان هذه المنطقة كانت خالية من البنايات ، وان كان فيها بعض اكوام من الحجارة يعتقد بأنها كانت مراكز للمراقبة .

أما عرض المدينة فيقارب المائتين وخمسين ياردة . ويبدو ان زاويتها الشمالية الغربية كانت مركزاً لقصر أو قلعة . ويجوز ان هنالك بعض الخرائب الاخرى عند الامتداد الشرقي لسلسلة المرتفعات في أسفل الشريط ، ولكنني لم ازرها .

والمواد التي استخدمت في بناء المدينة وقلعتها خليط من جميع الاجناس ، بما فيهـــا الغرانيت ، والبازلت . وبعض حجارتها بحجم رأس الانسان . وقد شاهدت بعض الغرف والمنازل واضحة المعـالم من حيث أساساتها ، غير ان أياً منها لم يكن له أهمية هندسية تستحق الذكر وحتى قطع الفخار التي وجدتها فيها كانت عادية جداً .

والواقع انه كان هنالك شيء قليل يمكن معه التمييز بين المدينـــة العلوية والمدينة السفلى . ومع هذا فقد استفدنا ما يقابل عناءنا ، اذ اننا من القمة هناك استطعنا ان نكوّن فكرة لا بأس بها عن المنطقة الواقعة الى الجهة الشرقية من المرتفعات . وخصوصاً فيما يتعلق بالوادي الذي يجري نحو الشمال الشرقي مسافة خمسمائة ياردة بعيداً عن الشريط ، ثم يدور شرقاً حتى يصل الى نقطة تبعـــد حوالي ميل واحد عن المكان الذي يختفي فيه عن الانظـــار . وان كانت تبدو بعض منعطفاته على بعد ثلاثة أو أربعة اميـــال . وفي هذا الوادي مساحات

شاسعة من بساتين النخيل الذي تظهر أشجاره في مجموعـات وقراطيس تمتد على مرمى البصر .

وهبطنا من دراستنا غير المجدية على القمة ، لنتوجه نحو ذلك الوادي عبر الشريط المستصلح من الأرض وعلى امتداد المسيل . وبعد ان مررنا بأشجـار النخيل وغيرها من الاشجار المختلفة ، شققنا طريقنـا الى طريق أوضح تقوم تحت الطريق التي كنا نسير عليها . وهنا أتينا الى نقطة فيها بعض الخرائب على ضفتي القناة ، بعد ان قطعنا ميلاً تقريبـاً من المكان الذي تضيق فيه تلك القناة .

وقد أطلق « احمد » على هذه الخرائب اسم « مغاير الكفار » . وهي من الحجارة غير المشذبة ، ويشبه اسلوب بنائها تلك التي رأيناهـا من قبل . وهي تحتل موقعـاً على الضفة اليمنى تقدر مساحته بخمسمائة ياردة طولاً ومائة ياردة عرضاً .

وفوق هذا الموقع مباشرة توجد صخور من البازلت تشكل سداً طبيعيـاً يخترق الوادي ، ولا يزيد ارتفاعه عن بضعة اقدام . وفي نهاية تلك الصخور على الضفة اليسرى وجدنا خرائب لبنايات حجرية قديمة .

وأراني اميل الى القول بأن تلك الصخور السابقة كانت أساس سد بني هناك غير ان الزمن لم يبق منه شيئاً . فاذا كان ما أراه صائباً فان هذا السد قد بني لسبب يتصل بعمليات غسل الذهب التي ربما كانت بدورهـا السبب الرئيسي في انشاء هذه القرية . ولست ادري اذا كان هذا السد قد وفى بالغرض الذي انشيء من أجله !

ومن الغريب ان الصخور الغرانيتية والبازلتية تحتكر المنطقة الواقعـة الى الشرق من منطقة الصخور الجيرية كلها ، حتى ان هذه الاخيرة بدورهـا قائمة على اساسات بازلتية وغرانيتية .

ويبلغ عرض الوادي خمسين ياردة ، تحصرها صخور ملساء يبلغ ارتفاعها عشرة اقدام . وليس هنالك أية بنايات فوق أي من ضفتيه . غير ان أعلاه ومنحدرات السلسلة الصخرية التي يبلغ طولها ثلاثمائة ياردة ، والتي تبعد قليلاً عن الضفة اليمنى فيها بعض الأبنية الحجرية من ذات الطراز السالف الذكر . والجدير بالذكر ان الأكواخ المصنوعة من سعف النخل والقريبة من الشريط لا تستعمل إلا أيام جني التمر .

وفي طريق عودتنا الى خريبة عرجنا على مركز البوليس حيث قدمت لنا القهوة والشاي قبل ان نواصل تحركنا لفحص القرية ، التي كانت بيوتها تبدو وكأنها مستعمرة مرجانية ، إذ تتكوم العشرات منها بالقرب من الشاطىء . وهناك وجدنا السيارة التي مرت بنا في بدعة قبل أربعة أيام ، وكانت هذه السيارة متجهة جنوباً في طريق عودتها الى تبوك على ظهرها حمولة من النفط المرسل الى الحكومة .

ولما لم يكن في المكان الكثير مما يشجع على البقاء، فقد تحركنا نحو الشاطىء الرملي حول خليج بديع ، كان طرفه الأقصى يدخل في البحر ليشكل شبه جزيرة « شرما » . ويستسقي اهل هذا الموقع من الوادي الذي يحمل الاسم ذاته ، وهو الوادي الذي وصلنا اليه بعد مسيرة ستة أميال من « خريبة » .

كان « موسيل » قد أمضى زمناً طويلاً في شبه الجزيرة المذكورة سنة ١٩١٠ . وقد وجد فيها عدداً لا بأس به من الامارات التي تدل على انها كانت مسكونة وفيها شيء من الحضارة في الأزمنة القديمة . أما الآن فقد وجدتها مهجورة إلا من زراعة بسيطة يقوم بها البدو في مواسم المطر الغزير والفيضانات .

وعلى طول الضفة اليمنى من الدلتا الرملية الواسعة لوادي « شرما » وجدنا نبعاً تذهب مياهه هدراً في الرمال بعد ان يفي بالغرض المطلوب منه ألا وهو

تزويد واحة « شرما » التي تبعد نصف ميل عن منبعه ، بماء الشرب .

ولم نتحول عن طريقنا لزيارة هذا النبع هـذه المرة ، غير انني إبان زيارتي الثانية في شهر ابريل (نيسان) من العام الذي تلا ذلك قمت بزيارته مع عـالم الآثار الجيولوجي المصري « مصطفى صادق » . وقد تناولنا طعام الغداء عنده ونحن نجلس على بساط أخضر من العشب البديع يمتد منحدراً الى قاع الوادي بعد ان يمر ببستان لأشجـار النخيـــل هناك ، وكانت بعض تلك الأشجار مرتفعة جداً .

ويبلغ عرض « دلتا شرما » الذي عبرناه ، والتي تقع على طريق السيارات الرئيسية حوالي ثلاثة أميال . ووراء هذه الدلتا يمتد سهـل رملي واسع مرتفع الى حد ما ، تخترقه عدة قنوات تنبع من التلال الواطئـة الموجودة في داخـل المنطقة . وتقع أربع من هذه القنوات ضمن مساحـة من الأرض لا تزيـد على خمسة أميـال . وهـذه القنوات هي (َنخْبار ورتبّة وكـُرَنْكـَره وروضة العبد) ، وهي موجودة بهذا النظام من الشمال الى اليمين .

وقد دخلنا الدلتا على بعد ميل الى الجنوب من «روضة العبد» ومن ثم عبرنا وادي « تيريام » الكبير . وهو آخر نقطة تصـــل الى البحر ، من وادي « سَدْر » .

وتمر طريق السيارات من أمام بستان كبير للنخيل فيه عدد كبير من الآبار . ويمتد ذلك البستان عدة أميال على طول لسان صخري عريض . ومن هنـاك يشق الوادي طريقه الى المنطقة الساحلية ثم ينفذ الى البحر .

وهناك تقوم قرية « السورة » وفيها عدد قليل من أشجار النخيل ، ومركز لمراقبة الساحل أقاموه في نقطة اتصال دلتا تريام بقناة وادي « وقدان » .

وقد عبرنا الأخير من نقطه تبعد أربعة أميال الى الجنوب من أشجار نخيـل تريام ، عند طرف طريق صخرية عريضة ، تفصل وادي « سدر » عن وادي

« مُزَيهره » . وهو الوادي الأخير هو الذي عبرناه لنصل الى البحر على بعد سبعة أميال الى الشمال من الميناء المهم المعروف باسم « مُويلح » .

والجدير بالذكر ان بورتون قد نزل في هذا الميناء سنة ١٨٧٧ ليقوم باولى جولاته الاستكشافية بحثاً عن مناجم الذهب في « مدين » .

وبالنظر لخشيتنا من ان تؤخرنا السلطات الحكومية في ميناء « مويلح » حتى يتسع لها الوقت لأن تغمرنا بكرمها ، فقد فضلت ان يكون تأخيرنا بين أشجار النخيل القريبة من الواحة . وتقوم في وسط هذه الواحة تلك القلعة الرائعة التي أمر بتشييدها السلطان « سليم خان » أحد خلفاء آل عثمان من أجل حماية الحجاج . وسرعان ما انتشلنا كمية من ماء « المروى » ، وهو أحد الآبار الواقعة الى جانب الطريق هناك ، ثم أسرعنا وليس يشغل أفكارنا سوى سرعة الوصول الى « ضُبه » .

وتابعنا السير عن « مويلح » تسعة أميال، ثم مررنا بالتلة التي يطلق عليها اسم « تلة الكبريت » او « جبل الكبريت » . هذا وتقع ضبه ذاتها على الساحل وعلى بعد تسعة عشر ميلاً من هذه التلة . وقبل ميلين من هدفنا مررنا بعصبات « حاشية » و « ذَحكان » الواسعة . وفي المكانين من الامارات ما يدل على انهما عامران بالسكان . وهما من الأماكن المفضلة لدى سكان ضبه لقضاء نزهاتهم .

***

لقد انقضت الآن ثلاثة شهور منذ ان غادرنا « الرياض » من أجل استكشاف مدين ، وها هي مهمتنا على الغالب قد انتهت ، غير انني كنت قلقاً جداً بخصوص المهمات الأخرى التي تنتظر عودتي الى المدينة . ومهما يكن من أمر ، فانني ولا شك جدير بان أنال استراحة من العمل ، ولو لليلة واحدة ، في ضيافة « محمد

النفيسي » . وهو مواطن من « منفوحة » قرب الرياض، عيّنوه حاكماً المنطقة الساحلية هذه وهو يرتبط بالأمير خالد السديري حاكم المناطق الشمالية ، التي كانت ضبه ميناءها الرئيسي الفعّال . وهكذا بتنا الليلة هناك .

ولم أجد في ضبه أي شيء يلفت الأنظار ، وان كانت المدينة حديثة نسبياً . وتقع ضبه فوق أرض مرتفعة على طول الشاطىء . ولهذه المدينــة سوق كبيرة ومركز للبيع يشرف عليــه عدد من مختلف موظفي الحكومة والبلدية . وقــد أنزلنا الأمير تلك الليلة في بيت قريب من مسكنه الخاص ، يطل على الشارع الرئيسي في المدينة . ولهـذا كنت أستطيع من نافذتي ان أنظر الى الشمال نحو الصخور والقمم الغرانيتية الكبيرة في جبل «شر» الذي يشرف على جميع الطرق المحيطة بجبل الكبريت .

وقد أقام لنا الأمير في تلك الليلة حفلة استقبال خاصة في بيته دعا اليها نفراً من رجالات الحكومة في المنطقة بما فيهم القاضي « عبد الغني مشرف المدني » . وهو رجل من سكان المدينة المنورة بالأصل يحب العلم والتعلم ، وكان كثير الاهتمام بسماع اخبار تجوالنا في مدين . وقد امضينا ليلة ممتعة للغاية تحدثنا فيهــا عن « ضبه » ونشاطاتها التجارية وآمالها في تطوير الاقتصاد . وكانت تجارة هذه الموانى الواقعة على البحر الأحمر ، في الأزمنة القديمة ، تقتصر على تصدير الاغنام وفحم الخشب الى السويس ، غير ان هذا النشاط قــد توقف بأمر الحكومة السعودية التي شجعت استيراد الأغنام من الصومال وغيرها ، لتأمين احتياجات اسواق جدة ومكة .

ومن هنا تحولت آمال « ضبه » الى مشروع انشاء طريق مباشر الى تبوك عن طريق ممر « خريبه » . وذلك لتجنب النفقات الباهظة التي يتقاضاها سائقو سيارات اللوري على حمولة سياراتهم بين المدينتين بسبب الطريق الشاقة الطويلة عبر مدين .

والجدير بالذكر ان معظم التجارة تتألف من البترول والزيوت ، وهي تجارة تلعب فيها عائلة اسماعيل بديري من « ينبع » دوراً بارزاً . ويتحتم على جميع السيارات القادمة من الأردن والتي تقل الحجـاج ، بموجب القوانين الراهنة ، ان تتزود بما تحتـاج اليه من وقود وزيوت من « معان » الى المدينـة . وعند وصولها الى الحدود السعودية عند « ذات الحج » يتحتم على أصحابها ان يدفعوا الضرائب السعودية ، عمـا يحملونه من مخزون البترول والزيت . وانه ليسر اصحاب السيارات ان يشتروا كل ما يحتاجونه من وقود وزيوت من الأراضي السعودية فيما لو امكن توفير هذه المواد ضمن مراكز أقل كلفة . غير ان بعد المسافة يجعل اسعار هذه المواد غير محتمل ، كما ان التجـار السعوديين ممنوعون من القيام بأي نشاط حر يوفر لهم ربحاً معقولاً .

والشيء ذاته يقـال عن غير هذه المواد من البضائع المختلفة التي يمكن ان توفر بأسعار أرخص بكثير فيما لو استوردت من معان الى تبوك بدلاً من ان تستورد من « ضبه » .

ومع ذلك فان ثمة ميلاً واحداً من الطريق في ممر خُريطه لو امكن تعبيده لزاد في رفاهية ضبه . ولكن وكما يعلم الجميع ، فان الأموال القليلة اللازمة لاتمام هذا المشروع تصرف على مشاريع ذات أغراض وهمية .

وقد سرني هنا ان أجد السكرتير الرئيسي والمستشار المالي للأمير ، شخصاً يدعى « عبد الدايم » كان والده كبير موظفي الدولة في « مويلح » عندمـا نزل بورتون الى ذلك الميناء في سنة ١٨٧٧ .

وفي صبيحة اليوم التالي قمت بزيارة مجاملة للقاضي ولرؤساء مختلف الدوائر الحكومية ، كما قمت بجولة استطلاعية زرت فيها كبار التجار في المدينة ومختلف المخازن والمتاجر في السوق . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر اجتمع رؤساء دوائر الحكومة - بناء على دعوة من الأمير - لمقابلتنا اثناء حفلة العشاء في بيته . وقد

جلسنا نرشف فناجين لا آخر لها من القهوة المرة (السادة) وكؤوساً اخرى من الشاي المحلّى وأخذنا نتبادل الأحاديث حول « الوجه » التي كانت في الأزمنة القديمة ميناءً ناشطاً في تصدير الاغنام الى السويس ، بواسطة السنابك المعروفة في البحر الاحمر أو على ظهر البواخر الخديوية الكبيرة . غير ان الأخيرة لم تكن تستطيع الوصول الى المرفأ فكانت تقف في عرض البحر حيث توسق بحمولتها هناك ، وكانت عمليات الوسق هذه تكلف الكثير من الارواح . غير ان كل هذا قد توقف في الوقت الحاضر ليس لأسباب انسانية ، بل من أجل حفظ حاجة البلاد من اللحوم .

وكذلك شمل الحظر نوعاً آخر من البضائع المصدّرة ، وهو السمن الذي كانت اسواق مصر تطلبه بكثرة . اما الشيء الوحيد الذي تصدره (الوجه) الآن فهو خشب الفحم ، ويشحن على السنابك في اكياس وزن الواحد منها قنطار وثمنه ١٢٥ قرشاً مصرياً ، تسليم السويس .

ويقدر العارفون عدد سكان الوجه بألف وخمسمائة شخص يقابلهم الفان في ضبة . والوجه اليوم أقل ثراء ورفاهية مما كانت عليه قبل الحرب عندما كانت ميناء عادياً للفحم الذي تتزود به السفن الخديوية وغيرها من السفن التجارية .

وهنالك عدد كبير من البيوت في المدينة السفلى وآخر قليل في المدينة العليا ، يرجع تاريخها الى فترة الاحتلال المصري لشمالي الحجاز . وهذه على وجه العموم احسن من البيوت الحديثة . أما القلعة الكبيرة التي تشرف على المدينة السفلى من فوق الصخرة العالية فتبدو رائعة ، وان كنت لم ازرها من الداخل . وقد عرفت ان رجال البوليس المحلي يحتلونها في الوقت الحاضر .

وفي المدينة السفلى توجد السوق الرئيسية وهي سوق رائعة . وكذلك دوائر الجمارك والمالية وكل ما يتعلق بشؤون المرفأ من بنايات . وهنالك محكمة ايضاً . وكانت المدينة في الأزمنة الغابرة تعتمد في تأمين حاجتها من المياه على عدد من

« الصهاريج » او البرك الكبيرة التي صممت بحيث تتلقى مياه الأمطار التي تتساقط في المنطقة وتخزنها فيها . أما بعد ذلك فقد جعلت تعتمد على طريقة أكثر نفقة من سابقتها . وتتلخص هذه في ارسال الجمال (وحديثا السيارات) الى الآبار التي تبعد ستة أميال في وادي « سبيّل » . وتنبع مياه الآبار في هذا الوادي من المرتفعات المجاورة ، ثم تتدفق من جوف الأرض نحو الميناء .

والى جانب الآبار تقوم القلعة الصليبية المشهورة باسم (قلعة الزريق) . وقد زرت هذه القلعة ، برفقة الدكتور د . ج هوغارث في شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٩١٨ حين كنا في طريقنا من جدة الى العقبة ومنها الى السويس بعد ان بحثنا في سياسة شبه الجزيرة العربية مع الملك حسين ملك الحجاز آنذاك .

والقسم العلوي من مدينة الوجه مكشوف من جهة الشرق ، وليس له اسوار . وفي الوقت الذي تشمخ فيه هذه المدينة (الجديدة) فوق الصخور ، نرى ان المدينة السفلى محصورة في نطاقها الضيق بين سفح الصخور وبين الميناء . ويحيط بها من الجهة الشرقية (سور) أقيم لحمايتها من الغزو من قبل البدو ، غير انه قد تلاشى الآن ولم يبق منه الا مدخل يسمى (باب البحر) . وبداخل هذا الباب مكان فسيح لاناخة الأبل التي كانت تفد قوافلها في غابر الايام . أما هذه المناخات فقد استبدلت اليوم بمواقف للسيارات يرى المرء فيها بقعاً كبيرة من زيوت المحركات وأكواماً كبيرة من براميل البنزين . وقد نقلت هذه مؤخراً الى خارج السور كاجراء وقائي ضد احتمال نشوب الحريق .

وعندما وصلنا الى « الوجه » استمتعت بحمام ساخن وبدلت ثيابي كلها بعد أيام ، لا أدري عددها ، ظللت طوالها أرتدي نفس الملابس المتسخة . وقد شعرت بالراحة تماماً . ألا يكفي اني قد اغتسلت وأصبحت نظيف البدن واللباس ! وبالاضافة الى ذلك قمت بارتداء ثياب مناسبة احتفالاً بهذه المناسبة الاجتماعية البهيجة .

وكنا قد اعتزمنا مواصلة السير في صبيحة اليوم التالي ، إلا انني عندما فحصت صناديقي المقفلة لأخرج منها كمية كافية من النقود امنحها الى خدم الأمير اقراراً بما غمرنا به سيدهم من كرم ، وجدت ان المفاتيح قد فقدت ! وكان التفسير الوحيد الذي استطيع التفكير فيه هو انها قد تكون سقطت مني اثناء قدومنا ، وخاصة عندما ثارت الزوبعة في (نبقا) .

وعلى هذا الأساس أرسلت زعل والسائق الى المكان الذي نمت فيه ليبحثا عنها هناك . وكانت المسافة خمسة وأربعين ميلاً ومثلها للعودة .

وقد قمت من جانبي باستغلال الوقت الذي اضطررنا لانتظاره فأمضيته في زيارات نافعة . والواقع ، أنني لم اكن آسفاً لهذا التأخير الاضطراري فقد كانت يديّ وقدميّ قد امتلأت بالكدمات نتيجة الطرق الوعرة التي قطعناها خلال بضعة الأسابيع الماضية .

وكان لمدينة « الوجه » ميزة تخفف عني الأسى لهذا التأخر ، فالمدينة تضم عيادة صغيرة . ومن الطبيعي انني قمت بزيارة الطبيب المسؤول عن تلك العيادة. فوجدته شاباً من أهل « الوجه » يدعى « محمد قنديل » . وكان هذا الشاب قد أمضى سنة هنا بعد ان قضى فترة تدريب في مدرسة التدريب الطبي في مكة . ولم يكن الدكتور محمد مؤهلا بأي شكل من الأشكال بمؤهلات الطبيب ، اذ ان بطاقته الرسمية كانت تحمل لقب « صيدلي » ، ومع ذلك فقد عالج كدماتي بصبر تام . ثم تركته بعد ان ضمّد جراحي بأربطة طبية ، ولم اعد . .

وقد أقلقني ان تأخرت عودة السيارة ، حتى انني لم اكتم حيرتي بخصوص ما اذا سيكون بوسعنا ان نغادر المكان مع مطلع الفجر . وكنا قد اتفقنا على ان نتناول طعام العشاء مع الأمير في الموعد المقرر وهو الساعة الرابعة بعد الظهر ، على ان نتحرك بعد ذلك مباشرة . هذا اذا عادت السيارة قبل ذلك الوقت . ورأيت من الأفضل ان نعدّ كل شيء لوضعه في السيارة على عجل.

وبينما كنت أنزل ثيابي من المكان الذي علقتهـا فيه وجدت المفاتيح الضائعة في جيب أحد القمصان . وضحكت من فعلتي هذه ، ومع ذلك فقد امضيت يومي بسرور بالغ .

وأستطيع ان اقول انه لم يُسرّ أحـــد لهذه المهزلة اكثر من زعل والسيد عندما عادا ووجهاهما مكفهران لينهيا الي النتائج السلبية التي توصلا اليهـــا في بحثهما .

كان الوقت قد أصبح متأخراً في هذه الأثناء ، ولكنني قررت ، بعـد إذن الأمير ، ان نبدأ السير . وهكذا تحرك ركابنا في الساعه الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم . وما ان سرنا مدة خمس دقائق حتى بلغنا أعلى الطريق ، بعد ان رفضنا بادب بالغ دعوة من أفراد مركز البوليس للبقاء عندهم فترة من الوقت نتناول فيها القهوة . وبعد دقيقتين ، كنا نسرع منحدرين نحو آخر منعطف في وادي « ملسا » حيث وصلنا الى دلتـــا عريضة تعرف باسم « دلتا وادي سُبَيّل » .

وقد قطعنا هذه الدلتا ثم تقدمنا مصعدين نحو أحد المسايل العريضة ، فأدى بنا ذلك المسيل الى طرف بحيرة مياهها مالحة تعرف باسم « الملاحـــة » . وهي تزود الوجه والمناطق المجاورة لها بما تحتاجه من الملح . وعلى شاطىء هذه البحيرة شاهدت انقاضاً حجرية تدعى « درّة الملاّحة » تعترض الطريق ، ومعظمها من الحجارة الجيرية .

أما الطريق الجنوبية الرئيسية فتمضي الى الأمام في خط مستقيم ، يـــكاد يكون موازياً للشاطىء ، ولكننـــا أتبعنا الطريق الشمالية التي تتجـــه نحو الجنوب الشرقي ، حيث تفضي الى « أم القرايا » ، وهي قرية تحتوي على منجم كبير للذهب ، وتبعد مسافة ميلين عن خليج ألوجه وكنـــا قد اعتزمنا قضاء الليلة هناك .

وقد وصلنا « أم القرايا » بينما كانت الشمس على وشك المغيب مرسلة أشعتها الحمراء الباهتة ، عبر الوديان الضحلة المعروفة باسم « ام تنضب » و« ام صورة ». وتحت هذه الوديان يقع سهل وادي « السرا » الذي تصب فيه عدة قنوات للماء تمتلىء بما يتجمع أثناء مواسم المطر . وكانت هذه القنوات تعترض الطريق بيننا وبين سلسلة جبال « ام هاشم » . وقد صعدنا مارين بهذه القنوات الى أحد روافد وادي « الصورة » فاستغرقنا خمس عشرة دقيقة قبل ان نصل الى أعلى ذلــك الرافد. ومن هناك هبطنا الى وادي « الخور »، ومن ثم ضربنا خيامنافيضواحي مناجم الذهب في « ام القرايا » .

وفي صبيحة اليوم التالي استيقظت مبكراً آملاً ان تتاح لي فرصة القيــام بجولة في منطقة الخرائب الواسعة . وكان « ك . س . تويتشل » قد فتش هذه المنطقة باسرها – دون ان يتوصل الى نتيجة ما – عندما زارها منذ سنوات . ولذا فقد اكتفيت بان متعت نفسي بمنظر المنطقة واهتممت بجغرافيتها . والحق ان المنظر ، كما يرى من القمة، بدا رائعاً للغاية . ويبدو ان المنجم الرئيسي للذهب في غابر الأزمان كان هناك .

هذا وقد أصبحت الآن سلسلة جبال « ليبان » في الجهة الشمالية الغربية منا بينما كانت تبدو في الاتجاه المقابل (الجنوب الشرقي) صخور « رعل » الغرانيتية الكبيرة . و « رعل » هذه هي مقر شيخ قبيــلة « بالي » ويعرف باسم « ابن رفادة » ومن المعروف عن هذا الشيخ انــه لا يشجع التنقيب في الجبــال التابعة له .

ومن قمم « رعال » التي ترتفع ثلاثة آلاف قدم يطــل المرء على وادي « الحمضه » حيث تقع قرية شيخ قبيلة « بالي » وتعرف باسم « ام الذريبـات » . وكان الحجاج في الأزمنة القديمة يتوقفون عند هذه القرية ليتزودوا بالمـــاء وغير ذلك ممــا يحتاجون اليه ، وكان بنو « بالي » يشرفون على مرور الحجيج . وقد ظلوا كذلك في عهد الأتراك ثم زمن الشريف، حيث كانت مواسم الحجيج مصدر

إثراء لهم . وكان الأتراك قد عمدوا الى نظـام « الصرّة » وذلك ليتفادوا طمع بني بالي بالحجاج . و « الصرّة » مبلغ معين من المال يتقاضونه كضريبة مرور، غير ان هذا النظام قد الغي الآن .

ومن مكاني المرتفع ، كنت أستطيع أن أرى قنـاة « الخور » الواسعة تمتد مسافة خمسة اميال عبر منطقة تكثر فيها التلال ثم تنحدر على طول ثلاثة اميال اخرى الى نقطة تتصل فيهـــا بأكبر روافد وادي « المياه » الذي يتدفق من المرتفعـــات العالية التي تعرف باسم « الكـُر » و « النابا » ، حيث تمتد هذه المرتفعات الى أقصى الشمال الشرقي ثم لا تلبث ان تنحدر باتجاه البحر .

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف صباحاً ، عندمـــا استأنفنا سيرنا ، وسرعان ما وصلنا الى قناة وادي « المياه » . وهنـاك وجدنا بئراً تعرف باسم بئر « مُريْر » تقع في دغل قريب من مكان يدعى « َطرفا » . ويربط هـــذا الوادي مع وادي « العرجا » لسان طويل ومسايل رئيسية تتدفق مياههـا الى البحر جارفة معهـا كميات من الحجارة الجيرية تشبه التي رأيناها في « درّة الملاحة » .

وعندما وصلنا الى ذلك اللسان العريض من الارض وجدنا منجماً قـــديماً آخر من مناجم الذهب ، ُيعرف باسم « الخور » ، كما ُيطلق عليـــه في بعض الاحيان اسم « جبل الابيض » . ويبعـــد هذا المنجم مسافة ستة أميال عن « ام القرايا » .

وتابعنا مسيرنا الى قناة وادي (العرجا) ، ثم هبطنا الى نقطة وجدنا فيها الطريق الحديثة التي تربط بين الوجه والعـــلا . وهناك مررنا في طريق ضيقة أوصلتنا الى الطريق الحديثة الممتدة بين هضاب حجارتها غرانيتيـــة سوداء . وقـــد تم لنا ذلك عند نقطة تبعـــد بضع مئات من الباردات عن موقع (درّه) . ثم استدرنا لنتبع تلك الطريق على طول امتداد الشاطىء . وفيهذه

النقطة كانت المسافة التي تفصلنا عن (الوجه) لا تزيد على خمسين ميلاً (على الطريق) .

وابتدأت الطريق الآن تسير بمحاذاة الشاطىء عبر ارض سبخة من جراء المياه الراكدة التي تلفظها مختلف الأودية في تلك المنطقـة ، مثل (الطويّل) و (الغُلَيفـــين) ، و (والمرّه) وهو امتداد لوادي « عبـــد العزيز » ، و (الرُمَيحيّات) .

وكانت تمتد على طول الشاطىء عند اول وادي المرّه أشجار تُعرف باسم (شُورا)، بخلاف ذلك الحال في القسم الأقصى من «الرميحيات» ، حيث وجدنا أنفسنا نمر بأرض تكثر فيها التلال الرملية. وتفضيهذه الطريق الى الدلتا الفعلية لوادي « حمضه » الذي يمتد مسافة بعيدة الى الغرب حيث يقع المرتفع المعروف باسم « رأس كركمه » وهو مرتفع يتوجه رأس أصفر اللون . ومن هـذا اللون اكتسب المرتفع اسمه . و « الكركم » باللغة العربية نبات يعطي لوناً اصفر .

***

كنت في هذه الاثنــاء قد اصبحت في نقطة تبعد كثيراً وراء المرتفعات التي زارها موسيل . وقد بدأ العمل يغدو عسيراً بالنظر لأنني لم احضر معي نسخـاً عن مؤلفيْ « ريتشارد بورتون » عن مدين ومياههـا المعدنية . ومما لا شك فيه انه قد زار « أم القرايا » و « الخور » . كما لا بد وان يكون قد زار « مارو » عند رافد وادي « العرجـــا » الذي يعرف باسم « مِسما » ، وكنت لا أعرف شيئاً عن هذه المنطقة !

وأسوأ ما في الأمر اننا قد مررنا ، دون ان ننتبه بـ « طويّل الكبريت » ، وهي احـــدى التلات الكبريتية ، وتقع على مرمى حجر من وادي طويّل . وكان علينا في ذلك الوقت ان نعبر دلتا « حمضة » ، فعبرناها دون ان ندرك انه

على بعد ميلين الى أعلى توجد خرائب معبد « نموذجي » كان بورتون قد زاره ووصفه باسهاب . (وقد عدت لزيارة هذين المكانين بعد ان راجعت مؤلفي بورتون وأنا في طريق عودتي الى مكة) .

ودلتا حمضة كثيرة القنوات ، ويبلغ عرض هذه الدلتا ستة أميال تقريباً ، وفيها مواقع يصبح السير عليها صعباً بالنظر لوجود الرمال الناعمة . وفي الدلتا بئر تعرف باسم « بير القرنا » تبعد حوالي نصف ميل عن النقطة التي دخلناها منها . وكانت الطريق بأسرها مغطاة بأدغال من نبات (الطرفا) وغيره من النباتات البرية ، بينما كان في أسفل الدلتا سهل واسع تنبت فيه أشجار مختلفة كثيرة .

وتتفرع الطريق الجديدة ههنا في نهاية هذا السهل الى فرعين يسيران على التوالي باتجاه جنوبي شرقي مع ميل الى الجهة الجنوبية وباتجاه الجنوب الشرقي . أما الطريق القديمة فتمتد مسافة خمسة عشر ميلاً بانحدار نحو البحر ، ثم تسير على امتداد الشاطىء مسافة ستة أميال قبل ان تنعطف الى الداخل لتلتقي بالطريق الجديدة . والأخيرة هذه أحسن بكثير من القديمة ، ولكنها تصبح صعبة للغاية بعد هطول الامطار ، وخاصة عندما تطفح الوديان التي تقطعها في عدة نقاط ، ويصبح السير فيها أشبه بالمستحيل .

هذا وتلتقي الطريقان في نقطة تقع الى جوار الضفة اليمنى لقناة مهمة تدعى « مِشاش الكلب » تنبع من فجوة في أعلى المرتفع يطلقون عليها اسم « الروضة » . وقد وصلنا الى هناك .

وكنا عند بلوغنا هذه النقطة قد قطعنا مسافة سبعة وثلاثين ميلاً تقريباً ، على الطريق الساحلية ، فآثرنا اتباع الطريق المباشرة بعد الآن . ولقد مرنا طوال ساعة ونصف الساعة حتى وصلنا الى النقطة ذاتها التي ربما كانت تبعد مسافة ثلاثين ميلاً او أقل من ذلك بقليل . ويدعوني الى التقدير حقيقةً ان جهاز قياس المسافات ، وكان متعطلاً ، لم يساعدنا بشيء في معرفة المسافة الحقيقية التي

قطعناها . ولقد عبرنا أثناء سيرنا عدداً من الوديان منها « سُويْلك » و« حيران » وغيرهما ، غير ان دليلنا لم يكن متأكداً من أسمائها ، ولذا كان لزاماً علي ان انتظر حتى رحلاتي القادمة لكي أكوّن فكرة أحسن عن طبيعة سهل « تهامه » المعتمدة .

ومنذ ان تخطينا « مشاش الكلب » صار بوسعنا ان نلقي نظرات خاطفة على البحر ، ولكن في فترات ومراحل متقطعة . فقد كان البحر يبعد عنا مسافة ميلين او ثلاثة ونحن نعبر « شعب الرافع » الذي يمتد مسافة أربعة أميال ، ويشكل رأسه مرسى يصلح للسنابك الصغيرة والسفن الخفيفة الحمولة التي تقلع في البحر الأحمر . ويمتد وادي (شبيرم) حتى ذلك المرسى ليصب فيه .

وبعد ميلين من تلك النقطة وصلنا الى منطقة صخرية غير عادية ، صخورها تشبه الطاولة ، وتقع الى جانب الطريق . ويبلغ ارتفاع تلك الصخور حوالي أربعة أقدام ، أما كيف تشكلت على هذه الصورة فقد تم ذلك اثر أعمال حديثة قطعت فيها الصخور التي كانت فوقها .

وقد تحسنت الطريق بعد هذه النقطة فراحت سيارتنا تنهب الأرض فوق تربة صلبة ممهدة حتى وصلنا الى ساحة أشبه ما تكون بموقف للسيارات ، كانت عبارة عن لسان طويل من الصخر يدعى (حرة القليب) . ويمتد هذا اللسان حتى البحر فوق ارض مرتفعة وجدنا بالقرب منها افراد البعثة المصرية لمكافحة الجراد . وكان هؤلاء منهمكين في نصب خيامهم هناك .

ويدعى هذا اللسان (روضة الحُليْل) ويتشكل من اتصال مصب وادي (عمْك) ومصب وادي (مرخ) . أما الأراضي الصخرية فتقع الى الغرب من طريق السيارات ، وتشكل الضفةَ اليمنى من وادي (المزيهرة) ، الذي دخلنا فيه الآن وبدأنا نصعد باتجاه أقصى نقطة في ضفته القريبة من ساحل البحر . وكانت أشجار الاكاسيا وغيرها من الأشجار النامية في تلك المنطقة من الوادي ، مدعاة سرور لأفراد بعثة مكافحة الجراد وكل عامل ضد هذه الآفة . وهي

(الأشجار) أفضل مشهد للربيع شاهدناه أثناء رحلتنا الطويلة .

وتبلغ المسافة من « مشاش الكلب » الى الضفة اليمنى من الوادي حوالي سبعة عشر ميلاً، في منتصفها بعض التلال الصخرية، اما الطريق فكانت في أسفل الوادي على مسافة ستة أميال . وقد اخترنا الطريق الممتدة بمحاذاة الشاطىء ، وكانت تغلب فيها المناطق الرملية الناعمة ، مما أعاق تقدمنا قليلاً . اذ ارغمتنا هذه الرمال على الانحراف نحو الشاطىء بالقرب من خليج « الدُغم » حيث وجدنا بعض المزارعين وكوخاً أبيض اللون أقامه خفر السواحل على صخرة مرتفعة .

ويمكنني القول بأن الاطار الخارجي لعجلات السيارة ظل الى مسافة لا بأس بها مبتلاً بماء البحر ، بينما كانت العجلات الداخلية تسير على الرمال التي يبللها ماء المد . وقد استمر هذا الحال ، حتى وصلنا الى بساتين نخيل الدغم . إلا اننا قبل ان نصل الى هذه البساتين بعد مسيرة خمسة اميال ، واجهنا مرتفعاً كانت فوقه بعض الآثار البدائية ، مما يدل على ان البدو يقطنون تلك الناحية .

ومن ثم وصلنا الى مشارف بساتين النخيل، وهي بساتين شاسعة ، يسمونها بساتين « الغبايا » . ويُعتقد بأنها كانت موقع المدينة القديمة « لوك كوم » التي كان ميناؤها يقوم في المنطقة المعروفة حالياً باسم « ام لج » على مسافة ثلاثة أميال فقط . وأعتقد ان بورتون هو الذي اطلق الاسم العربي « حورا » على هذه المنطقة ، غير انني ، كما هو الحال بالنسبة لخرائب مدين ، لم أستطع ان اجد أي دليل على هذا الاسم .

هذا وقد توقفنا قليلاً عند بير « العجيوة » لنستقي ماء بالطريقة ذاتها التي يستقي بها أهالي أم لج . وكانت البئر مبنية بناء جيداً ، ولها فتحة تامة الاستدارة تصل المياه العذبة حتى اعلاها ، ويبلغ عمق الماء في البئر ثلاث قامات . ويوجد فوق فتحة البئر بناء من الاسمنت غير مشذب الأطراف .

وبعد ان مررنا بمختلف وحدات سكنٍ تحيط بالواحات ، وصلنا أخيراً الى

ام لج حيث أمضينا تلك الليلة في دار الحكومة ضيوفاً على السلطـات المسؤولة هنـاك .

وكان حاكم أم لج شخصاً يدعى « فهد بن عبد العزيز » ، – من أهـالي قرية « خرومة » في أواسط شبـه الجزيرة العربيـة – مضى عليه وهو في منصبه هذا مدة أربع سنوات . وكنت تعرفت عليه قبل عشرين سنة عندما كان حاكماً لمنطقة « علا » . وقد أكرم وفادتـنا حسب الطريقة المتبعة ، اذ دعـا جميع الموظفين الذين هم تحت امرته ، كما دعا أعيان المدينة ووجوهها ، حتى يتسنى لنا الالتقاء بهم جميعاً أثناء تناول طعام العشاء . وقدم لنا فهد بن عبد العزيز شقة مريحة – وان كانت قد بنيت على الطراز القديم – تقع بالقرب مـن الصخور الواطئة عند البحر ، حيث كنا ننـام على أصوات هدير الأمواج التي تصطرع تحت شقتنـا مباشرة . وقيل بأن المكان قد اكتسب اسمه من هدير الأمواج فاشتق من الفعل « لجّ » ، واللجاج الاتيان بأصوات ، ولو ان الكلمة ذاتهـا – اللُجة – تعني الماء العميق .

وبالقرب من شقتنـا كانت تقوم بضعة اكواخ صغيرة وعدد من الصخور التي تحط عليهـا الطيور البحرية . وبين هذه الطيور التي تقارب الألفي زوج عدد كبير من الطيور المهاجرة من مصر و « ضبه » . أما عدد سكان المنطقة فلا يزيد على سبعة آلاف نسمة بما في ذلك سكان القرى والواحات والبدو .

وكان قاضي المنطقة فلسطيني الأصل من مدينـة نابلس ، هاجر أبوه الى شبه الجزيرة العربية بعيد الحرب العالمية الاولى ، وظل مديراً للمدرسة المحلية عـدة سنوات . أما مدير المالية فشخص يدعى « عبدالله الجليداني » من المدينة . وكان لطيفاً جداً لدرجة انه طاف معي حول المدينة وزار الميناء . وقد لاقت المدينة تحسناً طفيفاً بعد ان شقت فيها شوارع جديدة ، كما ان الميناء قد طرأ عليه تحسن طفيف وانشئت فيه عدة بنايات جديدة أيضاً .

وقد اخبرني مدير المالية بأن الطلب على المساكن كثير جداً ، حتى ان الواحد

من العمال العاديين الذين يعملون في البناء أصبح يتقاضى جنيهاً في اليوم . أما صناعة السفن فقد كانت صناعة اختصت بها المنطقة ، ولذا فان الميناء يبدو دائماً غاصاً بالسنابك . وقد أراني مدير المالية أحد هذه السنابك وهو ما يزال على الشاطىء ولكنه على أتم استعداد للاقلاع في اليم . أما السوق فقد كانت تتموّن باحتياجاتها من السويس وجدة ، ولذلك فهي غاصة بالبضائع .

هذا ويعتبر فحم الخشب من الصادرات الرئيسية لاسواق السويس ، بينما ترسل المحارات والاصداف الى بور سودان حيث ترسل من هناك الى ايطاليا على الغالب .

وهناك تحت الوادي وسلسلة الصخور التي تمتد حتى الميناء فتفصل المدينة عن المنطقة الساحلية ، يقطن عدد من السكان معظمهم من صيادي الأسماك ، وهم يعيشون مع عائلاتهم في مجموعة من الأكواخ .

وبالقرب من البحر يقطن عدد من العشائر منها «الصيادلة» - وهي فخذ من قبيلة جهينة - و « أم الحوت » وغيرها . وقد جرى الحديث في يوم من الأيام حول الاستفادة من مخزون « سمادالطيور » في الجزر القريبة من الشاطىء ، تلك الجزر التي تعتبر اكبرها جزيرة (حسّاني) ، وتبعد مسافة ليست كبيرة عن الشاطىء ، ولا يسكنها الا اسراب كبيرة من الطيور البحرية .

و (ام لجّ) مثلها مثل الوجه) فيها عيادة ومحطة للارسال اللاسلكي ، وفيها كذلك حامية من رجال البوليس يقدّر عددهم بثلاثين شرطياً ، وحرس خاص للأمير مؤلف من ستة عشر دركياً .

واستأنفنا السير في الصباح الباكر من اليوم التالي . وكان أمامنا ان نختار واحدة من طريقين تؤديان الى (ينبع) يقارب طول كل واحدة منها التسعين ميلاً ، وتسير أولاهما بمحاذاة الشاطىء ، بينما تسير الاخرى عبر تلال وارض وعرة. وقد اخترت الطريق الثانية لاعتقادي بأنها لا بد وأن تكون اكثر امتاعاً من الاولى ، ولكي أتجنّب احتمال كون الآخرى طينية في بعض النقاط نتيجة

للأمطار التي هطلت مؤخراً

ومررنا مسرعين بقرى صيـــادي الأسماك التي تقع الى يسارنا ، فوصلنا الى مفترق الطريقين بعد مسيرة أقل من ثلاثـة أميال عبر دلتا وادي (عُمَيْر) العريض . وكنا قد مررنا من قبل بأشجار نخيل الدلتا السالفة الذكر تاركينها الى يميننا ، بعد ان عبرنا منطقة رمالها ناعمة ، قطعنا بعدها مسيل شعب (مُطَّردة). وهو ينحدر عبر شقوق صخرية ضيقة تبعد مسافة خمسة أميال عن (ام لج) . وكانت الصخور المحيطة بطريقنا من الجانبين ممتعة فعلاً ، ولكنها خيَّبت آمالي في امكانية العثور على نقوش .

وفي الحقيقة انني لم اجد شيئاً في طول الطريق الممتدة ما بين وادي الابيض حتى مدْين . وكذلك كان الحال عبر سهل (تهامة) . مع انني كنت آمل ان اجد في هذا الجزء بالذات من شمال شبه الجزيرة العربية نقوشاً ونصوصاً من نوع النقوش السينائية .

ومن حيث ان الطريق الساحلية كانت في جميع الأوقات ، تلعب دوراً مهماً في تجارة وستراتيجية شبه الجزيرة العربية ، فانه من الصعب تفسير التضاد بين الحجارة الصمّاء في السهل ، والصخور الخالية من النقوش في (الِحصمة) . ولعل الذين كانوا يسافرون مع قوافل الجمال وجدوا في الصخور الغرانيتية المنتشرة في تلك المنطقة مادة غير صالحة لكتاباتهم . ومن التفسيرات الممكنة ، ان المسافرين وجدوا مواد أحدث كتبوا عليها ذكرياتهم ، مثل البردي وأوراق الأشجار . وهذه ما كانت لتعمّر طويلاً الا في ظروف استثنائية .

وتبعنا مسيل (مُطَّردة) مصعّدين ثلاثة أميال قبل ان نتركها ، لنمرّ في أحد روافد (مَنصفة) ، فنبلغ اعلاه . ومن ثم انحدرنا لنجد ممراً يُعرف باسم طلعة (سُوَيْلم) – نسبه الى الحاكم الذي انشأ هذا الممر – وهو حاكم نجدي سابق لمنطقة (ام لج) .

وكان هذا الممر هو الصعوبة الوحيدة التي اعترضت سبيلنـا طوال الطريق

الممتدة حوالي تسعين ميلاً من « أم لج » حتى « ينبع » ومع ذلك فلم تكن عقبة لا يمكن تذليلها . والممر عبـــارة عن مضيق صخري ضيق ، يؤدي الى أرض واسعة تكثر فيها الرمال الناعمة حول صخور صوّانية . وتتفرع الطريق عند هذي الصخور لتؤدي الى ممر وعر يقع في أعلى شعب « وَكلة » . وكان « ابن سويلم » قد رصف أرض الممر بالحجارة غير ان كثيراً منها قد أزيل من مكانــه . وكان من جراء ذلك ان امتلأ موضعه بالرمال التي عرقلت سيرنا فترة من الوقت إذ غرزت عجلات السيـارة واضطررنا الى تشغيل أفراد البعثـة في رفعـــها لنواصل السير .

وإذ توجهنا نحو الجنوب الغربي من « وَكلة » دارت بنا الطريق نحو الجنوب الشرقي ، فصمدنا باتجاه « واجد » حيث مررنا بارض فيها رمـــال عميقة . ولم يكن أمامنا من وسيلة نستطيع ان نتغلب بواسطتها على هذه الرمال غـــير مقاومتها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً . وقد طالت بنا المقاومة ، وطال العناء . واستمر ذلك حتى بلغنا ينبع . وهناك نفضت عن نفسي غبـــار السفر وعدت الى جدة .. حيث استقر بي المقام في انتظار رحلة أخرى أكمل بها مــا عجزت عن استيفائه في رحلة « طريق مدين » من معلومات ..

شكر وعرفان

انه الثالث من تشرين الثاني سنة ١٩٥٠ والعشرين من شهر ذي الحجة ، اليوم الذي عقب عيد ميلاد الملك عبد العزيز بن سعود السبعيني بالحساب القمري. وكان الملك هذا العام غير ميال الى معاناة قيظ شهر أيلول في مكة فأناب عنه ولي العهد ليشرف على امر الحجيج في ذلك العام. وكنت قد مكثت في الرياض منذ عودتي من انكلترا في نهاية شهر أيار ولم أغادرها سوى أسبوعين قضيتهما في جدة لقضاء مهمة هناك . ولا بد للمرء ان يعترف بان حياة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز والروتين المطبق في البلاط السعودي في هذه الفترة لم يكن مثيراً، مع ان العالم كان في وضع متوتر جداً بين الشرق والغرب .

كانت الحرب الكورية في ذروتها .. وكان الصينيون قد نجحوا في احتلال التيبت . أما على مقربة من المملكة السعودية فكانت مراجل الشرق الأوسط تغلي وتفور منبئة بالاضطرابات التي ستتلو . كانت فلسطين قد ضاعت بهمة ملوك العرب . وكان جلالته غير مرتاح الى سياسات المساومة في العراق والأردن . كما كان ينظر الى الملك فاروق فيراه غير حكيم في اصراره على ضرورة انسحاب القوات البريطانية من منطقة القنال بتلك الشدة . وكان رد الفعل الذي يشعر

به صاحب الجلالة تجاه هذه القضايا هوذلك الشعور الذي يحسّ به إنسان طاعن في السن يرى نفسه عاجزاً عن تحسين أي وضع منهـا بينما يرى ان علامات ذلـك العالم المنهك حوله آخذة في الاقتراب من نهايتها . وكان الجو العام لا يبعث على السرور . وبوسعي ان أقول بانني طفقت أشعر بالملل من الحياة في الرياض على وتيرة واحدة . ولربما بدا ذلك في هذه المناسبة حين سألني جلالتـه ذات يوم فقال : « ما لك يا فلبي ؟ - هل انت في حاجة الى المال ؟ - اذا كان ذلك فلك ما تشاء .

وأجبته : كلا يا مولاي ليس المال هو ما أبغي، أما اذا سرك ان تعلم ما بودي القيام به فهو ان تسمح لي بجولة في الربع الخالي لأزور منطقة البريمي وعمان .

وقد أجاب صاحب الجلالة مندهشاً :

- « انك لا تستطيع ذلك . إذ سيعتقد البريطانيون انني أرسلتك لتحرك القبائل المتفرقة في تلك المنطقة كما فعلوا يوم رحلتك الى حضرموت . هذا الأمر كلا ، ولك غيره ما تشاء .

وحينئذ وجدتني أجيبه :

- الأمر لك ، ولكنني أرجو ان تسمح لي بان أجوب المنطقة الشمالية من البلاد فأزور خيبر وتيماء وأرض مدين .

وابتسم صاحب الجلالة قائلاً :

- على التأكيـد ، ومتى شئت يا فلبي . ابحث الأمر مع يوسف والآخرين ثم أعلمني عن الوقت الذي تبغي ان ترتحل فيه .

وكنت في الواقع مضطراً للاسراع في قضاء بعض المهام التي تتعلق بشركتي في ذلك الحين . وكانت هذه المهمة تقتضي البقاء في جدة طيلة عشرة أيام .

ولم يكن حتى اليوم الثامن عشر من تشرين الثاني، حين باشرت رحلتي صوب

مدين . وقد طال الأمر فلم تقع باصرتاي على عاصمة الوهابيين بعد ذلك التاريخ حتى الأسبوع الأول من شهر مارس. وقد زودني صاحب الجلالة الملك من كرمه بالف جنيه تكفي لتغطية نفقات الرحلة ، كما تلطف ولي العهـــد الأمير سعود فأهداني منظاره المكبّر ، عند وداعي له عشية سفري .

عندما ذهبت الى شبه الجزيرة العربية سنة ١٩١٧، كانت المعلومات المتوفرة للعالم عن الجزء الشمالي من تلك البلاد ، لا تكاد تتعدى مينـــاء العقير على خليج العرب ، ومدينتي الرياض والمدينة المنورة ، نتيجـــة لرحلات رواد العصر الفيكتوري المشهورين ومن سبقهم في الأجيال الغابرة .

وكانت جميع المعلومات التي توفرت لديهم مسطورة في تلـك القصة الشيقة المسماة : « عبر بلاد العرب » التي نشرها الدكتور د .ج . هوجرث سنة ١٩٠٥. وكان الدكتور هوجرث مصيباً كل الاصابة حـــين أشار الى المناطق التي تكاد تكون مجهولة في البلاد ، إلا ما يُعرف عنها من التجديف والاشاعات . وجميع هذه المناطق تقع الى الجنوب من الخط المشار اليه آنفاً . وباستثناء أطراف تلك المنطقة المجهولة التي يمكن الوصول اليها من البحر ، كانت البقاع الأخرى لا تزال بكراً لم تقع عليها عين انسان إلا أهلها البائسين . ولهذا كانت هــــذه المواقع هدفاً ينشده كل رحالةٍ يطمع في كسب قصب السبق في ارتيادها .

ولم تكد تمضي عشرون عاماً،منذ وطئت قدماي أرض شبه جزيرة العرب ، حتى غدوت في مركز يسمح لي الادعاء بأنني قد زرتها جميعاً ، بل ورسمت عنها خرائط كثيرة ، كما وصفتها بكل تفصيل في أربع مجلدات ضخمة .

وفي هذه الأثناء كانالآخرون قد أغراهم الاتجاه ذاته. وكان ر. ي. تشيزمان أول أوروبي يزور واحـــة « جَبرين » على الطرف الشمالي الأقصى من الربع الخـالي في سنة ١٩٢٣ . بينما كان برترام توماس أول من عبر الصحراء الجنوبية سنة ١٩٣١ من الجنوب الى الشمال . وكان ذلك قبل اجتيازي اياهـا من الشمال

الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب بعام واحد .

وبالاضافة الى هؤلاء كان هناك رجل الماني يدعى «هانز هلفروس» قد سبقني الى زيارة « شبوة » ، بينما كان « فان درمولين » و « فون ويسمان » يقومان بأعمال رائعة في محمية عدن . ولا يجوز ان ننسى ما قامت به « فريه ستارك » ، و « دورين انغرامز » وزوجها في منطقة حضرموت .

ولربما كان الادعـاء بأن اكتشاف المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة العربية قد تم بالطرق القديمة،قبل ظهور السيارات والطائرات التي كشفت عن الغوامض المنفرة فيها ، فيه بعض الجاذبية .. أما الآن فكانت جميع المنطقة مألوفة تماماً لدى موظفي شركة ارامكو للبترول، وفرق مكافحة الجراد أيضاً .

وفي شباط ١٩٥٥ ، وُجّهت اليّ دعوة لقضاء عطلة آخر الاسبوع في قلب الربع الخـالي ، برفقة بعض أصدقائي من موظفي شركة آرامكو الأميركية . وكان أبناء هذا الجيل لم يجتازوا الصحراء ، كما فعل « ولفرد ثيسجر » منذ بضع سنوات خلت . ومن المؤسف حقاً ان هذا الرحالة لم يكتب الشيء الكثير عن عن خبراته وما شهده في هذه الصحاري . ولم يكن وحده مقصراً في ذلك بل يمكن توجيه هذا الانتقـاد الى العديد من المنقبين الأميركيين الذين أجروا اكتشافات أصيلة في كثير من مناطق شبه الجزيرة العربيـة ، إلا انهم آثروا الابتعاد عن الأضواء العامة ، واعتراف العـالم بمساهمتهم الكبيرة نحو المعرفة البشرية . والحق انني كنت ممتناً لهم لأنهم تركوا لشيخوختي بعض المناطق التي لم يطرقوها ، وخصوصاً في تلك البلاد التي كرستُ معظم حياتي من أجلها .

كل هذا من أجل الجنوب ...

ولم أكن بطبيعة الحال قد أهملت الفرص الكثيرة التي عرضت لي خلال ٤٠ عاماً من الاتصال بالصحراء ، بل كثيراً ما انتهزتها للارتحـال صوب الشمال . حيث كان يسرني غاية السرور ان اقارن خبراتي الشخصية بمثيلاتها ، ممـا وقع

لكبار الرحالة السابقين مثل « تشارلز دوتيه » و « ولفرد » والليدي « آن بلانت » و « شارل هوفر » و « ريتشارد بورتون » و « كارلو غورماني » وكثير غيرهم .

كنت في الحقيقة قد تجولت في المنطقة الشمالية بنفس الشمول الذي تجولت به في الجنوب . إلا انه كما كانت منطقة عُمان تمثل فجوة كبيرة في سجل معرفتي الشخصية عن الجنوب ، فقد كان هنالك مثلها فيما يتعلق بالشمال أيضاً . وباستثناء جولة قصيرة في سنة ١٩٣١ ، من المدينة الى « العلا » على طول سكة خط الحديد الحجازي ، وبضع زيارات قمت بها الى مختلف موانىء البحر الأحمر الواقعة الى الشمال من جدة ، فقد كانت المنطقة الممتدة ما بين مدين والعقبة وبين سيف البحر وخط بعيد الى الشرق من سكة حديد الحجاز : كل هذه المنطقة مجهولة لدي تماماً . وهي المنطقة التي سمح لي بالتجول فيها واكتشافها متعقباً في ذلك آثار دوتيه وبورتون ويوتنغ وهوفر وغوسيل والويس موسيل وغرونرز . هذا اذا شئت ألا أذكر لورنس ورفاقه في الحرب العالمية الأولى ، أولئك الذين قاموا بالتنقيب الجغرافي في الفترات الفاصلة ما بين نشاطاتهم التخريبية الكثيرة .

وهكذا تراني أستطيع ان أدعي منصفاً فأزعم انني قد رأيت من هذه المنطقة أكثر من جميع من سبقوني اليها .

لقد كنت أتمتع بحسنات وسائط النقل الحديثة ، بينما كانوا يسافرون على ظهور الجمال ، وينتفعون قليلاً بالسكة الحديدية في حال آخر أربعة منهم . واذا اعتبرنا الرحلة السابقة الى « العلى » يغدو بوسعي ان اقول : لقد قمت بثلاث رحلات في المنطقة ما بين تشرين الأول ١٩٥٠ ومارس ١٩٥٣ . اما المدة التي استغرقتها هذه الرحلات الثلاث فهي قريبة من ستة شهور قضيتها في اكتشاف مضنٍ للسهول والوديان والجبال في أرض أعتق من القِدم نفسه ، أرض كان عصرها الذهبي يعود في تاريخه الى أيام ابراهيم وموسى وسليمان . هذا اذا لم

نقل انه يعود الى أيام نابونيدوس البابلي وكان هذا الملك قد اتخذ واحة تيماء عاصمة صيفية له. وكذلك إذا لم نشأ ان نعيد التاريخ الى اللحيانيين والمينيين وملوك الأنباط الذين حكموا قبائل عاد وثمود على التعاقب ، كما سيطروا على الطريق التجارية العظيمة التي كانت تنتقل توابل « العربية السعيدة » وعطورها عبر ممراتها ، ثم تصب في مراكز الحضارة القديمة .

ولما كانت بعض هذه الحملات قد نفذت الى بعض المناطق المعينة ، فقد حاولت أن أقدم صورة مركبة لأرض مدين رسمتها على أساس المعلومات المتوفرة من رحلاتي جميعاً أكثر منها حسب كل رحلة بمفردها . وكانت نتائج هذه الرحلات لا بد وان تخرج في كتاب تكون نقطة البداية فيه هي الرياض . وهكذا فعلت .

وقد قمت بهذه الرحلات مع رفاق من البدو كان كل همهم كما يتبدى في مساق القصة ، عاملاً ثانوياً . أما في الثلاث رحلات الأخرى فقد كان رفاقي أكثر ذكاء وفطنة . وكان تعاونهم معي في أخذ الصورة العامة عن المنطقة التي زرناها هو ما يجعلني أعترف لهم بكل فضل وامتنان. وأخص منهم ر.ج بوغو من موظفي النقطة الرابعة الأميركية في جدة . وهو عالم جيولوجي ذو خبرة واسعة وشهرة عريضة . وكان بوغو أمريكياً صلباً ولكن قلبه من أرق القلوب .. كان حسن العشرة ولكنه شكس عنيد أحياناً . وقد تعلمت عن هذا الرجل أشياء كثيرة أراني عاجزاً عن إيفائها حقها .

ولربما كان المستر بوغو مديناً لي أيضاً وبشيء لا أظنه قليل الأهمية .. انه حياته . وكان لذلك قصة في موضع آخر .

أما في الرحلتين الأخيرتين فقد رافقني علماء مصريون لطاف الطباع ، كان منهم ابراهيم الكردي الموظف في شركة ماركوني للاشراف على إقامة المحطات اللاسلكية في مكة والمدينة ، ومصطفى صادق ، وهو جيولوجي ذو خبرة كبيرة بشؤون المناجم ومناطق التعدين في بلاده .

وكان تقرير هذا الرجل بخصوص إمكانية العثور على الكبريت وخامات الحديد في مدين ، قد مهد أمامنا الطريق للقيام بالرحلة الأخيرة مع بوغو .

الى هؤلاء الرجال الثلاثة ، والى جميع حكام الولايات والأقضية التي زرتها في هذه الرحلات ، أولئك الرجال الذين كان عطفهم عليّ وتعاونهم معي أعظم من ان أستطيع امتداحه ، يعود الفضل الأكبر في الكمية الضخمة من المعلومات التي أسردها هنا في هذا الكتاب .

أما الآلام والمشقات التي عانيتها طوال رحلاتي في الصحراء العربية ، فاني أرى ذكرها وافياً . وذلك بغية اطلاع القارىء على الحقيقة ، وان كنت أشعر بانني قد تقبلتها بصدر رحب وتناسيتها دون حقد . وخصوصاً عندما أنظر الى ذلك الاعتزاز المشروع الذي أشعر به حينما أتذكر قيامي بهذه المهمات والنتائج القيّمة التي نلتها .

وانه ليؤسفني ان أكون عاجزاً عن تصميم خريطة وافية وقت صدور هـذا المجلد ، ولكنني آمل ان تكون الخريطة الأولية التي رسمتها في نهايته ذات فائدة مـا لأولئك الرحـالة الذين ستظل تجتذبهم الصحراء على مدى العصور . ولن يقع هـذا حسبما يرويه قول مأثور عن الرسول إلا : « حينما تغدو الصحراء العربية أرض المروج والأنهار » .

والسلام ...

اعتـــذار

يؤسفني وقد حاولت طاقتي في تحقيق الاسمـاء الواردة في هذا الكتاب ان يظل بعضها يعاني الخطأ من ناحية لفظه أو املائه ..

فقد كنت اقبل لفظ الدليل الذي يذكر الاسم ، كما يَبين ذلك من اسمـاء كثيرة أوردتها حسب اللفظ،وأما الاملاء ، فان اللغة الانـكليزية بمخارج حروفها المختلفة عن مثيلاتها في العربية ، ولتعذر التفريق بين ذ ، و ض في اسم «ذحكان» مثلاً ، كنت ألجأ الى ما أظنه أقرب الطرق وضوحاً .

وانه ليسعد العلم والمعرفة ان يقوم بخدمتها أيّ كان ، وانه ليسرني ان أجد من يصوّب لي أخطائي الكثيرة .

هذا هو ما يمكن ان يقوله سنت جون فلبي ، بعد الانتهاء من كتابه هذا ..

أمـا المعرب ، فانه يرى نفسه في حيرة تكاد تكون اكثر من حيرة الكاتب نفسه . ولذلك فقد عمدنا الى الأخذ بطريقة الأحوط عندمـا وجدنا ان مصادر مختلفة وكلها عربية ، تورد الاسم بأشكال مختلفة ، مما حدا بنا الى التقيد بالأصل (أعني لفظ الدليل) قدر الامكان .

وهكذا كتبنا : بدعة عوضـاً عن : بدْع

العلا	العلى
ضُبه	ضُبا
المنيفة	المنافة ، وإمالة الالف
المقليـع	(مقلاع) وإمالة الالف
حرة الراحة الرها	الرحا
وادي صدر	سَدر
سورة	صورة

وغير ذلك ، مما يسرنا ان نستقبل له كل تصحيف في اللفظ أو الاداء .

الفهرس

هذا الكتاب

- انها كنوز .. كنوز أثرية ضخمة في بلادنا يقصدها المستشرقون ورجال الاختصاص من غير العرب.. ويدوّنون مشاهداتهم بلغاتهم.. وهكذا تظل آثارنا مجهولة لدى جماهير قرائنا الكرام ..
- ومن هؤلاء الرجال كان « عبدالله فلبي » صاحب المجلدات المعروفة عن تاريخ « جزيرة العرب » و « الوهابيين » و « نجد » و « الربع الخالي » .
- ودون النظر الى ما دار حول مهمّته من « دعاوى سياسية » فان كتابه **« ارض الأنبياء – مدائن صالح »** أثر فريد في نوعه عن المنطقة الشمالية من الحجاز ، بحرّاتها ومفاوزها واثار طرق القوافل فيها ...
- انه يبحث عن مواطن « عاد » و « ثمود » وأين قطن «شعيب» ورعى الغنم « موسى » .
- والكاتب يمتاز بدقة العالم الضليع في وصفه ، وجدّية الرحالة الجوّاب في تصرفاته . وهو لايترك مما قام به في رحلة « مدين » لا صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ، وفي اسلوب طليّ أخاذ . ومن صخرة « ابي الهول » على مقربة من خيبر الى « أبيار شعيب » في « مدين » تجده ينبش كل حادثة تاريخية ، ويشير الى كل دراسة أجريت عن الموضوع .
- ونحن نضع امام القارىء العربي كتاب **« ارض الأنبياء »** راجين ان نكون قدمنا ببعض الواجب الضخم الذي لا نزال ننشده . وهدفنا الخدمة ، وغايتنا كسب الثقة ، فهي مع توفيق الله خير معوان لنا على المضيّ في رسالة « دار النشر » النبيلة .

منشورات المكتبة الاهلية بيروت

الثمن : ٥٠٠ ق . ل .
٦٠٠ ق . س .